

حماية البيئة

تحت إشراف لجنة تخطيط
شماره ثبت ٣٥٧٧٩
١٥٥

من منظور إسلامي
ودور الحسبة في حمايتها

دكتور

إبراهيم محمد عبد الجليل

2011



دار الجامعة الجديدة

٣٨-٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - الإسكندرية

تليفون: ٤٨٦٣٦٢٩ فاكس: ٤٨٥١١٤٣ تليفاكس: ٤٨٦٨٠٩٩

E-mail: darelgamaaelgadida@hotmail.com

www.darggalex.com info@darggalex.com



سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

وهل
تحتاج
حماية البيئة
إلى أكثر من

السلوك الرشيد وفقا للشرع وطلبا للأجر
والإنكار على المخالف؟

وتلك هي الحسبة

الباب الأول

المقاصد الشرعية والأدوات القانونية في حماية البيئة

الفصل الأول : التعريف بمصطلحات عنوان البحث

الفصل الثاني : مقصد حفظ الكون وأثره في الحفظ المطلوب

الفصل الثالث : جدوى الأدوات القانونية الدولية لحماية البيئة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على نعمة الإسلام الذي يهدي إلى الخير والحكمة، وينهي عن المنكر والإفساد، فلا إفراط ولا تفريط، ولا تقتير ولا إسراف بل الوسطية والاعتدال في كل شيء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - إمام المهتدين، والداعي إلى نهج السعادة والإصلاح وطريق الفلاح، وعلى آله الطيبين، الذين سلكوا سبيل الرشاد.

لا شك أن الرسالة الإسلامية باعتبارها خاتمة الرسالات السماوية إلى البشرية كافة، اهتمت بالبيئة اهتماماً كبيراً. لأنها ميراث الأجيال المتلاحقة، إذ أودع الله فيها مقومات الحياة كلها. كما أرسى الإسلام المبادئ التي تقنن علاقة الإنسان ببيئته.

ولسوف تظل أزمة البيئة متوقفة على تصور الإنسان ومعتقداته ومبلغ وعيه ورشده في التعامل معها. فأزمة البيئة أزمة إنسان لا أزمة مكان. والإنسان محور الأزمة وباعث الحل. وإلى جانب الاعتماد على القانون تحتاج مهمة حماية البيئة إلى صحوة الضمير والرقابة الذاتية. والحماية الحقيقية مرهونة بتغير في سلوكيات البشر.

وفي مساهمة لتجلية النظرة الإسلامية إلى البيئة، وإصلاحها، والمحافظة عليها فكرياً وتطبيقاً. يأتي هذا البحث لمحاولة استجلاء طبيعة الدور الذي تقوم به الحسبة أو ما ينبغي لها أن تضطلع به. ومن ثم تكمن أهمية هذه الدراسة (دور الحسبة في حماية البيئة) في أنها لبنة أولى نحاول من خلالها بعث الوعي البيئي الإسلامي. وإبراز أن معضلة البيئة لها في الإسلام حل، والتأكيد على التعاليم الإسلامية الرشيدة في هذا الصدد. إيماناً بأن رعاية البيئة جزء من الدين لا سبيل إلى إنكاره. ورعايتها عبادة، وإهمالها أو العدوان عليها منكر. وكلّ منا

مسئول عن الحد من التلوث أو وقفه : المصانع في مصنعه والمزارع في مزرعته والتاجر في تجارته. كل إنسان مسئول عنها بمفرده ، والأمة مسئولة عنها بالتضامن ، وكلّ مسئول فلا تؤتین من قبله.

وكلمة الدور تصف السلوك المتوقع من شخص ما فى موقف معين. ومكونات هذا الدور ناتجة عن تراكم مجموعة من المعارف والاتجاهات والاعتقادات والمهارات المكتسبة وعادة ما يرتبط دور الفرد بإدوار الأفراد الآخرين. فى تعاون على تعزيز الحق وحماية القيم الثابتة فى المجتمع. ومنها قيم المحافظة على البيئة بإتباع سلوكيات البيئية قويمه . ولا يمكن أن نغرس قيم المحافظة على البيئة فى النفوس ما لم نربطها بالدين . فالإيمان أصل لكل ثمار الخير فما أن يستقر فى القلب حتى ينتج سلوكيات رشيدة . كما أن للقيم الإسلامية أثراً فعالاً على السلوك الاستهلاكي. إذ تدفعه نحو اتخاذ القرار الذى يحقق مقاصد الشريعة الكلية ومنها مقصد حفظ الكون.

والفرد بحاجة إلى تقوية الباعث الداخلى على الإحساس بالمسؤولية ضمناً للتنفيذ. وللوازع الدينى دوره الكبير فى هذا. وهذا ما يحققه مفهوم الحسبة. فهى التى تعطى الفاعلية فى حماية البيئة.

فنظام الحسبة فى الإسلام من أروع النظم فى تاريخ البشرية وأشدّها حفاظاً على المصالح العامة، ومن بينها الحفاظ على البيئة بشقيها المادى والاجتماعى. والحسبة وظيفه اجتماعية لا يستغنى عنها مجتمع يرجو لنفسه الصلاح والكمال . ولا اختيار للعبد فى الأخذ بها أو تركها. لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سنة ماضية وفريضة محكمة ليست راجعة إلى اختيار الناس، بل هي من ضرورات الدين. لا قيام لحياة الناس إلا بها، فليست حقاً مكتسباً كما يزعم دعاة الديمقراطية، بل هي فريضة دينية. وهداية ربانية لهذه الأمة المحمدية.

وعلى العكس نجد برامج الرعاية البيئية الغربية موسومة بالشكلية لا
الريانية في التوجه. لذا ترى ثمارها دون المطلوب. وإن كانت ذات رنين أجوف
وأسماء شتى.

وبالرغم من حدة المشكلات البيئية لم تسفر المؤتمرات العالمية الكثيرة
بشأنها عن شيء ولم تبلغ الرسالة إلى المعنيين بها. وما زالوا يفتقرون إلى الدافع
لأخذ تلك القضايا علي محمل الجد.

ونعتقد أن دور الحسبة هو الناقل إلي هذه الفاعلية الغائبة في المجال البيئي
. وتلك الفاعلية تطالب بها المؤتمرات العالمية للبيئة إذ تؤكد علي ضرورة إحداث
ثورة في النموذج الإرشادي المهيمن إذ ما أريد إنقاذ كوكب الأرض من الفساد
البيئي.

وتنبع أهمية الحسبة من كونها الوسيلة الفعالة لرفع مستويات الأداء التي
تتطلبها عمليات التغيير الجذري. والإصلاح الشامل لتحقيق الحماية المنشودة.
لأن الاعتماد على الإدارة التنفيذية التقليدية أياً كان شكلها لن يحقق الهدف
المنشود. ما لم يشعر القائمون عليها بالاحتساب عند ممارستهم تلك
الاختصاصات.

وهذا البحث ينطلق من اقتناع عميق بأهمية هذا الدور في حماية البيئة
وان ذلك الدور لا يستطيع أن يغنى عنه أي من الأدوار الأخرى أو الوظائف
المتعددة لحماية البيئة. ويمتد هذا الدور من الشخصية الفردية الي الشخصية
الاعتبارية. ومن الأشخاص الي المؤسسات. ومن الفرد إلي الأمة بأسرها.
ويستمد هذا الدور أساسه من معني أن حفظ النفس الفردية يفضي إلي حفظ
الجماعة وإن سلامة البشرية تكمن في سلامة البيئة (.. مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَغْيِرْ نَفْسٍ أَوْ
فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا..)^(١)

^١ سورة المائدة . جزء من الآية ٣٢

ولا يؤكد هذا علي مكانة الحسبة نظرياً. من حيث هي مؤسسة كان لها دور في رعاية المصالح التي تتعلق بالبيئة وحسب. بل يدل على أن لها دوراً أبعد من هذا يشمل جملة من الوقائع العملية، منها: -

١- التدخل في الاختيار بين البدائل. والتبني لما يخدم البيئة في الحياة اليومية. سواء أكان ذلك علي مستوى الفرد أم المؤسسة. فالفرد عندما يختار والمؤسسة عندما تختار أساليب العمل والسلوك البيئي الأقوم إنما يؤديان دورهما يكونان الصحيح في حماية البيئة.

٢- ترتيب المواقف والقرارات. بتقديم ما يلائم الحفظ المطلوب. فالقرار الفردي أو المؤسسي الذي يكفل حماية البيئة يأتي في المرتبة الأولى. وتقدم الأولويات الفردية والمجتمعية المحققة لأهداف الحفظ.

٣- تقويم السياسات حتى تتلاءم مع الدور المطلوب لحماية البيئة.

٤- إدراك هذا الدور يؤدي بالضرورة إلى الحس البيئي في ممارسات الحياة كلها إذ يدرك الفرد وتدرك المؤسسة ما للاحتساب من مردود دنيوي وأخروي.

٥- ويكشف هذا الدور عن الرغبة والاستظهار في العودة إلي الشريعة والاستعانة بأحكامها والاعتزاز والثقة بالدور الديني في الإصلاح والتغيير. وقطع الطريق على صور الفصل بين الديني والدنيوي.

٦- كما يساعد على تقييم الفتاوى في ضوء مقصد حفظ الكون.

٧- هذا الدور يمرر جهود حماية البيئة سواء التشريعية أو الرقابية عبر الضمير الإنساني

وقبل أن أعرض موضوع رسالتي أنوة على أنه قد يلمس أساتذتي الأجلاء أنني خُضت في تفاصيل علمية متخصصة فيما يتعلق ب (الأيزو). وأنظمة الحماية البيئية الأخرى وما كان ذلك إلا :-

أولاً: أن قانون البيئة في ذاته قانون يعتمد علي الأسس العلمية ونتائج الأبحاث المتخصصة ويكفي دلالة علي هذا النظر في ملاحق القانون. وما تضمنته من جداول لحدود الانبعاثات والتلوث.

ثانياً: وهو الأهم أنني أردت أن أصل بقناعه لقارئ مجي أن اختيار نظام الحسبة لم يكن عن جهل بالأنظمة الرقابية الأخرى، وأن أرد زعماً وأنفي باطلاً بأن علم البيئة مستحدث، ولذا حرصت على عرض مؤلفات علمية من التراث في موضوع البيئة .

ثالثاً: أن الاحتساب البيئي فن من فنون الحسبة يتوقف نجاحه على مدى قدرة المحتسب في المزاوجة بين معطيات العلوم الطبيعية والعلوم الشرعية، حتى يكون عمله من الجهاد المقبول اجتماعياً، وبه تكامل المنظومة الرقابية، وتساهم في مواجهة الإفساد البيئي.

وللإيفاء بهذه الأفكار جاءت خطة البحث على النحو الآتي :

قسمنا الرسالة إلى ثلاث أبواب رئيسية، وجعلنا الباب الأول بعنوان . المقاصد الشرعية والأدوات القانونية في حماية البيئة، وفي الفصل الأول كان لا بد من التعريف بمصطلحات عنوان البحث، ثم أردت أن انطلق من قضية كلية فالبحث في الجزئيات لا بد أن تسبقه قضية كلية تكون له أشبه بنموذج أو نظرية، يهتدي بها، ويحكم بها علي تلك الجزئيات، ومن هذا المنطلق نستطيع ان نجعل الفصل الثاني حول موضوع (مقصد حفظ الكون) للوقوف علي ما إذا كانت حماية البيئة من الكليات الكبرى والمقاصد العليا للشرعة مثل (حفظ النفس والنسل والمال ..) أم لا ؟

ثم ننظر في الجهود الدولية، وهل حققت فعلاً هذا الحفظ المطلوب، وذلك تحت عنوان (جدوى الأدوات القانونية الدولية في حفظ البيئة)، ونتناول في هذا المبحث الأيزو ١٤٠٠٠ ثم بورصة الكربون.

ويأتي الباب الثاني بعنوان (مجالات الاحتساب) ويكون علي المنوال الآتي:

- الاحتساب في نشر الوعي البيئي
- الاحتساب في تفعيل القوانين البيئية
- الاحتساب في مواجهة الكوارث البيئية

- الاحتساب في بيئة العمل •
- الاحتساب في البيئة الاجتماعية •
- الاحتساب في طلب العلوم البيئية •

وفي الباب الثالث والذي اخترنا له عنوان (حماية البيئة بين الواقع والمأمول) سوف نتناول التأصيل الشرعي للمبادئ البيئية التي استقر عليها العمل وأكدها الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية، وهي (مبدأ التنمية المستدامة - مبدأ الملوث يدفع - مبدأ الحق في المعرفة - مبدأ الحق في بيئة نظيفة - مبدأ الخيطة - مبدأ العدل البيئي - مبادئ أخرى متفرقة)

ثم نعرض المبدأ الإسلامي العام لإصحاح البيئة، وهو (لا ضرر ولا ضرار)

وفي المبحث الثاني يأتي الكلام عن الحفاظ المطلوب لكل من الهواء والماء والتربة، ثم نختم بمبحث (الجمال معيارية بيئية غائبة) ونلحق ذلك بتوصيات البحث، ونسأل الله التوفيق.

الفصل الأول التعريف بمصطلحات عنوان البحث

التعريف بمصطلحات أى بحث يؤسس قاعدة للفهم المشترك. يمكن الرجوع إليها، والاستناد عليها وعند النظر إلى عنوان هذا البحث (دور الحسبة فى حماية البيئة)، نجد أن بعض المصطلحات تحتاج إلى بيان. وهي (الدور - البيئة - الحسبة)

المبحث الأول مفهوم الدور

الفرد أساس إي مجتمع. ولا يمكن تحقيق الأهداف الاجتماعية إلا بتفاعل الأفراد وتعاونهم ويتوقع المجتمع من كل فرد القيام بدوره للمشاركة في تحقيق تلك الأهداف. ومن المفترض أن يحدد المجتمع لأفراده السلوك المناسب والمتوقع لأداء هذا الدور. في شكل واجبات يلتزم الفرد بأدائها وفقاً لمعايير الأداء المتوقع. ويوفر له البيانات والمساعدات اللازمة للنجاح فى دوره. والذي يترتب عليها نجاح المجتمع ككل.

والدور الأساسى للإنسان في هذه الحياة هو عبادة الله سبحانه وتعالى، وقد بين القرآن الكريم هذا بقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^(١) ومفهوم العبودية هنا شامل لجوانب الحياة كافة، فكما أن أداء ما افترضه الله علينا من صلاة وصيام وزكاة وحج يدل على العبودية، فإن كل ما يفعله الإنسان ضمن التصور الإسلامى للإنسان والكون والحياة ينسجم أيضاً مع مفهوم العبودية، ما دام خالصاً لله، فالدور الرئيس للمسلم وما ينشئه من مؤسسات هو عبادة الله.

¹ سورة الذاريات الآية رقم ٥٦

ويشير مفهوم (الدور) وفق النظرية التي صاغها عالم الاجتماع (جورج ميد) إلى عمل أو وظيفة أو "موقع" يقوم به أفراد المجتمع . ويفرض أنماطاً سلوكية محددة يتوقعها المجتمع عادة من القائمين به ، ويتحدد على أساسها موقعهم الاجتماعي. بغض النظر عن تنوع هذه الأدوار^(١) وأن هناك أدواراً تتعلق بالشأن العام ولها أهميتها في حياة المجتمعات.

ويؤكد عالم الاجتماع (ميد) في نظريته أن الأفراد يجب أن يكونوا مدركين للدور الذي يقومون به بعد تأهيلهم له^(٢) لكن قد يحدث اختلاف بين الدور الفعلي والدور المتوقع. والدور المعياري أي الدور الذي يتوقعه المجتمع . ويتتظر من الفرد القيام به يجب ان يتفق اتفاقاً كبيراً مع دوره الفعلي إن لم يتطابقاً. فالعامل في مصنعه يشغل مكانة اجتماعية معينة ، ويتوقع منه القيام بمجموعة من الأنماط السلوكية تمثل الدور المطلوب منه.

والدور المتوقع من المسلم هو بذل الجهد لرعاية البيئة. لأنها خلق الله وقد أمر بالمحافظة عليها. فهل ذلك الدور المتوقع متفق مع الدور الفعلي الذي يمارسه المسلم فعلاً ؟

وهل عند المسلم تصور واضح للدور المطلوب منه في حفظ البيئة ؟ أم أن هناك غموضاً في تصوره لذلك الدور نتج عن افتقاره للمعلومات اللازمة لأداء دوره . أو لعدم وجود ما يحفزُه للقيام بدوره. فقد يظن المسلم أن دوره محصور في الشعائر التعبدية فقط. فيكون تصوره بذلك مختلف عن الدور المعياري للمسلم.

ومن المؤكد أنّ الوعي بهذا الدور هو المدخل إلى معالجة مختلف إشكاليات حماية البيئة. ولو فهم المسلم أن حماية البيئة أمثال لأمر الله. وباب

^١ د. فوزي خليل، دور أهل الحل والعقد في المنهج الإسلامي - ص ٣٤ الناشر المعهد العالمي للفكر

الإسلامي ١٩٩٦

^٢ د. فوزي خليل المرجع السابق - ص ٤٤.

من أبواب الأجر. لأخذ دوره في المحافظة على بيئته وسلامتها. ونحن نتبع هنا دور الحسبة على المستويين الفردي والمؤسسي، وكيفية توزيع الأدوار بين الفرد والدولة، وسبل التعاون في حماية البيئة.

المبحث الثاني مفهوم البيئة في اللغة والاصطلاح

يُقرُّ الباحثون^(١) بصعوبة تعريف البيئة، لاستخدام هذا المصطلح في شتى مجالات المعرفة حتى قيل إن عبارة البيئة لا تعني شيئاً لأنها كل شيء. ومما يزيد هذه الصعوبة تداخل مجالات المعرفة ذاتها، وقد ساهمت التشريعات في هذه الصعوبة باختلافها في الأخذ بالمفهوم الواسع أو الضيق لتعريف البيئة^(٢) حيث قصرتها بعض التشريعات على الوسط الطبيعي ومكوناته في حين توسعت بعض التشريعات فضمت إلى ذلك البيئة المشيدة. ولعل مرد هذا إلى أن هذه التعريفات مترجمة من تشريعات أجنبية أو اتفاقيات دولية^(٣) بالإضافة إلى غلبة العنصر الفني على العنصر القانوني في صياغة التشريعات، فهي صياغة ممزوجة بين العلوم القانونية ومعطيات العلوم الأخرى، وعلى الرغم من تلك الصعوبات إلا أن هناك تعريفات في اللغة والاصطلاح والتشريعات يمكن الاسترشاد بها لبيان المفهوم.

1 عيد محمد مناحي المنوخ العازمي، رسالة دكتوراه، جامعة الاسكندرية، ص ٣٤.

2 المرجع السابق، هامش، ص ١٦.

3 د. أحمد محمد حشيش: المفهوم القانوني للبيئة في ضوء أسلمة القانون المعاصر، دارالفكر

الجامعي ٢٠٠١، ص ٩.

المطلب الأول مفهوم البيئنة في اللغة

أولاً: المفهوم اللغوي :

تؤكد معاجم اللغة أنها مشتقة من الجذر (بوا) . الذي اشتق منه الفعل (باء) ولهذا الفعل في اللغة معان منها :

١- المنزل أو الموضع ، يقال تبوات منزلاً أي نزلته ، ويوآله منزلاً ويوآه منزلاً: هياًه ومكن له فيه^(١) . ومنه قوله تعالى : (..... وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)^(٣) ، وقوله تعالى : (وَيُوأْكُمُ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا)^(٤) .

٢- الرجوع : ومنه قوله تعالى : (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ)^(٥) أي ترجع بهما بسبب اعتدائك علي .

٣- الاعتراف ، يقال : باء بحقه اعترف به^(٦)

٤- الزواج : ومنه قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : من استطاع منكم الباءة فليتزوج^(٧) .

٥- التساوي والتكافؤ: يقال باء دمه بدمه بواء أي عدله. وفلان بواء فلان أي كفؤه إن قتل به^(٨)

١ لسان العرب ، ابن منظور ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٩٩م

٢ سورة يوسف الآية ٥٦

٣ سورة الحشر الآية ٩

٤ سورة الأعراف الآية ٧٤

٥ سورة المائدة الآية ٢٩

٦ لسان العرب ج ١ ، ص ٥٣١ ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٩٩م

٧ صحيح البخارى حديث ، رقم ٤٦٧٧

٨ لسان العرب ، ج ١ ، ص ٥٣٢

٦- الالتزام: ومنه ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ،
صلي الله عليه وسلم - قال: أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما^(١)
أي التزم أحدهما.

وأشهر هذه المعاني ما كان في أصله اللغوي يرجع إلى الفعل تبوأً
ومضارعه يتبوأ ، بمعنى نزل وأقام. وقد جاء في المعجم الوجيز: بوأ فلان منزلاً ،
بمعنى أنزله. وبوأ المنزل بمعنى أعده ، وتبوأ فلان المكان ، أي نزله وأقام فيه.
وتبوأ منزلًا أي نزلته ، وبوأ الرجل منزلًا ، أي هيأته ومكنت له فيه.
وهكذا ، البيئة تعني في اللغة المنزل ، أو المقام ، وهي ما يحيط بالفرد أو المجتمع ،
ويؤثر فيهما. وبيئة القوم موضع نزولهم من وإد أو سفح جبل. وهي المنزل
الكبير للإنسان الذي يشمل كل ما له علاقة بنشاطه بل بحياته. من موجودات
أرضية وفضائية. سواء أكانت متمثلة في أفراداً وأنواعاً أم فى أنظمة وأوضاعاً .
حتى ليصح القول بأنها كل ما هو خارج عن كيان الإنسان. وكل ما يحيط به من
موجودات. فتشمل الهواء الذى يتنفسه والماء الذى يشربه. والأرض التى يسكن
عليها ويزرعها وما يحيط به من كائنات حية أو جماد.

ولارتباط البيئة بمعنى المنزل أو الدار دلالاته الواضحة ، ولاشك فى أن
مثل هذه الدلالة تعني في أحد جوانبها - تعلق قلب المخلوق بالدار وسكنه
إليها ، ومن هذا المنطلق يتأكد وجوب أن تنال البيئة بمفهومها الشامل عناية الفرد
واهتمامه . كما ينال بيته ومنزله عنايته وحرصه واهتمامه.

أما البيئة في المعاجم الإنجليزية فلها مصطلحان متداخلان هما
(Environment) و (Ecology) (الإيكولوجيا) وكلمة Okologie التى
إقترحها عالم الحيوان الألماني أرنست هيكل (Ernest Haeckel 1869).
وأصل الكلمة من المقطع اليوناني Oikes بمعنى بيت و Logos بمعنى علم.
وبذلك يكون الإيكولوجي علم دراسة أماكن معيشة الكائنات الحية وكل ما
يحيط بها.

^١ صحيح البخارى ، عن عبد الله بن عمر ، الحديث رقم ٥٦٣٩

وقد درجنا في اللغة العربية على إطلاق (علم البيئة)على Ecology
فاختلط مع مفهوم البيئة Environment وأصبح عالم Ecologist وعالم
Environmentist وكأنهما مترادفتان لمجال عمل واحد.

ولكن الواقع يختلف عن ذلك تماماً. فعالم Ecologist يعني بدراسة
الطبيعة وتركيبها ووظيفتها، أي أنه يعني بما يحدد الحياة وكيفية استخدام
الكائنات للعناصر المتاحة. ويدرس علاقة الكائنات الحية بالوسط الذي تعيش
فيه. ويهتم هذا العلم ايضاً بالكائنات الحية وتغذيتها، وطرق معيشتها وتواجدها
في تجمعات. ودراسة العوامل غير الحية مثل خصائص المناخ (الحرارة،
والرطوبة، والإشعاعات، وغازات المياه والهواء) والخصائص الفيزيائية
والكيميائية للأرض والماء والهواء.

وعلم (الايكولوجيا) يدرس الكائنات أينما تعيش . بينما يقتصر علم
البيئة الإنسانية Enviroment على دراسة علاقات الإنسان الطبيعية دون
سواها^(١) ويحاول الإفادة من معلومات من مجالات معرفية مختلفة في السيطرة
على البيئة ، فهو يعني بوقاية المجتمعات من التأثيرات الضارة ، كما يعني بالحفاظ
على البيئة محلياً وعالمياً من الأنشطة البشرية ذات التأثير الضار، وتحسين نوعية
البيئة لتناسب حياة الإنسان^(٢)

ثانياً : مدلول لفظ البيئة في القرآن

على الرغم من أن كلمة بيئة ، لم ترد صراحة في القرآن الكريم ولا في
السنة النبوية المشرفة^(٣) إلا أننا إذا أخذنا مفهوم البيئة من خلال مكوناتها
وعناصرها الأولية: الهواء والماء والتربة. وما تمثله من جبال وهضاب وسهول

¹ إحسان علي محاسنة ، البيئة والصحة العامة ، ص ١٧ ، عمان ، دار الشروق للنشر والتوزيع .

² محمد السيد أرنؤاوط ، الإنسان وتلوث البيئة ، ص ١٨ ، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣ .

³ أحمد حلمي سيف النصر ، الإسلام أسبق التشريعات في حماية البيئة ، دار الخليج للصحافة

والطباعة والنشر ، ص ٩٤

وصخور ومعادن وما عليها من نبات وحيوان وما يحيط بالأرض من غلاف جوي نجد أن البيئة بهذا المفهوم - الأرض ومن عليها وما حولها - قد ورد ذكرها في القرآن الكريم^(١)

ولم يكن تكرار تلك الألفاظ عبثاً، وإنما جاء في كل آية بإشارات خاصة وإجاءات دافعة، ومناسبات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى. وهكذا لو حاولنا تقصي تلك المناسبات التي ذكرت فيها هذه الظواهر والأسرار التي ذكرها الله بشأنها، لَمَّا وسعنا المقام .

إن مفهوم البيئة في الإسلام مفهوم شامل لكل من الأرض والسماء والجبال . وما فيها من مخلوقات، بما فيها الإنسان وما يحيط به من دوافع وعواطف وغرائز. كما يضم كل مخلوقات الله جميعاً.

المطلب الثاني

المفهوم القانوني للبيئة:

أدرك بعض القانونيين أن الفقه القانوني - في هذا الصدد - يعتمد بصفة أساسية على ما يقدمه علماء البيولوجيا والطبيعة من تحديد للبيئة ومكوناتها^(٢) كما لاحظوا تطور لغة القانون بعد الحرب العالمية الثانية. إذ دخلت لغة القانون ألفاظ جديدة. مثل (الأمم المتعدنة)^(٣) و(التقدم) و(الحضارة) و(التطور). مما يعنى أن القانون بات يفكر عالمياً وحضارياً بل أصبح شاغله الأول تحقيق الحضارة والتقدم باعتبارهما ارتقاء حضارياً لا مجرد التأمين التقليدي للعدل والاستقرار والأمن .

¹ محمد السيد أرناؤوط، الإنسان وتلوث البيئة، مصدر سابق، ص ٨٥.

² محمد حسام محمود لطفى، بحث مقدم لمؤتمر الحماية القانونية للبيئة فى مصر الجمعية المصرية

للاقتصاد السياسى، فبراير ١٩٩٢

³ المادة ٣٨ من النظام الاساسى لمحكمة العدل الدولية.

وأرجع بعضهم هذا القصور في التعريف القانوني الدقيق لتلك الألفاظ ومن بينها (البيئة) - إلى الفارق بين دراسة القانون من الناحية الفنية المجردة . ودراسته من خلال علاقته الاجتماعية والأيدلوجية^(١) وربط الدكتور احمد حشيش . بين ذلك وقصور النظرية العامة للقانون ذاته. ومدى عجزها عن تحقيق أول أغراضها. أي تقديم تعريف واضح للقانون. ودعا مع غيره إلى تجديد نظرية القانون العامة. وإلا بقيت ألفاظها - بما فيها (البيئة) صعبة مستعصية على التعريف وبيان مبادئها وتحليلها (٢)

وأكد أن عناصر البيئة مترابطة ترابطاً يبلغ مبلغ الوحدة . حتى أن التعبير القانوني نص علي أن البيئة هي المحيط الحيوي . ويفهم من هذا أنها محيط حيوي واحد لا محيطات حيوية متعددة. لذلك من الأوفق ألا يقال : البيئة الهوائية أو المائية. لأن عناصر البيئة ترابط في وحدة موضوعية وقانونية. لا تقتصر على العناصر الأساسية الأربعة. بل تشمل الوحدات الموضوعية التابعة لها . على أساس أن ما يلتصق بالأرض يتبعها. عملاً بمبدأ الفرع يتبع الأصل. مشيراً إلى أن مبدأ التضامن والتصالح وإن كان هو أساس العلاقة بين عناصر البيئة. فيجب أن تكون حمايتها عن طريق التضامن أيضاً.

ويبدو أقرب للحقيقة العلمية القول بأن البيئة هي مجموع العوامل الطبيعية والبيولوجية والعوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتجاور في توازن. وتؤثر علي الإنسان والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر. وهذا التعريف يلفت النظر إلى أن البيئة اصطلاح ذو مضمون مركب فهناك البيئة الطبيعية بمكوناتها التي أودعها الله فيها وتشمل الماء والهواء والتربة وما يعيش علي تلك العناصر. والمكونات من إنسان ونبات وحيوان . وهناك البيئة المشيدة .

¹ د / مصطفى الجمال ، مناط الإلزام بالأحكام المدينة ، مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية ، حقوق الإسكندرية (١٩٧٤) عدد ٢ ، ص ١٢٣

² د / احمد حشيش. مرجع سابق ، ص ١٢٣

وتشمل كل ما أوجده الإنسان كالمدن والمصانع والعلاقات الإنسانية والاجتماعية التي تدير هذه المنشآت، كالقانون والتنظيمات الإدارية والاقتصادية^(١)

ويرتبط بمفهوم البيئة لفظ التلوث، وهو مصطلح مثير للجدل أيضاً.

مفهوم التلوث: برغم إن التلوث أخطر مهددات البيئة إلا أنه ليس من اليسير تعريفه، وسيمضى وقتاً طويلاً قبل أن نصل إلي تعريف علمي دقيق له، بل أن التعريف العلمي للتلوث يبدو في نظر بعض الباحثين مستحيلاً^(٢)

والمعاجم اللغوية تشير إلى أن التلوث يعني خلط الشيء بما هو خارج عنه، فيقال: لوث الشيء بالشيء خلطه به. ويشير مفهوم التلوث البيئي إلى كل تغير كمي أو كيميائي من مكونات البيئة الحية وغير الحية، لا تستطيع الأنظمة البيئية استيعابه دون أن يختل توازنها

وإذا رجعنا إلى أصل مصطلح التلوث الشائع استخدامه، لوجدناه ترجمة غير دقيقة للمصطلح الإنجليزي (Pollution)، ومضمون هذه الكلمة يشتمل على الملوثات المادية والأشياء الأخرى الدخيلة غير المادية، في حين أن مضمون كلمة التلوث في اللغة مقتصر على الأشياء المادية فقط. بينما الصوت أو الضوضاء، أو الحرارة، أو الضوء، ونحوه لا تُعد أشياء مادية؛ فهي بالتالي لا تُعد من الملوثات. فكلمة التلوث الضوضائي، أو التلوث الحراري المستعملة حالياً لدى البعض، لا تعتبر تلوث بالمفهوم اللغوي^(٣). ورغم أن القانون فضل لفظ التلوث (pollution) على لفظ (الفساد) لكن ما لبث الفقه أن قرر صعوبة واستحالة تعريف التلوث.

¹ أحمد عبد الكريم سلامة قانون حماية البيئة دراسة تأصيلية، دار النهضة العربية، ص ٦٥

² أحمد عبد الكريم سلامة، المرجع السابق، ص ٦٨

³ أستاذ علم التلوث والتسمم البيئي بجامعة طيبة، المدينة المنورة يونيو ٢٠٠٧ مجلة "أهلاً وسهلاً".

حتى لنجد قانون البيئة المصري^(١) تحت عنوان (أحكام عامة) يعرف تلوث الهواء بأنه - كل تغير في خصائص ومواصفات الهواء الطبيعي يترتب عليه خطر علي صحة الإنسان والبيئة سواء كان هذا التلوث ناتجا عن عوامل طبيعية أو نشاط إنساني بما في ذلك الضوضاء - لكن الضوضاء وإن كانت إفسادا للهواء لكنها ليست تغيراً في خصائصه ومواصفاته الطبيعية وبالتالي هي ليست نوعاً من جنس التلوث مما يؤكد أن فكرة الفساد أعم من فكرة التلوث التي لا تستوعب الضوضاء.

وقد عبر القرآن العظيم بلفظ آخر عن الإفساد في قوله تعالى: (... ولا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)^(٢) والعشوهو الفساد في الأرض. أي لا تتجهوا إليه قاصدينه معنين فيه.

كما أن مصطلح "الفساد" الذي استخدمه الإسلام أعم من مصطلح التلوث وأصلح على المواجهة^(٣). فلفظ التلوث غير منضبط مما يسبب في الإخلال بالركن المادي. واللفظ المناسب الشامل لصور الاعتداء على البيئة كافة هو (إفساد البيئة) أو (الأضرار بها). ونهيب بكافة الأوساط العلمية باستخدام أي منها فهما بالطبع أكثر دقة من لفظ التلوث^(٤) خاصة إن لفظ الإفساد ورد في معاجم تخصص في الاصطلاحات البيئية مثل (معجم ALLE DICTIONARY)^(٥) والتي تعبر أن التلوث هو أي إفساد مباشر للخصائص العضوية أو الحرارية أو البيولوجية أو الإشعاعية لأي جزء من البيئة.

¹ المادة الأولى من قانون البيئة المصري.

² سورة البقرة جزء من الآية ٦٠ ووردت في آيات أخرى في: الأعراف ٧٤، وهود ٨٥ والشعراء ١٨٣، والعنكبوت ٣٦

³ د. ليلي بيومي: تلوث البيئة بين العلم والقانون، موقع مفكرة الإسلام

⁴ المستشار أسامة محمد عبد العزيز: نحو سياسة جنائية لحماية البيئة، رسالة دكتوراة جامعة الإسكندرية، ص ١٢٨.

⁵ نحو سياسة جنائية، المرجع السابق، ص ١٢٩

والإفساد لغة: ^(١) إذهاب ما في الشيء من نفع وصلاحية، والفساد خروج الشيء عن حد الاعتدال، ولكل من الفساد والإفساد معناه المادي ومدلوله المعنوي الضمني لسلوك الإنسان في البيئات الاجتماعية، ويتجسد الفساد المعنوي في فقد الإنسان لقدرته علي تحقيق رسالته في هذه الحياة، ولفظ الإفساد يتسع ليشمل تغير الخصائص، أو الإضافة، أو تحريك المواد الموجودة أصلاً في الوسط البيئي لا الإدخال فقط، كما يشمل لفظ الفساد استنزاف موارد البيئة والتبذير في استخدامها ^(٢) والفساد عكس الإعمار، إذ يعني أي عمل يتضمن أو يتسبب في تغيير أو تدمير لطبيعة البيئات الكونية والأنواع الحية التي تعيش فيها، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر.

وقد ترتب علي الأخذ بلفظ التلوث أن ليس كل محرم مجرم، بمعنى: ليس كل ما تحرمه الشريعة من إفساد للبيئة يُجرمه القانون علي اعتبار أن دائرة التحريم أوسع نطاقاً من دائرة التجريم القانوني فما زالت هناك سلوكيات غير قومية لم تطرق إليها القانون بالتجريم، ويبقى للوعظ والإرشاد والاحتساب دوره في تعديل تلك السلوكيات المضرّة بالبيئة.

المبحث الثالث

مفهوم الحسبة

يفترض أن يكون مفهوم الحسبة في الإسلام معروفاً لدى كثير من الناس، وليس هدفنا هنا تفصيل القول في مهمة الحسبة وأدلتها، وأستعراض الآيات والأحاديث وأقوال العلماء وتفاصيل الفرق بين المحتسب الرسمي والمتطوع، والفرق بين الحسبة والقضاء وولاية المظالم، كما درجت على ذلك كتب الحسبة النظرية، إنما هدفنا في هذه الرسالة أن نرسم خطوطاً عامةً لمفهوم الحسبة، وننشئ نوعاً من الترابط بينها وبين واجب الحفاظ على البيئة وحمايتها.

^١ المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، الناشر دار الدعوة ج ٢، ص ٥٨٤

^٢ اد. زكي زكي حسين زيدان، الاضرار البيئية وأثرها على الانسان وكيف عالجها الاسلام، ص ١٩، دار الفكر الجامعي ٢٠٠٤

المطلب الأول

الدلالة اللغوية لمفهوم الحسبة

استعملت بعض الألفاظ في العصر الإسلامي لمعان لم تكن معروفة في العصر الجاهلي. كأن يكون المعنى عاماً في الجاهلية ويخصص في الإسلام. حيث إن اللفظ الواحد قد يتغير مدلوله في عقل السامع بانتقاله من طور إلي آخر^(١) وهو ما سُمّي بالألفاظ الإسلامية.

وكانت العرب في جاهليتها علي إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسكهم^(٢) وقرابينهم. فلما جاء الإسلام حالت أحوال. ونسخت ديانات. وأبطلت أمور. ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلي مواضع أخرى بزيادات وشرائع شرعت. وشرائط شرطت فألغى الآخر الأول.

فالصلاة في اللغة الدعاء ثم نقلها الشارع إلي هذه الأركان المخصوصة بأفعالها وأقوالها. والصوم في اللغة مطلق الإمساك ثم نقل إلي الإمساك المخصوص مع النية. والزكاة معناها اللغوي السخاء ثم خصصت لهذا القدر المفروض في المال والعين.

ولفظ (الحسبة) من الألفاظ التي خصصت في الإسلام. واستعمله الشارع لأكثر مما وضع له لغة. وتغير مدلول الكلمة في الإسلام. حيث لم تكن تعرفها أهل الألسنة قبل الإسلام بمعناها الدلالي وإنما نقل لفظها من معناه اللغوي إلي معناه الشرعي وخصت بعمل عرفت به^(٣)

واشتقاق الحسبة اللغوية كثيرة. وهي بكسر الحاء وتسكين السين، اسم من الاحتساب. كالعدة من الاعتداد. والاحتساب مأخوذ من الحسب،

^١ أحمد أمين. فجر الإسلام، ص ٥٣، الناشر المكتبة المصرية للطباعة والنشر.

^٢ النسك - العبادة، المعجم الوسيط، ص ٩١٩، ج ٢ مرجع سابق

^٣ الشيخ موسى راضى نصار. نظام الحسبة في الإسلام بين التنظير والتطبيق دار الهادي بيروت،

وهو على معان ، منها :

- ١ - العدد والحساب : يقال حسبت الشيء أحسبه حسابا وحسابا ، إذا عدته ^(١) .
ومنه قول الله تعالى (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا) ^(٢) وفي الحديث قال رسول الله (ص) (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) ^(٣) وقال : (إنما الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى) ^(٤)
 - ٢ - الكفاية : يقال احتسب بكذا اكتفى به . ومنه قول الله تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ^(٥) وقوله تعالى (وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) ^(٦)
 - ٣ - الإنكار : فيقال أحتسب عليه : أي أنكر عليه قبيح عمله . وتسمية الإنكار بالاحتساب من قبيل تسمية المسبب بالسبب .
 - ٤ - التدبير فيقال : فلان حسن الحسبة في الأمر أي حسن التدبير له والنظر فيه . وفق القوانين والأنظمة . والمحتسب يقوم بتدبير خاص ، هو تدبير تطبيق الشرع الإسلامي . وهو أحسن وجوه التدبير .
 - ٥ - ومن المجاز يقال : خرجا يحتسبان الأخبار : أي يتعرفانها . واحتسبت ما عند فلان : اختبرته وسبرته .
- ومما سبق يمكن إجمال معاني الحسبة في الآتي :-
- أ (العَدَّ والحساب .
 - ب (طلب الأجر والثواب من الله والاكتفاء به .

^١ انظر : لسان العرب لابن منظور ١٦٤/٣ .

^٢ سورة الأنعام الآية ٩٦

^٣ صحيح البخاري . كتاب الإيمان . باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان ، ص ٣٧ .

^٤ ابن حجر . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٦٣/١ دار الريان للتراث . القاهرة . ١٩٨٨ م .

^٥ سورة آل عمران : الآية ١٧٣ .

^٦ سورة النساء : الآية ٦ .

ج (حسن التدبير في الأمور والنظر في مآلاتها .

د (الإنكار .

هـ (الاختبار والسبر .

المطلب الثاني

التحليل الاصطلاحي للعسبة:

يُعرف (المصطلح) بأنه الكلمة او الكلمات التي يتفق أهل الاختصاص على ضرورتها لأداء مدلول معين في بنية النسق المعرفي المميز لعلم من العلوم . أو ثقافة من الثقافات .

وقيل : هو اتفاق طائفة علي وضع اللفظ بإزاء المعني . أو هو لفظ معين بين قوم معينين اصطلاحوا عليه ^(١) وانتشر بينهم . كإخراج اللفظ من معني لغوي إلي آخر لمناسبة بينهم .

ويكون المصطلح إسلامياً إذا كان مستمداً في لفظه ومعناه من الأصول الإسلامية ، أو لا يتعارض مع الفكر الإسلامي . وقد دعت الحاجة إلي المعني الاصطلاحي مع استفادة العلوم وانتشار الإسلام . ودخول مصطلحات علمية أجنبية الي العربية ^(٢)

والألفاظ تحمل دلالات معينة هي عبارة عن اقترانات بين اللفظ والمعني الذي يدل عليه ، وانتقال الذهن من أحدهما إلي الآخر . وهذا الاقتران هو الذي يطلق عليه اسم الدلالة ، وعندئذ يسمى اللفظ دالاً والمعني مدلولاً . وقيمة الكلمة تتمثل في عطائها الفكري ، وفي تجسيدها للمعني الذي يراد التعبير عنه بها ، ومعلوم أن الكلمات تفقد رصيدها الفكري وتذبل وقد تموت كما يموت كثير من

¹ حسنين محمد تقي . فقه المصطلحات . المصدر : مجلة الفكر الجديد . العدد ١٨ / ٢٠٠٠

² وأوردت لهذه المصطلحات معاجم خاصة ككتاب التعريفات للجرجاني المتوفى ٨٦١ هـ . وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ومفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد الخوارزمي .

الناس، وقد تحميا بعض الكلمات أو المصطلحات وقد تبعت إلى الحياة من جديد^(١).

والإسلام مستهدف من كثير من أعدائه ولعل أخطر ما يواجه الإسلام حالياً، إثارة اللغظ حول ما يمكن ان يقال عنه (المصطلحات) التي بدأت تغزو مجتمعاتنا الإسلامية، وهي كلمات تشبه السموم هدفها تدمير القيم، وقتل الأحكام التي شرعها الله سبحانه وتعالى. لتحدث البلبلة في العقيدة والدين. ومصطلح الحسبة من هذه المصطلحات المستهدفة. لما تمثله من بقظة للأمة ووعيتها بدورها الرقابى.

والحسبة في اصطلاح الفقهاء تطلق ويراد بها معان عدة. تبعاً لتنوع مدلولاتها اللغوية والاختلافات فى النظرة للدور الذي يمكن أن يقوم به المكلف بها داخل المجتمع. كما غلبت علي تعريفات الحسبة مقتضيات الحال في الحياة الاجتماعية^(٢) وقدره الفقيه العلمية علي إخراج النص وتوظيفه في المسائل الفقهية حسب أدلته الشرعية

وعرفها جمهور الفقهاء بأنها أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله^(٣). وأضاف الشيزري^(٤) وابن الأخوة^(٥) في تعريفهما وإصلاح بين الناس.

^١ حسنين محمد تقي. فقه المصطلحات، المرجع السابق.

^٢ فمثلاً فقهاء الإباضية بالمغرب - المعروف عنهم أنهم يأفتون الاقتداء بغيرهم من الفرق - لجشوا إلي وضع اصطلاحات خاصة بهم. كنظام العزابه. والعزابه هي مجالس دينية تؤدي خدمات اجتماعية. مثل هيئة المطوعة في السعوديه أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. التنظير مرجع سابق، ص ٨٢

^٣ الأحكام السلطانية للما وردى، ٢٤٠

^٤ الشيزري هو: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوى الشيزري ت ٥٨٩ هـ له مؤلفات منها: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، والنهج السلوك في سياسة الملوك، والإيضاح في أسرار النكاح وغيرها

^٥ ابن الأخوة هو محمد بن أحمد بن أبي زيد بن الأخوة القرشي ضياء الدين المحدث ٧٢٩ هـ صاحب كتاب معالم القرية في أحكام الحسبة.

ولقد وصفت الحسبة بأنها وظيفة وولاية دينية أو هي علما للاحتساب
وقيل أنها خطة الحسبة أو قاعدة الحسبة وأخيرا مؤسسة الحسبة ولنعرض هنا
جانب من هذه الرؤى لعلها تلقى الضوء علي مصطلح الحسبة
١. الحسبة علماً:

يقول الدكتور محمد كمال الدين إمام : اتجه مصنفو العلوم الإسلامية^(١)
مثل (حاجي خليفة) في كتابه (كشف الظنون) ، والتهانوي في (كشف
اصطلاحات الفنون) إلي جعل الحسبة علماً من العلوم التي ابتكرتها عقول
العرب. وقالوا: هي من فروع علم الحكمة العملية^(٢) أو (علم سياسة إدارة
المدينة) وقيل هو علم يحتاجه الملوك والأمراء. وأهل الاحتساب والقضاة و
العلماء ومن يجري مجراهم ثم سائر الناس. ويقول عنه صاحب كشف الظنون:
"علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد في معاملاتهم التي لا يتم التمدن
بدونها"^(٣)

وإذا أردنا أن نميز موقع علم الاحتساب بين العلوم الإنسانية المعاصرة
فسيكون صورة للتاريخ الاجتماعي. أو صورة مميزة للحياة العامة في الحضارة
الإسلامية^(٤) إذ هو مختص بمعالجة الحياة اليومية بقواعده الإصلاحية وقد ألفت
من أجل ذلك كتب الحسبة العملية لتصبح دليلاً لمن يريد أن يعمل في هذا المجال
الواسع. حتى أصبح بمثابة علم يحتوي على أحكام يتدارسها طلابه كما
يتدارسون أحكام الفقه .

^١ ضم علم تصنيف العلوم خصائص تقاس بها أفضلية العلوم وأنفعها وتكلم في هذا العلم ابن
خلدون وفرق بين علوم تشترك فيها الأمة مع غيرها من الأمم وأخرى لا تشترك فيها لأن لكل أمة
علومها الخاصة بها حسب منهج عقائدها - وهناك القهرس لأبن التلجيم وإحصاء العلوم للفارابي
وكشف الظنون لحاجي خليفة توفي ١٦٥٦م

^٢ التنظير والتطبيق . مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٩٨

^٣ حاجي خليفة . كشف الظنون في معرفة أسامي الكتب والفنون ١/٦٦٥ طبعة دار احياء التراث

العربي . المحقق . محمد شرف الدين .

^٤ التنظير والتطبيق ، مرجع سابق

وهيكل هذا العلم من شقين: أحدهما ديني والآخر اجتماعي. ولتأكيد
الضرورة العلمية له قيل أنه علم من أدق العلوم. لا يدركه إلا من له فهم ثاقب
وحدس صائب. ولا يسند غالباً إلا لمن له قوة روحية مجردة عن الميل والهوى
بشرط الإيمان؛ ليعلم طرق الاحتساب. وما ينبغي فعله حسب عصره؛ إذ
الأشخاص والأزمان والأحوال ليست على وتيرة واحدة. فلا بد لكل واحد من
الأزمان والأحوال سياسة خاصة. وذلك من أصعب الأمور. ومن هنا اشترط
العلماء ضرورة علم المحتسب بالمنكرات التي يحتسب فيها. لذا كان تعلم أحكام
وقفه الحسبة من الأهمية بقدر فرضيتها.

ولا نعرض على كون الحسبة علماً^(١) لكن جوهر الحسبة الذي يستحق
إبرازه هو أنها واجب شرعي

٢- الحسبة ووظيفة وولاية:

الولاية بالفتح المحبة والنصرة. وبالكسر الأمانة والتولية^(٢) والولاية التي
بمعنى السلطة تُشعر بالتدبير والقدرة والفعل، يتولاها من يسوس أمور الناس
بالعدل وينفذ عليهم العقوبات. وولاية الحسبة سلطة خاصة بالأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر بمفهومها العام.

وهذا المعنى هو الذي حدّد مسؤولية الدولة عن الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر. فوضعت له نظاماً معيناً وولاية خاصة هي ولاية الحسبة، يقوم عليها
أشخاص يختارون لها اختياراً دقيقاً وفق شروط واضحة، تشرف عليهم الدولة.
وقد عبر الخليفة المأمون عن وجهه نظر الدولة هذه تعبيراً قوياً وواضحاً
عند محاسبته لأحد الذين تجرءوا على ممارسة الحسبة دون إذن بقوله: (لم تأمر
بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا؟)^(٣) ولتأكيد هذا المعنى يقول أحد

^١ د محمد كمال امام، مرجع سابق

^٢ مختار الصحاح، ص ٤٥٥، طبعة بيروت، تحقيق محمود خاطر

^٣ الغزالي، الإحياء، ص ٢، ص ٣١٧

المستشرقين^(١) : المحتسب موظف معين له منصب ثابت . وكان من جملة أصحاب المخاطبات المعروفة للكتاب وكان يجري مجرى الطبقة الأولى من العمال .

وهذا الوصف يقصر الحسبة علي المحتسب الرسمي المعين . لتغيير المنكر الظاهر . وهي بخلاف ذلك ؛ فالحسبة في الشريعة الإسلامية ذات معنى واسع . لا يقتصر على تغيير المنكر الظاهر ، وإنما تشمل كل ما يفعل ، ويراد به ابتغاء وجه الله تعالى .

وهي في هذا الوصف وظيفة من وظائف الدولة . تمارس بناء على إذن رئيسها وتوجيهه . أو من يخوله لذلك . فلا تصح ممارستها دون إذن منه أو استخدامها لمناوأة الدولة^(٢) بل تصبح الحسبة بهذا الوصف وسيلة رسمية تدافع بها الدولة عن مصالحها وأفكارها وآرائها ويدافع عنها المحتسب باللين تارة وبالشدّة تارة أخرى . ويتبع ذلك التصور لوجود علاقة بين فساد الإدارة في الدولة وفساد المحتسبين .

فالحسبة الرسمية هي التي تخضع لسيادة الدولة الإسلامية . وتعين لها الدولة موظفاً يتولاها كما يقول ابن خلدون : " الحسبة وظيفة وولاية^(٣) دينية يسندها الإمام للمحتسب^(٤) ومعلوم أن الاختصاص الممنوح لولاية معينة بمثابة الحد الذي يمارس فيه القائمون علي هذه الولاية سلطاتهم^(٥) "

^١ - آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة ، بيروت ، ص ٢٨٠

^٢ د. هاشم يحيى الملاح : الحسبة في الحضارة الإسلامية دراسة تاريخية فقهية في الرقابة علي الجودة الشاملة ٢٠٠٧ نشر المنظمة العربية للتنمية الإدارية

^٣ دواوين الدولة الإسلامية هي ولاية الوزارة ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية الحسبة ، فكانت ولاية الحسبة هي الركن الرابع من أركان الدولة الإسلامية ، وهذه الدواوين الأربعة تشمل كل الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية في وضعنا المعاصر .

^٤ المقدمة لابن خلدون ، ٢٤٩ مصدر سابق .

^٥ د. شبل إسماعيل عطية . تطور الحسبة في الشريعة الإسلامية وتطبيقها المعاصرة رسالة دكتوراه اشراف ، د/ صوفي حسن ابو طالب جامعة القاهرة ، ص ١٢٠

وهناك فرق بين ممارسة الحسبة ووجود وظيفة محددة المعالم للمحتسب ؛ فلم تعرف هذه الوظيفة في لقبها الاصطلاحي إلا في عصر متأخر عن عصر الرسول عليه الصلاة والسلام^(١) في حين أن ممارستها العملية بدأت مع البعثة . فالمسار التاريخي للحسبة يدل على أنها كانت في بدايتها واجباً دينياً وأخلاقياً . علي المسلمين كافة القيام به . وما أوردته كتب الحسبة بشأن ممارستها بصيغتها العامة غير المنظمة و الحسبة المنظمة في عمل المحتسب الرسمي أن كلتا الصورتين من صور الحسبة قد استمرت قائمتين في المجتمع الإسلامي^(٢)

إذن هذا الوصف يتعلق بالمحتسب الرسمي وهو بذلك قصر الحسبة على الولاية ولا يُدخِل فيها المحتسب المتطوع الذي يباشر الحسبة دون إذن الوالي . في حين أن المحتسب والمتطوع يستمد كلاهما مسوغ القيام بأمر الحسبة من الشرع الإسلامي ؛ لان المسلم مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . غير أنه في حالة قيام ولي الأمر بتنظيم أمور الحسبة في المجتمع . فإن المعين للحسبة من قبل ولي الأمر يملك من الولاية والصلاحيية في أمور الحسبة أكثر مما يملكه غيره من آحاد المسلمين ؛ لذلك فهو أكثر صلاحية من المتطوع لأنه معين لها . وقائم مقام ولي الأمر في هذا العمل . كما قد ينحصر هذا الأمر في فئة من الناس جبلت أخلاقهم علي ذلك . ويجبون العمل له دون تخصيص من الإمام . لكن كلتا الصورتين لا تمنع الفرد العادي من الحسبة .

والخلاصة أن مفهوم الحسبة في الإسلام واسع . لا يقتصر على الولاية الدينية العامة التي يستند أمرها الإمام إلى بعض الموظفين ، وإنما يتعدى ذلك إلى تلك المؤسسات المدنية التي تقوم برعاية مصالح المجتمع الإسلامي .

^١ سهاه مصطفى أبو زيد ، ص ٤٩ ، حسبة في مصر الإسلامية من الفتح العريى الى نهاية العصر

الملوكى ، الناشر البيئة المصرية العامة للكتاب

^٢ الملاح ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣

٢- الحسبة خطة:

وكلمة خطة على معنيين: خطة (بكسر الخاء). وتعني ما يدبر مكاناً. وهي الأماكن التي يختطها الناس لأنفسهم كالمدن والأحياء. وأشهر ما كتب فيها (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقرئزي) وخطة (بضم الخاء) هي ما يدبر عقلاً. وتعني الحكم والإدارة. وهي خطط الخلافة. وما يتبعها من وظائف تخص ولايات الحكم.

ونؤكد بداية أن تحقيق هذا الوصف يحتاج إلي بحث تاريخي لا ندعيه لكننا نعرض ما وصلت إليه أيدنا بقدر الاستطاعة مع استنتاج ما يفرضه الغرض. فنجد في مقدمة ابن خلدون^(١) قوله: (لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة صار نظره عاماً في أمور السياسة. عند ذلك اندرجت وظيفة الحسبة في وظائف الدولة وأفردت بالولاية). أي أن هذا الوصف نشأ نتيجة تقسيم الاختصاصات إن صح التعبير. بين الخليفة والسلطان. ومعلوم أنه كان لكل إقليم سلطان لكنه يتبع خليفة المسلمين.

فصار هناك من يجعلها تابعة للخلافة كابن خلدون؛ إذ هي عنده من الخطط الدينية المختصة بالخلافة، مثلها مثل وظيفة الصلاة والإفتاء والقضاء فتكون مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة. وهي بذلك تكون حكم تكليفي شأنه شأن الواجبات الأخرى. من الفرائض. واتفق معه في هذا الخوارزمي في مفتاح العلوم^(٢) وهي من خطط الخلافة الإسلامية لما فيها من المصلحة العامة للمسلمين في قيام حكمهم وانبساط نفوذهم. إذ يتنظم بها العدل. ويتحقق في ظلها الأمن والاستقرار^(٣).

^١ مقدمة ابن خلدون، ص ٢١٩ - ٢٢٦

^٢ مفتاح العلوم للخوارزمي، ص ٤ ط/ عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٩٢هـ

^٣ التنظير. الجزء الثاني، ص ٢٢

والنشأة الثانية للوصف (خطة الحسبة) كانت في التنظيم الإداري للحسبة في الأندلس^(١)؛ إذ وزعت اختصاصات المحتسب بين منصبين: الأول منصب خاص يطلق عليه (خطة الحسبة) وتتضمن تنظيم الأسواق، والمنصب الثاني يطلق عليه (تغيير المنكر)

والحقيقة أنه وصف تاريخي تعلق بفترة زمنية معينة، وهو قليل الاستعمال، ولا يلقي بظلال علي الحاضر. لكنني أرت أن أجمله حتى لا يعترض طريق الباحثين في موضوع الحسبة.

د الحسبة قاعدة شرعية:

القاعدة في اللغة الأساس، ومنه قوله سبحانه وتعالى: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت"^(٢) ومن معانيها أيضاً (الضابط)، وهو الأمر الكلي الذي ينطبق على جزئيات. أما القاعدة اصطلاحاً فهي (قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها)^(٣) وتعلق القاعدة بمختلف العلوم؛ فهناك قواعد أصولية وقواعد فقهية ونحوية، وهناك قواعد شرعية وعقلية وقانونية.. الخ. فلكل علم قواعده.

والقواعد الشرعية (أحكام شرعية كلية تنطبق على أحكام فرعية متنوعة). وقد اختلفت أساليب العلماء في تقسيم القواعد الشرعية، لاختلاف موضوعاتها من جهة، وبحسب الحثيات التي نظر إليها في التقسيم من جهة أخرى. ولعل أقدم وأشهر تقسيم لها هو تقسيمها إلى قواعد أصولية وقواعد فقهية، وخص بعضهم القواعد الشرعية الكبرى الخمس، وهي: (الأمور بمقاصدها، والضرر يزال، والمشقة تجلب التيسير، واليقين لا يزول بالشك، والعادة محكمة)، بوصفها القواعد الكبرى، لعمومها وشمولها لغيرها من القواعد الفرعية والأحكام التفصيلية.

^١ التنظيم، ص ٣٤

^٢ سورة البقرة الآية، رقم ١٢٧

^٣ د/ رمضان الشرنباصي، النظريات العامة في الفقه الاسلامي، جامعة الاسكندرية.

وعُدَّت الحسبة قاعدة شرعية ؛ لأنها مستفادة من القرآن والسنة والمصادر الأخرى المعتبرة. فأصلها سمائي وطابعها ديني . وهي قاعدة شرعية لأنها خطاب للمكلفين بالأمر والنهي. متى توافرت فيهم شروط التكليف بالاحتساب كما حددها الفقهاء .

وهي قاعدة سلوك ؛ لكونها تحدد سلوك الفرد . وتحكم واجباته علي نحو ما يجب أن يكون عليه . وتطالب المكلف بأكثر مما تطالب به القاعدة القانونية بحيث تجعله بالعبادة والأخلاق يسمو نحو الكمال والأخلاق الفاضلة

وهي قاعدة ملزمة مقترنة بجزاء دنيوي وآخروي . مما يجعلها واجبة الاحترام . والجزاء الآخروي يضمن العقاب علي المخالفات التي يتعذر إثباتها لكونها خفية لا يمكن ضبطها بمظاهر محددة

ولما كانت الحسبة قاعدة شرعية من قواعد الدين . فقد تولاهم الخلفاء والوزراء بأنفسهم ؛ لعموم صلاحها وجزيل ثوابها^(١) وصيرتها الشريعة وأخذها المصلحون قاعدة عمل منظم لإصلاح مجتمعاتهم.

وقواعد الحسبة العامة قائمة علي رفض الغش والتدليس . وانتهاك المحرمات . وإقرار العدل . تلك القواعد الأساسية للحسبة لكن هناك قواعد لا نهائية عند التطبيق^(٢)

فنظام الحسبة كان له خصائص فاعلة لقواعده الفقهية وأصاله كفلت له الديمومة والاستمرار دون توقف لرسالته الإصلاحية . لكن عندما ضعفت مكانتها في نفوس الناس عامة رئيسهم ومرؤوسهم ولم يعودوا قادرين علي النهوض بمقومات الأمة انحسرت الحسبة^(٣) ومعلوم أنه ليس إذا وقع الإخلال بقاعدة سقط حكمها^(٤)

^١ الماوردى . الأحكام السلطانية . دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ٢٥٨

^٢ د/ خالد خليل الظاهر د/ حسن مصطفى طبرة ، نظام الحسبة - دراسة من الإدارة الاقتصادية للمجتمع العربي الإسلامي - دار الميسرة الأردن ١٩٩٧ م

^٣ الدكتور / محمد أبو الفتح البيانوني . القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامي . سلسلة كتاب الأمة

^٤ الماوردى الأحكام السلطانية ، ص ٣٨٨

ولعل هذا الوصف (بأن الحسبة قاعدة شرعية) أراد ان يؤكد معنى ان قواعد الحسبة وأهدافها ثابتة لثبات قواعد الشريعة ذاتها. لكن قواعد الإدارة الحديثة تتغير تبعا للأنظمة والأحزاب الحاكمة فهو وصف ينفي مقارنتها بالأنظمة الرقابية الجزئية المعاصرة بل يؤكد على تفردا ورقابتها الشاملة.

د. الحسبة مؤسسة:

يقول المستشار طارق البشري⁽¹⁾ أن المجتمع يتكون من وحدات انتماء لا حصر لها. وهي تتنوع من حيث معيار التصنيف. فيكون أساسها الدين أو المذهب أو الملة أو المشرب الثقافي أو اللغة واللهجة. أو يكون أساسها نوع التعليم أو المهنة أو الحرفة. أو الإقليم أو الحي والعشيرة والأسرة. أو غير ذلك مما لا يقع تحت حصر من حيث العدد أو النوع أو معيار التصنيف.

وهي وحدات انتماء جامعة. لكنها ليست بالضرورة وحدات مانعة. وهناك وحدات الانتماء العامة. كوحدة الانتماء الإسلامية العامة باسم الخلافة الإسلامية والتي انفرط عقدها بعد الحرب العالمية الأولى. أذن وحدات الانتماء يمكن أن تتحلل. أو يحل غيرها محلها. ثم أن المؤسسة قوام الجماعة التي تشكل منها أية وحدة انتماء.

والكيان المؤسسي ليس من المحتم أن يقوم علي تنظيم مكتوب كما اعتدنا أخيرا في صياغاتنا المؤسسة لتنظيم الجمعيات والوحدات الاجتماعية. وإنما من الممكن أن تقوم علي أعراف وتقاليد وعادات وعمل وطوائف حرفية فالأساس فكري

- المؤسسة تكوين جمعي ينتظم أو يحيط بجماعة بشرية يربط بينها نوع اجتماع مشترك وتحل به ذات جماعية لدى أفرادها محل ذواتهم الفردية.

¹ المستشار طارق البشري. منحه النظر في النظم السياسية المعاصرة للبلدان الإسلامية الناشئة مركز دراسات العالم الإسلامي سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية

- والمؤسسة تقوم علي روابط مصلحيه. أو تكوين فكري منسجم قادر علي تحقيق هذه الذات الجماعية . وإحلالها في نفوس الأفراد محل ذواتهم الفردية
- والمؤسسة تتوخى تحقيق أهدافها سواء لهذا الجمع المؤسسي نفسه أو جماعة كبرى خارج إطاره.

- وإحلال المؤسسة يؤثر علي الأفكار والمشاعر الاجتماعية المرتبطة بتلك المؤسسة . فمثلا عندما أُلغيت الخلافة الإسلامية كمؤسسة انتماء عامة وهنت ويهنت فكرة الشعور الجمعي بالجماعة الإسلامية. وكذلك نلاحظ ما لحق بروابط القرابة من ضعف لانحصار معني الأسرة كمؤسسة اجتماعية . في معني ضيق (الزوج والزوجة والأولاد) . وافتقاد الطابع المؤسسي للكيانات الأسرية الكبيرة.
ويقول الدكتور كمال إمام لقد دمرت كثير من مؤسسات الانتماء . إما لأن الهيئة الغريبة اقتضت تدميرها . أو لأننا اعتبرناها عقبات في وجه الإصلاح والتجديد.
وتم تأميم مؤسسة الحسبة مخافة رقابتها الشاملة⁽¹⁾

وخلاصة هذه المقدمة . وما أريد أن التقطه منها أن الحسبة من المؤسسات الدينية الاجتماعية التي كانت وما زالت قادرة علي خلق الذات الاجتماعية والضمير المجتمعي . لتكون وسيلة للضبط الاجتماعي العام . وما أشبه هذا بالضبط الذي تمثله الأسرة كمؤسسة علي أفرادها بالرغم من تباعد أماكنهم أحيانا.

وقيام الحسبة بهذا الوصف المؤسسي لا يتطلب قراراً ولا إصداراً تشريعياً بل شعوراً جماعياً بكونها واجباً دينياً.

فالحسبة نشأت مع النصوص الشرعية . وهي تكليف شرعي وليست سياسة شرعية يخير ولي الأمر في إقامتها أو عدم إقامتها . بل علي المسلمين إقامة الحسبة في كل مجتمع إسلامي . وجدت الدولة الإسلامية أو لم توجد . حتى لو

¹ كلمة الدكتور / محمد كمال إمام في مؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث ، الذي عقد في ١٩ - ٢١ يناير ٢٠٠٩ ، بمكتبة الاسكندرية.

خصصت ولاية للحسبة في المجتمع فإن ذلك لا يلغي دور الأفراد في القيام بالأمر الشرعي . وامثالاً للنصوص الموجبة للاحتساب^(١) لقد كانت الحسبة بنياناً شامخاً في الأمة . وكانت لها أدوار لا تنكر في حماية المجتمع وإنكار المنكرات ويمكن التعرف علي ملاحظتها من خلال صلاحيات المحتسب.

المبحث الرابع

صلاحيات المحتسب والهيئات التي تقابل ديوان الحسبة

المطلب الأول

صلاحيات المحتسب في المجتمع الإسلامي

لرسم صورة واضحة لوظيفة المحتسب في المجتمع الإسلامي . نجمل هنا صلاحيات المحتسب . التي أفاضت فيها كتب الفقه وفي المهام التي علي المحتسب القيام بها ، لصيانة المجتمع الإسلامي والحفاظ على الشريعة الإسلامية . والحرص على أن تطبق تعاليمها في مجالات الحياة اليومية كافة .

فيقال تختص الحسبة بالحكم بين الناس في القضايا التي لا تحتاج إلى دعوى وبيانات . ولا تدخل في ولاية القضاء ، فيبحث المحتسب عن المنكرات الظاهرة ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل : إقامة الصلوات ، والمنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المجاهرين بالمعاصي ، ومنع البائعين من الغش والتدليس والتطفيف في المكاييل والموازين ومنع الاحتكار ويتفقد أحوال الصناعات الذين يصنعون الأطعمة

^١ الدكتور / محمد كمال إمام ، ص ٢٦

والملابس والآلات، فيمنعهم من صناعة المحرم على الإطلاق، كآلات الملاهي، وثياب الحرير للرجال، ويمنع من اتخاذ أنواع المنكرات، ويمنع صاحب كل صناعة من الغش في صناعته، ويمنع من إفساد نقود الناس وتغييرها... وغيرها مما يدخل في الإنكار^(١)

ومن مهام المحتسب أيضا أن يشرف على مراقبة الآداب العامة. ويراقب نظافة الأسواق والطرقات. والماء الذي يحمله السقاءون، ومراعاة الرفق بالحيوان ومراقبة المكاييل والموازين وضبط عيارها منعاً للغش، وقد شملت صلاحيات المحتسب المجال الديني المجال الأخلاقي - الاجتماعي ومعامله السادة لعيبيدهم. ووضع الشروط على الحرف التي تتطلب النظافة، وتتصل بالطعام والشراب، كالعجائين والسقائين والجزارين والحلوانيين وغيرهم، على أن يجعل لكل صناعة سوقاً، وأن يجعل على أهل كل صناعة عرفاً من صالح أهلها، خبيراً بصيراً بغشهم وتدليسهم، ومراقبة الأخلاق العامة، كمنع شرب الخمر، ومنع تعرض الرجال للنساء في السوق، وعدم طرح الأقدار على جوانب الطريق، وإرسال الماء من المزاريب إلى الطريق، وعنايته بنظافة الجوامع، وإظهار هيبة الإسلام والرفق بالحيوان، وعدم تسخيره فيما لا يطيق، ويستغفر الناس للجهاد. وذكر محمد ابن الأخوة، صاحب (معالم القرية في مسائل الحسبة) أن المحتسب كان يمتحن الكحّالين قبل أن يأذن لهم بالتصدي لمداواة أعين الناس. والتأكد من نظافة قطعة القماش التي يستعملها القصاب واللبان وصاحب المطعم لمسح يده. وأنها يجب أن تغسل يومياً. كما يوصى بضرورة غسل الأواني المستعملة في بيع الألبان. وغير ذلك كثير مما يطول شرحه.

ولا يخفى أن الحسبة في أي مجال من المجالات المذكورة تستلزم أن يكون المحتسب مختصاً فيه عالماً بما يتعلق به من احتساب؛ فالمحتسب معني بمراقبة جوانب الخلل والقصور. وما ينتج عنهما من أضرار ومفاسد تلحق الناس. ولا يمكنه

^١ ابن القيم. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ص ٢٣٧، مطبعة السنة المحمدية

ذلك دون معرفة كافية بالمجال الذي يحتسب فيه وما يمكن أن يحدث فيه من اختلال . وقد نقلت الكتب التي تحدثت عن الحسبة ما كان يتمتع به جهاز الحسبة من معلومات ومعرفة دقيقة بالمجال الذي يباشر الحسبة فيه . كما تناولت مؤلفات علماء المسلمين في مجال الحسبة التركيب الداخلي للمدن ، من تقسيم للشوارع ، وتوزيع للمنشآت عليها ، والعلاقة بين هذه المنشآت بعضها ببعض ، والشروط الواجب توافرها فيها .

المطلب الثاني

الهيئات الحكومية التي تقابل ديوان الحسبة: (البدائل العصرية وكيف غاب عنها الاحتساب)

من المؤكد أن نظام الحسبة من الأنظمة الإسلامية التي استمرت في الشرق الأوسط منذ العصور الإسلامية الوسطى حتى عصر الحركة الدستورية في الدولة العثمانية وفي المغرب الأقصى إلى يومنا هذا^(١) . غير أن أهمية هذا النظام تضاعفت في العصور المتأخرة . وأهم عمل بدأ عندما بدأت عوامل التأخر تدب في أوصال حضارة الأمة وانحسار سلطان الإسلام .

فكان من الصعب جداً أن تحتضن الدول الصغيرة التي قسمها الاستعمار وحكوماتها الضعيفة مثل تلك الأنظمة المتطورة كنظام الحسبة . فكيف يصح أن يسود نظام متطور في عصور مظلمة كالتى تحياها أمة الإسلام الآن ؟^(٢) وإن كانت ولاية الحسبة قد خلت . واستعيض عنها بإدارات ومصالح حكومية ترعى وظائف الضبط . كجهاز الشرطة والنيابة العامة والنيابة الإدارية . والمحاكم التأديبية والدفاع المدني . وهيئة المواصفات والمقاييس . وأجهزة حماية

¹ التنظير والتطبيق ، ص ٤١٠ ، مرجع سابق

² التنظير والتطبيق (بتصرف) ، ص ٤١٠

المستهلك . وتوسعت الدول في استحداث أجهزة سلبت من ولاية الحسبة اختصاصاتها .

إلا أن الحسب الديني اختفى من ممارسة هذه الوظائف . وأصبح القائمون عليها مجرد موظفين وكان من المفترض أن يكون لدى هؤلاء قدر كاف من المعرفة الشرعية بالمتكررات التي يتعاملون معها ، فالذي ضاع وقدر من المجتمع والحياة هو الدافع الديني والمحرك الإيماني . وهو عنصر أساسي في الاحتساب .

والمحتسب عندما يقوم بالإنكار على المخالف إنما يدخر الأجر عند الله تعالى على كل ما يقوم به من عمل ، وما يلاقيه من نصب وتعيب . فالذي كان يدفعه إلى عمله في المقام الأول واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكثير من هذه الاختصاصات في واقعنا الحالي كأنه لا علاقة لها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إنما هي إدارية بحتة ، وربما كان كثير من أنظمتها مأخوذاً من الأنظمة المستوردة مع أنها بما يدخل في ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الحسبة .

لكن الغرض من السلطة في الإسلام يختلف عنه في القوانين الوضعية والمذاهب الأرسية ، فتلک مقصودها حفظ النظام ، وضبط الناس ، وحفظ الأمن ، ولا زيادة على ذلك . وهذا ما احترز عنه شيخ الإسلام - رحمه الله بقوله (ليس المراد من الشرائع التي أنزلها الله مجرد ضبط العوام ، بل المراد منها الصلاح باطناً وظاهراً)^(١)

ولنا أن تصور الحال لو أن هذه الوظائف نُظر على أنها وظائف دينية احتسابية ، وأنها عملٌ يراد به وجه الله ، كيف سيكون حالها وحال الأمة التي تكون فيها هذه الوظائف جزءاً من ولاية الحسبة؟^(٢) وأصبح عمل القائمين عليها دينياً احتسابياً يقومون به وفق النظم والضوابط الشرعية الفقهية ، لا شك أن هذا سيكون أجدى في المكافحة ، وأردع وأجدر عند الناس . لأنها تصبح واجبا شرعيا .

^١ ابن تيمية . مجموع الفتاوى المجلد الحادى عشر ، ص ٤٠١

^٢ الدكتور / سفر بن عبد الرحمن الحوالي . نظام الحسبة في الإسلام ، موقع الدكتور على الشبكة .

ولا يعنى هذا أنه لا يوجد في هذه الهيئات من هو على خير وصلاح ،
ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب في عمله . فالحمد لله في بعضها
خير كثير، ومقصود الكلام ليس الأفراد، بل أصل الولاية . فهناك فرق بين أن
أشعر أنى أقوم بعمل تحت ولاية شرعية وأنى أمثل الشرع، في حركتى ،
وكلامى ، وفي ذهائى إلى عملى ، وأتقيد في أعمالى كلها بأحكام الشرع ، وبين
أن أشعر أنى مجرد موظف إدارى ، أعمل طبق ما يأتينى من تعليمات ، وأخالف
فيها ولا أرى أننى آثم ، وأزيد عليها ولا أرى أيضاً أننى قمت بما لا يجب .

المبحث الخامس

صيانة الحسبة والمفاهيم المرتبطة بها

المطلب الأول

صيانة الحسبة ودور الشبهات عنها

أراد بعض الباحثين بحسن نية أن يسايروا واقع عصرهم محاولين وضع
تعريفات اصطلاحية عدة. ومن هذه التعريفات قولهم: (يمكن تعريف الحسبة
بأنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. اللذين يتجسدان في العمل الرقابي
التوجيهي الترشيدي للنشاط المجتمعي العام والخاص في المجتمع الإسلامي .
لينسجم مع الأصول المذهبية والقيم الأخلاقية والمعايير الموضوعية من أجل
رفع كفاءة الأداء الذي في إطاره يتحقق السلوك الرشيد الذي يعظم المصلحة
المجتمعة الفردية والجماعية، الحالية والمستقبلية، الدنيوية والأخروية. وهي
مكملة للأعمال الأمنية والقضائية وحلقة من الحلقات الرسمية للتنظيم
المجتمعي (١) .

¹ الأستاذ الدكتور/ صالح صالحى عميد كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير . مكانة مؤسسة
الحسبة في الاقتصاد الإسلامي ودورها في القضاء على الفساد الاقتصادي . جامعة سطيف، الجزائر

ويلاحظ على هذا التعريف رغم الإطالة في الصياغة . وانه ركز على إنها رقابة رسمية . وفي الاتجاه نفسه يأتي تعريف آخر يقول : (إن الحسبة رقابة إدارية تقوم بها الدولة عن طريق موظفين خاصين ، على نشاط الأفراد في مجال الأخلاق والدين ، والاقتصاد ، تحقيقاً للعدل ، والفضيلة ، وفقاً للمبادئ المقررة في الشرع الإسلامي ، وللأعراف المألوفة في كل بيئة وزمن)^(١) وهذا يقصر الحسبة على مجرد رقابة إدارية تقوم بها الدولة على أنشطة الأفراد فحسب ، وهذا مخالف لمفهوم الحسبة الشامل الذي لا يتوقف على رقابة الدولة وإنما يشمل رقابة أفراد المجتمع المسلم للمتكبر والتصدي له ، وأن حماية القيم الإسلامية واجب على كل مسلم بقدر الطاقة ، أما الرقابة الإدارية فهي للمحتسب المكلف فقط.

فقد اختلف هذا التعريف بمستوى معين من مستويات الحسبة بينما هناك مستوى شامل يندرج تحته كل مسلم . إذ هي مسئولية عامة والنبي - صلي الله عليه وسلم - قال : "من رأي" و (من) عامة لكل المسلمين لا لشخص معين ولا حتى لسلطة معينة في الدولة بل السلطات على اختلافها يجب أن تمارس الاحتساب . وهذا ما أكده شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال إنها تشمل الولايات جميعاً فجميع الذين وجميع الولايات هي أمر ونهي^(٢)

ولما كانت هذه نظرة المعاصرين للحسبة . جاء تطبيقها في واقعنا المعاصر مبتسراً مقتصرأ على المخالفات الفردية . ولم تعد تلك الولاية الشاملة وأصبحت في أذهان بعض الناس مقصورة على الشعائر التعبدية والأمر بها وإنكار مخالفتها . ولهذا نجد من يسميها البيئات الدينية^(٣) . واقتصر عمل هيئة الأمر بالمعروف

1 محمد المبارك . الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية ، ص ٧٣ . دار الفكر . دمشق - سوريا .

١٩٩٥ م .

2 قاعدة الحسبة بن تيمية . مجموع الفتاوى . المجلد ٢٨

3 أثر هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكافحة الجريمة بمدينة الرياض رسالة ماجستير

للباحث عبد الله بن رسيدي بن محمد الحوشاني جامعة نايف للعلوم الامنية

والنهي عن المنكر - كنموذج معاصر لنظام الحسبة - علي مجرد المنادة للصلاة.
أما عدا ذلك من منكرات فكأنه ليس من عملها^(١)

ولعل تعريف من قال إن الحسبة هي (فاعلية المجتمع المسلم في القيام بأعمال البر والخير وتغيير المنكر ، وفق السياسة الشرعية ، حماية لمقاصد الشريعة الإسلامية)^(٢) مجرد بناء لغوي وصياغة من تعريف استأذنا الدكتور/ محمد كمال إمام. الذي قال : (والحسبة في تعريف مبدي من وجهة نظرنا هي فاعلية المجتمع في الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله تطبيقاً للشرع الاسلامي)^(٣)

ولا تقتصر هذه الفاعلية على الفرد، وإنما تتعدى إلى الجماعة والدولة، فإذا كان الأمر بالمعروف واجباً على الفرد المسلم، فإنه واجب على الجماعة، أيضاً إذ يتعاون عليه الأفراد. ويتشاورون ؛ فيه لقوله تعالى (وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ^(٤)، وقال تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) ^(٥).

ومن أجل درء الشبهات التي قد تلحق بمصطلح الحسبة . وحتى لا يظن ظانٌ أن غيرها يعني عنها . نعرض هذه المطالب في صيانة الحسبة :-

١- الحسبة والديمقراطية :

يقول المستشار طارق البشري^(٦) إن النظام الديمقراطي الليبرالي الغربي

¹ الشيخ الدكتور / سفر بن عبد الرحمن الحوالي . الرياض

² د. محمد عثمان شبير . إحياء وتطوير مؤسسة الحسبة . مقال منشور في سلسلة كتاب الأمة ١٣٥ / منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية / قطر / ٨٧ / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

³ أصول الحسبة في الاسلام دراسة تأصيلية مقارنة الناشر منشأة المعارف مع ملاحظة تاريخ النشر

١٩٨٦ م

⁴ آل عمران : ١٠٤

⁵ المائدة : ٢

⁶ المستشار البشري . المرجع السابق

ينسجم أكثر ما ينسجم ويكسب استقراره في حالة وجود قوتين سياسيتين فقط :
واحدة في الحكم والثانية في المعارضة، والتغير يحدث بالتبادل بينهما . وقد يحل
حزب ثالث محل إحداهما لكن تبقى الثنائية موجودة وهي نظام الحزبين الكبيرين
المسيطرين ، على الرغم من وجود أحزاب أخرى هامشية .

وتمثل الحسبة جانب المعارضة السياسية في مقابل الحاكم . ويتفق مع
هذا النظر رأى الطهطاوي في كتابه (أقوم المسالك) حين قال : إن البرلمان أو
مجلس الوكلاء كما يسميه وظيفة احتسابية على الدولة والحكام .

ويعبر آخر عن هذا المعنى بقوله : (الحسبة هي الاسم الشرعي لإشراك
الأمة في مبدأ الرقابة والمحاسبة ، ومن المعلوم أن هذا المبدأ هو أحد ركائز ما
يُسمى في هذا العصر بالنظام الديمقراطي ، الذي يقوم في الأصل على مبدأ إشراك
الأمة . لكن الحسبة قد سبقت ما يسمى بالنظام الديمقراطي في محاسنه ، وسَلِمَت
من مساوئيه وتعتبر الحسبة بمعناها العام تجسيداً لمبدأ رقابة الأمة على الحكام^(١) .

٢- الحسبة والضبط الإداري:

لا يوجد نظام علي وجه الأرض يود أن تسوده الفوضى ويعمه
الانحراف . على اختلاف المذاهب والتوجهات السياسية من دولة إلي أخرى ؛ لذا
فإن قدراً كبيراً من الغايات التي وجدت الحسبة لتحقيقها يعد أمراً مشتركاً بين
الأنظمة المعاصرة وإن اختلفت الأساليب في تحقيقه^(٢) . وهذا ما يثبت ويفسر
وجود علاقة بين الحسبة والأنظمة الأخرى .

ويعتبر الضبط الإداري أقرب النظم ملائمة لولاية الحسبة وإن كان -
في النظم الوضعية يقوم علي أساس المحافظة علي النظام العام بمعناه التقليدي

^١ حامد بن عبد الله العلي . الحسبة على الحاكم ووسائلها في الشريعة الإسلامية . ندوة عن الحسبة
ودورها في وقاية وحماية المجتمع . مطبوعات جمعية الإصلاح الاجتماعي الكويت

^٢ د/ شبل إسماعيل عطية . تطور الحسبة في الشريعة الإسلامية وتطبيقاتها المعاصرة . ، ص ١٨١ ،
رسالة دكتوراه اشرف د/ صوفي حسن ابو طالب . جامعة القاهرة .

(الأمن العام والصحة العامة والسكينة العامة) فإن أساس الضبط الإداري الإسلامي هو التضامن في تنفيذ ما أمر الله به . ومنع ما نهى الله عنه بقصد تحقيق المقاصد الشرعية . وهذا يعني أن أهداف الضبط الإداري الإسلامي لا تقتصر علي المحافظة علي الأمن العام والصحة العامة والسكينة العامة . وإنما تتسع لتشمل المحافظة علي الدين والنفس والنسل والعقل والمال باعتبارهما الكليات الخمس التي يحميها الشرع فالضبط في النظم الإسلامية أشمل وأعم من أهداف الضبط في النظام الوضعي^(١)

وهي أشمل وأعم أيضاً لأنها لا تقتصر علي الموظفين المعيّنين رسمياً من قبل الدولة . وإنما يتولاها المتطوعون متى توافرت لهم شروط بيّنها الفقهاء . وكانوا قادرين عليها والمحتسب المتطوع هنا يتصرف بصفته صاحب حق مستمد من مبدأ التضامن . فهو مشارك في السلطة . وله بعض اختصاصات الولاية العامة . فهو إذن يتصرف بولايته المباشرة لا باعتباره عضواً في هيئة يتقيد بأوامر القائمين عليها .

كما تمتد سلطة المحتسب لتشمل الناس جميعاً . فليس للخليفة أو أرباب الولاية امتياز ، وللمحتسب أن يحتسب عليهم جميعاً . ولا يتوقف عمله علي شكوى من المضار بل له أن يتصدى للدعوى و يؤدب . ويزجر المجاهرين بالمعصية . والخارجين علي الآداب الإسلامية التي تصل إلي علمه . فيما لا تدعو الحاجة إلى عرضه علي القضاء .

وتختلف ولاية الحسبة عن النظم المعاصرة القريبة منها أو المتداخلة معها في وظائفها كالقضاء الإداري . والمفوض البرلماني . والنيابة الإدارية والرقابة الإدارية والنيابة العامة . فولاية الحسبة اشمل من هذه النظم المتخصصة . والتي لا يمنع وجودها من إقامة ولاية الحسبة باختصاصاتها الشاملة ، فهي سلطة فعالة في

^١ دكتور/ عبد الرؤوف هاشم بسوي . نظرية الضبط الإداري في النظم الوظيفية المعاصرة والشرعة الإسلامية وفي المعني ذاته دكتور/ السيد عبد العليم أبو زيد رسالة دكتوراه جامعة الأزهر ١٩٧٦

رقابة المشروعية في الأمور الظاهرة . بحيث تنتج الرقابة أثرها في سرعة وسهولة
وسر . توطيداً للنظام العام وتحقيقاً للحريات العامة وحقوق الأفراد.

فلا يحتاجون إلى قيود على عمل القائمين بنظام الضبط ؛ ولا يحتاجون
إلى توسيع صلاحيات إذ المعروف محدد من قبل الشرع ، والمنكر محدد من قبل
الشرع ، وعمل المحتسب محدد من قبل الشرع فلا يجوز تجاوزه أو الانتقاص منه^(١) .
٢. الحسبة ونظام النيابة العامة:

مسئولية النيابة العامة تحريك الدعوى الجنائية نيابة عن المجتمع . في البلاد
التي تأخذ بفكرة الاتهام العام بخلاف نظام الاتهام الفردي الذي يقوم المضار فيه
بالدفاع عن نفسه.

وفكرة النيابة العامة ليست غريبة علي النظم الإسلامية فقد وجدت فيها
وظيفة (والي الجرائم) . وهو الذي يتولي فحص التهم قبل إحالتها للقضاء .
فليس هناك ما يمنع من وجود نظام النيابة العامة مع نظام الحسبة في المجتمعات
الإسلامية فقد اجتمعا في التاريخ الإسلامي عندما كان (والي الجرائم) يمارس
اختصاصه إلى جوار المحتسب وإن كان هناك فوارق بين الوظيفتين^(٢) تتلخص في
الآتي :-

- ١) النيابة العامة لا يقوم باختصاصها إلا أعضاؤها أما الحسبة فهي واجب عام
علي كل مسلم
- ٢) النيابة العامة لا تمارس اختصاصها إلا في مجال الجرائم بصفة عامة أما المحتسب
فمجال اختصاصه المنكرات الظاهرة وإن لم تكن جرائم.
- ٣) ليس المحتسب طرفاً في الخصومة . بل يستطيع أن يحتسب علي السلطة
القضائية نفسها.

^١ عبد الحسيب رضوان ، دراسات في الحسبة من الناحيتين التاريخية والفقهية . القاهرة . المطبعة

الإسلامية الحديثة ، ص ١٣٢ - ١٣٥ .

^٢ الدكتور / محمد كمال إمام . مرجع سابق

والنيابة العامة ليست كذلك وإنما هي طرف فيها . فنظام النيابة العامة لا يمكن أن يقوم بديلاً للحسبة وليس هناك ما يمنع وجودهما معاً في المجتمع الإسلامي .

٤ القضاء الإداري والحسبة

القضاء الإداري يشبه الحسبة^(١) في أن لكليهما حق رقابة الإدارة العامة وإزالة المخالفات . لكن المحتسب يستطيع أن يتصدى من تلقاء نفسه لموضوع اختصاصه . وليس ذلك للقاضي الإداري وإن كان القاضي الإداري يسمع الشهود ويجرى التحقيق . وليس للمحتسب ذلك . لأن مجاله المنكرات الظاهرة فقط .

وهذا يدل على ان القضاء الإداري ليس نظاماً بديلاً عن الحسبة وإنما يعمل في بعض مجاله . لكنه لا يسعى إلى ذات أهدافه . ولا يقوم على نفس أصوله .

نظام الحسبة في الإسلام نسيج وحده لا يشبه أي نظام آخر . حتى النظم الإسلامية من قضاء وولاية المظالم لا تلغيه بل يقوم معها . وهو نظام فريد في بابه لا ينبغي مقارنته بنظم الحياة العصرية

٥ الحسبة ونظام الأيبودسمان Omboudsman أو المفوض البرلماني:

الأيبودسمان كلمة سويدية يراد بها المفوض أو الممثل . وهو شخص مكلف من البرلمان بمراقبة الإدارة والحكومة . وحماية الأفراد وحررياتهم^(٢) . وتطور حتى بات يطلق عليه اسم (حامي المواطن) بمعنى الشخص الذي يلجأ إليه المواطن طالباً حمايته وتدخله إذا ما صادفته مشكلات أو صعوبات مع الحكومة أو الجهات الإدارية .

^١ الحسبة مصطلح من مصطلحات القانون الإداري (دائرة المعارف الإسلامية القاهرة المجلد السابع

١٩٣٣ ، ص ٣٧٩)

^٢ د. ليلي تكلا - نظام الأيبودسمان - المجلة الانجلو مصرية ، ١٩٧٩ ، ص ٢٩ .

وقد أخذت دول كثيرة بأنظمة مشابهة له . واستحدثت فرنسا قانوناً
مشابهاً لنظام الامبودسمان السويدي اسمه الوسيط Lemediatair . لأنه
يتوسط بين البرلمان والحكومة . أو لأنه وسط بين الرقابتين البرلمانية والقضائية ^(١) .
ويتم انتخاب الامبودسمان ، الذي من الممكن أن يكون قاضياً أو
موظفاً أو أستاذاً في القانون ، أربع سنوات ينتخبه ثمانية وأربعون عضواً من
أعضاء البرلمان ^(٢) .

وكان أمبودسمان واحد يمارس الاختصاصات التي أوكلت إليه جميعاً .
فيما يتعلق بالرقابة الإدارية والمحاكم والقوات المسلحة . والآن هم ثلاثة موظفين .
يسمى كل منهم omboudsman . ويقدم الأمبودسمان تقريراً سنوياً إلى
البرلمان يتضمن ما قام به من أعمال خلال تلك السنة . ويتعين نشره علناً .
وللمفوض البرلماني الحق في التدخل من تلقاء نفسه . أو بناء على شكوى يتلقاها
من الأفراد ، أو بأية وسيلة أخرى يعلم من خلالها بوقوع مخالفة كحقه في إجراء
التفتيش الدوري على المؤسسات الإدارية .

كما يملك استدعاء أي موظف واستجوابه فيما ينسب إليه ، وله إقامة
الدعوى على الموظفين المقصرين في أداء واجباتهم . ومطالبتهم بالتعويض لمن
لحقه ضرر من جراء التصرف غير الشرعي للإدارة .

كما يتمتع بصلاحيات توجيه الإدارة إلى وجوب إتباع أسلوب معين في
عملها . تتدارك به خطأها . ولو لم يكن منصوصاً عليه في القانون . إلا أنه يرى
فيه تطبيقاً لمبادئ العدالة وروح القانون . وضماناً لمصلحة الفرد من جهة والمصلحة
العامة ممثلة في الإدارة من جهة أخرى .

^١ د/ مازن ليلوراضي - نظام الامبودسمان ضمانة لحقوق الافراد وحريةهم مجلة القادسية مجلد ٣
عدد ٢ ، ١٩٩٨ ، ص ٢٤٩

^٢ د/ محمد انس قاسم جعفر - نظام الامبودسمان السويدي مقارنا بناظر المظالم والمحاسب في
الاسلام - مجلة العلوم الادارية القاهرة ١٤ لسنة ١٩٧٥ ، ص ٧٨

واختصاص الامبودسمان السويدي في هذا المجال شامل إلا فيما يتعلق بالملك . إذ هو مصون . أما الوزراء فينحصر اختصاصه في تحريك الدعوى بحقهم . أما مساءلتهم فهي من شأن البرلمان . كما يسأل الامبودسمان القضاة عن الأحكام الصادرة خلافاً للقانون إذا كان الإخلال بسوء نية أو كان الخطأ جسيماً وله الالتقاء بالمتهمين والتأكد من عدم مرور وقت طويل على توقيفهم قبل محاكمتهم . وزيارة المحاكم ومكاتب الإدعاء العام .

ويتلقى المفوض البرلماني الموضوع المراد بجنه إما عن طريق شكوى مباشرة من الأفراد ، ولا يشترط في هذه الحالة شكل معين لتلك الشكوى . وتسلم الشكوى إلى مكتب المفوض باليد أو بالبريد وبدون أي رسم . وقد يصل موضوع العمل المراد بجنه الى علم الامبودسمان عن طريق الجولات التفتيشية التي يقوم بها دورياً إلى مختلف الأجهزة الإدارية والمحاكم والقوات المسلحة ليتأكد من قيام العاملين فيها بواجباتهم على الوجه الصحيح ، أو قد يعلم الامبودسمان بتلك المخالفات عن طريق الصحافة . وما تنشره من معلومات يتحقق من صحتها ويمارس اختصاصه في مواجهة المقصرين فيها .

إلا أنه يؤخذ على هذا النظام أن القائم به ليس ملزماً باتخاذ إجراء معين في الشكوى المرفوعة إليه . كما أنه لا يتمتع بسلطة إصدار قرارات ملزمة للإدارة . وغاية الأمر أنه يوجهها إلى أسلوب معين في تعاملها مع الأفراد . ومن خلاله يطلب تعديل أو إلغاء قراراتها ، فسلطته أدبية في هذا الشأن . هذا ويختلف المحتسب عن المفوض البرلماني في النقاط الآتية :

- ١- المفوض البرلماني يعينه البرلمان أو الملك^(١) والمحتسب قد يعينه الخليفة أو يكون فرداً عادياً من المسلمين . يمارس الحسبة امثالاً لوجوبها الشرعي .
- ٢- للمحتسب سلطة تغيير المنكر . وله أن يزجر . ويرفع الضرر . أما المفوض البرلماني فليس له ذلك .

^١ في إنجلترا عندما طبق (نظام الامبودسمان) عينة الملكة وكان يسمى (القومسيير البرلماني)

٣- لا يستطيع المفوض أن يراقب أعمال رئيس الدولة أو الوزراء أو أعضاء البرلمان . بينما هذا مجال اختصاص المحتسب والذي يشمل الحكام والمحكومين .

٦- الحسبة ونظام المدعي العام الاشتراكي :

نشأ هذا النظام في الأصل كوسيلة إدارية للرقابة علي أعمال الإدارة^(١) ونصت المادة ٧٩ من الدستور المصري لعام ١٩٧١ بإنشاء وظيفة المدعي العام الاشتراكي . الذي يختص بمراقبة السلوك الاشتراكي والقومي للموظفين . وإجراء التحقيق قبل رفع الدعوي المختصة بفرض الحراسة ويتولي الإدعاء في قضايا الحراسة أياً كان سببها وإجراء التحقيق السياسي في المسائل المهمة .

ولا توجد أوجه شبه بين نظام الحسبة ونظام المدعي العام . اللهم إلا تلك الشمولية في الاختصاصات ومراقبة المجتمع فئاته ونشاطاته^(٢) وبينهما اختلافات كثيرة . منها :-

١- يمارس نظام الحسبة حتى في مواجهة رئيس الدولة . بينما لا يستطيع نظام المدعي العام مواجهة الرئيس . بل كل عمله من خلاله ولمصلحته .

٢- ليس للمدعي العام اختصاص قضائي بينما المحتسب له ذلك في الدعاوي الظاهرة التي لا تحتاج إلي بينة أو سماع شهود .

٣- نظام الحسبة نظام ديني راسخ . مستمد من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وتأمم الأمة بإلغائه . بينما المدعي العام جهاز وضعي تملك السلطة إلغاءه .

لذلك لا ينبغي أن نتصور أن الوظيفة الاتهامية للنظامين كليهما أو إمكان تصديهما لعملهما بغير حاجة إلي استعداد من ذوي صفة أن ذلك وجهاً للشبه . لأن طبيعتهما مختلفتان تماماً^(٣)

^١ دكتور/ محمد كمال الدين ، مرجع سابق

^٢ المرجع السابق

^٣ المرجع السابق

وأخيراً نعرض لشبهة تعرض لبعض المسلمين وتقعدهم عن رؤية البدائل المطروحة وتمحيصها. حتى البدائل الإسلامية لنظام الحسبة. فمازال البعض يقصر دوره على مجرد الدعوة. على الرغم من ان ثمة فرقاً بين الدعوة والاحتساب^(١)، وإن كان بينهما عموم وخصوص. فالدعوة أعم والاحتساب أخص. الدعوة هي (الحث العام والإرشاد العام على فعل المعروف والتحذير العام عن فعل المنكر إجمالاً). بينما الاحتساب يتعلق بمعروف معين تُترك فيتعلق الأمر بفعله. أو منكر معين ففعل فيتعلق الإنكار بهذا المنكر المعين الذي فعل. فالدعوة أولى درجات الاحتساب. في حين نجد من يقصر الاحتساب عليها. وهذه من الشبهات العصرية.

وبالإمكان القول بأن ركائز الإصلاح والتغيير الإسلامي على ثلاث مراتب. هي: الدعوة والاحتساب والجهاد. وقد انعكس هذا الفهم والتأصيل الفقهي على رؤية الحركات والجماعات والمدارس الإسلامية.

المطلب الثاني

مفاهيم أساسية في موضوع الحسبة:

يجب ألا تشغلنا البنية اللغوية عن التمكين للممارسة العملية للحسبة. لذا نرى وضع مصطلح الحسبة في قالب مفاهيمي أجدى. يعطى تصوراً عاماً لما يجب أن تكون عليه الحسبة في واقعها العملي. وبناء على ما سبق نستخلص المفاهيم المستقرة في موضوع الحسبة. كالآتي:

١. بدأت الحسبة تطوعية:

نشأت الحسبة مع النصوص الشرعية. في ظل الدعوة الإسلامية منذ فجر ظهورها بمكة المكرمة و أول من مارس الحسبة رسول الله، صلى الله عليه

^١ الشيخان - عبدالله الوطبان و يوسف الأحمد. قواعد في الاحتساب. نشر جامع الراجحي بالرياض

وسلم ، فكان يمشي في الأسواق وينهى عن الغش والتطفيف في الكيل والوزن .
وسار على دربه أصحابه وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون .

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وجب على ولاة أمور المسلمين
تعيين من يروه أهلاً للقيام بالحسبة . وإمداده بما يحتاج إليه من الأعوان والوسائل
اللازمة لذلك . ويمنحونه سلطة البحث عن المنكرات في الأسواق والطرق وفي
أماكن تجمعات الناس ؛ فيؤدب مرتكبيها . ويحذرهم من اقترافها ، ويحمل الناس
على المصالح العامة في المدينة . ولا يمنع ذلك من التطوع للحسبة . فعموم الأدلة
التي وردت في شأن الحسبة تؤكد على أن فئات المجتمع المسلم جميعاً مطالبة
بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهناك شواهد شرعية على
مسؤولية فئات المجتمع عن الحسبة ^(١) . والاحتساب بمعناه العام يمكن أن يقوم به
أي فرد ؛ فالإنسان عموماً يمكن أن يمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجعل القيام بالحسبة من بنود
البيعة . مثل . ما فعل مع الأنصار في بيعة العقبة (فعلن عبادة بن الصامت رضي الله
عنه قال : " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط
والمكروه . وأن لا تنازع الأمر أهله ، وأن تقوم بالحق حيث كنا ، ولا نخاف في الله
لومة لائم) ^(٢) وهذا جرير بن عبد الله - رضي الله عنه يقول : بايعتُ رسول
الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم ^(٣)
وينهانا نبينا - عليه الصلاة والسلام - عن التَّعَاوُس عن هذه المهمة العظيمة

^١ د . إسماعيل محمد حنفي . فئات المجتمع ودورها في الحسبة . مقدمة إلى المؤتمر العلمي : الحسبة
مسئولية الجميع مجمع الفقه الإسلامي شبكة المشكاة الإسلامية .

^٢ صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب كيف يبائع الإمام الناس ، الحديث رقم ٧/٩٩ -
١/٢٠٠

^٣ صحيح البخاري ، كتاب الإيمان . باب قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة الحديث

استصغاراً للنفس أو تعظيماً للظلمة أو خشيةً من الفسقة. يقول - عليه الصلاة والسلام - لا يحقرن أحدكم نفسه، قالوا: يا رسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن عليه مقالاً، ثم لا يقول فيه، فيقول الله جل جلاله يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول فإياي كنت أحق أن تخشى^(١)

ويجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - التخاذل أمام الظلمة، وترك أمرهم ونهيهم مهابةً منهم قريناً لضياح الأمة وذهاب شوكتها، واندثار هيبتها، فيقول: (إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودع منهم)^(٢) فإن مجتمع المسلمين كالجسد الواحد في تماسكه يحرص كل جزء منه أو فئة على سلامة البقية.

والحسبة التطوعية - أو غير الرسمية - هي التي طلبتها الشريعة الإسلامية من المكلفين؛ لأن المسلم مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي فرض كفاية. ويطلق الفقهاء على من يقوم بهذه الحسبة اسم (المتطوع) لأنه يقوم بها دون تعيين، ولا تولية من ولي الأمر، وإنما يستند في القيام بها على الواجب الديني الملقى على عاتقه، وهو واجب عام يرتبط بالوسع، ويؤديه كل مسلم حسب طاقته وقدرته، على القادر منه ما لا يجب على العاجز.

لكن تختلف صلاحيات التطوع عن صلاحيات المحتسب المعين؛ لأن المعين يقوم مقام ولي الأمر في هذا العمل، فيجوز له أن يعزّر ويعاقب في المنكرات الظاهرة، بخلاف المتطوع، الذي لا يجوز له أن يعزّر ويعاقب في المنكرات الظاهرة، وإنما له النصيحة والوعظ والحوار والمجادلة وغير ذلك من الوسائل السليمة.

^١ رواه ابن ماجة في كتاب الفتن - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والألباني ٣٦٨/٢.

^٢ أخرجه أحمد في مسنده ١٨٩/٢.

وإذا كان للمحتسب المعين أن يتخذ الأعوان والمساعدين على شئون الحسبة، فإن للمتطوعين وآحاد الناس أن ينظموا أنفسهم ويكوّنوا الجمعيات والمؤسسات الأهلية للقيام بأعمال الحسبة التي تدخل في صلاحياتهم، لقوله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) ^(١). ودلالات الشرع على هذا الأمر عدة وبوجه كثيرة.

ومما يؤكد وجوب الحسبة على أفراد المجتمع وفتاته ما نراه اليوم من فساد منتشر. وتقصير في الواجبات. وجرأة في محاربة دين الله. وإقبال على الحرام.. وإن كان من الحكمة أن يحتسب على كل فئة من كان منها. أو قريباً منها. لأن ذلك أدعى للقبول. فالمحتسب مسلم يسعى لتغيير المنكر وإقامة المعروف وفقاً لمنهج الشريعة إمتثالاً لأمر الله وطلباً لثوابه متولياً ومتطوعاً. والحسبة عمل يقوم به المسلم لتغيير منكر ظاهر أو أمر بمعروف دائر من خلال ولاية رسمية أو جهود تطوعية، وعلى المكلف بها ما ليس على المتطوع ^(٢). فهي عينية في حق المكلف وكفائية في حق المتطوع.

٢- التنظيم لا يدفع أصل التكليف ولا يفي به:

وقد يتبادر إلى أذهان بعض الناس أن القيام بالاحتساب الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعين على فئات من المجتمع دون أخرى، وهذا فهم لاشك قاصر. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة لا تسقط إلا بالأداء، والمسلم مطلوب منه أن يقوم بهذا الواجب على حسب علمه وقدرته. بل التنظيم يثبت التكليف ويقويه، ويساعد على إتقانه واستمراره، ومن هنا نشأ تنظيم الحسبة على الولاية، وجاء في بيان عمل هيئة الأمر بالمعروف في السعودية أن الهيئة أنشئت من غير أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقصوراً عليها.

^١ المائدة الآية رقم ٢

^٢ الماوردي. الاحكام السلطانية، ص ٢٤١

٣- الحسبة مثل أي نظام مر عليها الضعف والقوة:

كانت وظيفة الحسبة الميزان الحساس لعدالة الدولة وصلاحها أو فسادها ، كما كانت أكثر الوظائف اتصالاً بالناس واحتكاكاً بهم وتأثيراً عليهم . وفساد الحكم ينعكس على كل شيء حتى ان كان تعيين أصحاب الوظائف بالرشاوى والمحسوبية انعكس ذلك على الحسبة ؛ ولذلك قيل فى شأن الحسبة: (لما أعرض عنها السلطان وندب لها من هان . وصارت عرضة للتكسب وقبول الرشى لان أمرها وهان على الناس خطرهما)^(١)

ولعل الرواية التاريخية للكاتب جمال الفيطنى^(٢) والتي يحمل عنوانها مفارقة بين الشعار الاسمى (الزنى بركات) و الممارسة الفعلية ؛ فالزنى لقب أطلقه السلطان على موسى بن بركات ليصاحبه مدى حياته . دلالة على ورعه وتقواه . و تغاينه فى خدمة السلطان . وامتناعه عن تولية الحسبة إلا بتدخل علي بن أبى الجود باعتباره شيخاً عارفاً بالأصول و الفروع يمثل السلطة الدينية والصوفية . و كانت تزكية علي بن أبى الجود شهادة كبرى عند تعيين موسى بن بركات والياً للحسبة على القاهرة . و مع ذلك نجد الامتناع الوهمي الذي شاع بين الناس من موسى عن تولي الحسبة . يغطي حقيقة جوهرية . هي أن الزنى بركات اشترى هذا المنصب بثلاثة آلاف دينار رشوة بعد أن تدخل له أحد الأمراء عند السلطان . وبالتالي ، فكل أعماله الدالة فى الظاهر على الخير . كتعليق القوانين و تسمير البضائع ، والضرب على يد المحتكرين والوسطاء و إزالة الضرائب و تثبيت الاستقرار و الأمن وكل يزين صورته بين الناس حتى اعتبر شخصية أسطورية مثالية خارقة ، انقلبت إلى الشر و الظلم و إيذاء الرعية و تخريب بيوت الأبرياء و تعذيب الفلاحين و نشر الرعب و الخوف بين الناس بجهازه الخطير فى البصاصة . و قمع المثقفين الذى يمثلهم فى الرواية (سعيد الجهيني) أى أن الزنى

^١ الماوردى الاحكام السلطانية ، ص ٢٨٨

^٢ جمال الفيطنى: الزنى بركات، دار الشروق، القاهرة، مصر، بيروت، القاهرة ط١ ، ١٩٨٩

كان يتظاهر لا أكثر بإصلاح المجتمع^(١) . وكان جمال الغيطاني اختار تلك البنية الدلالية لإدانة فساد عصره^(٢)

٤- قاعدتها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

من هذا المبدأ العظيم (مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) انبثقت في الدولة الإسلامية (ولاية الحسبة) ، لتكون تطبيقاً عملياً لهذا المبدأ. ومن هنا يأتي التداخل بين مفهوم الحسبة وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فما هي طبيعة هذا التداخل ؟

يلاحظ من تعريفات الفقهاء لمصطلح الحسبة التطابق بينه وبين قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أمر إلهي عام ورد في الشرائع السماوية كلها وبه جاء المرسلون جميعاً. ولما كان الأمر والنهي عامان في كل مجتمع . وفي كل تشريع إلهي . تصور كثير من الناس أن الحسبة ترادف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كما ذكر المفسرون في بيان قول الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)^(٣) فهذه الآية دلت على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة . وقد نزلت الآية في بني إسرائيل لأنهم كانوا يقتلون من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ومن ثم يمكن القول بأن العلاقة بين هذا المبدأ والحسبة علاقة عموم وخصوص ؛ فالحسبة قد تكون قائمة ولا وجود للمنكر أما النهي عن المنكر ، فلا يكون إلا على أثر منكر واقع أو متوقع.

^١ د. جميل حمداوي . الزيني بركات لجمال الغيطاني : بين التخيل التاريخي والتأصيل التراثي - مجلة أفق الثقافية . المغرب

^٢ د. سامية أحمد (عندما يكتب الروائي التاريخ) مجلة فصول ، مصر ، المجلد ٢ ، العدد ٢ ،

سنة ١٩٨٢ ، ص : ٦٨

^٣ سورة ال عمران الآية ٢١

وفى ضوء هذا التوجيه القرآني تعد فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أصلاً شرعياً له تطبيقاته المختلفة ، بحيث لا يصبح إغفاله مخالفة دينية فحسب ، بل ينهى حيوية المجتمع الإسلامي ، وفاعلية الفرد المسلم ، باعتباره مسئولاً مسئولية فردية أمام الله عن القيام بواجبه الديني والخلقي والاجتماعي في أن يصبح جهاز رقابة ، ذا فاعلية خاصة ، والحسبة تبرز أهمية المسئولية الفردية ومكانتها في تطبيق قواعد الشرع الإسلامي ، فالفرد هنا مسئول مسئولية مزدوجة.

لكن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام مبدأ له ملامح تميزه⁽¹⁾ عن نظائره في الأمم السابقة . ويختلف الإسلام عن غيره في هذا الصدد بأمرين:

١- أن الإسلام يأمر بكل معروف وينهى عن كل منكر . بخلاف سائر الأمم التي لم يشمل النهي فيها كل منكر . ولم تأمر بكل معروف . ومن هذا أستجج ابن تيمية أن إجماع الأمة حجة . وما لم تأمر به الأمة فليس بمعروف . وما لم تنه عنه فليس بمنكر .

٢- أن الإسلام جعل من هذا المبدأ نظاماً شرعياً له تطبيقاته المختلفة . بحيث لم يصبح إغفاله مخالفة دينية وحسب بل ينهى - كما قلنا - حيوية المجتمع الإسلامي وفاعلية الفرد المسلم .

فعللاقة الحسبة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندنا علاقة المبدأ بأحد تطبيقاته . والأصل بفرع من فروع . وينبغي علي ذلك (أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل إلهي عام واجب القيام به . سواء وجدت الحسبة باعتبارها تنظيمياً أو لم توجد . وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل له فروع كثيرة من بينها الحسبة)

¹ د . محمد كمال امام . مرجع سابق

وأراد الأمويون إبعاد الناس عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما ينطوي عليه من قواعد دينية . فأبدلوا اسم المحتسب بعريف السوق أو صاحب السوق حتى يتخلصوا من تبعه الحسبة بمعناها الاصطلاحي . وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي صيرته الشريعة من قواعد الدين وألزمت المسلمين جميعاً بأدائه . فكانت غاية الأمويين أبعاد الناس عن الالتزام بمثل هذا المبدأ الذي يحذر من تصرفات الولاة . ويحجب ثقة المسلمين عنهم . ولذلك عطلوا هذا الربط بين الحسبة والأمر بالمعروف^(١) .

فالحسبة تتحرك علي رقعة واحدة هي المنكرات الظاهرة . وما ارتكب وانتهى أمره من المنكرات فلا سبيل للاحتساب فيه . بل يمكن استعداء أولي الأمر فقط . والحسبة نظام يقوم إلي جواره نظائر كثيرة لكنه ذو ملامح فارقة بينه وبين غيره من التطبيقات . بحيث تقوم وتبرز كنظام " خاص " لا نظيره في النظم السابقة واللاحقة^(٢) لكن تعد أدلة وجوب مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أدلة للحسبة .

٤ تشمل العمل الصالح والإتكار:

الإحتساب هو استحضار النية قبل العمل أو في أثناءه ، واستحضار عظمة الله تعالى وأنه ناظر إليك والمؤمن يستطيع أن يجعل لكل ثانية من عمره ثواب . فكم من ثانية تمر بنا و نتكبد فيها مشاققة يضيع علينا ثوابها لأننا لم نحسب أجرها عند الله ، لجهلنا بأهمية الإحتساب أو عبادة الإحتساب .

ونستطيع أن نحول العادات إلى عبادات ونخرج من العمل الواحد بالكثير من النوايا الصالحة لنؤجر عليها بإذن الله . كل هذا باحتساب الأجر عند الله وقد ورد في الأثر (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل)^(٣) وفي الحديث : (لا

^١ التنظير . ص ٢٨٢ . مرجع سابق

^٢ الدكتور / امام ص ٢١

^٣ الأصفهاني . حلية الأولياء : ٧٠ / ٣

عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له^(١) . وحديث (إنما الأعمال بالنيات) . و (يبعث الناس علي نياتهم) . و (يلبغ المرء بنته مالا يبلغه بعمله) . وقال أحد السلف: إنني لأحسب نومتي كما أحسب قومتي . فصالح القلب بصالح العمل وصلاح العمل بصلاح النية^(٢) ورب عمل صغير تعظمه النية .
وما سبق تتضح أن المعنى الاصطلاحي للحسبة لا يقتصر على تغير المنكر الظاهر . وإنما يشمل كل ما يفعل ويراد به انتغاء مرضاة الله تعالى .

هذه هي فريضة الحسبة التي غابت اليوم عن مجتمعات المسلمين . ولعلنا بعد هذه الرحلة مع موضوع الحسبة نستطيع ان نضع صياغة تقترب أكثر من جانب الحسبة العملية وتلائم موضوعنا وما سبق توضيحه . فنقول إن الحسبة هي :-

(السلوك الرشيد وفقاً للشرع وطلباً للأجر والإنكار على المخالف)

ولسوف يتضح جلياً خلال هذا البحث أنها سبيل الرشاد لعلاج مشكلات البيئة في مقابل طريق الغي (.. قد تبين الرشد من الغي)^(٣) وسوف يتأكد للمنتصفين ان النظم الرقابية الأخرى تدعى سبيل الرشاد كادعاء فرعون (.. مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)^(٤)

وبعد التعريف بمصطلحات عنوان بحثنا نريد أن نتطرق من قضية كلية فالبحث في الجزئيات لابد ان تسبقه قضية كلية تكون له أشبه بنموذج أو نظرية يهتدى بها ويحكم بها علي الجزئيات فكل بحث لا يتطرق من نظرية فهو كالجسد بلا روح .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نجعل الفصل الثاني حول موضوع (مقصد حفظ الكون) للوقوف علي هل حماية البيئة تعتبر من الكليات الكبرى والمقاصد العليا للشرعية؟

¹ سلسلة الصحيح الالباني رقم الحديث ٢٤١٥

² الحافظ بن رجب . جامع العلوم والحكم ، ص ١٤ . دار التراث.

³ البقرة الآية ٢٥٦

⁴ غافر جزء من الآية ٢٩



الفصل الثاني مقصد حفظ الكون وأثره في الحفظ المطلوب

المبحث الأول أدلة المقصد

نظرية المقاصد بما وصلت إليه من تعدد لأنواع القراءات المقاصدية^(١) وكثرة التنظير لمسائلها تصلح أن تكون ميزاناً لقبول الأفكار أو ردها وضبطاً للمفاهيم . ويمكن اتخاذها أساساً للنقد ومعرفة ما يجب أن يقدم وما ينبغي أن يؤخر في التطبيق .

ومقاصد الشريعة هي "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها" فهي إذن الأهداف الكبرى المبثوثة في جميع أحكام الشريعة جميعاً^(٢)

فالمقاصد هي روح الشريعة وكتلياتها . وهي محور أساسي لعلوم الشرع ؛ لذا على أى باحث أن يعود إليها يستنطقها فيما يخص موضوع بحثه ؛ لأن الصحة المقاصدية المعاصرة تستوجب ذلك . حتى لا تكون المعلومات الجزئية التي يحصل عليها الباحث بعيدة عن مقاصد الشريعة الكلية وروح الدين .

وبدايةً نؤكد أنه ليس من أهداف هذا البحث التوقف عند المقاصد من أجل تسجيل نشأتها أو لتعريفها أو تعداد أنواعها وتقسيماتها إلى مقاصد عامة وخاصة وتابعة . أو بيان مراتب المقاصد إلى ضروريات وحاجيات وتحسينات ؛ لأن ذلك كله سهل المنال . لا يكاد يخلو منه كتاب في المقاصد . وإنما الذي نستشرقه من هذا المبحث ومناطق اهتمامنا فيه هو الإجابة على تساؤل تبني عليه في أرض الواقع سلوكيات والتزامات .

١ فهناك القراءة الغائية . والعملية باتجاهاتها الإصلاحية والسياسية والتاريخية . انظر في ذلك الدكتور محمد كمال إمام (نحو قراءة مقاصدية أصولية)

٢ الطاهر ابن عاشور . مقاصد الشريعة ، ص ١٤٣ . دار السلام ودار سخون نشر مشترك ٢٠٠٦

والسؤال هو : هل الحفاظ على البيئة مقصود الشارع ؟ إن كانت الإجابة بنعم فهل (مقصد حفظ الكون) من المقاصد العامة أو الخاصة؟ وما موقعها بين مقاصد الشريعة؟ وهل رعاية البيئة والحفاظ عليها من المقاصد الخاصة التي تجتمع تحتها الآيات والأحاديث الدالة على وجوب حفظ البيئة والمحيط البيئي؟ أم أنها من المقاصد العامة؟ وما أوجه الحفظ من جانبي الوجود والعدم؟ ونأمل أن يساهم النظر المقاصدي في ذلك . فكم فك معضلات علمية وعملية . وقد تكون الإجابة للوهلة الأولى بالإيجاب . لكن قبل الإجابة نعرض لوجهة نظر معارضة للموضوع ثم نعود لسؤالنا.

هناك من يرى أن زيادة عدد المقاصد أو دمجها أو الإضافة إليها أو اختزالها أو تغيير ترتيب بعضها لا يستحق ما يبذل فيه من العناء وأولى منه تفعيل تلك المقاصد بعد الفهم والتأصيل . وإن هذا ما يستحق مشروعاً بحثياً⁽¹⁾ لكن بالنظر إلى عمليات المقاصد (التأصيل - التفعيل - التطبيق) نجد أنها عمليات متواصلة وليست جزر منعزلة . بل يؤثر بعضها على بعض فالتطبيق الجيد يسبقه استخلاص جيد وتأصيل علمي واستنباط منهجي

كما أن النظريات الإسلامية الكبرى - ومنها نظرية المقاصد - بنيت في ظل سيادة الإسلام . وهي الآن بحاجة لإعادة النظر في ظل واقعنا الحاضر . ونحن بحاجة إلى الترتيب الحضاري للمقاصد التي يحتل فيها (مقصد حفظ الكون) مرتبة مهمة . أضف إلى ذلك أن إضافة هذا المقصد ينفي النقد الموجه لنظرية المقاصد بأنها مبنية على الأحكام الفردية دون النظر إلى سائر الأمة .

وأخيراً لجلاء هذا (التقصيد) وتأكيد نقول : أليست البيئة خلق من خلق الله . وحق ذاتها أن تحترم لأن خالقها هو رب الكون جميعاً حتى وإن استخلفنا فيها وسخرها لنا فلا يعنى الاستخلاف إلا الرعاية والقيام على شئونها .

¹ دكتور / سيف الدين عبد الفتاح (مجموعة بحوث) نشر مركز دراسات مقاصد الشريعة ومؤسسة الفرقان للتراث

فالإنسان ليس إلها ولكنه مخلوق مثل بقية المخلوقات مأمور بالتسييح . كما أن البيئة مأمورة بالتسييح ؛ لكنها تسبح بطريقة يعلمها الله عز شأنه . فالحفاظ على أن يؤدي كل من مكونات البيئة دوره المنوط به يعد أمراً تكلفياً ومقصداً شرعياً . ولأن فكرة الاقتصاد في المقاصد وعدم الإضافة إليها أو التبديل فيها ليست مُسَلِّمة . كانت هناك محاولات اجتهادية دائمة تضيف أنساقاً مقاصدية جديدة . فالعلامة الطاهر بن عاشور قال بالمقاصد الاجتماعية . فجعل المقصد العام حفظ الأمة . وقسم المقاصد إلى جانب الفرد وجانب الأمة^(١) وجعل السماح أول أوصاف الشريعة والدكتور عوض محمد عوض يجعل العدل مقصداً شرعياً من أكبر مقاصد الشريعة^(٢)

وما تلك المحاولات الاجتهادية إلا لتغير المصلحة بالزمان والمكان . فليس كل ما كان مصلحة في زمان يصلح أن يكون مصلحة في زمان آخر . ويجوز أن يكون الفعل مصلحة في زمان ومفسدة في غيره وليست الأزمنة متساوية^(٣) ومحاولات الاجتهاد المقاصدي لا تقف عند حد (الاجتهاد في نظم المقاصد في نسق محدد أي الاجتهاد في المصطلح المقاصدي بل تناول الاجتهاد أيضا الوسائل الموصلة إلى المقاصد). فترى الدكتور حسن جابر يستبدل كلمة (حفظ) بكلمة (تنمية) فيقول في الكليات الخمسة (تنمية النفس - تنمية المال - وهكذا)^(٤) ويستدل على قوله بأن الحقول الدلالية التي يتجه إليها معنى الحفظ في المعاجم هي الإبقاء على الشيء بمنأى عن الخطر . ودفع التحريف عنه ورعايته . بما يضمن استمراره على ما هو عليه . ويستنتج أن تلك الحقول الدلالية تشكل

^١ الطاهر بن عاشور ، ص ٦٠ ، مرجع سابق

^٢ مجموعة بحوث دورة المقاصد بمركز الدراسات . حقوق الاسكندرية . نشر مركز دراسات مقاصد الشريعة ومؤسسة الفرقان للتراث.

^٣ قول ابن برهان مشار إليه في بحث الدكتور / جاسر عودة (مدخل مقاصدي للاجتهاد) ، ص ٤٠

^٤ د/ حسن جابر الحفظ (مدخل مقاصدي للتنمية) ، المرجع السابق نشر مركز المقاصد

شحنة تميل كل الميل نحو السكون والدفاع والصيانة والترميم في أحسن التصورات. ويقول لتقلب الطريقة بدلاً من البدء بالحفظ والصون نبدأ بالطلب والتحصيل فنقول تنمية الدين وتنمية النفس .. وهكذا في كل المقاصد .

وبالرجوع الى القواميس نجد أن^(١) الحاء والفاء والطاء أصل واحد يدل على مراعاة الشيء والحفاظ: المحافظة على الأمور. حَفِطْتُ الشيءَ حِفْظًا، أي حَرَسْتُهُ. وَالْمُحَافَظَةُ: المِرَاقِبَةُ. وَحَفِظَهُ، حَرَسَهُ، وَالْحَفِيزُ: الْمُوَكَّلُ بِالشَّيْءِ. وَالْحَافِظُ: الطَّرِيقُ الْبَينَ الْمُسْتَقِيمِ. وَالسَّحْفُ: الْاِحْتِرَازُ. وَالْحِفْظُ: قَلْبَةُ الْعَقْلَةِ. وَاسْتَحْفَظَهُ إِيَّاهُ: سَأَلَهُ أَنْ يَحْفَظَهُ. وهى معانٍ لا تفيد ذلك الاستتاج بل تؤكد على أن مصطلح الحفظ أفضل من مصطلح تنمية لأسباب عدة :

١- الحفظ يُشعر بالاستخلاف فإله خلق الكون في غاية الإصلاح لقوله (..صنع الله الذي أتقن كل شيء) (٢) ومهمة الإنسان المحافظة على هذا التوازن.

٢- لفظة تنمية تميل أكثر إلى الجوانب المادية أما مصطلح الحفظ فيشمل الجوانب المادية والمعنوية

٣- متى وجب حفظ الشيء وجب تحصيله من باب أولى . وذلك واضح من حفظ مال اليتيم الذي يشمل استثماره وتنميته وقد وضع الفقه لذلك قواعد . وفى المعنى ذات ومما يؤكد رأينا يقول الدكتور سيف الدين عبد الفتاح إن الحفظ نوعان : حفظ دفع أي سلبي وحفظ جلب أي إيجابي بنائي . فالحفظ عملية تولد جملة من عمليات كلها على وزن تفعيل بما يشير إلى الوعي بعناصر الفعل والوعي بضمان استمرارته (٣) . وهو حفظ بقاء وحفظ نماء وارتقاء . وحفظ أداء للأدوار المطلوبة في كل مستوى

^١ الفيروزآبادي . القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، سنة ١٤٠٦ هـ .

^٢ سورة النمل الآية ٨٨

^٣ دكتور / سيف الدين عبد الفتاح (نحو تفعيل النموذج المقاصدى) ورقة مقدمة لدورة كلية الحقوق جامعة الإسكندرية . نشر مركز المقاصد

ومنظومة الحفظ فى المدخل المقاصدى منظومة متوالية . تستوعب عناصر الفكر والحركة بكل مستوياتها وتنوعها .
والحفظ يشمل جملة عناصر تتضافر جميعاً لتشكل جوهر عملية الحفظ . وتلك العناصر هى :-

١- الحفظ بالعلم والتوعى المتعلق به . والحفظ هنا حالة متغيرة ومتجددة من الوسائل والأدوات والأساليب والآليات .

٢- الحفظ بالممارسة بمقتضى العلم . فالربط بين العلم النافع والعمل الصالح .
ليعبر عن حركة حياتية مستمرة قائمة علي التفاعل لأن العمل بلا علم يسبقه هو حركة محفوفة بالمخاطر فيكون العمل أجوف ويكون ممن يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أو هؤلاء الذين غرتهم الأمانى .

٣- الحفظ بالحماية والدفاع . وهو مستوى ثالث للحفظ غاية فى الأهمية .
يشير إلي وعى مخصوص وعمل مخصوص يصب فى النهاية فى دائرة دفع الضرر .
ويشمل الانتصار علي العوائق والموانع . وتهيئة الوسط لأقصى درجات الفاعلية
لتشييد هذا البناء . ويشمل الحفظ هنا مراعاة حق الغير . فهو ليس عملية أثنائية بل
عملية استخلافية (حفظ مقصودة دفع الضرر وجلب المنفعة)

وجملة القول إن الحفظ يشير إلى الحماية والرعاية . والمعرفة والممارسة .
بما يعنى تلازم الحقوق مع الواجبات بل قد تتعدى تلك الحقوق والواجبات نطاق
العدل الذي هو مفروض إلي الفضل بمعنى الإحسان والحب . وقول رسول الله ،
صلّى الله عليه وسلم ، حين قفل من تبوك فبدا له أحد (هذا جبل يحبنا ونحبه)
خير دليل على ذلك .

ويعد تأكيدنا على التمسك بمصطلح الحفظ كبديل لمصطلح التنمية .
نؤكد أيضا على تفضيلنا لمصطلح الإفساد بديلاً لمصطلح التلوث . لما
للمصطلحات من أهمية فى حياة المسلم .

وبالعرض السابق لوجهة النظر المعارضة للإضافة والزيادة على المقاصد ، والثبات على الكليات الخمس ، ونفى هذه المقولة ، نكون قد وضعنا محددات للسؤال المطروح سابقاً ، ونعود للإجابة

فترى أن جلب المصالح ودفع المضار مقصود للشارع اتفق عليه الآراء ، وأن الشريعة حرصت على إرشاد الإنسان إلى الطرق الكفيلة بحماية عناصر الكون ومكوناته ، من خلال ما تطرقت له كثير من الآيات والأحاديث الشريفة التي تدعو إلى الحفاظ على المحيط الذي يعيش فيه الإنسان حتى جعلت إمطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان .

والرأي الغالب يقول أصحابه إن حفظ البيئة داخل في مقاصد الشريعة الخمسة (حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال) وأن إفساد البيئة إضاعة لمقاصد الشريعة . وتلك مقوله الدكتور القرضاوى دون أن يجعل حفظ البيئة مقصداً مستقلاً^(١)

وإن صرح آخرون^(٢) بأن من المقاصد الكلية الضرورية التي حث الشرع على حفظها واعتبارها (مقصد المحافظة على الكون) ، وكان الكلام يدور حول البعد المقاصدى للمنهج النبوي . فجاءت العبارات إجمالاً لوجود مقصد حفظ الكون دون تحديد لناط هذا المقصد . وبيان حدوده وأدله . لأن المقاصد لا تكون إلا بدليل (فلا تقصيد بغير دليل) ، حتى إذا دخل مقصد لا يمكن خروجه . فنسبة مقصد ما إلى الشريعة هو كنسبة قول أو حكم إلى الله عز شأنه . لأن الشريعة شريعته والقصد قصده . والقول بأن مقصود الشريعة كذا وكذا من غير إقامة الدليل على ذلك هو قول على الله بغير علم وبغير حق . كما أن صاحب الرأي لم يوضح أيضاً هل هذا قوله ابتداءً أو أن هناك من سبقه إليه .

^١ الدكتور القرضاوى . البيئة . نشر دار السلام

٢ - ١٣ برغوث عبد العزيز بن مبارك . المنهج النبوي والتغير الحضاري ، ص ٤٨ ، سلسلة كتاب

لذا كان علينا القراءة التاريخية لبداية القول بذلك . وكان أول ما لفت نظرنا أن العلامة سعيد النورسي أول من عبر عن لغة جديدة في قراءة الكون فقدم في (رسائل النور)^(١) منهج جديد لبيان إعجاز القرآن فيقول : (إن الكائنات في غاية البلاغة قد أنشأها وأنشدها صانعها فصيحة بليغة . فكل صورة وكل نوع منها معجزة من معجزات القدرة ويقول (أن نوع النظر كالتبعية يقلب العادات إلى عادات) . وأن الألفة التي هي أخت الجهل هي التي تجعل النظر سطحياً وأكد أن الكون كتاب مسطر وأنه كالقرآن المقروء . فوجب الحفظ والعناية والرعاية للكتاب المنظور كما توجب للكتاب المقروء وبحق كان النورسي أكبر القراء لكتاب الكون . وأحد الناظرين لسطوره بانهار ظهر في معظم كتبه^(٢)

الفرع الأول

شروط ضبط المقاصد

وننتقل الآن من النظر إلى التنظير ونقترب أكثر من الإجابة عن سؤالنا وضع العلماء شروطاً لضبط المقاصد وإثباتها . حتى لا يختلط المقصد بالوسيلة ولا الكلية بالجزئية وها هو العلامة الطاهر بن عاشور يضع شروطاً أربعة هي :
(٣)

١ - **الظهور**: بمعنى أن يكون المقصد واضحاً لا تختلف أنظار المجتهدين في الاتجاه إليه وتشخيصه بعيداً عن كل التباس أو مشابهة ، مثل اتفاقهم على تشريع القصاص لحفظ النفوس .

¹ سعيد النوراسي . دار الافاق الجديدة . بيروت

² سعيد النورسي . المرجع السابق

³ فضيلة العلامة سماحة محمد الطاهر بن عاشور . مقاصد الشريعة الإسلامية ، ص ٤٩ ، الناشر دار سحنون (تونس) ، ودار السلام للطباعة والنشر ، الاسكندرية

- ٢- الانضباط: أن يكون للمعنى حد معتبر لا يتجاوزه ولا يقصر عنه . بحيث يكون القدر الصالح مئة لأن يعتبر مقصداً شرعياً قدرأ غير مشكل.
- ٣- الثبوت: بمعنى أن تكون تلك المعاني مجزوماً بتحققها أو مظنوناً بوجودها ظناً قريباً من الجزم.
- ٤- الاطراد: بمعنى أن لا يكون المعنى مختلفاً باختلاف أحوال الأفكار والقبائل والأمصار

وهذه الشروط والضوابط المحددة للمقصد المعتبر هي أيضاً ضوابط محددة للتفكير الموضوعي والاستدلال الصحيح . والفهم الشامل الذي يحتاجه العقل . ولاشك أن (مقصد حفظ الكون) وفق القراءة المعاصرة لعلم المقاصد أصبح من الظهور والانضباط بحيث لا تختلف أنظار المجتهدين إليه إلا بحسب الترتيب في مصفوفة الكليات . أو جعله قاعدة ومحصلة لمقصد حفظ النفس والعقل والنسل ؛ فهو من المعاني المجزوم بتحققها في الحال والمآل . وشملتها كثير من الآيات والأحاديث أمراً ونهياً وقد تحققت لتلك الأوامر صفة الاطراد فلا تختلف باختلاف الأفكار والقبائل والأمصار.

ويقول العلامة ابن عاشور إن مقصد الشارع يعرف من جهات :^(١)

- ١- مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي . فالأمر كان أمراً لاقتضائه الفعل ففوق الفعل عنده مقصود للشارع وكذلك النهي في اقتضاء الكف .
- ٢- اعتبار علل الأمر والنهي . كالنكاح لمصلحة التناسل .

^١ ويعرض آخرون مثل د/ سميح عبد الوهاب الجندي (أهمية المقاصد وآثارها في فهم النص - دار الإيمان الإسكندرية من ص ٨١ حتى ١٠٥ والدكتور / نور الدين بن مختار الخادمي جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض) لطرق أثبات مقاصد الشريعة ونجمل هذا العرض وتلك الطرق علي النحو الأتي : الاستقراء - اللسان العربي - سياق الخطاب - الاقتداء بالصحابة - دلالة المقاصد الأصلية علي التابعة . سكوت الشارع عن الحكم الاستنباط من القرآن والسنة . ويضيف دكتور جمال الدين عطية (العقل والفطرة والتجربة) . وكلها مسالك للكشف عن المقاصد .

٣- أن للشارع في شرح الأحكام مقاصد أصلية ومقاصد تابعة . فمنها منصوص عليه . ومنها مشار إليه ومنها ما استقرئ من المنصوص . انتهى كلامه^(١)

وتقول إن الأوامر والنواهي لرعاية البيئة تزخر بها الشريعة أما اعتبار علل الأمر والنهي في موضوع البيئة فتظهر بالنظر إلي مآلات تلك الأوامر والنواهي بالاتباع أو العصيان فعلى الأوامر والنواهي منها ما قد يكون في العاجلة والأجلة . وإن كانت الشريعة بحسب تحليلها ثلاثة أقسام (قسم معلل لا محالة وهو ما كانت علتة منصوص أو مشاراً إليها أو نحو ذلك . وقسم تعبدي محض وهو ما لا يهتدي إلي حكمته . وقسم متوسط بين القسمين وهو ما كانت علتة خفية واستبطن له الفقهاء علتة^(٢) ورعاية البيئة من القسم المعلن (وسوف نتناول موضوع المآلات لاحقاً)

وبالنسبة للمقاصد التابعة لمقصد حفظ الكون فهي أيضاً متواترة فالنظافة مثلاً . مقصد تابع لمقصد حفظ الكون دلت عليه كثير من الآيات والأحاديث . لا يجهلها مسلم . والمقاصد التابعة يكون فيها حظ للمكلف واضح وإن كانت مرادها ومقصودها للشارع أيضاً . بل هي مؤكدة ومثبتة للمقصد الأصلي . وقد يفعل الرجل الشيء لا لمقاصده الأصلية بل لمقاصد تابعة له . وهذا جائز في العادات^(٣)

وتقدم الدكتورة (فريدة زوزو)^(٤) دراسة تعتمد فيها النظر المقاصدي في معالجة قضايا البيئة . وإثبات أن رعاية البيئة والحفاظ عليها من المقاصد التي يرنو الشارع إلى تحقيقها . واستنكرت كغيرها^(٥) المنحى التجزئى الذي اتجه إليه

^١ بن عاشور ، ص ٢٠

^٢ بن عاشور ، ص ٤٢

^٣ د/ سميح ، ص ١٠٤ ، لمرجع السابق

^٤ مجلة اسلامية المعرفة العدد ٤٨ . نشر المعهد العالى للفكر الاسلامى بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٢٠ وفى ذات

المعنى الشيخ حسين الحشن خطوات نحو قه يبنى . دار الهادى بيروت ٢٠٠٤

^٥ شاركها الرأي الأستاذ جمال الدين عطية فى (نحو تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية) المعهد

العالى للفكر الاسلامى ٢٠٠١

الأصوليون وهم يقعدون للمسائل الأصولية وربط كل مقصد بالحد الذي شرع زجراً له . وحصر كليات الشريعة في مجال الأفراد . وأن الضروريات الخمس بنيت على الفردية وإن كانت في مغزاها تتوجه إلى حفظ المجتمع لكن ليس من بينها مقصد اجتماعي مباشر صريح^(١)

وتقدم مبرراً للمنهج الأصولي التقليدي بأنه كان ملائماً لظروف ذلك الزمان . إذ كانت الشريعة الإسلامية مطبقة ابتداءً . ثم أن الحياة الاجتماعية لم تكن تعرف التغير الكبير بل كانت الحياة بطيئة . ولو كانت المستجدات والنوازل كثيرة لتحرك لها الفقهاء . فالفقه يتعامل مع الواقع ويتبادل معه التأثير والتأثير . أما الآن فإن تفعيل دور المقاصد الشرعية لم يعد مقصوراً على الأحكام الشرعية الفقهية الفرعية بل تعداه لمعالجة القضايا المعاصرة الفقهية والاجتماعية والاقتصادية . ومن هذه المسائل قضايا البيئة والأمن البيئي .

وتقول: (لا يخفى أن الشريعة جاءت بنصوص عديدة تدعو إلى حماية المحيط الذي يعيش فيه الإنسان باعتباره أحد أهم ركائز قيام الإنسان بعملية الاستخلاف والعمارة في الأرض) وتركز على مراعاة الوازع الديني في رعاية ذلك المحيط الحيوي . إلى هذا الحد نطمئن إلى أن مقصد حفظ الكون بكل ما فيه من أنهار وجبال وغيرها أو كل ما شيده الإنسان من مقاصد الشريعة .

لكن هل (مقصد حفظ الكون) من المقاصد العامة التي تدور عليها الضروريات ؟ وهل يمكن اعتباره من الكليات العامة التي تحقق مصالح الناس بكفالة ضرورياتهم وتوفير حاجياتهم وتحسيناتهم ؟ كما يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف تعريفاً للمقصد العام . أو كما يقول العلامة الطاهر ابن عاشور في تعريفه للمقاصد العامة^(٢) (وإن كان عائداً على عموم الأمة عوداً متماثلاً)

¹ فريدة صادق زوزو دكتوراه في الفقه وأصوله ، كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية ، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

² مقاصد الشريعة الاسلامية . العلامة الطاهر بن عاشور . دار السلام للنشر . الاسكندرية

ولاشك أن حماية البيئة من المصالح التي تعود على عموم المجتمع . وإذا ما اختل النظام والتوازن البيئي . واستنزفت الموارد الطبيعية فإن المجتمع بأسره سيعود عليه هذا الاختلال بالدمار والهلاك في صحته ومحيطه .

وإذا كنا قد وصلنا من مطلبنا إلى أن مقصد حفظ الكون من المقاصد العامة للشريعة . وأملنا الإنصاف من المعارضين إذ يدعوهم ابن عاشور بقوله (إذا أنظم الدليل على إثبات مقصد شرعي وجب على المتجادلين فيه أن يستقبلوا قبلة الإنصاف وينبذوا الاحتمالات الضعاف)^(١)

وحتى نحرر المسألة ولا يبقى حولها احتمالات ضعاف . ونرفع عنها شبهة توجه للمقاصد عموماً ومقصد حفظ الكون بصفة خاصة ألا وهي (من المخاطب بالمقصد) وهل ينحصر الخطاب في علماء الشريعة أو أن دائرة المخاطبين أوسع من ذلك؟

وسند هذه الإشكالية إن شيخ المقاصديين الشاطبي يقول في معرض كلامه عما زهده في تعريف المقاصد في كتابة (المواقفات)^(٢) أنه كتاب للعلماء الراسخين حيث يقول: (ولا يسمح للناظر في هذا الكتاب أن ينظر فيه نظر مفيد أو مستفيد حتى يكون ريان من علوم الشريعة أصولها وفروعها منقولها ومعقولها غير مغلد إلى التقليد والتعصب للمذهب).

وحديثاً يقول (ابن عاشور) ليس كل مكلف بحاجة إلى معرفة المقاصد . لأن معرفة مقاصد الشريعة نوع دقيق من أنواع العلم فحق العامي أن يتلقى الشريعة بدون معرفة المقصد لأنه لا يحسن ضبطه ولا تنزيله . ثم يتوسع للناس في تعريفهم المقاصد بمقدار ازدياد حظهم في العلوم الشرعية لئلا يضعوا ما يلتقون من المقاصد في غير مواضعه فيعود بعكس المراد^(٣) وعارض هذا القول بعض

¹ ابن عاشور . المرجع السابق ، ص ١٧

² الشاطبي . المواقفات . دار الكتب العلمية المجلد الاول ، ص ٣٥

³ المرجع السابق ، ص ١٦

الكتاب . وأكدوا على أهمية المقاصد بالنسبة للمسلم العادي وأنه حق لكل مسلم عادي أو فقيه ومجتهد . وأن ادعاء (ابن عاشور) في حق العامي لا يستقيم ولا يسلم على إطلاقه^(١)

ولا شك أن العمليات التي تمر بها المقاصد . من تأصيل وتفعيل وتطبيق . نصيب المسلم العادي منها هو التطبيق . وله أن يعرف المقاصد جملة لا تفصيلاً . وإن كانت هذه المعرفة ذات أهمية خاصة في مقصد حفظ الكون . من أجل تحويل الاهتمام برعاية البيئة من اهتمام قانوني إلى اهتمام عقائدي شرعي فيتحول الوازع القانوني المدني إلى وازع ديني فيصير العمل الديني إلى فعلاً شرعياً يؤثر الإنسان عليه ويُناب . فالمخاطب بالمقصد هو الفرد العادي .

الفرع الثاني

أهمية معرفة الرجل العادي بمقصد حفظ الكون

(١) التعمد : إذ بفضل هذه المعرفة تنقلب كثير من العادات إلى عبادات ؛ لأن الأمور بمقاصدها وهذا ما سوف يظهر جلياً في ثنايا هذا البحث

(٢) البيئة تتأثر بسلوك الرجل العادي ؛ فالسلوكيات غير الحكيمة من أنشطة الحياة المختلفة تنعكس سلباً على البيئة . لذلك نجد أحكام الشريعة حريصة على إرشاد الإنسان إلى الطرق الكفيلة بحماية عناصر الكون وقد دلت على ذلك كثير من الآيات والأحاديث .

(٣) الدعوة للسلوكيات التي تحافظ على البيئة والمسلم ليس صالحاً في نفسه فقط بل مصلح لغيره أيضاً وهو داعية لدينه بقدر استطاعته وفهمه وعلمه .

(٤) ربط الدين بالدنيا . فعندما يلم المسلم العامي بمقاصد الشارع دون تعقيد وعلى الجملة ترسخ العقيدة في قلبه . ويجتهد كي يوافق قصده قصد الشارع

^١ الدكتور / سميح عبد الوهاب الجندي أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثارها في فهم النص واستنباط الحكم ، رسالة ماجستير ، نشر دار الإيمان ، بالإسكندرية .

ليكون عمله مقبولاً. وإلا كانت أعماله وعبادته عادات. يردها فلا تتحقق الغاية المطلوبة منها .

٥) فتح مجال الإحسان . ليدرك المسلم الكمال في الحفظ والإحسان باب ذو سعة يلج منه كل مرید للاستزادة من الخيرات. والحفظ المطلوب للبيئة فى المنظور الإسلامى يتعدى النظر المحدود لتلك الحماية كما تعرضه القوانين. سواء الوطنية أم الدولية. وسوف يظهر ذلك في عرضنا لجدوى الأدوات القانونية الدولية في حماية البيئة.

ولا نبرح حديثنا عن أهمية معرفة المسلم العادي بمقصد حفظ الكون حتى نرفع إشكالية قد تتبادر للذهن. فلقد استقر في المفهوم بحق أن البيئة خلقت مسخرة للإنسان. فكيف يطالب بحفظ ما هو مسخر له. وكيف يكون ذلك من مقصود الشارع؟ ونرفع الإشكال في محورين هما:-

١- للكون دور في استمرارية الحياة:-

فالإنسان لا يستطيع القيام بوظيفته الوجودية في الاستخلاف وعمارة الأرض من غير توافر آليات التعامل مع المحيط الحيوي الذي يعيش فيه. فالاستخلاف يعنى أن الإنسان وصى على هذه البيئة وليس مالكا لها. وأنه مستخلف على إدارتها واستثمارها وإعمارها. أمين عليها^(١) لذلك نهى الله عن الإفساد للبيئة بعد أن خلقها صالحة مهياً لتنفعة المستخلفين فيها وإذا كانت البيئة ميسرة للإنسان مسخرة له بإرادة العلي القدير؛ فإنها في الوقت نفسه مخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى، ولا ينبغي للإنسان وهو خليفة الله أن يكون له أي حق في الإضرار بها، أو تعطيلها عن أداء وظيفتها التي خلقت لها؛ فإن المبدأ العام في الشريعة الإسلامية أن «لا ضرر ولا ضرار»، والإنسان بإقدامه على الإضرار بها وتعطيل حقوقها فإنه لا محالة سيرجع عليه بالضرر، وبالتالي تنتفي عملية الإعمار.

^١ دكتورة/ فريدة زوزو ، مرجع سابق

والقاعدة الأصولية تقول: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) ؛ فإذا كان واجب الإنسان على هذه الأرض أنه مُستخلف فيها، فإن الأرض والبيئة والكون مما يساعده على القيام بمهمة الاستخلاف، لذلك وجب عليه حفظها. ولو تصورنا استمرار التلوث البيئي على هذه الوتيرة الخطيرة. فسنجد أنفسنا بعيدين كل البعد عن إمكان استمرار الإستخلاف فى الأرض وإعمارها. وأداء وظيفة العبودية ؛ لأن استمرار الجنس البشرى مهدد بالخطر ؛ فالبيئة هي المسرح الذي تقوم عليه حضارة الإنسان و أساس مهم لتحقيق الاستخلاف .

جميع المخلوقات وجدت لمنفعة الإنسان بوجه من الوجوه ؛ فديدان الأرض مثلاً. تلك التى يشتمز الإنسان من منظرها ولا يتورع عن أن يطاها بقدمه فى احتقار. تبين للعلماء أنها أنفع الكائنات على الإطلاق. وأنها أكثر نفعاً للإنسان من الأغنام والأبقار وغيرها ؛ لأنها العامل الاساسى فى تهوية التربة. إذ هى تحفر الأرض فتحدث فيها فتحات تساعد جذور النبات على اختراق الأرض. وتعمل على تهوية التربة. كما تطحن التربة فتكون الأرض صالحة للزراعة^(١). لذلك وجب أن تكون نظرة المسلم إلى البيئة نظرة ود وحب يرى بها المخلوقات جميعاً أما مثل الإنسان وأن الشجر والدواب والنجوم تسجد لله.

٢- الكون دليل هداية:

والكون دور أساسى وضرورى فى هداية الناس إلى الله. وهو مصدر للإيمان ؛ فأبصارنا تقع عليه وتتفاعل معه بما أودع الله فى الإنسان من عقل وسمع وبصر وحس ؛ لذلك دعا الله - عز شأنه - للنظر فى الكون (.. قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)^(٢) (هو الذى جعل الشمس ضياءً)^(٣) ولغة الكائنات يفهمها كل إنسان حتى إن مشاهدته الكتاب الكونى العظيم وحدّها

^١ عبد الرازق نوفل. بين يدي الله. مطابع اخبار اليوم. ص ١٠٠

^٢ سورة يونس الاية ١٠١

^٣ سورة يونس الاية رقم ١٤

كافية للدلالة على وجود كاتبه ، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافاً مضاعفة¹. فيتلو كتاب الكائنات بأبوابه وفصوله وصفحه وسطوره وجمله وحروفه آيات وجوبه ووحده. وتقرأ سطوره على العقول.

تأمل سطور الكائنات فإنها . من الملائع الأعلیٰ إليك رسائل^(٢)

وانسلم يجب أن ينظر للكون من حوله على أنه آية من آيات الله . تستوجب التفكير فيها ، ونعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليها والاستمتاع بعنصر الجمال فيها وتنمية هذا الجمال ؛ لأن كل شيء في البيئة يظهر فيه - حتماً - بديع صنع الخالق سبحانه.

المبحث الثاني

تحقيق معنى حفظ المقصد

يقول الشاطبي إن حفظ الضروريات يكون بأمرين . أحدهما : ما يقيم أصل وجودها . والثاني : ما يدفع عنها الاختلال الذي يعرض لها . وعند تحقيق (ابن عاشور) لمعنى الحفظ ولكونه أضاف مقصد حفظ الأمة . فقال إن حفظ هذه الكليات معناه حفظها بالنسبة لآحاد الأمة وبالنسبة لعموم الأمة فحفظ الدين يكون بحفظ دين كل أحد من المسلمين . وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة أي دفع كل ما شأنه أن ينقض أصول الدين . وكذلك في كل كلية من الكليات^(٣) فنقول إن المعنيين يتضمنهم مقصد حفظ الكون دون تفرقة بينهم بل يجمع بينهم .
بالنسبة لتحقيق ابن عاشور :-

الذي يرى حفظ الكليات بالنسبة لآحاد الأمة وبالنسبة لعموم الأمة . فذلك مطلوب من جانب الأفراد في مراعاة السلوك الايجابي الذي يحقق حفظ البيئة

¹ سعيد النورسي . اللغات . دار افاق عربية ١٩٨٧

² ابن عاشور ، ص ٧٨ ، مرجع سابق

وهو يرى أنهم ملزمون أيضاً بالتعاون في هذا الحفظ ليعود عليهما جميعاً بالنفع . فهذا التعاون جزء مهم في تنزيل مقاصد الشريعة واقعياً . إذ الحفظ المطلوب له تكاليف فردية وجماعية .

بالنسبة لتحقيق الشاطبي يكون الحفظ من جانبين :-

حفظ البيئة من جانب الوجود

أي حفظ الوسائل الكفيلة باستمرار عمل عناصر البيئة على أفضل وجه . وهذا من الإجراءات الوقائية للحفاظ على البيئة . وقد أرست الشريعة الإسلامية مجموعة من المبادئ التي تحافظ على البيئة من هذا الجانب

حفظ البيئة من جانب عدم:

وهذا يشمل الدفاع . والحرص على إبقاء البيئة وعناصرها بعيدة عن التدخل السلبي للبشر ، وحمايتها من أنواع الاستنزاف كافة ، وأوجه إلحاق الأذى بها ودرء ما يسبب اختلالها أو إفسادها . سواء كان الإفساد واقعاً أم متوقعاً . وأدلة مقصد حفظ الكون أكثر من أن تحصى في النصوص الشرعية . ويطرق جمّة من الدلالات على المستويات كافة ، وبالنسبة للحفظ من ناحيتي الوجود والعدم تلك التي ركز عليها الأقدمون نعرض الآتي :-

أولاً : مقومات حفظ البيئة من جانب الوجود

- أ- الحث على إحياء الأرض الموات ببناء أو غرس أو حراثة أو سقي ، ولا شك أن لزيادة الرقعة الخضراء أثر كبير في استمرار الحياة البشرية ، وتحسينها
- ب- الدعوة إلى التشجير منذ أربعة عشر قرناً وقبل أن يحدد العالم للشجرة عيداً في الحادى العشرين من شهر مارس من كل سنة ، دعا الإسلام في نصوص كثيرة إلى التشجير والغرس المستمر ، فقال (ص) "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل"^(١)

^١ البخارى فى الأدب المفرد (١/١٦٨ ، رقم ٤٧٩)

وفي هذا يقول الشيخ القرضاوي: "وهذا في رأيي تكريم للعمل لعمارة الدنيا في حد ذاته، وإن لم يكن وراءه منفعة للغارس، أو لغيره من بعده، فلا أمل لأحد في الانتفاع بغرس يغرس والساعة تقوم. وليس بعد هذا تحريض على الغرس والإنتاج ما دام في الحياة نفس يتردد؛ فالإنسان قد خلق ليعبد الله، ثم ليعمل وليعمر الأرض، فليظل عابداً عاملاً حتى تلفظ الدنيا آخر أنفاسها. وقال (ص) أيضاً: ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة. وقال (ص) ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، وما يزرؤه أحد إلا كان له صدقة

ويضاف إلى فوائد الغرس والتشجير زيادة غاز الأوكسجين في الجو، والتقليل من كمية ثاني أكسيد الكربون، أي إعادة التوازن البيئي فوق كوكبنا، وهو ما ينعكس بشكل إيجابي على صحة الإنسان.

ولقد أوضحت البحوث الحقائق الآتية:-

- ١- يجب زراعة مائة شجرة إزاء كل سيارة نقل.
- ٢- يجب زراعة عشر شجرات في مقابل كل سيارة صغيرة.
- ٣- يجب أن يزرع كل مصنع شجرة إزاء كل لتر من الوقود يستخدمه.
- ٤- تنتج الأشجار أوكسجين فقط ولا تنتج إطلاقاً ثاني أكسيد الكربون
- ٥- تمتص الأشجار بعض المركبات السامة وتقوم بتفكيكها.
- ٦- تقوم بعض الأشجار بامتصاص بعض المواد السامة من الهواء
- ٧- تقوم بعض الأشجار بتصفية الهواء من الملوثات العالقة به
- ٨- تخفض الأشجار درجة الحرارة و سرعة التيارات الهوائية الصاعدة والهابطة وتلعب دوراً مهماً في تعديل المناخ^(١)

^١ د/ أحمد عبد الوهاب عبد الجواد. المنهج الاسلامي لعلاج تلوث البيئة. الدار العربية للنشر والتوزيع. القاهرة

ج- الحث على أن نكون أعلم بأمور الدنيا:

قَدِمَ النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم يؤثرون النخل^(١) فقال: (ماتصنعون؟) قالوا كنا نصنعه . قال: (لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً ، فنَقَضت أو نقضت) ، قال: فذكروا ذلك له . فقال (إنما أنا بشر وإذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر^(٢))

فضرورة العلم بالشأن الزراعي في حس المسلم توجب عليه الأخذ بالجديد في هذا العلم . فالزراعة من فروض الكفاية . وعلي الأمام أن يجبر الناس عليها . وما كان في معناها من غرس الأشجار^(٣) ويرتب علي هذا الواجب إيجاد الوسائل الموصلة إليه لأنها شروط مكتملة له . فما يعرف اليوم بالبايو تكنولوجيا في مجال الزراعة لإنتاج سلالات ذات كفاءة عالية . ومقاومة للأمراض المختلفة . وقادرة علي الإنتاج تحت ظروف بيئية صعبة . أمر ضروري . وطلب هذه العلوم الحديثة أمر يتعبد بمدارسته كما يتعبد بمدارسة كتب الفقه والشريعة . وقد قدمت الهندسة الوراثية التي أنواعاً من النباتات قادرة علي التكيف مع الظروف الصعبة . ومقاومة للتلوث النووي . ونباتات أخرى تحول المركبات البترولية الملوثة بالبحيرات النفطية الي مركبات عضوية أساسية يستفيد منها النبات^(٤)

ويعرض الدكتور محمد زرمان^(٥) لمبدأ ، أقره فقهاء المسلمين قديماً ومنهم ابن خلدون - وهو عدم الإسراف في زراعة ما ليس فيه فائدة . فزراعة نباتات الزينة يكون في الحالات التي تكفي الأمة في غذائها درءاً للتبديد في التربة والمياه .

^١ يلقحون النخل

^٢ (١٦٠) صحيح مسلم ، ط عبد الباقي ٤/١٨٣٦ . وانظر صحيح الجامع رقم (١٥٠٠)

^٣ القرطبي . الجامع لاحكام القرآن ، ص ٣٠٦

^٤ دكتور/ يسرى دعيس ، تلوث البيئة وتحديات البقاء . البيطاش سنتر للنشر والتوزيع ، (ص ٤٥٦)

^٥ مجلة الشريعة والدراسات الاسلامية (الكويت) العدد ٥٥ ، ص ٤٠٥

ويقول ابن خلدون في المقدمة: إذ أكثر غرس - وذكر أنواعاً من النباتات - تؤذن بالحُراب لأنها من غاية الحضارة إذ لا يقصد بها إلا أشكال فقط . والتفنن في الترف . فلا طعم فيها ولا منفعة^(١)

ويدخل في هذا الإطار استنزاف طاقات الأرض الزراعية في زراعة التبغ الذى يمتص كميات كبيرة من مقدرات الخصوبة وزراعة القات في اليمن وزراعة بطيخ اللب فى مصر.

وإن أصبحت مشروعات التشجير ضرورة ملحة . لكونها تلعب دوراً مهماً في تعديل المناخ ومقاومة التلوث الجوى . فإن سياسة التشجير للشوارع والمتنزهات . واختيار أصناف شجرية ملائمة تحتاج لدراسة حصيفة قبل اتخاذ القرار بشأنها . لتحديد المعايير والترجيح بين البدائل المختلفة . وتحديد جدوى الأصناف الشجرية . وتلك التى لا تعود بعائد مجزٍ وتستحوذ على قدر كبير من الموارد المائية والمالية . فمعرفة خواصها كسراحتها للمياة والعمر المتوقع لكل صنف شجرى واحتياجاته المائية أمر ضروري.

فمثلاً شجرة (كونوكرس) التى انتشرت في دول الخليج وتعتبر دخيلة على تلك البيئة . وقد سببت الكثير من المشكلات . وتعددت شكوى السكان لامتداد جذورها عدة أمتار أفقياً ورأسياً مما أدى الي إختراقها لمواسير المياه والصرف و للصحور والخراسانات المسلحة حتى هددت بعض البيوت^(٢) في حين اختفت (شجرة السدر) وهى من البيئة العربية . على الرغم من قدرتها على مقاومة الحرارة والرطوبة .

د - المحافظة على البيئة الطبيعية والحياة البرية بإنشاء المحميات

المحمية الطبيعية (هي مساحة يابسة أو مائية من إقليم الدولة تتميز بما تضمه من

¹ مقدمة ابن خلدون . دار الجيل بيروت . ص ٥٢٠

² ورقة مقدمة لمؤتمر العمل البلدى الأول ٠ مركز البحرين للمؤتمرات ٢٧/ ٢٠٠٦ مارس وعنوان الورقة (البدائل المثلى للتشجير من البيئة المحلية البحرين نموذجاً) مطبوعات مركز البحرين

كائنات حية نباتية أو حيوانية أو ظواهر طبيعية ذات قيمة علمية أو ثقافية أو جمالية أو سياحية . يصدر بتحديددها قرار من السلطة المختصة^(١) وقد أقيمت المحميات الطبيعية فى كثير من دول العالم . وأعلنت مصر ثمانى عشر محمية طبيعية منذ عام ١٩٨٣ حتى الآن^(٢) استنادا إلى القانون ١٠٢ لسنة ١٩٨٣ بشأن المحميات الطبيعية .

ويحظر فى هذه المحميات القيام بأعمال أو أنشطة من شأنها تدمير البيئة الطبيعية أو الأضرار بالحياة البرية النباتية أو المساس بمستواها الجمالي أو صيد أو نقل أو قتل الكائنات بها أو التغيير للتكوينات الجيولوجية أو الجغرافية أو الآثار والنقوش التاريخية . وكذلك عدم إدخال أجناس غريبة عن تلك المحميات أو إقامة مباني ومنشآت تغير من مظهر المحميات . ويتولى جهاز شئون البيئة مباشرة تلك الاختصاصات . ويتولى المحافظ تنفيذ تلك القرارات .

والإسلام أول من انشأ نظام المحميات الطبيعية . إذ جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها . ولا يختلى خلاها) ، فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم ، فقال : "إلا الإذخر".

وهناك حدود حرم المدينة المنورة التي حددها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله : "إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها لا

^١ المادة الأولى من القانون ١٠٢ لسنة ١٩٨٣ ، بشأن المحميات الطبيعية

^٢ دكتور / ماجد الحلوة : قانون حماية البيئة فى ضوء الشريعة ، طبعة ٢٠٠٧ ، ص ١١٦

يقطع عضائها^(١) ولا يصاد صيدها^(٢). ويقوله صلى الله عليه وسلم: "المدينة حرم ما بين غير إلى ثور"^(٣).

هذان الحديثان يحددان لنا حدود حرم المدينة المنورة بحيث يحدد الحديث الأول الحرم من ناحية العرض . بما بين لابتي المدينة . وهما الخرتان : الوبرة والواقم . أولاهما تقع غرب المدينة وثانيهما في شرقها .

والحديث الثاني حدد حرم المدينة المنورة من جهة الطول . بحيث يقع الحرم بين غير وثور وهما جبلان يقع أولهما جنوب المدينة وثانيهما في شمالها . وقد حرم النبي مكة أولاً ثم حرم المدينة . ثم أعلن وادي وج في الطائف أرضاً حراماً . وقال "صيد (وج) وعضاه حرم محرم لله" . و(وج) هو وادي الطائف . وقيل بل الطائف نفسها . والعضاه هي الشجر .

وكان كتاب رسول الله الذي كتبه لأهل الطائف (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين : إن شجر وج (الطائف) وصيده لا يعضد - أي لا يقطع - ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد . وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله .)

والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء والعقوبة ، وقال الزهري : دل الكتاب على العامد لقوله عز شأنه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَمَّا لَلَّهِ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ

¹ عضاة: كل شجر عظيم له شوك. انظر النهاية في غريب الحديث (٢٥٥/٣).

² صحيح مسلم في كتاب الحج ، باب فضل المدينة (٩٩٢/٢).

³ صحيح مسلم كتاب الحج ، باب فضل المدينة (٩٩٥/٢).

عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ^(١) وجرت السنة على الناسي والخطأ ؛ فإن قتل الصيد إتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، ولقد أنجز النبي الكريم خلال عشر سنوات من حكمه الرشيد مسجداً واحداً وثلاثاً محميات طبيعية^(٢)

وكانت أول محكمة بيئية^(٣) تلك التي حدثت في عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - روى مالك عن عبد الملك عن محمد بن سيرين أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب، فقال : إني أجريت أنا وصاحب لي فرسين نستبق إلى ثغرة ثنية ، فأصبنا ظيماً ونحن محرمان فماذا ترى ؟ فقال عمر لرجل إلى جنبه : تعال حتى أحكم أنا وأنت ؛ فحكما عليه بعنز ؛ فولى الرجل وهو يقول : هذا أمير المؤمنين لا يستطيع أن يحكم في ظبي حتى دعا رجلاً يحكم معه ، فسمع عمر بن الخطاب قول الرجل فدعاه فسأله ، هل تقرأ سورة {المائدة} ؟ فقال : لا ؛ قال : هل تعرف الرجل الذي حكم معي ؟ فقال : لا ، فقال عمر رضى الله عنه : لو أخبرتني أنك تقرأ سورة {المائدة} لأوجعتك ضرباً ، ثم قال : إن الله سبحانه يقول في كتابه : " حُكْمُ بِهِ ذَوْا عَدَلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ " وهذا عبدالرحمن بن عوف^(٤)

ثانياً : مقومات حفظ البيئة من جانب العدم

أ- مقاومة الإفساد البيئي

البيئة في الإسلام معاش المسلم ، و محل سجوده ، ومسكنه ، وفيها أرضه وعرضه ، وقد جعل الإسلام حراستها والدفع عنها من الجهاد في سبيل الله.

¹ المائدة (٩٥)

² د/ محمد الحبش .مجلة الثورة تصدر عن الوحدة للصحافة والطباعة والنشر (دمشق) الجمعة

٢٠٠٨/٦/٦

³ الدكتور / على على السكرى . البيئة منظور اسلامى . الناشر منشأة المعارف الاسكندرية

⁴ تفسير الآية . فى الجامع لاحكام القران للمقرطبي . الناشر دار عالم الكتاب ١٩٨٠

وقد لعن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل من يُغيّر تخوم الأرض . أي معالمها وحدودها ، ويسبب خللاً في التوازن البيئي بقوله : (لعن الله من غير تخوم الأرض) ^(١) . ويعد تلويث البيئة مهلك كالقتل ، بل أشد منه خطراً ؛ لأن القتل إزهاق أواح محدودة ، بينما التلوث يعرض الآلاف للقتل .

ب - تنظيف المحيط الحيوي (حق والتزام ديني) :

ومن حق الإنسان أن يعيش في جو نقي ، وبيئة نظيفة ؛ فإذا مشى في الطريق لم يعق سيره حجر أو قمامة ، أو ماء قذر ، والإسلام يدعو للنظافة ويعدها شعبة من شعب الإيمان . بل عدّ تنظيف البيئة من العبادات . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان) ^(٢) وقال - صلى الله عليه وسلم - (إن الله نظيف يحب النظافة) ^(٣) .

المبحث الثالث

القواعد المستخلصة من مقصد حفظ الكون

للمقاصد الشرعية قواعد تضبطها تسمى بالقواعد المقاصديه . منها :-

- ١ - ما يتعلق برفع الحرج وجلب التيسير (وهو ما تم تناوله في حفظ البيئة من جانب الوجود والعدم مستأنسين بما فعله الأقدمون في تناولهم للكليات الخمس)
- ٢ - ومنها ما يتعلق بمآلات الأفعال (ونجمل فيه القول على النحو التالي)

¹ مسند الإمام أحمد ٢٧٦٤ برقم ، المجلد الاول

² صحيح البخاري ، برقم (٩) مسلم ، برقم (٣٥)

³ حسنه العلامة الألباني في حديث ، رقم ٤٤٨٧

النظر في مآلات الأفعال جار علي مقاصد الشريعة . وهي من المولدات في النموذج المقاصدي فالنظر في مآلات الأفعال معتبر مقصوداً شرعاً ؛ لأن الحكم علي فعل من الأفعال لا يكون إلا بعد النظر إلي ما يؤول إليه ذلك الفعل. فإن كان الفعل يصير إلي مفسدة فالفعل باطل . والأشياء تحرم وتحل بمآلاتها^(١) ولاشك أن العدول عن اعتبار حفظ البيئة مقصداً شرعياً . يترتب عليه مزيد من الإفساد والتلوث المنهى عنهما شرعاً . لذا فإن فعل (التلوث) الآن يأخذ حكم الفساد . وإن كان لا يؤدي حالاً إلى فساد . وما ذلك إلا بالنظر للمآل (والعبرة للمآل لا للحال) . فالأمور بعواقبها . والمتوقع كالواقع والمتوقع من الكوارث البيئية يجعل العقلاء من بنى آدم يجرمون (فعل الإضرار بالبيئة) . ويحكم على السلوك تجاه البيئة في كل موقف ميزان الضرر والنفع ، في الحال والمآل.

فكما اتفق أهل الأديان وعقلاء بني آدم علي أن أهم ما يصلح حال البشر حفظهم لأموالهم كدية خمسة هي ما يطلق عليه الكليات الخمس (الدين - النفس - العقل - النسل - المال) ويتفق الجميع علي أن الإضرار بالبيئة والإفساد فيها يؤدي في المآل إلي كوارث بيئية لا قبل للإنسان التكيف معها. ولما كانت الوقاية من الفساد أولى من معالجته وهذا ما عبر عنه الأصوليون (الدفع أسهل من الرفع) لذا وجب حفظ البيئة . وعدة مطلب شرعياً قطعياً ؛ لأنه شرط ذاتي لقيام الحياة الإنسانية . وهو أعلي مقاصد الشريعة وأشرفها^(٢)

^١ الموافقات ١٩٤/٤ والبعض عبر عن هذا المبدأ بعبارات أخرى مثل : (اعتبار مآلات الأفعال لازم في كل حكم علي الاطلاق)

^٢ د/ محمد زرمان . التصور الاسلامي للبيئة دلالاته وأبعاده . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية -

الكويت العدد ٥٥ لسنة ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣

أولاً : هل من علاقة بين المقاصد والحسبة؟

معلوم أن من الحقوق ما قصدت الشريعة حفظه . وليس فى التفریط فيه ضرر على شخص معين حتى يمكن أن يقوم لدى القاضى وقد يكون المتضرر ضعيفاً عن القيام بحقه^(١) لذا وجب الاحتساب فى هذه الحقوق وهو أمر ملاحظ فى قضايا الإفساد البيئى . فقد لا يكون الضرر شخصياً وهو الغالب فى موضوع التلوث وقد تصيب أفراداً قليلاً الخيلة ضعفاء . يحتاجون من يقف بجانبهم احتساباً لله .

أما مهمة الحسبة فى مجال حماية البيئة فتنبع من أنه لا يحق لإنسان أن يقتل الآخرين ببطء ، لأن الماء والهواء والغذاء كلها عناصر تعتمد عليها الحياة الإنسانية ، ولهذا فالاعتداء عليها اعتداء على حق كل إنسان فى الحياة . ومن جانب آخر لا يجوز الاعتداء بصورة أو بأخرى على الكائنات الحية من غير بني البشر ، بل يلزم المحافظة عليها من الانقراض . والملوثون للبيئة هم قلة عن عمد أو جهل ولقد رأينا ان العامد والناسى سواء فى الجزاء فى الجرائم البيئية وقضية حماية البيئة قضية قصد بها حماية الإنسان ، وحماية الإنسان قضية إسلامية شرعية ، لأن الإسلام فى أول مبادئه جاء لحماية الإنسان ؛ وجعل قتله كقتل الناس جميعاً

والحقيقة أن معالجة مشكلات البيئة لا تتوقف على الحلول التشريعية المقترنة بالجزاء . وإنما لها أيضاً جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى لا ينبغي إغفالها .

ومن المسلمات أن مشكلات الناس جميعاً على وجه البسيطة ، إفرافات لأدابهم وسلوكهم مع أنفسهم ، ومع البيئة التى يحيون فيها ، والإنسان وبيئته صنعة الله وخلقه ، فإذا أراد الإنسان أن يعرف النظام والسلوك الذى يحفظ له سلامة الصنعة ويصونها من النقص والعيب فليرجع إلى خالقها ومبدعها . والآفة

^١ بن عاشور ، ص ١٢٦ ، مرجع سابق

التي أصابت الإنسان أنه ينسى هذا الأمر المسلم به ، فيتشد السلوك والآداب عند غير خالقه ، فتكون النتيجة إضاعة الوقت في التجارب ، و المرض يتفاقم مع مر الأيام . ومن هنا يظهر دور الحسبة كآلية حاسمة لحماية البيئة .

ثانيا : ما يحققه الوعي بمقصد حفظ الكون

١- سلوكيات الأفراد: فعند الوعي بأن ذلك مقصود الشارع ينعكس على السلوكيات بالإيجاب.

٢- وضع التشريعات والحُكم فى الجرائم البيئية . فسن تشريع يئى يعد رعاية لحق من حقوق الله . والحكم فى القضايا التى فيها اعتداء على البيئة لاشك يختلف عند الوعي بهذا المقصد.

٣- كما يحقق الوعي بهذا المقصد تخطى الحضارة الإسلامية للفقوة المادية مع الحضارة الغربية . لتصبح رعاية البيئة من مجالات التنافس الحضارى . ويكون لنا فيها سبق والشهود الحضارى المطلوب. وهذا الوعي هو تفعيل لنظرية المقاصد فى أطر جديدة تضاف إلى الأطر الأصلية^(١) وإعادة تشكيل للذهن وتعميق للتصور لرسالة الإسلام فى ما يخص حماية البيئة .

خاتمة البحث

ولعله فى ختام هذا البحث يمكن التأكيد على مجموعة من النتائج . أهمها : بيان أهمية الحفاظ على البيئة ، إذا تم تناوله ضمن إطار مقاصد الشريعة على أساس أن البيئة أحد المقاصد العامة ؛ وإن حمايتها من المصالح التى لا تعود بالنفع على فرد أو أفراد قليلين فى الجماعة فحسب ، بل إن عموم المجتمع يستفيد من رعاية البيئة ، وإذا ما اختل النظام والتوازن البيئى ، واستنزفت الموارد الطبيعية ، وتلوث الجو فإن هذا الاختلال سيعود على المجتمع بأسره بالدمار والهلاك . فى صحته ، ومحيطه ، وعلاقته بالبيئة نفسها .

^١ عصام أنس الزرقاوى . نظرية المقاصد محاولة للتشغيل . مجلة المسلم المعاصر ، عدد ١٠٣

وأرى من الحكمة التوقف عند هذا القدر خشية الإطالة ومستحضراً
قول العلامة الطاهر ابن عاشور (وعلي هذا فالخاصل للباحث عن المقاصد
الشرعية قد يكون علماً قطعياً أو قريباً من القطعي. وقد يكون ظناً ولا يعتبر ما
حصل للناظر من ظن ضعيف أو دونه فإن لم يحصل له من عمله سوى هذا
الضعيف فليفرضه مجرداً ليكون تهيئة لناظر يأتي بعده كما أوصي رسول الله -
صلي الله عليه وسلم - إذ قال (فرب حامل فقه إلي من هو أفقه منه) ^(١).

¹ ابن عاشور ، ص ٣٧ ، مرجع سابق

الفصل الثالث

جدوى الأدوات القانونية الدولية لحماية البيئة

تتيح الاتفاقات الدولية المتعددة الأطراف صياغة سياسة بيئية على الصعيد العالمي ، وتؤسس سلطة عمومية تتولى تسوية النزاعات البيئية. وتضع أدوات قانونية تحمي مصالح تعتبر ملكاً للإنسانية جمعاء ، مما أدى إلى بزوغ ما يعرف بالقانون الدولي للبيئة اختصاصاً قائماً بذاته ضمن منظومة القانون الدولي . وذلك يعد تحولاً في تفعيل حماية البيئة على مستوى المعمورة . فلقد كان طرح المشكلات البيئية وحلها يتمان على المستوى المحلي أو وطني ، حين كان نمو التقنيات بطيئاً وانعكاسات الأنشطة البشرية على البيئة ضعيفة جداً . لكن مع التطور التقني الملحوظ زادت كمية التلوث العابرة للحدود والقارات . و زاد الإحساس بخطورة المشكلة عالمياً فكان لابد من علاجها على مستوى دولي . واستحداث الآليات اللازمة لخفض الانبعاثات وتقليل الآثار الضارة .

ومن تلك الأدوات القانونية الدولية لحماية البيئة :

- ١ - بورصة الكربون
 - ٢ - الجودة والأيزو ١٤٠٠١ للإدارة البيئية
 - ٣ - الإجراءات الاقتصادية والتجارية
- وسوف نعرض تلك الأدوات القانونية الدولية ، وجوانبها الإيجابية والسلبية ، وانعكاساتها على الدول النامية . مع بيان جدوى تلك الأدوات . وهل هي حقاً جديدة على فكرنا الإسلامي ؟

المبحث الأول بورصة الكربون

هي سوق عالمية للكربون والغازات الدفيئة . وهم ستة غازات محده هي : ثاني أكسيد الكربون ، الميثان، أكسيد النيتروجين ، بالإضافة إلى ثلاثة مركبات فلورية. لكن اختصاراً أطلق عليها اسم بورصة الكربون . ويتم ذلك بفرض سقف على انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المسموح بإطلاقها . على أن يكون بإمكان الشركات التي تتجاوز الحد المسموح به شراء رخص إطلاق الانبعاثات غير المستخدمة من الشركات التي اتخذت خطوات باتجاه خفض انبعاثاتها . أما الشركات التي تتجاوز السقف المفروضة عليها . وتعجز عن شراء الرخص المتاحة ، فسُفرض عليها غرامة على كل طن من ثاني أكسيد الكربون تكون مسئولة عن إطلاقه.

والكوبونات التي تطرح في البورصة تسمى شهادات خفض الانبعاثات C E R S ومدتها ٧ سنوات أو ١٠ سنوات^(١)

سوق الكربون إذن نسخة طبق الأصل مما يجري في الأسواق المالية ؛ فيمكن أن تجري المبادلات إما مباشرة بين مالكي الحصص (بالتراضي) ، أو في المراكز المالية المنظمة (بورصات ثاني أكسيد الكربون) التي تسمح بتسهيل العمليات وضمان سلامتها . وهذه العمليات تتم إما فوراً . أو تكون مؤجلة ، أي وفق موعد تسليم يحدّد مسبقاً. وهكذا يمكن اعتماد سعرين مختلفين للكربون: سعر الطن المسلم فوراً (ويسمى "سبوت SPOT") وسعر الطن المسلم في كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٨ (ويسمى "مستقبلي Futures").

وفي هذه السوق يكون البائع من الدول أو الجهات ذات الانبعاثات المنخفضة من غاز ثاني أكسيد الكربون (الدول النامية) ، والمشتري صاحب الانبعاثات المتزايدة ، بينما السلعة ثاني أكسيد الكربون . الذي يمثل نحو ٥٠٪ من

^١ الأهرام ١٣ يونيو ٢٠٠٧ ، العدد ٤٤٠١٨

غازات الدفيئة. أما السعر، فحسب العرض والطلب ؛ فالكربون يباع في البورصة على شكل (Carbon Credits) وقد وضعوا لذلك جدولاً به رقم محدد للحدود المسموح بها لكل دولة^(١) وهذه قائمة بعض الدول حسب نسبة انبعاثات ثاني أكسيد الكربون جمعت هذه البيانات في عام ٢٠٠٤م من قبل الأمم المتحدة. وتضمنتها اتفاقية كيوتو (المرفق ب)

الدولة	النسبة المئوية من مجموع الانبعاثات	انبعاث ثاني أكسيد الكربون
الولايات المتحدة	٢٢.٢	٦,٠٤٩,٤٣٥
روسيا	٥.٦	١,٥٢٤,٩٩٣
مصر	٠.٦	١٥٨,٢٣٧
إسرائيل	٠.٣	٧١,٢٤٧

وأصبحت هذه التجارة ممكنة بفضل بروتوكول كيوتو الذي اعتمده عام ١٩٩٧م الاتفاقية الإطارية لتغير المناخ، كآلية تطبيق للاتفاقية.

و البروتوكول أخذ سنوات طويلة حتى وافقت عليه الدولة. ليدخل حيز التنفيذ في شهر فبراير ٢٠٠٥. وسبب ذلك معارضة الولايات المتحدة - الملوث الأول عالمياً - والمفترض بها خفض انبعاثاتها بنسبة ٧ في المئة والتي رفضت التوقيع على الاتفاقية إلا بموجب الآليات المرنة التي تحقق مصالحها وتمثل تلك الآليات المرنة في ثلاث نقاط هي :-

١- بورصة الكربون. أو مقايضة الانبعاثات Emission Trading أي

^١ اتفاقية كيوتو المرفق ب

التبادل بين الدول الصناعية في مستوى الانبعاث التي فرضتها الولايات المتحدة .
بذريعة أن تجربتها في مجال ثاني أكسيد الكبريت أدت دورها جيداً.

٢- أما الآلية الأخرى وهي آلية التنمية النظيفة Clean Development Mechanism التي تتضمن قيام الدول الصناعية بتمويل مشروعات للطاقة البديلة في الدول النامية . وبالتالي تحتسب عمليات التمويل هذه "نقاطاً" لصالح الدول الصناعية تخضع من النسبة المطلوبة منها.

وكل دولة صناعية وقّعت على معاهدة كيوتو تعمل بموجب آلية التنمية النظيفة (CDM). وتلتزم بتخفيض انبعاث الكربون إلى رقم محدد، خاص بكل دولة. وبما أن الدول الصناعية تجد من الصعب الوصول إلى الرقم المحدد لها، تلجأ إلى تخفيض نسبة معينة من الانبعاثات لديها والرقم المتبقي الذي يجب أن تخفضه تلجأ إلى الحصول عليه عبر تمويل مشروعات في الدول النامية.

وأية دولة صناعية يمكنها أن تحسّن أي مصنع في الدول النامية ، وإن نجحت تخفيض انبعاث الكربون منه بنسبة ٢٠ أو ٣٠٪ مثلاً، تُحسب هذه النقط للدولة الصناعية الممولة، هذه هي الفكرة التي سميت آلية التنمية النظيفة^(١)

٣- التناقص آخر لمزيد من المكاسب هو آلية (امتصاص الكربون) ، التي تعني احتساب مساحات الغطاء الأخضر في الدول المنتجة لغازات الدفيئة، واحتساب مساهمة هذه الغابات نظرياً في التقاط الكربون الجوي وخفض تركيزه في الجو. وتدعم بعض الدول مثل الولايات المتحدة هذه الأفكار؛ لأنها تتمتع بمساحات شاسعة من الغابات التي تمتص الكربون الجوي بكميات عالية، وقد أفادت دراسة لمنظمة السلام الأخضر أنه لو اتخذ قرار حول دور الأشجار في امتصاص الكربون الجوي فإن الولايات المتحدة ستتمكن من زيادة انبعاثاتها من الكربون بنسبة ١٪ بدلاً من تخفيضها بنسبة ٧٪ كما ينص بروتوكول كيوتو^(٢).

^١ محمد عبد الباسط الشمعقي ومحمد حاجي . استشراف أوى لآثار تطبيق كيوتو . الناشر مركز

الإمارات للدراسات والبحوث ٢٠٠٦ ، سلسلة دراسات إستراتيجية

^٢ باتر على وردد . العولمة ومستقبل الأرض . الأهلية للنشر عمان ٢٠٠٣

وبذلك حصل أكبر لوبي ملوث على "آليات مرنة" فالإدارة الأمريكية الحالية دفاعاً عن مصالح رجال الأعمال ترى أن التزام الولايات المتحدة بتخفيض انبعاثات الغازات الدفيئة بنسبة 7٪ عما كانت عليه عام 1990م خلال الفترة (2008- إلى 2012) لن يتم إلا بتكلفة عالية جداً. لذلك لم توافق إلا بتلك الآليات المرنة⁽¹⁾

♦ وظلت روسيا معارضة للاتفاقية. قائلة إن هذا الاتفاق يحذف لها، إذ لا يأخذ في الحسبان أن نصف ما تنتجه روسيا من الطاقة يذهب إلى تدفئة المساكن في الشتاء. في حين لا يوجد في إسبانيا أو فرنسا، مثلاً، ما يسميه الروس بالتدفئة المركزية. كما إن بلدان الغرب مطالبة بمكافأة روسيا لأن الغابات الروسية تزود العالم بالأكسجين.

لذلك شكل توقيع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين على بروتوكول كيوتو لتقليص انبعاثات غازات الدفيئة الولادة الشرعية لبروتوكول كيوتو.

ولم يكن قرار روسيا المصادقة على بروتوكول كيوتو نتيجة صحوة ضمير بيئية، بقدر ما كان مقابل الصفقة الاقتصادية- السياسية التي كانت تنتظرها من الاتحاد الأوروبي، إضافة إلى الثقة بأن البروتوكول سيحقق فوائد كبيرة لروسيا في مجالات بيع حصص الانبعاثات.

وقد وافقت روسيا على كيوتو بعد أشهر من الاجتماع التاريخي للرئيس بوتين وقادة الاتحاد الأوروبي والذي أتفق فيه على إزالة التحفظ الأوروبي على انضمام روسيا لمنظمة التجارة الدولية، وتخفيف لهجة الانتقادات الأوروبية لروسيا في مجالات حقوق الإنسان و سياسات بوتين الداخلية. .مقابل هذا الموقف من الاتحاد الأوروبي وافقت روسيا على المصادقة على البروتوكول، وضرب بوتين بعرض الحائط موقف مستشاره الاقتصادي أندريه إاريونوف الواضح في رفض المصادقة.

¹ حسن حسين المهنا "الاقتصاد الأخضر" مجلة الفيصل، عدد 234، ص 61، أبريل 1996

أما البلدان النامية المنظوية ضمن مجموعة الـ ٧٧ فلا تتوانى عن تذكير البلدان الصناعية بمسؤوليتها التاريخية . وتدعوها إلى أن تخفض تلوئها أولاً . وهى ترى فى نفسها ضحية سياسات التصنيع الخاطئة التى اتبعتها الدول المتقدمة ، وتعرضها لمصير مشؤوم فى حالة ارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية ؛ إذ لا تملك الموارد المالية والتقنية التى تعينها على مواجهة سلبيات هذه الظاهرة^(١) .

وقد وقعت مصر فى الخامس عشر من مارس ١٩٩٩ م على بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol بالأحرف الأولى . وأحيل لمجلس الشعب للتصديق على قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٢٧ لسنة ٢٠٠٣ ، ثم كان التوقيع النهائى على الاتفاقية . والتى وافق عليها مجلس الشعب فى أوائل ديسمبر ٢٠٠٤ . وأصبح من حق مصر الدخول إلى ما يسمى بورصة الكربون أو (بيع شهادات خفض الانبعاثات)^(٢)

واشترط البروتوكول على الدول كافة إنشاء مجلس لآلية التنمية النظيفة فأنشأت مصر المجلس المصرى لآلية التنمية النظيفة بقرار من وزير البيئة . على أن ترشح الوزارات المعنية المختلفة ممثلين لها فى عضوية المجلس . وأن يعين وزير البيئة رئيس المكتب المصرى لآلية التنمية النظيفة وأعضاءه .

ويختص مجلس آلية التنمية النظيفة بوضع سياسات التنمية النظيفة فى مصر وأن يضع تصوراً لدور المؤسسات الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص والجمعيات الأهلية . مع مراجعة الإطار التشريعى والتنظيمى لتنفيذ الآلية فى مصر . مثل تحديد الخط المرجعى . والتصديق القانونى على خفض والمراقبة . والتحقق من التنفيذ . مع وضع توجهات إعلامية تتضمن معلومات لزيادة الوعى والترويج للمشروعات النظيفة.^(٣)

^١ د/ حسين عبد الله . مستقبل النفط العربى . النفط فى ظل كيوتو . مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٦

^٢ المصرى اليوم ، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٦ ، عدد ٨٩٨

^٣ زينب مرعى . بوادر هجمة جديدة لسامسرة ، (تجارة الكربون) ، على دول المنطقة الانبعاثات المتقدمة من الدول المتقدمة جريدة السفير بيروت .

و هناك أمثلة عدة للمشروعات النظيفة في مصر . منها بالتعاون بين مصر والبنك الدولي (صندوق تمويل الكربون) حيث أوضح ممثل البنك مدى الاهتمام بتطبيق آليه التنمية النظيفة خاصة في مجالات صناعة حمض الهيدروكلوريك وحمض النيتريك ومصانع الألومنيوم والسكر في مصر . بعد هذا العرض لمضمون فكرة بورصة الكربون . وحيثيات نشأتها نسوق الانتقادات الموجهة لبروتوكول كيوتو وبورصة الكربون :

أولا : الانتقادات الموجهة لبروتوكول كيوتو وبورصة الكربون :

١- لم يكن الانضمام إلى البروتوكول نتيجة صحوة ضمير بيئية مفاجئة . ولا التزاماً أخلاقياً بحماية الكوكب بقدر ما كان رضوخاً لصفقة اقتصادية . وتحقيقاً لمكاسب مادية . ويظهر ذلك في انضمام روسيا بعد ضغوط من الاتحاد الاوربي . كما أن أمريكا ظلت معارضة للاتفاقية حتى حصلت على الآليات المرنة السابق عرضها فلم يكن الأمر إذن التزام بيئي بل انتهازية اقتصادية سياسية^(١)

ونسوق مثلاً آخر هو خطة المفوضية الأوروبية لخفض متوسط انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون المسببة للاحتباس الحراري لسيارات الركاب الحديثة إلى ١٢٠ جراماً لكل كيلومتر بحلول عام ٢٠١٢ .. وفرض المفوضية غرامات على شركات صناعة السيارات المخالفة ، وقد رحبت بهذا فرنسا وإيطاليا لان مصانع السيارات فيهما تنتج سيارات صغيرة وأقل تلويثاً للبيئة ، في حين واجهت الفكرة معارضة شرسة في ألمانيا . التي تنتج سيارات أكبر حجماً وأكثر تلويثاً للبيئة .

٢- الآليات المرنة التي أرساها البروتوكول لا تخلو من آثار سيئة ولا يبنى عليها الحد من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون . بل فقط مقايضة الانبعاثات بين الدول . وإعطاء بعضها الحق في التلوث بموجب تلك الكوونات . فاتفاق

^١ العولمة ومستقبل الأرض ، باتر على وردم الأهلية للنشر ، عمان ٢٠٠٣

كيوتو يمثل عولة اقتصادية للشأن البيئي وخلق شبكة للأسواق البيئية^(١)

وقد شرع السماسرة فى المضاربات حتى قبل بدء تنفيذ بروتوكول كيوتو. إذ العمل بهذه الآلية الواردة فى بنود البروتوكول يجب ألا يبدأ قبل عام ٢٠٠٨ وسماسرة هذه الرخص شرعوا قبل ذلك الموعد . وأصبحوا قطاعاً مزدهراً للمضاربات إذ بلغت المبالغ الإجمالية المتحققة فى هذه الأسواق آلاف المليارات من الدولارات خلال بضعة عقود.

٣- كان حرص الشركات على دخول بورصة الكربون على حساب ملوثات أخرى . فمثلاً شركات الفحم طوّرت منتجات تحتوي على نسبة قليلة من الكربون ، بحيث تطلق كمية أقلّ من ثاني أكسيد الكربون مما جعلها قادرة على المنافسة . لكن القدرة الحرارية المنخفضة للفحم الجديد ، الذي قلت فيه نسبة الكربون ، تفرض استهلاك كمية أكبر منه . مما يزيد تلقائياً من انبعاث نوع آخر من الملوثات.

٤- والنطق الخفي للاستثمارات المرتبطة بالاحتباس الحراري هو منطق الربح . ودليل ذلك ان كثير من صناديق الكربون أسست بغية إدارة محفظات الحصص ، خصوصاً تلك المسلمة عن طريق مشروعات "آلية التنمية النظيفة" والبنك الدولي هو المدير الأوّل لأصول الكربون هكذا نفهم التسابق إلى مشروعات "آلية التنمية النظيفة" و"متاخ اللوبيات الصناعية"^(٢)

^١ حيث تذهب بريطانيا إلى أبعد من ذلك ، فتعد حالياً مشروع قانون يهدف إلى منح قيمة من الحصص لكل شخص بالغ . كقرض على بطاقة الكترونية ، تتناقص عند كل استهلاك للطاقة الأولية : مثل تعبئة البنزين ودفع فاتورة الكهرباء... وحالما يستهلك القرض الممنوح له ، لا تعاد تعبئة بطاقة اعتماد - ثاني أكسيد الكربون إلا بسعر مرتفع جداً ، أو يتم شراء وحدات إضافية من السوق. مقال ديفيد ميليباند وزير البيئة البريطاني الشاب يتألق ، (صحيفة الاقتصادية العربية - فاينانشال تايمز -

الخميس ٠٣ جماد أول ١٤٢٩ هـ الموافق ٠٨/٠٥/٢٠٠٨ م - العدد ٥٣٢٣

^٢ جريدة الوطن السعودية ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧ هل يجب احراق كيوتو

٥- وهذا المنطق النفعي يفرغ الإتفاقات الدولية من أي بعد ؛ لما تتضمنه من فرص للتهرب، التي منها اللجوء إلى حقوق الانبعاثات (بورصة الكربون). بدلا من الخفض الفعلي لانبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحرارى. مما سيؤدي في نهاية الأمر إلى زيادة انبعاث تلك الغازات في بلدان الشمال.

وعلى الرغم من ذلك يتباهى هؤلاء ببورصة الكربون وأن سوق الحصص (الكوتا) كان فعّالاً ، فيمكن من ثمّ تعميمه. وقد بدأ بالفعل إنشاء أسواق إقليمية للكربون . مثل (السوق اليابانية والكندية والبنك الدولي) وكل هؤلاء ينادون بنظام الرخص القابلة للتبادل . رغم أن هذا الإجراء لا يتفق ومنطق الحماية^(١)

نحن إذاً بعيدون جداً عن النوايا الحسنة التي ترصّع النشرات الرسمية . سواء تلك التي تحدّثت عن حماية البيئة أم عن نقل التكنولوجيا أم المساعدة على التنمية المستدامة.

إذن وجب الحذر من اعتبار "كيوتو" وتوابعه هما (الحلّ العجائبي) لحماية البيئة . بعد أن تأكدنا من أن بروتوكول كيوتو لم يكن "نقياً" من حيث المبدأ . وإن رفع شعارات حماية البيئة . وإن مدحه من مدح بأنه خلق الحافز المادي لحماية البيئة . وأنه السبيل الأفضل لمواجهة المشكلة البيئية^(٢)

فإلى متى سيعزل البعد السياسي والاقتصادي ومصالح الكبار هو المنطق السائد على البعد العلمي؟! وإلى متى ستظل أجواء المفاوضات حول التغيرات المناخية اقتصادية بالدرجة الأولى ، وقد ظهر جلياً أن الدول كلها تقدم مصالحها الاقتصادية في تحديد مواقفها البيئية.

¹ لماذا اجتمعوا في كيوتو؟ مجلة المدينة العربية. تصدرها منظمة المدن العربية. العدد ٨٣ ، ص ٥٤

² جريدة الوطن السعودية . المرجع السابق

وإن غياب مفهوم الاحتماب . والبعد الديني في حماية البيئة . وتغليب الطابع الربحي . مع غياب الوعي البيئي الصحيح أو عدم يقظته بالحفظ المطلوب . سيتج لنا كل يوم جديداً من الحيل . فبروتوكول كيوتو ينتهي العمل بالمرحلة الأولى منه عام ٢٠١٢ ولا شك إن المرحلة الثانية سوف تأتي بآليات جديدة . وأخيراً وعلى الرغم من فيض النصوص التشريعية لحماية البيئة . وقول القانونيين إن أي حقل من حقول القانون لم يشهد نمواً أكثر سرعة مثل قانون البيئي . ورغم ذلك السيل من التشريعات سيبقى علاقة الإنسان بالكون ونظراته إليه تنعكس على أسلوب الحماية الذي يختاره .

ثانياً : الأدوات التجارية والاقتصادية

منذ ندوة (ريو)^(١) بدأ التفكير في تلك الأداة كإستراتيجية لحماية البيئة وكانت الإجراءات المقترحة هي حظر تجارى على المنتجات الملوثة . وتحديد حصص الإيرادات والتصدير والترخيص بها والأجراء الثالث هو العنونة الإيكولوجية أو العلامة البيئية على المنتجات . بحيث تعطى البلاد المشترية الخصائص البيئية المميزة أو الضارة للمنتج .

وحتى الآن هناك جدل حول تلك الاجراءات . لأن الحصول على العنونة البيئية للمنتجات يثير إشكالات تتعلق بالمنافسة الدولية وان كان التعامل بالعلامة البيئية يتم حالياً على مستوى وطني فقط مثل (الاتحاد الاوروبى) .

أما الرسوم البيئية . والضرائب البيئية وإن كانت تطبق في إطار وطني في بعض الدول إلا أن جعلها عالمية يثير بعض الاعتراضات . إذ يعتبر البعض الرسوم البيئية أو الضرائب البيئية التي هي أساس لمبدأ من يلوث يدفع حجة للشركات الملوثة الراغبة في التحرر من السلطات العامة وترك الحرية للسوق فتلك الرسوم تعطى الحق في التلوث ويصبح التلوث حقاً (وهناك مزيد من إيضاح تلك الآلية فى الباب الثالث ضمن مبحث المبادئ البيئية) .

¹ The World Bank (1992) World Development Report 1992: Development and the Environment, P.66 (OUP)

المبحث الثاني

الجودة ومواصفات الأيزو ١٤٠٠١

تسارع حركة التغيير، والمنافسة الشديدة^(١) التي يشهدها قطاع الإنتاج والخدمات، وتوسع الأساليب والتقنيات المستخدمة بصورة غير مسبوقه، مما جعل الشركة أو المؤسسة في حالة بحث، وسعي دائم لتضمن لنفسها مكانة في السوق. وقد غدت هذه الصفة لازمة لأنواع الخدمات والقطاعات على اختلاف مستوياتها. سواء أكانت المنشأة كبيرة أو متوسطة أو صغيرة. ونتيجة لذلك ظهرت عدة مفاهيم مرافقة لهذه الأجواء التنافسية، تشكل وسيلة للدخول والاستمرارية في عالم المنافسة بقوة وتمكّن، ومن هذه المفاهيم مفهوم الجودة الشاملة، التي تقاس بشهادة الأيزو.

أولاً: تاريخ الجودة:

كانت جودة المنتج تعتمد بشكل رئيس على مهارة الحرفي أو الصانع، الذي كان مسئولاً عن تطوير المنتج خلال مراحل الإنتاج جميعاً ثم اقترح العالم تيلور Taylor فكرة تحديد مسؤوليات العامل، بحيث تقسم مراحل تطوير المنتج على العاملين في المصنع بهدف تركيز طاقات العامل ومهاراته في إطار معين، واستخدمت الطرق الإحصائية في فحص قدرة أداء العملية الإنتاجية^(٢) وقبل أن يظهر الحديث عن مواصفات عالمية للجودة، وجدت بعض المواصفات العسكرية في بعض الدول الكبرى مثل المواصفات العسكرية الأمريكية MIL Q 9858، والمواصفات العسكرية لحلف شمال الأطلسي AQAP والمواصفات العسكرية الفرنسية RAQ، وجميع هذه المواصفات

^١ مأمون السلطى وسهيلاً إلياس، دليل عملي لتطبيق أنظمة إدارة الجودة الأيزو، دار الفكر

سوريا ١٩٩٩

^٢ المجلة الإلكترونية للكلية الإلكترونية للجودة بدبي

السابقة كانت تحدد شروطاً لأنظمة الجودة للمصانع التي يتعامل معها الجيش كموردين لمنتجات صناعية تدخل في الصناعة الحربية النهائية لتلك الدول . لذلك لا غرابة في أن نجد تعبيرات مثل (العصف الفكري لتحقيق ثقافة الجودة . وتحليل القوة لبيان نقاط الضعف والقوة) كمصطلحات مازالت موجودة كأدوات للجودة.

ثانياً : تطور نظام إدارة الجودة :

وتطور مفهوم تأكيد الجودة بعد الحرب العالمية الثانية .على مراحل .هي :
الفحص : إذ تورد الشركة للعميل منتجاتها فإن كانت مخالفة للمواصفات . يقوم العميل بتقديم شكوى وإعادة المنتجات المخالفة للشركة . وقد أصبحت هذه الطريقة مكلفة للشركة ، خاصة عندما أصبح لها منافسون يستطيعون توريد المنتج دون عيوب فيه . مما اضطر الشركات إلى إجراء تغيير في إدارة عملها . وفصل المنتجات المعيبة قبل توريدها .

مرحلة التفتيش : في هذه المرحلة أصبحت الشركة تفحص المنتج في المرحلة الأخيرة للإنتاج وقبل شحنه للعميل . ومع أن هذه الطريقة أفضل من سابقتها ، لأنها قللت من عدد شكاوي الزبائن ، فإن الشركة أدركت الخسارة التي تكبدها جراء إنتاج منتجات سرعان ما ترفض قبيل شحنها . واتضح للشركات أن من الأفضل أن تكتشف العيوب في المنتجات مبكراً أثناء الإنتاج ضبط الجودة : وهي عملية تخطيط لفحص العمليات منذ بداية الإنتاج مما يساعد على كشف الأخطاء مبكراً . وان لم يمنع من تكرار حدوثها .

مرحلة مراقبة الجودة : في هذه المرحلة من تطور الجودة ، أسست أقسام للجودة في الشركات أوكلت إليها مهام مراقبة جودة المنتج واختباره ورفع تقارير عنه خلال مراحل الإنتاج المختلفة . مما يعنى الكشف المبكر عن العيوب قبل حدوثها .

توكيد الجودة: أتاحت هذه المرحلة قيام العامل نفسه بالضبط الإحصائي للعمليات التي ينفذها. فيما يسمى "جودة في المنشأ". وبها يتمكن العامل من أن يكتشف مدى انحراف القطعة التي ينتجها عن الحدود المسموح بها فيوقف الإنتاج غير المناسب. ويحول دون الحصول على منتجات معيبة. وهذا ما أدى بدوره إلى منع إعادة تشغيل القطع المعيبة. والتقليل من القطع التالفة. غير أنه ما زالت حالات تحدث فيها مشكلات في جودة المنتجات خارج نطاق سيطرة عامل التشغيل. وهذا ما أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل تطور الجودة. تلك التي استدعت مشاركة كافة أقسام الشركة في برنامج الجودة⁽¹⁾.

إدارة الجودة: في هذه المرحلة من تطور الجودة أصبح كل عامل في الشركة منذ تصميم المنتج مروراً بعملية شراء المواد الأولية وحتى الإنتاج النهائي له وتسليمه للزبون. يعي أن الهدف هو إنتاج منتجات بأقل الأسعار وبأفضل جودة. وتسليمها للزبون بأسرع ما يمكن. وهنا فقط تعتبر الشركة ضمن الشركات ذات الصنف العالمي. وتطبق أنظمة إدارة الجودة اليوم لدى أكثر من ربع مليون مؤسسة صناعية وخدمية في العالم.

ثالثاً : البنية الداعمة للجودة⁽²⁾:

١ - ثقافة الجودة: أكد مؤسسو علم الجودة على أهمية بناء ثقافة الجودة، كشرط مسبق لا بد منه، كي تنجح المؤسسات في مساعيها لتحسين الجودة. ولا بد من غرس مجموعة من القيم ذات الصلة بالجودة من أجل تطوير قدرة المؤسسة على مجابهة الظروف الخارجية. وعلى إدارة شؤونها الداخلية. وعلى الرغم من التمييز بين الثقافة العامة في المجتمع والثقافة داخل المؤسسة. ومع أن الأخيرة يمكن أن تتأثر بالثقافة العامة إلا أنه يمكن بناؤها داخل المؤسسة.

¹ مأمون السلطي وسهيلة الياس مرجع سابق

² الموقع الإلكتروني للأيزو

ويقولون إن تنظيم الجودة لن يتحقق إلا بتثقيف العمال على أنهم هم الذين يبنون جودة المنتج وهم. الذين يحسنون عمليات الإنتاج. ويقومون بالأعمال التصحيحية لمعالجة العيوب فيه. لأن تحقيق الجودة ليس أوامر عليا. بل عملية تطوير مستمر يقوم بها العاملون في المؤسسة. ومهمة الإدارة هي تحفيزهم على القيام بذلك. ويتم توزيع المسؤولية عن الجودة بين أقسام الإنتاج كافة. وأن يكون كل عامل مسئولاً عن جودة ما ينتجه. وضرورة تنفيذ الأعمال دون أخطاء من المرة الأولى. هذه كلها من الأمثلة على القيم العامة للجودة. كما أن مشاركة العامل أساسية لتحسين الجودة.

ولتحقيق متطلبات الجودة في المؤسسات لم يكن بد من وضع المواصفات الفنية لتحقيق هذه المتطلبات. ولقد يسرت عائلة المواصفات القياسية ISO 9000 على المنشآت مهمة تأسيس أنظمة إدارة الجودة بتحديد الصفات التي يجب أن تتسم بها هذه الأنظمة.

رابعاً : ما المقصود بالأيزو :

الأيزو كلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية القديمة "ISOS" وتعنى : "المعادل أو المساوي" أي تساوى الشيء بالمقارنة بالمواصفة^(١). أو هي الكتابة العربية للحروف اللاتينية «ISO» التي هي اختصار لاسم الهيئة الدولية للمواصفات والمعايير International Organization for Standardization. ومقرها جنيف. وهي اتحاد عالمي. ومنظمة غير ربحية. تضم في عضويتها ممثلين عن أكثر من ٥٦١ هيئة تفتيش وطنية، وتمثل جهودها بعمل مواصفات ومقاييس موحدة ومقبولة من كل الأطراف والدول لتقييم جودة المنتجات والخدمات المتبادلة تحت ضوابط ومقاييس تحقق الجودة في ظل تحرير التجارة الدولية في شتى المجالات، وقد تمنح هذه الشهادة لمصنع، أو بنك،

^١ د / عبد العزيز جميل مخيمر. دليل المدير العربي إلى سلسلة الأيزو. إصدار المنظمة العربية للتنمية الإدارية

أو مستشفى ، أو مدرسة ، أو عيادة طبيب أو أي شيء آخر . ولعائلة الأيزو الكثير من الذين ينتمون إلى سلسلة المواصفات القياسية "ISO" ، حيث إنهم يتبنون تقريباً الإطار نفسه والمفاهيم العامة لها ولكنها تختلف في مجال تركيز الاهتمام .
وتعرف هنا على أهمها وأشهرها بصورة مختصرة تناسب الحال والمقال :

١- إدارة نظام توكيد الجودة:

إدراكاً من المنظمة الدولية للمواصفات والمقاييس (ISO) بأهمية نظم الجودة وإدارتها ، إصدارت مجموعة من المواصفات القياسية الدولية عن إدارة وتوكيد الجودة عام ١٩٨٧ م .. وسلسلة الأيزو ٩٠٠٠ وهي الأكثر شيوعاً وترتكز على أحدث مفاهيم الجودة الشاملة . ثم تطورت إلى :

- آيزو ٩٠٠١ والتي تطبق على المؤسسات التي تصمم وتنتج وتبيع منتجاتها وهي المواصفة الأكثر شمولاً وتحتوي على ٢٠ عنصر

- آيزو ٩٠٠٢ تطبق على المؤسسات التي تنتج وتبيع منتجاتها فقط ، دون ان تشمل على مراحل التصميم الهندسي والخدمة ما بعد البيع .

- آيزو ٩٠٠٣ تطبق على المؤسسات التي تبيع المنتجات فقط.

- آيزو ISO 9004 وتتضمن التعليمات الإرشادية التي يجب إتباعها من قبل الشركات للحصول على إحدى شهادات الأيزو ٩٠٠١ و ٩٠٠٢ و ٩٠٠٣ .

٢- سلسلة مواصفات إدارة نظام البيئة (نشأة نظام الإدارة البيئية الأيزو ١٤٠٠١)

لقد كانت هيئة المواصفات البريطانية من أوائل الهيئات التي أبدى اهتماماً بإيجاد مواصفات لإدارة البيئة^(١) ، ففي العام ١٩٩٢م ظهر أول إصدار لمواصفة دولية لنظام إدارة البيئة وهي المواصفة BS7750 وبدأ تطبيقها في ٢٠٠ شركة صناعية في المملكة المتحدة. وتم تعديل هذه المواصفة وأعيد إصدارها في فبراير ١٩٩٤م لتوافق مع النظام الخاص بإدارة البيئة بالاتحاد الأوروبي .
EMAS

^١ د / أسامة الخولي ، البيئة وقضايا التنمية والتصنيع . ص ٢٥٦ سلسلة عالم المعرفة . العدد ٢٨٥

وإدراكاً من المنظمة الدولية (الأيزو) لضرورة إيجاد مواصفات إدارة بيئية دولية موحدة بغرض منح شهادات المطابقة، شكلت في عام ١٩٩٣م لجنة فنية جديدة تحمل الرقم ٢٠٧، للعمل على إصدار أول مواصفات لإدارة أنظمة البيئة من قبل الأيزو، وكان أول إنتاج لهذه اللجنة الفنية في سبتمبر عام ١٩٩٦م عندما ظهرت المواصفة ISO14001:1996 وقد تم اعتمدها دولياً، وبناءً عليها تمنح شهادة الأيزو ١٤٠٠١ "ISO14001". هذا وقد تم تحديث هذا الإصدار عام ٢٠٠٤م وهي ISO 14001:2004.

وسلسلة الأيزو ١٤٠٠١ هي مجموعة من نظم الإدارة البيئية التي ظهرت بهدف تحقيق مزيد من التطوير والتحسين في نظام حماية البيئة، مع عمل توازن مع احتياجاتها، وهي توفر الآلية التي يمكن من خلالها متابعة الأداء البيئي وتطوره، وهي تشتمل على معايير عدة يستوجب على الشركات تبنيها من اجل حماية البيئة.^(١)

٣- سلسلة المتطلبات العامة لكفاءة مختبرات المعايرة والاختبار ISO 17025 2000:

حددت هذه المواصفة المتطلبات العامة للكفاءة اللازمة لإجراء الاختبارات أو المعايرة، بما في ذلك سحب العينات. ولا بد من التنبه إلى أن المواصفة لم تتعرض لمطابقة عمل المختبر والمتطلبات القانونية ومتطلبات السلامة. وهذه المواصفة تغطي متطلبات الكفاءة الفنية التي لم تتعرض لها مواصفة الأيزو ٩٠٠٠.

٤- سلسلة مواصفة نظام إدارة الصحة والسلامة المهنية OHSAS 18001 1999:

وهي ذلك الجزء من نظام الإدارة المتكامل الذي يهتم بسياسة السلامة والصحة المهنية وتحسين أدائها. وإن لم تكن في الحقيقة من ضمن سلسلة المواصفات القياسية للأيزو لكنها تبني الإطار نفسه والتركيب العام لها. وتم

¹ موقع البيئة الآن على شبكة الانترنت.

تعديل المواصفة Ohsas18001/1999 عام ٢٠٠٨ لتصبح ضمن سلسلة الايزو Ohsas18001/2008 وأصبحت ضمن الشهادات والأنظمة المعتمدة من قبل منظمة الأيزو الدولية

سلسلة مواصفات إدارة أنظمة سلامة الغذاء ISO 22000 2005:

الهاسب HACCP: الأيزو ISO 2200 هو نظام مكون من مجموعة من العناصر التي تعمل على تأمين سلامة الغذاء في المراحل التي يمر بها على امتداد السلسلة الغذائية حتى استهلاكه، ومعترف به دولياً في مجال سلامة الغذاء ومدعم بأنظمة آيزو (ISO) أخرى قابلة للتطبيق.

وكلمة HACCP مختصر من نظام تحليل المخاطر وتحديد نقاط التحكم الحرجة HAZARD AND ANALYSIS CRITICAL CONTROL POINTS أي أنه النظام الوقائي والذي يعني بسلامة الغذاء من خلال تحديد الأخطار التي تهدد سلامته، سواء أكانت بيولوجية أو كيميائية أو فيزيائية، ومن ثم تحديد النقاط الحرجة التي يلزم السيطرة عليها لضمان سلامة المنتج^(١).

٦- سلسلة مواصفات إدارة نظام أمن المعلومات ISO 27001:2005:

ألحقت الاختراقات الأمنية للمعلومات بالاقتصاد العالمي خسائر ضخمة تقدر بمليارات الدولارات. وكان من أخطر الاختراقات الهجمة المشفرة عبر شبكة الإنترنت التي أطلق عليها اسم فيروس Kles، وفيروس Love Bug. ولذلك دعت الحاجة إلى ما يسمى إدارة نظام أمن المعلومات. واستطاعت المنظمة الدولية للتفتيش ISO إعداد مواصفة عالمية لهذا. هي مواصفة أيزو ٢٧٠٠١، التي تعد أحد أحدث إصدارات المنظمة.

^١ ورقة عمل من إعداد خالد أبو عصبه رئيس لجنة مواصفات الأيزو بالمجمع العربي للإدارة والمعرفة - موقع المجمع

٧- سيجما ستة

سيجما - هو الحرف الثامن عشر في الأبجدية الإغريقية. ورمزه σ ، وقد استخدم الإحصائيون هذا الرمز للدلالة على الانحراف المعياري . وهي طريقة إحصائية ومؤشر لوصف الانحراف أو التباين أو التشتت . أو عدم التناسق في عملية معينة بالنسبة للأهداف المنشودة^(١) ويدل مبدأ سيجما ستة على أن المنشأة تقدم خدمات أو سلعاً خالية من العيوب تقريباً خلاصة الأمر أن فكرة سيجما ستة تكمن في أنه إذا كانت المنشأة قادرة على قياس عدد العيوب الموجودة في عملية ما فإنها تستطيع بطريقة علمية أن تزيل تلك العيوب . وتقترب من نقطة الخلو من العيوب.

وظهور سيجما ستة ما هو إلا امتداد طبيعي لجهود الجودة ؛ لذلك تعد مبادرة لتطوير الجودة ، تربط بين أعلى جودة وأقل تكاليف للإنتاج . ولا يمكن أن تعمل بمعزل عن الجودة . إذ توفر إدارة الجودة لسيجما ستة الأدوات والتقنيات اللازمة لإحداث التغييرات الثقافية وتطور العمليات داخل الإدارة وتعمل سيجما ستة على تحويل (إدارة رد الفعل) إلى إدارة (معالجة المشكلات قبل وقوعها). وتؤمن بالمشاركة الكاملة ، بمعنى مشاركة كل فرد في العمل الجماعي . كما تؤكد على أهمية الاتصالات اللامركزية والأفقية . والوقاية بدلاً من التفتيش الذي يستنزف الطاقات البشرية والمالية.

وكانت شركة موتورولا من الشركات الأولى التي وضعت منهجية وأسلوب سيجما ستة واستخدمته عام ١٩٧٩ ، فحقق لها إرباحاً طائلة . وتطبق من خلال نموذج بسيط يطلق عليه (DMAIC) (عرّف - قس - حلل - طور - اضبط) . ونموذج التطور الإداري هذا مماثل لنموذج إدارة الجودة الشاملة السابق المعروف بـ (PDSA) (خطط ، أعمل ، تعلم ، افعل). وتعرف شركة

^١ مأمون السلطى وسهيل الياص . المرجع السابق

- جنرال الكترك - جودة ال Six Sigma بأنها "منتج للتعليم ودليل لخلق قيمة مضافة".

٨. قوانين الأوشا والاهتمام ببيئة العمل

القوانين والتشريعات الفدرالية الأمريكية بندرج تحتها خمسون عنوان ،
وتقع القوانين والتشريعات

الخاصة بالسلامة والصحة المهنية تحت عنوان رقم ٢٩ والأوشا (OSHA) هي الحروف الأولى من إدارة السلامة والصحة المهنية في وزارة العمل الأمريكية ، OCCUPATIONAL SAFETY & HEALTH ADMINISTRATION

وهي الجهة المسئولة عن إصدار تشريعات السلامة والصحة المهنية والموصفات القياسية الخاصة بها ، كذلك متابعة وفرض تنفيذها في مواقع العمل المختلفة بالولايات المتحدة الأمريكية.

خامسا : فوائد الحصول على شهادة الأيزو^(١)

- ◆ ترشيد استهلاك الطاقة والموارد الطبيعية
- ◆ تقليل الفاقد والحد من التلوث
- ◆ التوافق مع القوانين والتشريعات البيئية
- ◆ تحسين صورة الشركة وأداءها البيئي مما يزيد من سمعتها الحسنة.
- ◆ اكتساب تقدير واعتراف الجهات العالمية مما يفتح أسواق التصدير
- ◆ رفع وزيادة الوعي بالبيئة لدى العاملين بالشركة.
- ◆ تحسين الوضع البيئي في الدولة وفي العالم ككل.
- ◆ زيادة القدرة التنافسية للمؤسسة عن طريق تحسين صورتها لدى المستهلك^(٢)

^١ البيئة المصرية العامة للمواصفات والجودة

<http://www.iso.org/iso/home.htm>

^٢ د / أسامة الخولى . البيئة وقضايا التنمية والتصنيع . ص ٢١٥ سلسلة عالم المعرفة . العدد ٢٨٥

كما تزايدت أهمية الأيزو لأسباب عدة . خاصة بعد تطبيق مقررات منظمة التجارة العالمية في الأول من يناير ٢٠٠٥ م وأشتداد التنافس على الأسواق . ومحاولات إرضاء العملاء . والخطوة الأولى لإرضاء العملاء هي الحصول على إحدى شهادات الأيزو . ومما يزيد أهميتها ، أنها المدخل لدول الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، وهذه ميزة تنافسية للمؤسسات التي حصلت عليها . وبعض المؤسسات والشركات تشترط على مثيلاتها الأخرى التي تتعامل معها الحصول على شهادة المواصفات الدولية للجودة .

ويرى الدكتور (حيدر)^(١) أن التطور الاقتصادي العالمي مر بمراحل ثلاث هي :
مرحلة الموجة الزراعية - مرحلة الموجة الصناعية - مرحلة موجة ما بعد الصناعة أو عصر المعلوماتية . والمرحلتان الأولى والثانية كانت المادة فيهما عنصراً أساسياً في الإنتاج . أما في المرحلة الثالثة فهيمنت آليات اقتصادية جديدة بعيدة عن المادة . حتى سميت (الاقتصاد التمييزي الأعلى) . وأساس هذا الاقتصاد وقيمة الإنتاج فيه تتمثل في الفكر والمعرفة المطبقان علي المادة فتصبح سلعة . وهي محاولة لتعظيم الجانب الفكري الذي مصدره الشعوب المتطورة وتصغير وتقليل المعادل المادي والجهد البشري اللذين مصدرهما الشعوب النامية . في صورة من صور الفكر الاستغلالي للشعوب .

وكان لا بد من أدوات لتنفيذ هذا الفكر . فكانت السوق الدولية المفتوحة . واتفاقيه التجارة الدولية . والتي نتجت عنها تقنيات للتعاملات مثل (الأيزو ISO) . بمعنى أن غزو الشعوب النامية آت مع دخول عصر المعلوماتية لا محالة . وعلى الدول النامية أن تلم بتلك التقنيات الدولية - والتي منها الأيزو ودراسة

مرجع سابق

^١ دكتور ومهندس / حيدر محمد أمين طرايشي . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع . المرشد إلى طريق الأيزو وتطبيقاته ومؤشرات علي طريق المعيار .

تأثيرها علي تلك الشعوب ، ومن ثم تتخذ موقفاً منها. سواء بالقبول أم بالرفض. ثم يعود فيقول أن تلك الدول لا تستطيع الرفض ومقاومة الهجوم المنظم الذي يشنه عصر المعلوماتية بأسلحة فكرية واقتصادية واجتماعية . لذلك ينصح بتطوير تلك المفاهيم الوافدة وجعلها داعمة جزئياً لمسيرة الشعوب النامية⁽¹⁾

المبحث الثالث

الانتقادات التي وجهت للأيزو

تلك كانت إطلالة على مفهوم الجودة والأيزو ١٤٠٠ للإدارة البيئية ومميزاتها. وتعرض الآن لبعض الانتقادات والتصورات الخاطئة في جدوى حمايتهم للبيئة.

١. الأيزو شهادة تابعة لمنظمة غير حكومية . ليست جزء من الأمم المتحدة ورغم ذلك لها كل هذا النفوذ.
٢. كافة المواصفات الصادرة عن المنظمة اختيارية مع إن الكثير من الدول تعتبرها مواصفات وطنيه لها.
٣. الحصول علي شهادة الايزو لا يكون من قبل منظمه المواصفات والمقاييس الدولية مباشرة ولكن عن طريق شركات مانحه معتمده حيث يقوم مفتشون من تلك الشركات وليس من المنظمة بزيارة المؤسسة الراغبة في الحصول علي الشهادة وهذه الشركات المانحة شركات خاصة أيضاً⁽²⁾.
٤. التزايد المستمر في أعداد الوكلاء للهيئة الدولية للمواصفات (الشركات المانحة) ، مما يخلق منافسة بينها وبالتالي تحدث التنازلات.
٥. عدم اتفاق هؤلاء الوكلاء علي تفسير لهذه المواصفات . مما يخلق كثيراً من التضاربات.

¹ دكتور ومهندس / حيدر محمد أمين طرايشي . مرجع سابق

² د / أسامة الخولي . البيئة وقضايا التنمية والتصنيع . دراسات حول الواقع البيئي في الوطن العربي والدول النامية ، ص ٢٧٩ . سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٢٨٥ ، عام ٢٠٠٢

٦. التكلفة الكبيرة المباشرة وغير المباشرة لعملية التطبيق والحصول على الشهادة.^(١)

٧. الجهد الكبير الذي يحتاجه نظام توثيق الجوده وتدريب العاملين علي عمله الأرشفة.

٨. الشهادة مؤقتة بثلاث سنوات عادة من تاريخ الحصول عليها ثم تعاد الإجراءات للحصول عليها أو لتجديدها وما يتبعه ذلك من زيارات تفتيشية جديدة.

٩. الشهادة ليست دليلاً علي جودة منتجات المنظمات التي حصلت عليها. إذ لا تتعلق بجودة المنتج. وإنما بجودة النظام الإداري. فنظام أداره الجوده هو أحد أنظمة الإدارة. مثل الإدارة المالية و الإدارة البيئية. وهي تعنى أن المنتج تم وفق عمليات موثقة ومطابقة للمواصفة وليست دليلاً على أن المنتج جيد.

٦. نظام إدارة الجودة حقل من حقول العلوم الإدارية. لكن نجد من يتولي زمام منهجها من غير المتخصصين في العلوم الإدارية ولا يمكن تحسين الجودة دون قيادة فعالة، فالجودة ليست - كما يتبادر إلى الذهن - التقنية فقط، وإنما هي بمثابة فلسفة للمؤسسة تتبعها أو تطبقها في مجالاتها وتعاملاتها كلها.

٧. يتولي أحياناً تقديم برامج الجودة التدريبية، صنف من الناس لا يعرفون عنها إلا ما وضع بين أيديهم من أوراق، فيكون عملهم تأدية واجب، وسعياً وراء الكسب أو الظهور في المحافل العامة.

٨. يجهل المستهلك أو متلقي الخدمة غالباً نظام الأيزو وأرقامه، لكنه يري سوء المنتج فينفر من نظام الجودة، ويشعر بعدم أهميته، وكذلك العمال حين لا يجدون أي تغير للمؤسسة التي يعملون بها بعد حصولها على شهادة الجودة العالمية.

وأخيراً نقول هل الأهم أن نضع المقاييس والمواصفات ولا نراقبها أو أن نضع المواصفات وعلامات الجودة على السجاد أو الأبواب أو الأدوات

^١ د/ أسامة الخولي، البيئة وقضايا التنمية والتصنيع، ص ٢٧٠. المرجع السابق بتصرف.

الكهربائية التي يستخدمها المستهلك في فترات طويلة متباعدة أو نضع مثل هذه المواصفات على السلع الغذائية التي تستخدم بشكل يومي؟ أين الوزارات المعنية وهيئة المواصفات والمقاييس من التفاعل مع المجتمع . حتى لا تجعلنا مترددين : ماذا نأكل وماذا نشرب . فهناك قوانين وتعليمات صحية مثلاً بعدم استخدام البلاستيك فى تغليف وحفظ الأغذية وعلى الرغم من ذلك يوضع القول والخبز في أكياس بلاستيكية وتباع للمستهلك!!

لم يعد المستهلك يعرف من يصدق ومن يكذب؟ فهذا عصير يعرض في المحلات^(١)، وتكتب عليه عبارة خال من المواد الحافظة والملونة، ورغم ذلك تجد مدة صلاحية هذا العصير تصل لأكثر من ستة أشهر. فهل يعقل أن نضع عصيراً طازجاً في علبة لمدة تتجاوز ساعات في درجة حرارة عالية ونفتح العلبة لنجده في حالة سليمة . إذا لم تكن به مواد حافظة!!؟ ومع ذلك توضع عليه علامة الأيزو للشركة المنتجة.

ويتضح من مجمل هذه الانتقادات:

ليست الأيزو التعويذة السحرية الوحيدة . فهناك أنظمة شبيهة . مثل التميز المستمر . أو بطاقة الأداء المتوازن . والتخطيط بالأهداف أو كايزن الياباني . وهابي الياباني . وغيرها كما توجد معايير عالمية أخرى لأنظمة إدارة البيئة . مثل المعيار البريطاني BS7750 . والبرنامج الأوروبي لتوفيق وإدارة البيئة (إيماس EMAS) . لكنها أقل شيوعاً من الأيزو^(٢).

وليست هي العصا السحرية لحل مشكلاتنا البيئية وإن فرضت أسلوباً للحل . فهل يعني هذا أن ننبذ غيرها من مداخل الإصلاح البيئي؟ . إن منطق الجودة ذاته لا يقول بذلك ؛ لأن من مبادئها التطوير المستمر .

¹ صحيفة الجزيرة السعودية . تصدر عن مؤسسة الجزيرة للنشر عدد سبتمبر سنة ٢٠٠٠
² د / أسامة الخولى . البيئة وقضايا التنمية والتصنيع . دراسات حول الواقع البيئي فى الوطن العربى والدول النامية ص ٢٧٣ . سلسلة عالم المعرفة عدد ٢٨٥ عام ٢٠٠٢

كما أنها تُجدد كل عدة سنوات فيخرجون علينا بأسلوب جديد ورقم جديد للأيزو . فلم لا يتسع المجال لوسائل الإصلاح الإسلامي في حماية البيئة . فليست الأيزو هي الخيار الوحيد؟

ولمزيد من فهم النقاش حول الضبط الدولي للبيئة وأدواته القانونية فإن ذلك يفرض علينا الرجوع إلى الأسس النظرية لها . وترتكز تلك الأسس على فلسفة (العولة) . التي يتبؤ فيها الضبط مكانة مرموقة ومن مسلماتها التبادل التجاري الحر⁽¹⁾

ولاشك أن هناك جدلاً بين دعاة تلك الحرية التجارية وحماة البيئة . وبمعنى أدق هناك خلافات واتفاقات بين السياسة البيئية والحرية التجارية ؛ فأنصار البيئة يظهرون قلقهم إزاء الآثار البيئية لحرية التجارة التي تفرضها اتفاقية (الجات) . والتي تلعب دوراً سلطوياً عالمياً لفرض العولة الاقتصادية . فمع هذه الاتفاقية أصبح هناك تنافس أشد على الأسواق وسعت الشركات أكثر وأكثر لتوزيع منتجاتها وإرضاء العملاء وأولى خطوات إرضاء العملاء الحصول على شهادات الأيزو .

وهكذا لم يعد الحصول على الأيزو لحاجة حقيقية . بل لفرض دعائي لكسب مزيد من العملاء وإرضاء الزبائن . هذا هو الدافع لا الرغبة في التطوير وتطبيق المعايير . ومما زاد من أهمية (الأيزو) أنها تعد المدخل لدول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية . فالحصول على هذه الشهادة يمنح المؤسسة التي حصلت عليها الحق في دخول هذه الأسواق الضخمة . وهو ما يكفل لها ميزة تنافسية . أما الشركات التي لا تحظى بإمكانات مالية تتيح لها تطبيق معايير الأيزو فلا تكون مؤهلة للتنافس . وتهمش في السوق العالمي . وذلك ينطبق على غالب المؤسسات في الدول النامية .

¹ دكتور / مهندس حيدر محمد أمين طرايشي . المرشد إلى طريق الأيزو وتطبيقاته . مكتبة دار السلام . الإسكندرية .

فيكون الأيزو بذلك فيدرالية عالمية موجهة للأجهزة الوطنية لتحديد المعايير التي تتبناها لاعتماد صادراتها⁽¹⁾ ولاشك في أن هذا الوضع يزيد من هيمنة الشمال على الجنوب ويوسع الفجوة بينهما ويخلق عولة غير متكافئة . وتلعب الشركات متعددة الجنسيات دوراً في ذلك .

والأهم أن هذا التطور الهائل للتجارة العالمية له تأثيره على البيئة كالاتي :

١- إنه يدفع إلى الاستغلال المكثف للعمليات الإنتاجية . مما يساهم بشكل كبير وواضح في تطوير المحيط البيئي .

٢- مكن المؤسسات من نقل وتحويل وحداتها الإنتاجية بكل سهولة بين البلاد . وبهذا تهرب من القوانين البيئية ؛ لأن بعض البلاد النامية تتساهل في المعايير الاجتماعية والبيئية لجذب الاستثمار .

٣- بعض الدول النامية تلاحقها الديون بسبب حرية التجارة فتوجه الميزانية المخصصة للإصلاحات البيئية إلى تسديد الديون .

ولا يمكن أن نذكر التضاد بين البيئة والعولة . ولا نتعرض لمظاهرات سياتل ١٩٩٩ ضد منظمة التجارة العالمية التي تمثل بداية ظهور هذا الخطاب البيئي المناهض للعولة . وقام على بنود رئيسة هي إشراك ممثلي المجتمع المدني في اتخاذ القرار البيئي . وزيادة قدرة الرقابة والتدقيق البيئي ، ودعم الصناعات لتتحول إلى صناعات رقيقة بالبيئة وتنفيذ دراسات تقييم الأثر البيئي للمشروعات الاستثمارية . ومراقبة حسن تطبيقها . وتشجيع الاستثمار في المشروعات الرقيقة بالبيئة . كما يجب ألا يسمح بنقل الصناعات الملوثة للبيئة بحجة تشجيع الاستثمار ، ومنع إدخال المواد المضرّة بالبيئة

بعد أن عرضنا ما عند القوم من أدوات قانونية لحماية البيئة تحمدونا الرغبة في اكتشاف مدى صلة الإسلام بهذه الموضوعات والنظريات الحديثة . انطلاقاً من عقيدة راسخة بكمال الإسلام وشموله لجوانب الحياة ، حتى لا يكون هناك تمّيع

¹ الفيدرالية (نظام سياسي يقوم على بناء علاقات تبعية بين عدة دول يربطها اتحاد مركزي) ونشير هنا الى خلق علاقات تبعية وفيدرالية قانونية لعولة أساليب الحماية البيئية .

فكرى ، وانبهار بكل جديد ، ولا هزيمة نفسية تقعد بنا عن مواكبة الجديد .
فقد يضل المرء بين أسماء مختلفة مثل "إدارة الجودة الشاملة" ، و "إدارة الأداء" ، و "العمل كفريق واحد" ، و "حلقات الجودة" ، و "الأيزو ٩٠٠٠" وتوابعه وارقامة " ... الخ ، و "سيجما ٦" ... بحيث لا يكاد يعرف الفرق بينها ، وهم يشترطون أن يتم تطبيقها كمنهج واحد ومتكامل . فلا يجوز خلط هذه المنهجيات بعضها ببعض ، لان ذلك لا يعطي النتيجة الأفضل - في زعمهم - لأن كل منهجية إنما هي عبارة عما يطلق عليه "Tool Kit" ، أي مجموعة من الأدوات المطلوب استخدامها في نسق معين للحصول على النتيجة الأفضل . وكل منهجية لها خصوصية وتطبيق في مجال معين ..

فلم هذه التقسيمات ؟ ولماذا تزداد الأسماء ؟ حتى إن هناك من دعا لحاجتنا للأيزو الأخلاقي ، كما اقترح مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية^(١) (الأيزو الإسلامي) للشركات المالية بأمريكا ، خلال مؤتمره الرابع الذي عقد بالقاهرة من ٢٩ يوليو ٢٠٠٦ ، حتى ١ أغسطس ٢٠٠٦ م لتصحيح مسار المعاملات المالية في المؤسسات الإسلامية بالولايات المتحدة . من خلال إنشاء هيئة إشراف فقهي تنسق مع لجان المراقبة الشرعية في تلك المؤسسات بأمريكا ، والسعي لدى تلك المؤسسات لتقديم النصح الفقهي لها ، وتقديم خدمات بتصحيح عقودها بشكل يجعلها موافقة للشريعة الإسلامية . وألح الدكتور وهبة الزحيلي النائب الثاني لرئيس مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا إلى أنه يؤيد إنشاء "الأيزو الإسلامية" كعلامة جودة للمؤسسات المالية والبنوك الإسلامية العاملة في أمريكا . وتعطى لها شهادة بعد مطابقة معاملاتها بمبادئ الشريعة الإسلامية ، الأمر الذي يجعلنا نتساءل: هل من سبيل إلى جودة شاملة بالقيم الإسلامية؟

^١ مجمع فقهاء الشريعة . تأسس في الولايات المتحدة في أكتوبر ٢٠٠٢ ، وهو مؤسسة علمية غير ربحية . تتكون من مجموعة مختارة من فقهاء الأمة الإسلامية وعلمائها ، ويهتم بأمور المسلمين في الغرب بصفة عامة ، وفي أمريكا بصفة خاصة

المبحث الرابع التأصيل الشرعي لمفهوم الجودة

بتحليل وتفكيك نظام الجودة ومواصفات الأيزو نجد الآتي :-

أولاً- كلمة الجودة اشتقاق من الجذر (ج و د) وهو أصل يدل على الإجابة بالشيء وكثرة العطاء. بما يعنى العطاء الواسع والأداء الجيد الذي يبلغ حداً فائقاً. ومرادفها الإتقان. ويعنى إحكام الشئ. فخلاصة المعنى اللغوي (الحذق وإحكام الشئ وجودة الأداء. والقيام بالأمر قياماً حسناً لا مزيد عليه)⁽¹⁾

ثانياً: الجودة ومواصفات الأيزو مبنية على الآتي :-

١- التوثيق واستخدام السجلات (توثيق إجراءات العمل). إذ يوضح كتيب الجودة السياسة العامة التي على المؤسسة أن تراعيها. ويتضمن دليل الجودة وسجلاتها توثيق وكيفية القيام بأنشطة العمل. والتعليمات الدائمة للقيام بها تجنباً للقيام بالأنشطة بطرق مخالفة لما هو معتمد.

٢- الرقابة والتفتيش : بما يعنى تحديد حالات عدم المطابقة للمواصفة لاتخاذ الإجراءات التصحيحية المناسبة.

٣- ثقافة الجودة : سبق عرض أقوالهم في (البنى الداعمة للجودة). وثقافة الجودة يجب أن يقتنع بها العاملون في المنشأة جميعاً. وبالنظر في جوهر هذه الثقافة المطلوبة نجد أنها تركز على (أهمية العمل وضرورة التعاون والمشاركة الجماعية. وتنمية الرقابة الذاتية. والتحفيز النفسى)

و بالتأصيل الإسلامي لهذه المفاهيم نجد الآتي :-

أولاً: بالنسبة للتوثيق : عمد مراجعو الأيزو للتأكد من تدوين كل صغيرة وكبيرة من إجراءات العمل وأنشطته حتى أصبح من معانى كلمة أيزو (في عرف العامل العادي) هو تكديس مزيد من الأوراق لمغالاة الأيزو كثيراً في سجلاته.

¹ د / على بن بادحدح . الجودة منظوراسلامى . اللقاء السنوى الثانى لأداء الجودة للشركة السعودية للكهرباء . المنظمة العربية للتنمية الإدارية.

ثانياً: بالنسبة للرقابة: يلاحظ أن الرقابة والتفتيش موجودان في الأنظمة الإدارية كلها قديماً وحديثاً. فلم يتدعها الأيزو. أليس في ديننا (كلكم راع)؟ ولا يخفى أن الرعاية أفضل من الرقابة لأن فيها القيام على أمر الشيء بما فيه صلاحه.

ويتناول التأصيل الإسلامي لثقافة الجودة نجد للعمل الإسلامي طبيعة تختلف كل الاختلاف عن طبيعة العمل في المجتمع الرأسمالي أو الشيوعي، إذ لا تكون للعمل - بالضرورة - طبيعة أخلاقية، بل يقتصر على أن يكون وسيلة لتقاضي الأجر. ولكفالة مستوى معين من المعيشة. كما يمكن أن يكون - أي العمل - أداة لإشباع الهوايات أو مراكمة الأرباح، أو دليلاً على النجاح والتفوق، أو وسيلة لتطبيق سياسات الحزب.

لكن العمل في الإسلام عبادة، وفي السنة النبوية الكريمة نصوص عدة تمجد العمل الطيب، وترفع درجته وتكرم صاحبه. ومن الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى العمل وترفع قدرة قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (من أمسى كالألم من عمل يده أمسى مغفوراً له)^(١) وعن ابن عمر (أن الله يحب العبد المؤمن المحترف)^(٢). وأيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم - ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده)^(٣). وعن أبي هريرة (لأن يحتطب أحدكم خيراً من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)^(٤) ويقول صلى الله عليه وسلم (إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا السعى على الرزق)^(٥)

ولا يعرف الإسلام ما شاع بين الناس في وقت من الأوقات من احتقار بعض الأعمال فكل عمل له قيمته في نظر الإسلام. سواء من ناحية صاحب رأس المال أو العامل؛ فهذا اعطى أجراً والآخر يبذل جهداً.. وقد أوصى

1 عن ابن عباس. أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨٩/٧)، رقم (٧٥٢٠)

2 الطبراني في الأوسط (٣٨٠/٨)، رقم (٨٩٣٤)

3 البخاري كتاب البيوع حديث ٧٣٢٠

4 البخاري حديث ١٢٩٣٠

5 سنن ابن ماجه.

الإسلام كلا منهما بأن يتقى الله فيما يبذله للآخر . هذا بإعطاء المال دون إجحاف للعامل . وذلك بإعطاء الجهد كاملاً والعمل متقناً حتى يكون كسبه حلالاً طيباً . كما أن الإسلام كرم العمل اليدوي بعد أن كان في العهد القديم بأسره . سواء عند المصريين القدماء أم اليونان أم العرب أنفسهم في الجاهلية مقروناً بالمهانة . عندما تدهورت القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي نفسه فقد العمل اليدوي هذا التكريم واقرنت به المهانة مرة ثانية إليه .

ولأهمية العمل في الإسلام عُدَّ نوعاً من الجهاد في سبيل الله ، كما روى كعب بن عجرة - رضي الله عنه - قال : (مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجل ، فرأى أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم - من جلده و نشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ، فهو في سبيل الله ، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء و مفاخرة فهو في سبيل الشيطان)^(١) .

وهكذا نجد كثيراً من نصوص الكتاب والسنة ، تتحدث عن العمل . وتحث عليه . وتنوه بأعمال متنوعة كصناعة الحديد و نجارة السفن ، و فلاحه الأرض ، ونحو ذلك ، لأن العمل في ذاته وسيلة للبقاء ، و البقاء - من حيث هو - هدف مرحلي للغاية الكبرى ، التي هي عبادة الله ، و ابتغاء رضوانه ، و يقدر عظم الغاية تكون منزلة الوسيلة ، فأعظم الغايات رضوان الله تعالى ، و أعظم وسيلة إليها العمل و التضحية ، و إنما نوه القرآن بالعمل و الكسب للتبنيه على عظم فائدته و أهميته للوجود الإنساني ، و أنه أكبر نعمة على الإنسان .

ثالثاً : بالنسبة لتنمية الرقابة الذاتية و التحفيز النفسي للعاملين :

التحفيز : تحريك الإنسان لأداء العمل ذاتياً . وهو وصول العاملين في مؤسسة ما إلى حالة من الشغف و التلهف و السرور بأعمالهم . لدرجة القيام

^١ انظر الحديث رقم : ١٤٢٨ في صحيح الجامع . محمد ناصر الدين الألباني .

بالعمل كاملاً دون تذر أو شكوى . وبلوغ مرحلة التضحية بكل شي في سبيل مصلحة العمل والمؤسسة. والتحفيز يأتي من " أعماق النفس. وعلى المدير مسئولية حفز موظفيه بطرق مختلفة لان الأنفس مختلفة.

وهنا نجد الضمير الإسلامي المهني يقوم بما لا يمكن أن يقوم به غيره.. أعني الرقابة الذاتية اليقظة الدائمة والمتجددة لعمل العامل. فمن أين تأتي بمثل هذا الرقيب الذي يلاحظ ويتابع كل جزئية من الجزئيات التي يقوم بها العامل . من بدء العملية الصناعية أو التجارية أو الخدمة ، حتى نهايتها . وأنى لنا أن نوفر لهذا الرقيب القوة المتجددة التي يتغلب بها على عوامل الضعف وإغراءات الكسب ونوازع القصور والجهد الأقل؟^(١).

ولن نجد أي نظام سياسي أو حاكم هذا الرقيب.. والقوانين كلها والسلطات ووسائل القمع . ونظم المحفزات تعجز كلها عن أن تتابع - في السر والعلن - أداء العامل أو تقهر فيه عوامل الضعف والإغراء ، وليست هناك سوى قوة واحدة قاهرة مهيمنة عالمة بالسر والنجوى هي الله عز شأنه.

وما من شخصية تتمتع بالتقديس . وتلهم الأسوة والقدوة كشخصية محمد ، من هنا فإن ما يأمر به الله وما يوجه إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يصل إلى أعماق العامل فيصبح العمل الإسلامي استجابة لإرادة الله في إعمار الكون . وقربى إليه بتنفيذ أوامره وتطبيق توجيهات رسوله.. وعندما تملك مثل هذه المعاني نفسية العامل . فإنه " يستحضر من خلوص النية وصدق العزيمة وصفاء القلب ما يستحضره عند العبادة" . وعندئذ يكون الإتقان والإحسان . والحرص على الأداء الأمثل وتحقيق الكفاية الإنتاجية وحسن استثمار الوقت والمواد... الخ.. نتيجة طبيعيةً لمثل هذه المشاعر العميقة . وللمحفزات الإيمانية والنفسية التي تفوق بمراحل - وإن لم ترفض - المحفزات الأخرى الإيجابية والسلبية من زيادة في الأجر أو تهديد بالعقاب أو تشديد للمراقبة . لأن الأجر

^١ جمال البنا . تعميق حاسة العمل في الفكر الاسلامي . ص ٩٧ . الناشر الاتحاد الدولي للعمل

النقدي من وجهة نظر العامل المسلم جزء مما يظفر به لقاء العمل . أما الجزء الثاني فهو رضا النفس وإشباع الشخصية وحمد الله وشكره على ما قدره عليه من عمل وما أتاحه له من مساهمة في بناء المجتمع . ومساعدة إخوانه على الحياة والتقرب إلى الله بذلك (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)^(١) .

وقد يقول قائل إننا لا نلاحظ أبداً في حياتنا الراهنة مثل هذا الضمير المهني الإسلامي . وما ذلك إلا لعدم الوعي بمفهوم العبادة بسبب سوء الفهم المتراكم قرناً بعد قرون . فهناك جهل مطبق بالعاملات الإسلامية ومبادئ العمل الإسلامي ، لم يتحرك أحد لرحزحته ، وتقاعست عن ذلك أجهزة الدعوة والإرشاد الرسمية ، وعزفت عن معالجته الهيئات الإسلامية وأجهزة الثقافة العمالية والمنظمات النقابية التي لها علاقة مباشرة بالأمر . وأين ذلك من أيام كان للإسلام فيها مجداً ومعيارية للحكم على الأشياء

كلها ؟

إن كل من يقرأ تاريخ الطوائف الحرفية في الشرق والغرب . تلك التي تولت تنظيم علاقات العمل يعرف أنه لم يكن يسمح لأي "صبي" بأن يكون "صانعاً" أو لأي "صانع" أن يكون "أسطى" أو لأي "أسطى" أن يكون "معلماً" إلا بعد أن يشهد له المعلمون الحاضرون بحسن الخلق . وكرم المعاملة . وإتقان العمل . وأداء الفروض الدينية ، ففي تلك العهود كان إتقان العمل والتمسك بالشعائر الدينية وجهين لعملة واحدة .

وتصور إحدى الوثائق الطريقة التي كانت تتم بها حفله "الشد والحذام" التي يمكن عن طريقها للعامل أن يدخل الصنعة ..

ويكون جميع الحاضرون فيها جميعاً جاثين على ركبهم . مطرقي الرؤس . ويطلب النقيب من العامل قراءة الفاتحة . ثم يذكر النبي ويتلو الفاتحة مرة أخرى ، وبعد أن يفرغ منها يسلم النقيب على الحاضرين ، ثم يلتفت إلى

^١ سورة الشعراء الآية رقم ٢٦ :

العامل ويقول له أوصيك يا من تعاهد بأداء الفروض ورعاية العهد . ويشهد عليك الحفظة . وسيكتب من يضيع العهد من المبعدين . يا بني إن جميع الحرف أهلها أمناء على الأعراض والأرواح والأموال - فكن صادقا أميناً واعلم أن كارك مثل عرضك حافظ عليه بكل ما تملك ، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرط فيها وإياك أن تخون أهل الحرفة . والخائن مستول . ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم . هل يستحق أن يكون صنعا . فيقولون نعم . وحينئذ يأخذ عليه العهد الخ...

ومن الجمل ذات المغزى العميق التي وردت في هذه الفقرة جملة "واعلم أن كارك مثل عرضك" فالحرفة كالعرض تلزمها الأمانة والصيانة والحفظ والغيرة^(١).

فالأخلاق المهنية هي الأساس . وانتهيار المؤسسات لا يكون بسبب خطأ فني فقط . بل قد يكون بسبب سقطة أخلاقية . أو سلوكيات تتنافى مع أخلاق المهنة فهناك علاقة بين الجودة وأصول وأخلاق المهنة . والقصور في أداء المؤسسات يرجع بالدرجة الأولى إلى عدم وجود قيم للعمل لذا . وجب أن نعمل على التوعية بأهمية التمسك بالأخلاقيات والقيم في مؤسساتنا بالقدر نفسه الذي نطالب فيه بالإتقان والمهارة . وتكثيف التدريب أو التحديث التقنى . وما يجب أن نسعى إليه أن تكون هناك جودة شاملة وفق القيم الإسلامية .

أن ما ينقصنا عند تطبيق الجودة هو محاسبة النفس في أي عمل نقوم به . واستحضار الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) أي حينما تنجز أي عمل تشعر بمراقبة الله عز وجل . فالاحتساب والنية الصادقة مفتاح الجودة الشاملة . وأن استحضر العامل رقابة الله عز وجل وصل الى أعلى درجة في إتقان العمل .

^١ جمال البنا (تعميق حاسة العمل في الفكر الاسلامي) الناشر . الاتحاد الدولي للعمل . مرجع

فالجودة موجودة في تراثنا وديننا إلا تعني الجودة والإتقان؟ عمل الشيء الصحيح من أول مرة وفي كل مرة..أليس هذا هو الإتقان الذي ذكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبدون النظام الذي يطرحه الحل الديني ، فإن المحاولات العلمانية لإنشاء نظام رقابي للحفاظ على البيئة يكون بلا جدوى.

كما أن الحسبة تعني التدبير والكفاية والنظر في الشيء .فيقال : هو حسن الحسبة . أي حسن التدبير . وهذا المعنى اللغوي للحسبة يؤكد علي حسن أداء العمل وإتقانه ^(١) ويلتقي هذا المعنى للحسبة مع (قول رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ^(٢)

ونقول لهم إن منهجنا الإسلام قد عرف تلك الجودة وان كان الأيزويتضمن عناصر فعناصر الجودة بالقيم الإسلامية هي :-

- ١ - المنافسة الشريفة داخل بيئة العمل
- ٢ - التعاون على إنجاز الأعمال . والإعانة للأخرق الذي لا يجيد الصنعة . وفي الحديث. نَ أَبِي دُرِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ قَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ قُلْتُ فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ قَالَ أَعْلَاهَا ثَمْنَا وَأَنْفُسَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ تُعِينُ ضَايِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ قَالَ فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ قَالَ تَدْعُ النَّاسَ مِنَ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ ^(٣)
- ٣ - الرضا الوظيفي بحيث يتم توزيع العاملون في المؤسسة على أساس . رغباتهم وكفاءتهم . فلا تؤكل لهم أعمال هم لها كارهون.
- ٤ - الأخوة المهنية وليست الزمالة المهنية . وعلى إدارة المؤسسة إيجاد هذه الروح بين العاملين

^١ أذ/ هاشم يحيي الملاح . الحسبة في الحضارة الإسلامية دراسة تاريخية فقهية من الرقابة علي الجودة

الشاملة المنظمة العربية للتنمية الإدارية ٢٠٠٧

^٢ البيهقي في شعب الإيمان ٧١٩٧

^٣ ابن حجر . فتح الباري . ج ٧ ، ص ٤٧٥

ولعل خاتم المحتسب ودفتره (شهادة بالجوودة) ؛ إذ يتضح مما جاء
بكتب الحسبة أن للمحتسب أختاماً يستعملها في وقت الحاجة (١) لضبط الموازين
والمكاييل وحفظها (٢) من التلاعب . وهناك أختام ليس للوزن والقياس بل
لصلاحيه وجودة الشيء مثل الختم علي المؤلفات والمصنفات والصناعات ولذلك
كان يقول الغزالي (٣) الخاتم علي الكتاب خير من التهمة.

كما كان من مهام جهاز الحسبة . وظيفة تعرف (كتابة الشروط) التي
تنظم معاملات الناس سواء في النواحي المالية أم الاجتماعية كالمبايعه أو الإجارة
أو القرض . إلي غير ذلك . وكان المحتسب يشرف عليهم لضمان سلامة الشروط
التي يضعونها . ويضع المحتسب مواصفات لكتابة الشروط بأن يكونوا من الفقهاء
العارفين باختلافات المذاهب وأن يكونوا علي علم بالحساب (٤) وللمحتسب
التفتيش علي أرباب الحرف للتأكد من مراعاتهم للشروط الخاصة بهم.

وبلغة القوم نستطيع أن نقول أن عندنا مواصفة عالمية للجودة وهي
ترتكز علي الإتقان واليقين والأمانة والفرائض الخمس ولا يخفى علي عاقل أن
تحت هذا الباب نستطيع أن نسطر مواصفة عالمية لكن من يتبنى تطبيقها ونشرها
مثل الأيزو؟.

وقارن كل ما سبق عن الجودة وسلسلة الأيزو بما جاء في (الأحكام
السلطانية) (٥) وتأمل الدقة في سلسلة الجودة التي تضمنها هذا القول (ومما يؤخذ
ولاية الحسبة لمراعاته من أهل الصنائع في الأسواق ثلاثة أصناف :

- منهم من يراعي عمله في الوفاء والتقشير
- ومنهم من يراعي حاله في الأمانة والحيانة

١ المقريري . المواعظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار . ج ٢ ، ص ٣٤٥

٢ ابن بسام نهاية الرتبة في طلب الحسبة . دار الحدائق بيروت . ص ٢٧

٣ إحياء علوم الدين ج ٢ ، ص ٣١٤

٤ ابن بسام . مرجع سابق ، ص ١٧٢

٥ الأحكام السلطانية . دار الثقافة للنشر . الباب العشرون أحكام الحسبة ، ص ١٦٠

- ومنهم من يراعي عمله في الجودة والرداءة

فأما من يراعي عمله في الوفور والتقشير والطيب والمعلمين ؛ لأن للطيب إقداماً على النفوس يقضي التقصير فيه إلى تلف أو سقم ، وللمعلمين من الطرائق التي ينشأ الصغار عليها ما يكون نقلهم عنها بعد الكبر عسيرا ، فيقر منهم من توفر عمله ، وحسنت طريقته . ويمنع من قصر وأساء من التصدي لما يفسد به النفوس وتحث به الآداب .

وأما من يراعى حاله في الأمانة والخيانة فمثل الصاغة والحاکة والصباغين ؛ لأنهم ربما هربوا بأموال الناس ، فيراعى أهل الثقة والأمانة منهم ، فيقرهم . ويبعد من ظهرت خيانتة ، ويشهر أمره ؛ لئلا يفتربه من لا يعرفه .
وأما من يراعى عمله في الجودة والرداءة فهو مما ينفرد بالنظر فيه ولالة الحسبة ، ولهم أن ينكروا عليهم في العموم فساد العمل ورداءته ، وإن لم يكن فيه مستعداً^(١) .

والوقوف مع هذا القول تبيانا وتفصيلا يستغرق صفحات هذا البحث . إلا إن التنبيه . واجب على التفريق بين المهن من حيث ما يراعى لقياس جودتها . يختلف من مهنة إلى أخرى . حسب قول الماوردى فى الأحكام . وهو ذاته الذى يتفاخر به فى القرن الحادى والعشرين فىقال بأن هناك سلسلة للايزو تحتوى على (ايزو لقياس جودة المختبرات واخذ العينات وايزو تعليمى وأخر للغذاء وايزو للبيئة وغيرها من المهن والخدمات . وكأن قولهم بضاعتنا بعد تغليفها ردت إلينا وهكذا الحال فى كل أمر .

^١ الأحكام السلطانية . دار الثقافة للنشر . مرجع سابق

الباب الثاني مجالات الاحتساب

- الاحتساب في نشر الوعي البيئي
- الاحتساب في تفعيل القوانين البيئية
- الاحتساب في مواجهة الكوارث البيئية
- الاحتساب في بيئة العمل
- الاحتساب في طلب العلوم البيئية
- الاحتساب في البيئة الاجتماعية

الفصل الأول الاحتساب في نشر الوعي البيئي

تمهيد:

إن شرح معنى المنكر البيئي للناس هو الوسيلة الأولى لدفع المنكرات .
ومن أهم مباحث الحسبة معرفة مراتب الاحتساب ، وهي أولاً التنبيه والتذكير ،
ثم الوعظ والتخويف من الله ، ثم الزجر والتأنيب والإغلاظ بالقول ، ثم التغيير
باليد ، ثم إيقاع العقوبة ، ثم الاستعداد ورفع الأمر إلى الحاكم .
فهناك مستويات ومراحل للاحتساب . أولها التعريف بحكم الله تعالى
في المحتسب فيه . والتعريف باللطف . والرفق أول ما يجب أن يبدأ به المحتسب .
فالتعريف بالمحذورات الشرعية بداية ومقدمة تقوم عليها باقي الوسائل الرادعة .
يقول الإمام الغزالي : إن المنكر قد يقدم عليه المقلد بجهله . وإذا عرف أنه منكر
تركه . فلا يعاقب جاهل بأحكام الشرع قبل معرفته⁽¹⁾ ودلائل لزوم التعريف
والتعليم بالمنكر كثيرة في أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعملية
بناء الوعي البيئي تقوم على أساس الإقناع والقبول . والرضا بالحوار والتشفيق .
وتكوين الاتجاهات والأخلاق البيئية .

وفي هذا المبحث نعرض للمسيرة الطويلة لكل من التربية البيئية والتوعية
البيئية . والجهود التي بذلت لتكوين الأخلاق البيئية والإنسان البيئي . تلك الجهود
على الصعيدين الإقليمي والدول . التي جعلت التربية التزاماً قانونياً .
ونتساءل : هل حققت التوعية البيئية بعد تلك المسيرة هدفها المنشود ؟
وما السبب في عرقلة تلك المسيرة ؟ ونختتم المبحث ببيان الرؤية الإسلامية للتربية
البيئية

¹ الغزالي . إحياء علوم الدين . ربع العادات . كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ويرغم أهمية القوانين والتشريعات البيئية . ودورها في الحفاظ على البيئة ، لا يُعتمد عليها وحدها . إذ ينبغي أن تستند إلى وعي تام . وإدراك يصل إلى الضمير . بحيث تتحول إلى قيم تصبغ ضوابط سلوكية يحافظ بها على النظام البيئي والمكونات البيئية ، ولا شك في أن للإعلام دوراً وتأثيراً في رفع الوعي والإدراك المطلوبين .

وقد اتضح أن مسألة الحفاظ على البيئة ليست مسألة تنظيمها القوانين وحدها ^(١) . بل هي مسألة تعليمية بالدرجة الأولى . يتوقف نجاحها على تخطيط نوعية بيئية مبرمجة تشارك فيها فئات المجتمع ومتخذو القرار . وهذا يتطلب توجيه فئات المجتمع . وتعميق وعيها بالمشكلات البيئية التي تواجهها في حياتها اليومية . وحثها على السلوك القويم تجاه البيئة . مع التزام أصحاب القرار بمراعاة الجانب البيئي في القرارات المتخذة . وخلال الآونة الأخيرة تزايد الاقتناع بدور التربية في مواجهة مشكلات البيئة . فقد دعت الحاجة إلى التأكيد على أهمية التربية البيئية في مواجهة المشكلات الناجمة عن سوء استخدام الإنسان للبيئة ؛ لذلك عقدت المؤتمرات والندوات والحلقات على المستويات كافة الدولية والإقليمية والمحلية . وأجريت أبحاث ودراسات علمية توصلت جميعها إلى توصيات تعكس الاهتمام بالبيئة والتربية البيئية .

المبحث الأول

البداية: التربية البيئية التزام قانوني

جاءت التربية البيئية نتيجة للأخطار المتزايدة والمتفاقمة التي يواجهها الإنسان في العصر الحديث وأصبحت الوسيلة والأداة المستخدمة في إعداد الأجيال للتعامل السوي والسليم مع البيئة . وتكوين الثقافة البيئية لدى أفراد المجتمع .

^١ المعيشة في البيئة . كتاب للتربية البيئية ، ص ١٢٢ . ترجمة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ١٩٩٠ تأليف مجموعة علمية من جمهورية أوكرانيا السوفيتية بالتعاون مع خبراء اليونسكو .

وهي موجهة إلي جميع فئات المجتمع . لمحو الأمية البيئية بوسائل تتلاءم مع قدرات كل فئة واحتياجاتها. ولا تقتصر علي التعليم المدرسي . بل تشمل التعليم النظامي وغير النظامي . وتدمج في عملية التعليم العام للمجتمع لتكون اتجاهاً وفلسفة عامة . وهي من أحدث أنواع التربية في عصرنا وأعظمها خطراً . كما أنها جهد مجتمعي تشترك في تحقيقه الجهود الرسمية والأهلية . كما تعد أداة ذات أثر بعيد في مَدِّ الأجيال بالمفاهيم الخلقية والاجتماعية التي تحض علي احترام البيئة وتقديرها.

لذلك جعلها المشرع التزاماً قانونياً وهذا الالتزام يقع علي عاتق الدولة . ويتطلب اتخاذ التدابير المناسبة للوفاء به . وقد تضمنت غالبية القوانين البيئية في الدول العربية . بنداً يحض علي نشر التوعية البيئية في المجتمع . باعتبارها الخطوة الأولى لتفعيل القوانين البيئية علي المستوى الوطني . لذلك كان من الضروري أن تتضمن القوانين البيئية الأحكام التي تجعل من المهمات الأساسية للإدارات البيئية في الدولة وضع البرامج والخطط للتثقيف والتعليم البيئي . فالزمت الفقرة الثالثة من المادة الخامسة من قانون البيئة^(١) جهاز شئون البيئة وضع برامج التثقيف البيئي للمواطنين والمعاونة علي تنفيذها.

اكتسبت التربية البيئية محتواها العلمي كجزء متمم للعلوم البيئية^(٢) وتناولتها المؤتمرات البيئية الدولية ومن أبرز هذه المؤتمرات :

- ١ - مؤتمر ستوكهولم ١٩٧٢ - الذي أقر بدور التربية البيئية في حماية البيئة.
- ٢ - ميثاق بلغراد في العاصمة اليوغسلافية . في أكتوبر ١٩٧٥ ، بدعوة من اليونسكو ، وبالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة وقد حدد غايات وأهداف وخصائص ووضع إطاراً شاملاً للتربية البيئية ، وحدد أسس العمل في مجالها.
- ٣ - مؤتمر تبليس ١٩٧٧ - Tbilisi - الذي صاغ مبادئ وتوجهات للتربية البيئية^(٣).

^١ قانون البيئة المصري ٤ لسنة ١٩٩٤

^٢ محمود سلامة الهايشة . التربية البيئية . دار القاهرة للنشر ٢٠٠٢

^٣ المعيشة في البيئة . كتاب للتربية البيئية ، ص ١٩٦ . ترجمة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي

١٩٩٠ ، مرجع سابق

٤- مؤتمر موسكو ١٩٨٧- ووضع إستراتيجية عالمية للتربية البيئية.
٥- مؤتمر ريو دي جانيرو ١٩٩٢- وأكد على إعادة تكييف التربية البيئية نحو التنمية المستدامة، وزيادة الوعي البيئي العالمي، وتعزيز برامج التدريب البيئي. واستخدم الإعلام لتنمية مهارات عامة الناس وشعورهم بالمسئولية حيال بيئتهم. وتعدد وسائل الإعلام البيئي ما بين مطبوعة كالصحف والمجلات. والكتب والتقارير. والكتيبات والنشرات. والأدلة المطبوعة والملصقات، ووسائل مسموعة كالراديو، وأخرى مرئية كالتلفاز والفيديو والسينما والإنترنت، هذا بالإضافة إلى الأحداث الخاصة بالمناسبات البيئية، المعارض، المسابقات والمؤتمرات والندوات. وتأسست شبكة للإعلاميين البيئيين بحوض البحر المتوسط لتكون شبكة إقليمية للربط بين الإعلاميين المعنيين بقضايا البيئة. من أجل توظيف أمثل لوسائل الإعلام على أيدي أشخاص مؤهلين بيئياً وإعلامياً لخلق رأي عام موحد تجاه حماية البيئة.

وقد أطلقت الإدارة العامة للتوعية البيئية التابعة للرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة بالمملكة العربية السعودية أول قناة عربية متخصصة في البيئة عام ٢٠٠٦ تحت عنوان (بيئي) بتمويل من رجال أعمال سعوديين بهدف الارتقاء بالوعي البيئي.

ومن أجل أن تكون الثقافة البيئية وعياً وليس مجرد استهلاك لمعلومات بيئية. وأنشئت جهات متخصصة لنشر هذا الوعي. منها:

- مركز الوعي البيئي بجلوان عام ٢٠٠٥ الذي تشرف عليه وزارة البيئة وجمعية الرعاية المتكاملة.

- وحدات التوعية البيئية المتنقلة التابعة لجهاز شئون البيئة لنشر الوعي البيئي. وهي عبارة عن ثلاث وحدات، لكل منهما سيارة مجهزة بمقننات إعلامية وأشربة فيديو. ومكونات إعلامية وكتيبات. وشاشة عرض. وهي تجوب المحافظات. ليلقى المختصون محاضرات في المدارس والنوادي والجامعات والتجمعات السكانية^(١)

^١ تقرير حول وحدات التوعية البيئية المتنقلة. مطبوعات جهاز شئون البيئة. الإدارة العامة للإعلام.

- استخدام مفهوم الخدمة العامة كوظيفة للجامعة في التوعية البيئية^(١)

واعتبر الهدف الأسمى للتوعية البيئية هو خلق الضمير البيئي الذي يحسن التعامل مع مكونات البيئة من حوله ويتبنى القيم الضرورية اللازمة للممارسة العقلانية والمسئولة^(٢)

بعد هذا العرض لتوجهات التربية البيئية والتوعية البيئية . وكل تلك الجهود الدولية التي بذلت . نساءل : هل استطاعت تلك الجهود أن تخلق (الضمير البيئي) ؟ وهل استطاعت التوعية البيئية إحداث تغييرات جذرية في سلوكيات الناس ؟ وهل الإحساس العام الذي تولد لدى الناس بخطورة المشكلة البيئية كافٍ لتغيير سلوكياتهم ولماذا لم يحدث كل هذا التغيير؟

والإجابة علي الأسئلة الثلاثة الأولى متروكة للواقع وللمشاهدات اليومية . وكيف أن ازدياد الوعي بالقضايا البيئية لا يعني بالضرورة حدوث تغيرات إيجابية في سلوكيات الأفراد فالمعرفة وحدها لا تكفي لتعديل السلوك إنما هي مجرد حصيلة معرفية لا تنتج سلوكا . بل قد تكون معوقة ومدمرة . نتيجة الجهل المركب الذي يجعل الشخص يرفض التوجيه ظنا أنه يعلم ولا يحتاج إلي من يدلّه علي ما يجب .

فأنت قد تدرس للمتعلم الأضرار الصحية والسياحية والاجتماعية والاقتصادية المترتبة على إلقاء القمامة في غير موضعها . ويدخل المتعلم اختبار نهاية العام . ويحصل على الدرجة النهائية على السؤال الخاص بأضرار إلقاء

¹ هناك ثلاث وظائف للجامعة : التعليم والبحث العلمي والخدمة العامة . وتنطلق هذه الوظيفة الثالثة من أن الجامعة يجب أن تكون بؤرة علمية وثقافية في المجتمع ، وتستطيع الجامعة تقديم الكثير في بناء الوعي والחסن القومي . وتوجيه قيم المحافظة علي موارد المجتمع . وتكون بذلك القيادة الفكرية للمجتمع . وقد استحدث لذلك منصب نائب رئيس الجامعة للتنمية وشئون البيئة ووكيل لكل كلية لشئون البيئة

2 رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني . البيئة ومشكلاتها . عالم المعرفة رقم ٢٢

القمامة في غير موضعها . ويذهب عقب الاختبار إلى مقصف المدرسة ثم يلقي بالأكياس الفارغة بعيداً عن صناديق القمامة . وقد بيتسم ويتهكم مع زملائه على السؤال الخاص بإلقاء القمامة في غير موضعها . قائلًا : المهم كتبنا الإجابة الموجودة في الكتاب.^(١) هذا الطالب حدث له عملية تعليم ولم تحدث عنه عملية تعلم بالنسبة لموضوع النظافة والمحافظة على البيئة . وكما نعلم فإن التعلم غير التعليم . فالتعلم هو الذي يعدل السلوكيات وصدق الشاعر إذ يقول (لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يُتوج ربه بخلاق)

وقد أجريت تجربة لتوضيح دور التعليم والتعلم في تعديل السلوك البيئي . فوضعت قمامة في طريق إحدى الكليات التي درست فيها أهمية ذلك الأمر . ولو حظ سلوك الطلبة وهم يمرون على القمامة . وممر ٩٩٪ من الطلاب عليها دون أن يرفعها أحد هم . رغم أن ٩٤٪ منهم وافقوا في الاختبار على أنه يجب أن تكون مسؤولية الجميع أن يرفعوا القمامة من الطريق عندما يرونها .

كذلك قد يكون الناس على دراية بمخاطر التدخين على الآخرين ، ومع ذلك يدخنون في الأماكن المحظور التدخين فيها . وقد يكون الناس على دراية بما تسببه الضوضاء من إزعاج للآخرين ، لكنهم يطلقون أبواق سياراتهم ، أو يرفعون صوت أجهزة الراديو والكاسيت والتلفزيون دون مبالاة ولا مراعاة لمشاعر الآخرين وحقوقهم.^(٢)

هكذا ، لا يعني ازدياد الوعي بقضايا البيئة بالضرورة حدوث تغيرات إيجابية في سلوكيات الأفراد . لذلك معظم علماء النفس البيئي لا يرون إمكان تغيير السلوك البيئي السلبي من خلال المعلومات وحدها .

^١ د/ نظمي خليل أبو العطا . أهمية التعلّم البيئي وطرائق تدعيمه . أخبار الخليج بيتنا المدد (٨٤١١)

الثلاثاء ٣ أبريل ٢٠٠١

^٢ د/ عصام الحناوي ، قضايا البيئة في مئة سؤال وجواب ، البيئة والتنمية ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٠

وللإجابة علي سؤال لماذا .. نقول إن السبب عدم ربط التربية بالعقائد .
ونعقد أنه كلما زاد هذا الرابط اقتربت التوعية البيئية من تحقيق أهدافها . فالأديان
السماوية ألقت علي عاتق الإنسان مسؤولية استثمار الطبيعة . والعناية بها معتبرة
أن سوء إدارة الطبيعة إثم كبير . شأنه في ذلك شأن الخطايا الأخلاقية . وأن
الاهتمام بالطبيعة ورعايتها فضيلة أخلاقية أساسية . وقد دعت الأديان علي نحو
واضح وصريح إلي التعاطف مع الطبيعة وعدم إساءة استخدامها .

ومن يتأمل المشكلات البيئية ، يستنتج أنها لا تخرج عن كونها أزمة
قيم ؛ فهي - بالدرجة الأولى - سلوكيات ناتجة عن غياب القيم البيئية المتعلقة
بطريقة معاملة الإنسان للبيئة ، فهي ناتجة عن اضطراب في النظام القيمي الغالب .
إنها أزمة ضمير لا راعي له سوى منهج الله .

لقد استحكمت سلوكيات الأناثية والمصلحة والاستهلاك والإسراف ،
فانعكس هذا على البيئة بمكوناتها آثاراً مدمرة ، وأخطاراً يحاول الإنسان أن
يتفادها ضمناً لبقائه على سطح الأرض . لقد بات الإنسان بسلوكياته التي تفتقر
إلى احترام البيئة ورعاية حقوقها يهدد وجوده نفسه . فلا بد من أن يدرك الإنسان
ضرورة تغيير أفعاله ، لإنقاذ بيئته ، وإنقاذ نفسه .

وعلماء النفس البيئي يؤكدون علي أن التعليم البيئي يمكن أن يكون
أكثر فاعلية عن طريق توضيح علاقة السلوك البيئي بالجانب الأخلاقي ؛ لإثارة
مشاعر الذنب والحجل لدي هؤلاء الذين يتهكون المعايير الأخلاقية للسلوك
البيئي^(١)

السبب إذن وراء عدم تغير السلوكيات علي الرغم من الاهتمام العالمي بالتوعية
البيئية هو غياب الرابط بين منظومة القيم والمعتقدات التي توجه سلوكيات
الإنسان واليك النماذج

^١ د/ نظمي خليل أبو العطا ، المرجع السابق

أولاً: كان اليابانيون حتى وقت قريب يعترضون بتقليد متوارث هو الموتايالي¹ الذي ينص على ان "كل شيء في العالم هبة من الخالق، ومن ثم ينبغي على الإنسان ان يشعر بالإمتنان له، وان يحرص على كل شيء، ويعتبر إضاعة - أو تبديد - أي شيء خطيئة كبرى" وقد أثر هذا المفهوم على سلوك اليابانيين خلال أزمته طويلة، فحرصوا على الاستخدام الأمثل والرشيد للموارد المختلفة. لكن هذا المفهوم بدأ يتلاشي مع التطور الصناعي والازدهار الاقتصادي. وبدأ المجتمع الياباني يحاكي المجتمع الغربي في أنماط الاستهلاك وأساليب الحياة⁽²⁾.

ثانياً: على مدى سنوات طويلة، ظل الصياد التنزاني يتجاهل مناشدات الحكومة والجماعات الدولية لحماية البيئة بالتخلي عن الأساليب غير المشروعة في الصيد. إذ يواجه النظام البيئي البحري في هذه المنطقة تهديداً يتمثل في الصيد باستخدام معدات مدمرة مثل الشباك، والأعمدة المستخدمة في تكسير الشعاب المرجانية⁽³⁾ واصطياد الكائنات المعرضة للانقراض.

وعلى الرغم من الرسائل الإعلامية التقليدية المتكررة للصيادين بضرورة المحافظة على البيئة إلا أنها لم تأت بالثمار المرجوة منها⁽⁴⁾ لكن الصيادين في جزيرة ميسالي استجابوا عندما أبلغهم إمام المسجد أن من الخطأ استخدام هذه المعدات حسبما نقلت صحيفة "كريستيان ساينس مونيتور" الأمريكية عن

¹ د/ كاظم القسادي، الأكاديمية العربية المفتوحة، موقع الأكاديمية، وجريدة الحوار المتمدن الإلكترونية.

² الشعاب المرجانية بمنزلة بيت كبير للعديد من الكائنات البحرية التي تحصل على الغذاء والمأوى من هذه الشعاب. وتعتبر مناطق للتزاوج للعديد من أنواع الأسماك والكائنات البحرية الأخرى، لتوافر الغذاء والمكان المناسب لوضع البيض. وهي مناطق حضانة الصغار، ومن الخطر إزالتها وتدميرها لأن هذا سيؤثر في المخزون السمكي، كما ان الشعاب المرجانية مناطق حماية للسواحل من العواصف والأمواج

³ في تنزانيا.. حماية البيئة بالقرآن والسنة، وكالة الأنباء، السعودية ٢٠٠٧

احد الصيادين - كما تحول - عدد من الصيادين إلى استخدام معدات صيد أكثر حفاظا على البيئة. وتقول الصحيفة أن ذلك نموذج تجريبي دشته منذ سنوات منظمات محلية فى هذه الجزيرة . يمكن أن يسمى "نموذج مجتمع الإيمان" ويقضى بتطبيق التعليم والأخلاقيات البيئية الإسلامية . وهو يؤتى ثماره فوراً . والنموذج يظهر أن الدعاة الإسلاميين يمكنهم توجيه الناس بشأن القضايا البيئية بشكل أسرع كثيراً مما تستطيعه الحكومة . ويمكنهم دمج الحديث عن صيانة البيئة فى الخطب التي يلقونها يوم الجمعة . بالإضافة إلى قدرتهم على تبسيط الرسالة بشأن الخلق البيئي فى الإسلام .

لاشك إذن فى أن للعقائد تأثيراً فعالاً فى حماية البيئة . وللوازع الديني دوره الكبير فى تحسين صحة البيئة . وإذا كان هذا لسائر المعتقدات فما بالك بالشريعة السمحة التي احتفت بالبيئة . وما من مسألة من المسائل البيئية إلا وللشرع حكم فيها بالتحريم والمنع . إيجاباً وسلباً أقراراً ومنعاً ؟ .
ومهما كانت الأنظمة والقوانين الوضعية دقيقة فى أحكامها وصارمة فى عقوباتها . فلن تصل إلى الدقة التي عالج الشرع بها مسائل البيئة وحمايتها من التلوث والتخريب .

ولقد ركزت الشريعة على الوازع الديني والحسبة . وطلب الأجر من الله كوسيلة لصيانة البيئة فالقيم الخلقية ومبادئ العقيدة تسهم بنصيب وافر فى سلامة البيئة .

وإلا فما الرادع عن الجور على الموارد البيئية و المانع من سوء استغلالها؟ وما الحافز إلى الاعتدال وعدم الإسراف ؟ وما المعتمد فى بيان السلوك الحسن ؟ وما الضامن والجزاء الحقيقي لمن يمثل للتوجيهات السلوكية بحماية البيئة؟

لئن قال قائل إن الحل فى الجزاء الرادع والعقوبة الصارمة لمن يرتكب ذلك . يقال له : إن القانون لا يراقب جميع النشاطات اليومية للإنسان . وإن

عاقب على حالة واحدة ، فلن يصل إلي بقية الحالات . ويفوته أكثر مما وجد ، كما أنه لا يحكم إلا على الظاهر من السلوك ، وكم خفيت كثير من الانتهاكات ، ولكم قصر عن تناول المجرمين بحق البيئة .

لذلك فإن عجزت الوسائل المادية عن القيام باحق والرعاية المطلوبة ظهرت الوسائل الخلقية ، وبرزت فكرة الحلال والحرام . وتحركت مشاعر المسلم وخلقيات المؤمن لتحثه على التزام الحق والعمل به . ولهذا تطلعت القوانين أخيراً إلى هذا الجانب العظيم في الشريعة وهو العقيدة والأخلاق ، وهى تحاول جاهدة التوفيق بينه وبين قواعدها . وتسعى لتقنين القواعد الأخلاقية في شكل قواعد قانونية تدريجياً ، وكان هذا أمل الفلاسفة والمصلحين في الماضي ، وهو أمل البشرية في الحاضر .

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي : فسرعان ما تعود القوانين للعقيدة والأخلاق . تلمس فيها الحلول عندما تقف عاجزة عن ضبط تصرفات الأفراد ، ويفلت الزمام منها ، فمثلاً جميع القوانين لجأت إلى ذلك في مجال الإثبات عندما تضاءلت الوسائل المادية عن الوصول إلى الحقيقة ، وتوقفت حائرة أمام المتداعيين فاضطرت إلى العودة إلى العقيدة والأخلاق تستجد بقواعدها ، وترضى بالاحتكام إلى ضمير الخصم وعقيدته ، وتطلب منه اليمين على الفعل أو عدم الفعل ، وعلى الاستحقاق وعدم الاستحقاق^(١)

كما ترتبط القوانين بالأخلاق في الاعتماد على حسن النية وسوء النية ، والعمد وسبق الإصرار وكذلك في الاعتماد على مخالفة النظام العام والآداب العامة التي تركز على أخلاق الأمة وسلوك أفرادها .

ومن المؤكد أن التشريع وحده لا يمكن أن يؤتي ثماره دون توافر الشروط والإجراءات الجادة اللازمة . وفي مقدمتها المتابعة الفعالة من قبل الأجهزة والأفراد وهو ما تحققه وسيلة الحسبة الرقابية ، بجانب تنيه الوعي العام بالقضايا والمخاطر البيئية .

^١ د/ وهبة الزحيلي . وسائل الإثبات . دار المكتبي للنشر ١٩٨٠ ، ص ٣٨ - ٤٤ .

كما يقلل الاحتساب الفرار من الالتزامات والحقوق عن طواعية واختياراً ، أملاً في الثواب وطمعاً في الأجر ، وخشية من الله تعالى والحسبة الرقابية من الوسائل الأساسية لتنمية وتغذية فكرة المسؤولية الجماعية تجاه المحافظة على البيئة الإنسانية ، والعمل على استمرارها واستدامتها ، وتنمي وتساعد على تكوين الخلق والضمير البيئي . وعندها لا تكون التوعية بنشر الأخلاق البيئية بقصد احترام القوانين وحسب بل بقصد توجيه سلوك الإنسان نحو التعامل الصائب مع محيطه مع بيان أنه إذا أضربه فهو في الحقيقة يضر نفسه .

فمقصود الوعي تنمية الإحساس الذاتي بأهمية البيئة ونفعها للإنسان . فهي التي تمدد بمقومات حياته ليقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض . والأخلاق البيئية التي هي ثمرة هذا الربط بين التربية والعقائد قادرة على توجيه سلوك الفرد داخلياً ودون رقيب أو حسيب . وهي تحث الفرد على استحضار الوازع الديني عند التعامل اليومي مع البيئة ومحيطه الخارجي . وذلك الوازع هو القادر على أن يحرك سلوكنا إلى الإيجابية . ودون هذا الربط تبقى التوعية البيئية مجرد تلقين لمعارف ومفاهيم بيئية . دون أن نجد لتلك المعارف أثر في الحياة اليومية وتنفي حالة اللامبالاة في شرائح المجتمع ويصبح الشعور السائد ترك المشكلات البيئية للأجهزة الحكومية للتصرف فيها .

الحاجة ماسة إذن إلى تربية بيئية على النهج الإسلامي تربي الضمير . فالضمير الميت يعني بيئة ملوثة . ولا بد من إعادة النظر فيما يقدم لأبنائنا ؛ فعلى الرغم من تزين المناهج بالعديد من المسائل البيئية إلا أن هذا الاهتمام جاء في أغلبه غير مؤثر على الإطلاق⁽¹⁾

¹ برنامج لتنمية القيم البيئية لدى تلاميذ التعليم الأساسي من خلال مناهج العلوم . رسالة دكتوراه أعدتها : سلوى عبد الحليم . دار الكتاب التربوي للنشر . الدمام

وهذا الضمير البيئي أمر لا يمكن الادعاء به دون أن يكون له أثر ملموس في الحياة اليومية . ولعل معيار ذلك يتجلى في حسن استغلال الموارد والمشاركة في حل المشكلات البيئية واكتساب مهارات لمساندة الحقوق البيئية ومهارات الاتصال والتفاوض . ومعرفة الجهات التي يمكن أن يتوجه إليها المرء والإجراءات المتبعة . والبحث عن قنوات عده تبعا لكل مشكلة . فلو وصلت لمرحلة المشاركة وحسن الاستغلال أصبح عندك ضمير بيئي . وإن لم تصل إلي ذلك فأنت مجرد شخص عنده معرفة بيئية أو معلومات بيئية .

والى هذا الحد اتضح لنا جليا أن الأسباب التي عرقلت حملات التوعية ولم تجعلها تصل إلى غايتها هو عدم ربط تلك التوعية والأخلاق البيئية بأسلوب الخوف من الله والحسبة وطلب الأجر من الله .

المبحث الثاني

الرؤية الإسلامية للتربية البيئية

إن تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض يحتاج جهوداً ضخمة وصبرا طويلا . وعلاجاً بطيئا . في صغار الأمور وفي كبارها . ولا تربية إلا بالدين وآدابه وفضائله . لكي تكون تربية قرآنية فريدة . لا تقتصر على عرض المفهوم الشامل للوجود أو عرض الجانب الفكري فحسب ، بل تخاطب كلا من العقل والوجدان في تناسق بديع معجز .

وهذا من محاسن التربية البيئية الإسلامية . وبالإحْسِنِهَا من تربية . تزرع بذور المحبة للكون فيتصالح المسلم مع نفسه والكون من حوله . فيحقق السلام الروحي الذي هو ضروري للإنسان ، وأولى مراحل السلام مع الكون والبيئة من حوله ، ولقد كان رسول الله يحب بيئته ، فكان يرى الهلال ويستقبله بفرح . وهو يقول (ربي وربك الله)^(١) وكان يستقبل قطرات المطر بفرح ويقول : (إنها قريبة

^١ عن عبادة بن الصامت في مسند الإمام احمد حديث رقم ٢٣١٤

عهد عند الله^(١). وهذا الشعور الإسلامي الصحيح اللطيف لا ينشأ في القلب إلا بالمعرفة الصحيحة لحقيقة الكون كما يعرضها القرآن. وكان يقول عن أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه) فيخلع عليه الحياة ويشعر بالحب منه كما يشعر بالحب له، وهذا هو الشعور الإسلامي الصحيح اللطيف الجميل لهذا الكون وما فيه، وهو لا ينشأ في القلب إلا بالمعرفة الصحيحة لحقيقة الكون كما يعرضها المنهج القرآني المتفرد.

والأصل في التعلم التدريب، بحيث تعد التربية الصحيحة الفرد لنوع ما

من التدريب

فكان الصوم وسيلة لتدريب الإرادة الإنسانية. وزيادة الاستهلاك بالإسراف في كل شيء. في الوقود والطعام والشراب واللباس... إلخ، سبب لقلّة الموارد. لذلك فالمسلم مكلف بترويض نفسه. وتقيد شهواته بقيود الشرع وحدود الحاجة (كلوا واشربوا ولا تسرفوا). وعدم استخدام ما هو أكثر من المطلوب يأتي من الإدراك لمعنى الإيمان بالله. والمسلم إذا أحرم بالحج أو العمرة عليه أن يحترم البيئة فلا يحل صيدها، ولا يقطع شجرها. هكذا التربية والتدريب في كل العبادات.

وقد يقول قائل بأن وقت التربية قد فات. وأنه لا جدوى من التوعية. فإن نتائج الأبحاث تؤكد على قرب الكوارث البيئية المدمرة وأن تلوث البيئة سيكون سببا لنهاية العالم. مما يعني قطع خط الإصحاح البيئي. لكن التربية البيئية الإسلامية تؤكد على أن المخاطر البيئية على وجه الأرض ظهرت بسبب الفساد. لقوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٢) لكنها أيضا تفتح بابا للرجعة والإصلاح؛ لقوله عز شأنه (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وهي دعوة للمسلم للاحتساب في نشر الوعي البيئي للمعاونة على هذه الرجعة. وإيقاظ الحس البيئي لتحقيق حالة الرشد والرشاد في

^١ الإمام مسلم ١٤٩٤ حديث رقم. وفي البخارى فى الأدب المفرد

^٢ سورة الروم الآية رقم ٤١

الاستهلاك^(١).

ولو نظرنا إلى أصول التلوث للبيئة نجدها ثلاثة :

١- سلوكيات خاطئة لعموم الناس.

٢- قرارات إدارية غير مدروسة.

٣- انبعاثات المصانع ومخلفاتها.

ولكل منها يجب أن توجه التوعية البيئية اللازمة. والإعلام المخطط المدروس الذي يساعد علي إدراك الأسباب الرئيسة لتدهور البيئة^(٢) لأننا لو نظرنا للمصادر الثلاثة فنجد أنها تعتمد علي قرار القر واختياره. ويتوقف هذا القرار علي مدى ما لديه الثقافة البيئية والوعي البيئي.

♦ والنسبة للأفراد يجب أن تكون التربة البيئية عملية مستمرة. تبدأ من مرحلة ما قبل المدرسة وتستمر في جميع مراحل التعليم لتيسير الوصول إلي نظرة شاملة حول احترام البيئة.

♦ وبالنسبة للقرارات الإدارية. فقد وضع المشرع أداة قانونية لانتقاء المشروعات والسياسات الصديقة للبيئة. تلك الأداة هي (تقييم الأثر البيئي). وأوجب القانون مشاركة الجماهير فيها. وضرورة عقد جلسات استماع للجمهور؛ فالحكومات قد تغفل - عن عمد - بعض المشكلات البيئية مثل التلوث الناتج عن المصانع. إذا كان من شأن التصدي لهذه المشكلات التأثير علي التنمية في الدولة. لكنها قد تضطر تحت ضغط الرأي العام.

♦ أما التوعية البيئية التي يجب أن توجه إلي المؤسسات الصناعية. فيكون هدفها نقل الفكرة من مجرد الحلول الجزئية أو ما تسمى (حلول آخر الخط) الذي تُعالج الملوثات فيها عند نهاية العملية الإنتاجية إلي استخدام وسائل إنتاج أنظف. أو ما يسمى (الإنتاج الأنظف).

¹ د/ بشير محمد عربيات ، ود/ أيمن سليمان مزاهرة، التربية البيئية. دار المناهج عمان

² د/ عصام الحناوي، قضايا البيئة في مائة سؤال وجواب، البيئة والتنمية، ص ٣٢ بيروت،

ولكى تكون هذه الثقافة البيئية ملكة عند الناس وصانعى القرار لا بد من إيقاظ الحس البيئى بالمحاورة والمفاوضة والمناظرة فى العلوم البيئية . ويشير ابن خلدون^(١) إلى أن ملكة العلم تحصل بالمحاورة والمفاوضة والمناظرة فى مواضع العلم . فلا تُملأ الأدراج بالأبحاث التى يحصل بها على الدرجات العلمية ولا يتحرك بها صاحبها فى عملية تفاعل واتصال وتوصيل تلك النتائج إلى المهتمين وصانعى القرار . وتحتاج خطة التوعية إلى خبرة وطنية . تُستمد من واقع بيئتنا . لتكون قادرة على التعامل مع الوسائل والإمكانات المتاحة . وتعتمد على المشاركة الشعبية من تحديد المشكلات البيئية وحتى تفويتها . مع الأخذ بعين الاعتبار القيم والتقاليد والمعتقدات الدينية . وألا تهمل البحوث اللازمة لمواكبة التطور والتغيرات فى مجال التوعية والإعلام البيئى . وذلك تنمية الوعي الناقد وحس المسؤولية والتأكيد على الإعلام البيئى الوقائى .

والخلق البيئى يجب أن يكون العامل المؤثر فى اتخاذ القرارات البيئية مهما كان مستواها : بناء مدينة أو إنشاء جسر . أو شق طريق . أو بناء سد أو إقامة مصنع أو اصطيد سمك فى نهر . أو التخلص من القمامة المنزلية أو التنزه على شاطئ البحر أو فى حديقة عامة .. وحتى القرارات الأعلى على المستويين السياسى والاقتصادى يجب أن تحسب حساباً للبيئة فى إطارها العالمى لأن المصالح البشرية واحدة ، ومستقبل الجنس البشرى واحد..^(٢)

ويشير القرآن إلى الإسلام على أنه (دين الفطرة) أو الطبيعة الأولية للبشر . وبنى على ذلك أن الرسائل البيئية والتوجهات لحمايتها لا تحتاج إلى أن تُغرس ، وإنما أن توظف^(٣)

ويقظ الانتباه إلى العلاقة بين البشر والله ؛ فالأزمة البيئية الحالية نتيجة

^١ المقدمة لابن خلدون ، ص ١٩٥ ، مرجع سابق

^٢ رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني ، البيئة ومشكلاتها ، عالم المعرفة . مصدر سابق .

^٣ الفطرة نموذج إسلامى للبشر والبيئة سعديّة خور خان شيشتى موقع اربيسك

لقد العلاقة بين البشر والعالم الطبيعي والله. وتوفر هذه العلاقة ينمي إحساسا عاليا بالانضباط . سواء على المستوى الفردي أم الوطني . مما يسمح بأن يكون للوعي البيئي جذور قوية.

ولهذا فإن الوعي البيئي ليس أمراً يدرس و لكن فقط يجب إيقاظه . وهذا مما يؤكد الحاجة الماسة لتكثيف الجهود نحو إسلامية المعرفة البيئية بكل فروعها وتخصصاتها ، وتأصيل وتعميق التربية البيئية الإسلامية في كل ما يخص البيئة ومشكلاتها على مستوى المناهج الدراسية في المدارس والجامعات ، وعلى مستوى وسائل الإعلام المختلفة وخطب الجمعة وغيرها ؛ لخلق أجيال جديدة قادرة على التعامل مع بيئتها على هدي من الشريعة الإسلامية .

الفصل الثاني الاحتساب في تفعيل القوانين البيئية

اتجه العالم منذ أوائل هذا القرن إلى وضع العديد من الاتفاقيات والمعاهدات والبروتوكولات بهدف حشد الجهود الدولية لحماية البيئة . وبموجب المصادقة أو الانضمام لتلك الاتفاقيات يتحتم الالتزام باتخاذ التدابير التشريعية والتنظيمية والإدارية التي تضمن تنفيذ بنودها . ونفاذاً . والامثال لها على المستوى الوطني . وفي العالم العربي أقر في السنوات الأخيرة عدد من القوانين البيئية .

فهل يكفي إصدار قانون لحماية البيئة أو التصديق على الاتفاقيات البيئية الدولية والإقليمية . أو الانضمام إليها لحماية البيئة والمحافظة عليها؟ قد يقول قائل : إن مجرد التفكير في إصدار قانون لحماية البيئة في دولة يدل على حرص المسؤولين في تلك الدولة على توفير الحماية القانونية لحق المواطن في العيش في بيئة سليمة خالية من التلوث . إلا أن المهم في هذا المقام تحديد فعالية هذا القانون في الحد من تلوث البيئة . والمحافظة على الثروات الطبيعية وتنميتها .

وهناك فجوة بين التشريع والتنفيذ سببها عدم تفعيل القوانين والتشريعات البيئية . مما يجعل الهوة شاسعة بين الجانب النظري للقانون البيئي والحماية الفعلية للبيئة . وقد أشارت دراسة أجراها البنك الدولي عام ١٩٩٦ مع الوكالات البيئية في ست دول نامية كبري . إلى أن السياسات البيئية في تلك الدول ركزت على التشريعات كوسيلة لحماية البيئة ، وأن التجربة أثبتت عدم فاعلية الاقتصار على تلك الوسيلة .

كما أثبتت الدراسات أن درجة الالتزام بالقوانين البيئية في معظم الدول العربية متواضعة ، إذ الخبرات المتوفرة في هذا المجال محدودة ، ولأنه ليس هناك نظام شامل وفعال ومتناسك لإنفاذ التشريعات البيئية على المستوى المحلي أو القومي ، ويحتاج الأمر إلى تعزيز آليات تنفيذها .

وقبل كل شيء فإن تفعيل القانون البيئي في أية دولة يستلزم إزالة العقبات التي تحول دون تطبيقه عملياً على المستويين الوطني والدولي. وعليه لا بد من تحديد أهم المعوقات وإشكاليات التنفيذ التي تحول دون تطبيق القوانين البيئية في الدول العربية ثم في مطلب آخر نعرض لآليات التفعيل. وعلى هذا يكون الموضوع وفق الترتيب الآتي (إشكاليات التنفيذ وآليات التفعيل):

ونعرض إشكاليات التنفيذ للتشريعات البيئية:

- إشكاليات قانونية والدور الاحتسابي للقضاة.
- وضعية وزير البيئة والصفة الإجرائية للوزير.
- إشكاليات أخرى اقتصادية وسياسية.

ونتناول آليات التفعيل على النحو التالي :

- الاحتساب عن طريق التقاضي.
- الجمعيات الأهلية حصون جديدة للمحتسين.
- الاحتساب بالمشاركة والوساطة في النزاعات البيئية.

تهديد:

يرتبط القانون البيئي بالإنسان والعوامل الطبيعية المحيطة به . وقد نشأ وتطور مع التطور الاقتصادي والاجتماعي والنشاط الصناعي لمعالجة قضايا التعويض عن الأضرار . وقد عرف على أنه قانون لحماية البيئة وتنميتها وردع مخربها.

وقد بات اهتمام علم القانون بدراسة البيئة ومشكلاتها والمخاطر التي تحيط بها أمراً مهماً قد يفوق اهتمام غيره من العلوم بدراستها . على أساس أنه يهتم ببيان القواعد التي تضبط سلوك الإنسان في تعامله مع البيئة ومواردها . فيحدد الأعمال المحظورة التي من شأنها الإضرار بالبيئة ومواردها . كما يبين السلوك الذي ينبغي التزامه لتنمية موارد البيئة والحفاظ عليها وذلك بقواعد ملزمة تتضمن جزاءات رادعة لمن يخالفها⁽¹⁾

¹ ذات المعنى ادو / أحمد عبد الكريم سلامة . قانون حماية البيئة . المرجع السابق ، ص ٨ . ٧ . ص ٦٣

وإن كان الباحثون في العلوم الأخرى غير القانون - يتتهون من دراسة البيئة ومشكلاتها والمخاطر التي تحيط بها . إلي جملة توصيات ونصائح للمحافظة علي البيئة . فإن القواعد القانونية التي يهتم بها علم القانون لا تقف عند حد بيان المشكلات والمخاطر التي تهدد البيئة وإنما تتعدى ذلك إلي بيان السلوكيات الواجب اتباعها في مواجهة هذه المخاطر . والجزاء المترتبة علي مخالفة هذه السلوكيات . لذلك كان تناول علم القانون للبيئة ومشكلاتها والمخاطر التي تحيط بها يبدو أكثر أهمية من تناول غيره من العلوم لها . وإذا كان ما تقدم صحيحاً فإن علم القانون لا يمكن له أن يعمل بمعزل عن هذه العلوم . فكما ذكر بعض الفقه بان القانون يتولي ترجمة أفكار سبق قبولها أو خيارات تم تفضيلها من قبل . فيقوم بصياغتها صياغة تشريعية لكفالة احترامها بما يقر من أساليب . وما يضع من جزاءات . فالأصل ألا يحرم القانون سلوكاً معيناً لحماية البيئة مثلاً إلا بعد التأكد علمياً من ضرر هذا السلوك وتلويثه للبيئة . وعلي ذلك فإن دور القانون في حماية البيئة إنما يبيني علي تجارب سابقة . وخبرات سابقة . من علوم أخرى . انتهت إلي أن سلوكيات وأفعالاً معينة تشكل خطراً علي البيئة^(١)

المبحث الأول

إشكاليات التنفيذ للتشريعات البيئية

المطلب الأول: الإشكاليات القانونية

علينا أن نعترف بأن الفقه القانوني تأخر نسبياً في التنبه إلى المشكلات القانونية التي تثيرها المخاطر التي تهدد البيئة . وذلك لما يواجهه القانونيون من إشكاليات في هذا المجال ، فجرائم تلويث البيئة ، التي تعد نمطاً جديداً من

^١ ا.د/ ماجد راغب الحلو: قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة . المرجع السابق هامش رقم (١) ،

الجرائم غير التقليدية ، خاصة من حيث المسؤولية الجنائية التي تختلف فى طبيعتها عن المسؤولية الجنائية التقليدية ، و كذا فى مدى وضوح الركنين المادى و المعنوي للجرائم . ومن حيث النتيجة الإجرامية .

الفرع الأول الصعوبات

فمن الناحية الجنائية هناك العديد من الصعوبات ، أهمها⁽¹⁾ **أولاً:** صعوبة تحديد نطاق المصلحة محل الحماية. لصعوبة تحديد ماهية البيئة. فمصطلح البيئة مصطلح مبهم و غير واضح النطاق او غير محدد بدقة. والقانونيين لا يتعاملون إلا مع التحديد الدقيق.

ثانياً: صعوبة تحديد مدلول مصطلح التلوث، فلا يمكن حتى الآن الجزم بالتوصل إلى مفهوم جامع مانع للتلوث البيئى بكيفية علمية و دقيقة و محددة . فضلا على أن التلوث ليس هو السبيل الوحيد للاعتداء على البيئة. فإتلاف موارد الطبيعة على الرغم من كونه من وسائل التعدى على البيئة. لا يعد من قبيل التلوث بالمعنى اللغوى.

ثالثاً: صعوبة تحديد طبيعة و أساس المسؤولية الجنائية فى الجرائم البيئية ؛ فمن حيث الإسناد المادى للجرائم . وتحديد الجانى فى جرائم تلوث البيئة ؛ ذلك أن تلوث البيئة لا يتم عادة بواسطة فاعل واحد ، مما يجعل تحديد المسئول عن جريمة التلوث أمرا بالغ التعقيد والصعوبة.

رابعاً: صعوبة تقرير المسؤولية الجنائية للشخص المعنوي. على الرغم من فداحة الجرائم البيئية التي يرتكبها والتي لا يمكن أن تقاس أبعادها وأثارها مقارنة بجرائم الأفراد. مع الأخذ فى الاعتبار أن الإحساس بالضرر يتلاشى لدى الشخص الاعتباري .

¹ المستشار أسامة محمد عبد العزيز. نحو سياسة جنائية لحماية البيئة رسالة دكتوراة ، جامعة الإسكندرية

خامساً: من حيث أركان الجريمة : هل تقتصر علي النشاط الإجرامي الايجابي . أو قد تحدث بطريق الامتناع ؟ وما هو الامتناع أو الترك الكافي لوقوع الجريمة؟ فهل يجب أن يكون ذلك الامتناع عن واجب قانوني محدداً في القانون ، أو يكفي أن يكون هناك امتناع يصلح لأن يشكل ركناً مادياً طالما سبب ضرراً ؟

سادساً: صعوبة إقامة علاقة السببية بين الفعل غير المشروع والضرر الناتج عنه . وتعذر إثبات الخطأ أو التقصير . بالإضافة إلي صعوبة إثبات الركن المعنوي في الجريمة.

سابعاً: تراخي النتيجة الإجرامية يؤدي لظهورها بشكل غير محسوس وبطريقة تدريجية مما يجعلها تتحقق في مكان وزمان غير اللذين ارتكب فيهما السلوك الإجرامي .

دفعت تلك الصعوبات المشرع الى التوسع في استخدام نصوص فضفاضة⁽¹⁾ مرنة . لكي تستوعب القدر اللازم من الأفعال والسلوك الإجرامي . للملاحقة كل ما يظهر مجدداً من تلك الأفعال. الأمر الذي جعل الركن المادي يتصف بعدم الدقة والتحديد .

بالإضافة إلي الازدواجية التي تعانيها التشريعات البيئية . فهناك ازدواجية في النصوص المتعلقة بالبيئة . وهو ما ينشأ عنه عدم الوضوح عند اعتماد النص الواجب التطبيق . وعدم تناول تلك النصوص لكثير من المستجدات العلمية المتعلقة بالحدود العتبية للملوثات ومدى تأثيرها . وأخيراً عدم ملاءمة العقوبات التي تضمنها النصوص لحجم المخالفات البيئية وضآلة الغرامات المفروضة.

وبذلك صارت محاولات حماية البيئة من الناحية القانونية واحدة من الإشكاليات وإذا كانت هذه حل التشريعات والنصوص البيئية . فمما لا شك فيه أن لاجتهادات القضاء دوراً مهماً في جلاء تلك الإشكاليات . ويحتم عليه أن يكون قضاء خلافاً عند تفسير القانون البيئي وتطويره باعتباره قانوناً خاصاً.

¹ نحو سياسة جنائية . المرجع السابق.

هذا الدور الخلاق يحتاج لحسن الاحتساب . وأن يجمع فيه القاضي بين القضاء والحسبة الأمر . الذي يدل على صدق القول بأن الحسبة ثلث عمل القضاء . و واقعنا المعاصر يستدعى قيام القاضي بدور احتسابي أكبر ؛ لتزايد المنكرات وغياب المحسبين . بما يستدعي تدخل القضاء كولاية عامة لسد القصور الوليات في الخاصة^(١)

وبالنسبة لدور القضاء المصري في التصدي للقضايا البيئية . فالآمال معقودة عليه . لكن علينا وضع خطط متكاملة من شأنها تكوين الكوادر القضائية المتخصصة في مجال إنفاذ قوانين البيئة . تتمكن بتفسير النصوص التي تتضمنها تلك القوانين تفسيراً دقيقاً متخصصاً .

وهناك ندرة في الأحكام الجنائية البيئية كما أنها تخلو من المبادئ القانونية القاطعة والإبداع . وذلك يرجع لعدم تخصص القضاة . وافتقارهم إلى التدريب الجيد . والإلمام بالمستجدات علي الساحة الدولية والقضاء المقارن . وعلي الفقهاء أيضاً يقع عبء جلاء تلك الصعوبات والإشكاليات بمزيد من الدراسات القانونية التي تغطي المشكلات التي لم تستقر فقهاً حتى الآن . لنخلق جيل من القانونيين يؤمن بالقضايا البيئية وأهميتها .

الفرع الثاني: دور الهيئة القضائية في تفعيل القوانين البيئية:

وللهيئة القضائية دور رئيس في دمج القيم الإنسانية المشتركة . وتحويلها إلى إجراءات . من خلال تعزيز احترام حكم القانون دولياً ووطنياً علي حد سواء . والآمال معقودة علي هذا الدور لإنقاذ القانون البيئي فالقضاء حمل أمانة تحقيق العدل منذ فجر التاريخ^(٢)

^١ محمود السيد التحيوي . دعوى الحسبة ، ص ٢٤٠ . دار الفكر الجامعي . ٢٠٠٦

^٢ المستشار أسامة عبد العزيز شبكة المعلومات العربية البيئية . دور القضاء المصري في التصدي للقضايا

والقاضي ظل الله في الأرض . وهو الحارس الطبيعي للحريات .
ويقتضي العدل ألا يكون القاضي أداة صماء لإدارة العدالة . بل عليه أن يطبق
النص القانوني بعد تفسيره وفهم علته وسياقه الاجتماعي . وعلى القاضي يقع
العبء الأكبر في اختيار صلافة الحلول النظرية . و فاعليتها في الاندماج في الإطار
بالتعديل تارة وبالموائمة تارة أخرى .

ولقد أعرب القضاة المجتمعون في جوهانسبرج^(١) عن أن القصور في
المعارف والمهارات والمعلومات المناسبة في مجال القانون البيئي أحد الأسباب
الرئيسة التي تساهم في إضعاف تنفيذ القانون البيئي وتطويره وإنفاذه بفاعلية .
فالنقص في الكوادر الوطنية المؤهلة . وعدم وجود محاكم بيئية وقضاة
بيئيين لديهم دراية كافية بالطبيعة الخاصة للقوانين البيئية . والنقص في الجهاز
المعاون لبيئة المحكمة من الفنيين والخبراء البيئيين وغيرهم . من المشاركين في سير
الإجراءات القضائية . يؤثر علي الحماية البيئية عبر الولاية القضائية . خاصة مع
نظرة بعض الجهات الرسمية إلى الاتفاقيات البيئية الدولية والإقليمية على أنها
غير ملزمة مثل التشريع الوطني . ونظرة بعض القضاة لتلك الاتفاقيات والتردد
في تطبيقها عندما تعارض القانون الوطني بحجة ان القاضي يستمد صلاحيته من
ذلك القانون الوطني وحده .

لذلك استحث إقرار مبادئ جوهانسبرج القضاة علي القيام بدورهم . و ورد
به : (ونشدد علي أن ضعف حالة البيئة العالمية يستوجب علي القضاة بوصفهم
حماة حكم القانون الإقدام بشجاعة وبلا خوف علي تطبيق وإنفاذ القوانين
الدولية والوطنية التي تساعد في حماية البيئة . وتحفف من وطأة الفقر) لإقرارهم
بأن المتأثرين بتدهور البيئة أكثرهم فقراء . وهم بحاجة للدفاع عن حقوقهم البيئية .

^١ الندوة العالمية للقضاة المعقودة في جوهانسبرج . جنوب أفريقيا في الفترة ١٨ الي ٢٠ أغسطس
٢٠٠٢ . برعاية برنامج الأمم المتحدة للبيئة .

وأتفق القضاة المجتمعون على أن إنفاذ مبادئ جوهانسبرج يتطلب -

وفق إعلان نيروبي وبرنامج تطوير القانون البيئي - الآتي :-

١- المشاركة العامة في صنع القرار البيئي . وتمكين الجمهور من الحصول علي المعلومات ذات الصلة . إذ ترجع الفجوة بين النص والتطبيق إلي آلية وضع تلك التشريعات التي لا تراعي فيها المشاركة الفاعلة للمجالس التشريعية و الإدارات المعنية بالتطبيق.

٢- تقوية قدرة المنظمات العاملة في البيئة.

٣- أهمية تضمين القانون البيئي في المناهج الدراسية الأكاديمية . والتدريب في أوساط القضاة وغيرهم من العاملين في سير الإجراءات القضائية من أجل تعزيز الامتثال للقانون البيئي وإتقاده علي أساس قاعدة متينة من المعرفة والمهارات والمعلومات^(١)

المطلب الثاني

الإشكاليات الإدارية

تتولى جهات عدة في الدولة حماية البيئة والموارد الطبيعية . ولها صلاحيات في إصدار القرارات الإدارية واللوائح المتعلقة بالبيئة . وتتوزع القرارات الإدارية الصادرة عن تلك الجهات نتيجة اختلاف توجهاتها . وتداخل الاختصاصات بها. وهذه إحدى الإشكاليات في تنفيذ القوانين البيئية.

فعلى سبيل المثال. تتولى وزارة المواصلات والنقل تنفيذ كل ما يتعلق بالمخالفات الخاصة بتلوث البيئة البحرية . وتتولى المجالس المحلية تنفيذ اللوائح المتعلقة بالنظافة والمحافظة على الحدائق العامة وقانون البناء. وتنفذ الهيئة العامة للزراعة والثروة السمكية القرارات الخاصة بالمحافظة على الثروات الطبيعية.

^١ د/ بدرية العوضي مقال بعنوان (خوف رجال القانون والحقوق من الحداثة) جريدة القبس العدد

١٣٥٠ بتاريخ ١١/٤/٢٠٠٢

وهنا نجد ان انعدام الانسجام والتعاون بين مختلف هذه الأجهزة يشكل مصدراً حقيقياً للتضارب. ويؤثر سلباً على تطبيق واحترام القوانين البيئية. وازدواجية عمل المؤسسات المختصة بشؤون البيئة، وما ينشأ عن ذلك من تداخل وتنازع في الاختصاص البيئي، سواء في مجال الإشراف والرقابة أو التنفيذ. ولعل فك الاشتباك القائم حالياً بين الاختصاصات التنفيذية. يكون خطوة نحو تفعيل القانون البيئي. لكنها خطوة تحتاج لتدخل تشريعي لإلغاء النصوص التي تدعم هذا التشابك.

الفرع الأول

استعراض للإشكاليات الإدارية:

ويمكن استعراض الإشكاليات الإدارية في النقاط الآتية:-

- ١- غياب الكوادر المتخصصة في العمل البيئي في المؤسسات المعنية بإدارة شؤون البيئة، مما يفقدها المرجعية العلمية والإدارية.
- ٢- نقص المعلومات البيئية المتاحة أمام صانعي القرار والمسؤولين عن البيئة. ويرجع هذا النقص لصعوبة حصر وتسجيل المعلومات الخاصة بالانبعاثات الصادرة من المصانع. والتعقيدات البيروقراطية التي تواجه تسجيل المعلومات عن حالة البيئة. وجودة الهواء والماء والتربة لدى المكاتب البيئية عند طلبها لذلك من الجهات المسؤولة عن تسجيل تلك البيانات. ولا شك في أن نقص هذه المعلومات عند صانعي القرار يؤثر بالسلب على القرارات المتخذة ويضعف المشاركة الفاعلة.
- ٣- غياب التنظيم القانوني لمزاولة مهنة البيئيين^(١) إذ يزاول أعمال ودراسات التقييم البيئي للمنشآت. ووضع الخطط لها. وتوفير أوضاعها أشخاص غير

^١ مخاطر التلوث الصناعي وكيفية مواجهته مجموعة بحثية تحرير أمال إبراهيم صبرى مدير برنامج البيئة والتنمية مطبوعات جهاز شؤون البيئة المصرى

متخصصين . مما ينتج خللاً فى إجراء هذه الأعمال وبالتالي يتعرض أصحاب المنشآت لأضرار ، الأمر الذي يتطلب تنظيمًا قانونياً لمزاولة هذه الأعمال . وإعداد سجل للخبراء فى شئون البيئة الذين يمكن الاستعانة بهم لأداء تلك الأعمال . ويمكن لجهاز شئون البيئة الاستعانة بهم فى مراجعة دراسات التقييم البيئى للمشروعات الجديدة . أو التوسعات أو التحديدات فى المشروعات القائمة.

٤- تعاني الإدارة البيئية من المركزية . إذ أناط القانون بجهاز شئون البيئة مسئولية إدارة البيئة وحمايتها وتنمية مواردها . وهو جهاز مركزي مقره القاهرة . وعلى الرغم من صدور قرار بإنشاء ثمانية أفرع . لم يبدأ بعضها العمل أو يستكمل إنشاؤه . ولم يعمل إلا فرع القاهرة الكبرى وفروع الإسكندرية وطنطا والسويس^(١)

٥- افتقاد التنسيق بين جهاز شئون البيئة و الوزارات المختلفة . والجهات الإدارية المختصة . والمنظمات غير الحكومية . و أطراف المشكلات البيئية كافة ولا شك فى أن مشاركة تلك الأطراف من شأنها أن تحقق فاعلية التشريعات البيئية وعدالتها.

فمثلا وزارة الأشغال العامة والموارد المائية المتوط بها تنفيذ أحكام القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٨٢ بشأن حماية نهر النيل والمجاري المائية . ووزارة الصحة المكلفة بأخذ العينات وتحليلها وإخطار وزارة الأشغال العامة والموارد المائية بنتائج تحليلها وكذلك شرطة المسطحات المائية بموجب أحكام القانون ذاته بمعاونة مهندسى وزارة الأشغال العامة والموارد المائية فى ضبط الجرائم التى تقع بالمخالفة لأحكام القانون . كذلك فإن لهيئات الصرف الصحى ووزارة الإسكان والمرافق دور فى تطبيق أحكام القانون ذاته.

^١ د/ عادل أبو زهرة . الإدارة البيئية . مطبوعات جمعية أصدقاء البيئة ، بالإسكندرية.

وفى مجال حماية المسطحات المائية البحرية تشارك هيئات عدة جهاز شئون البيئة فى تنفيذ أحكام القانون ٤ لسنة ١٩٩٤ . كمصلحة الموانى والنائر . وهيئة قناة السويس . وهيئات الموانى بجمهورية مصر العربية . والهيئة المصرية العامة لحماية الشواطئ . والهيئة المصرية العامة للبتترول . والهيئة العامة لتنمية السياحة . والإدارة العامة لشرطة المسطحات المائية . كذلك فإن وزارة العمل لها دور فى حماية البيئة داخل المنشآت من خلال مفتشى السلامة والصحة المهنية ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضى ووزارة الصناعة .

٦- عدم وجود شرطة متخصصة فى حماية البيئة . إذ نصت المادة ٦٥ من اللائحة التنفيذية للقانون ٤ لسنة ١٩٩٤ الصادرة بقرار رئيس مجلس الوزراء رقم ٣٣٨ لسنة ١٩٩٥ على إلزام وزارة الداخلية بالتنسيق مع جهاز شئون البيئة . بإنشاء شرطة متخصصة لحماية البيئة بالوزارة ومديريات الأمن بالمحافظات تختص بالعمل على تنفيذ أحكام القوانين . والقرارات المتعلقة بحماية البيئة ، وتلقى الشكاوي والبلاغات فى هذا الشأن واتخاذ الإجراءات القانونية بشأنها . وعلى الرغم من مضى سنوات طويلة على صدور اللائحة التنفيذية فإن وزارة الداخلية لم تنشئ شرطة للبيئة واكتفت بإسباغ اسم شرطة المسطحات المائية والبيئة على الإدارة العامة لشرطة المسطحات المائية دون أن تنشئ لها إدارات بمديريات الأمن بالمحافظات . ودون أن تتخذ الإجراءات القانونية اللازمة التى تخولها صلاحيات تنفيذ أحكام التشريعات البيئية ، وهو ما يعد عائقاً مهماً من عوائق تنفيذ التشريعات المشار إليها .

٧- غياب الاستقلالية فى عمل المؤسسات المسئولة عن شؤون البيئة ، فهى لا تعمل على البعد البيئي فقط بل ترتبط بنشاطات حكومية أخرى تستنفذ جهودها ووقتها .

الفرع الثاني

إشكاليات أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية

المشكلة البيئية تثير العديد من الإشكاليات التي تساهم في عدم الأخذ بالموصفات والنظم البيئية لإصحاح البيئة . ولا تزال الأولوية للخطط والمشروعات التنموية ولو علي حساب البيئة ومواردها. أي أن الإدارة البيئية تخضع لاعتبارات سياسية⁽¹⁾ واقتصادية واجتماعية عدة منها علي سبيل المثال لا

الحصر:

١- التوجه الاقتصادي الحالي . الذي يتبنى التقديس المفرط لآليات السوق . واتفاقية التجارة الحرة والترحيب المبالغ فيه بالاستثمار الأجنبي المباشر ولو علي حساب البيئة والتشريعات المحلية . ومن أمثلة ذلك التسهيل للاستثمارات الأجنبية التي قدمت إلي مصر في مجال الصناعة . والتي ذهب معظمها إلي أكثر الصناعات تلوثاً للبيئة (صناعة الأسمنت والصلب والصناعات التحويلية ..) مما يعني تحول البلاد إلي بلاد مستقبلية للصناعات الملوثة التي طردتها البلاد المتقدمة بفضل القيود البيئية الشديدة عليها هناك.

و كذلك رفض الحكومة لوضع قيود استيرادية أو ضريبية أو تنظيمية حقيقية تحد من زيادة أعداد السيارات التي تتحرك في المدن الكبرى (القاهرة - الإسكندرية) . مما أدى إلي تضاعف أعدادها إلي ثلاثة أضعاف خلال اقل من عشر سنوات . وهو ما ساهم في زيادة الانبعاثات الضارة في سماء المدن الكبرى - خصوصاً القاهرة - وما يزال يلعب دوراً أساسياً في ما يعرف بالسحابة السوداء التي أظلت القاهرة في السنوات القليلة الماضية . وأبرزت التدهور البيئي الشديد الذي تمر به البلاد . وهذه مجرد أمثلة لتأثير اتفاقية الجات على التدهور البيئي .

¹ د/ سلوى شعراوى جمعة . صنع السياسات البيئية في مصر . الجامعة الامريكية بالقاهرة . مركز

٢- التدخل الحكومي لحماية المشروعات وتمديد آجال الالتزام البيئي^(١) تحت مظلة حماية الاستثمار . أو مراعاة للبعد الاجتماعي فى تنفيذ أحكام التشريعات بالحرص على مصالح العاملين بالمنشآت الصناعية الكبيرة . وتعرضهم للبطالة فى حالة توقيع الجزاءات التي نصت عليها التشريعات . وعلى رأسها إغلاق تلك المنشآت أو وقف نشاطها. مما دعا الجهات القائمة على تنفيذ تلك التشريعات إلى اللجوء إلى أسلوب المفاوضات وإعطاء الفرصة أكثر من مرة للقائمين على إدارة تلك المنشآت لتصحيح أوضاعها البيئية.

٣- ضعف الاستثمارات بشكل عام والحكومية بشكل خاص . الذى أدى إلى تدهور حال كيانات اقتصادية كبيرة كانت تلعب الدور الرئيس فى التنمية الصناعية قبل عشرين عاماً. وقد أدى تهالك تلك الكيانات إلى إلقاء أعباء ضخمة على البيئة فى مصر . خصوصاً الموارد المائية نتيجة الصرف دون معالجة إلى مصادر المياه . والهواء . و التربة ، وكانت ضرورات التنمية تقتضى استمرار تلك الكيانات فى معادلة التنمية . بغض النظر عن التدهور البيئي الذى تحدثه فى ظل سياسة الإهمال التى تسعى إلى إعادة هيكلة الاقتصاد المصرى بغض النظر عن خسائر إعادة الهيكلة من الناحية البيئية. (مصانع الحديد والصلب - معامل تكرير البترول - الصناعات التحويلية و التعدينية و خصوصاً صناعة الاسمنت و الصناعات الكيماوية - محطات القوى الكهربائية).

٤- عجز المنشآت الصناعية التابعة لقطاع الأعمال العام والقطاع العام . وبعض المنشآت التابعة للقطاع الخاص عن تدبير الأعباء المالية اللازمة لتوفيق أوضاعها مع أحكام القانون . فتعجز عن تنفيذ الالتزام بالضوابط البيئية وبالمعايير والمعدلات المنصوص عليها فى التشريعات البيئية. وتفضيلهما تحمل الغرامات التى قد يحكم بها عليها على تحمل تكاليف توفيق أوضاع المنشآت مع أحكام القانون.

^١ مخاطر التلوث الصناعى وكيفية مواجهته . مجموعة بحثية . تحرير أمال إبراهيم صبرى مدير برنامج البيئة والتنمية . مطبوعات جهاز شئون البيئة المصرى ، مرجع سابق.

٥- افتقاد الدعم والتأييد السياسى للتنفيذ الجاد للبرامج البيئية . بل هى تقابل أحياناً بالاعتراض والرفض السياسى . ومقاومة التنفيذ . وفى ظل هذه الظروف من الصعب التحكم فى التلوث . ويتعذر تأييد تدبير تكاليف وأعباء مكافحة التلوث . كما أن أولوية الإصحاح البيئى لدى الحكومة تلعب دوراً أساسياً فى تفعيل القوانين و تحسينها .

٦- عدم تنفيذ الأحكام الإدارية البيئية . فلا قيمة للقانون بدون تنفيذ . ولا قيمة لأحكام القضاء دون تنفيذها . إذ ماذا يجدي أن يجتهد ويتكرر القاضى الإدارى فى إيجاد الحلول ثم لا تنفذ تلك الأحكام أو يعلق تنفيذها على أخلاقيات الإدارة وامثالها للتنفيذ طواعية .

لقد قرر المشرع المصرى جزاءات خاصة تحمّل الإدارة على التنفيذ . كتقريره للمسؤولية الشخصية للموظف المعتمد عن التنفيذ . وتقرير مسؤوليته الجنائية بموجب^(١) قانون العقوبات المصرى فضلاً عن إثارة المسؤولية السياسية أمام مجلس الوزراء . بالإضافة إلى تقرير الغرامة التهديدية كوسيلة غير مباشرة لتنفيذ الأحكام الإدارية الحائزة لقوة الشئ المقضى به . و وسيلة لحمل الإدارة على تنفيذ تلك الأحكام وتذكير الإدارة بالتزاماتها الأساسية المتمثلة فى احترام مضمون قوة الشئ المقضى به . مع إلباس هذا التذكير ثوب التحذير الرسمى . و التهديد بجزاء مالى .

٧- غياب التقييم المجتمعى للقوانين فى كثير من الدول العربية . وأهمية هذا التقييم تكمن فى معرفة صلاحية القانون من خلال تطبيقه عملياً . فالقانون جزء

^١ تنص المادة ١٢٣ على أنه (يعاقب بالحبس والعزل كل موظف عمومى استعمل سلطة وظيفته فى وقف تنفيذ الأوامر الصادرة من الحكم منه أو أحكام القوانين واللوائح . أو تأخير تحصيل الأحوال والرسوم أو وقف تنفيذ حكم أو أمر صادر من المحكمة أو من أية جهة مختصة . كذلك يعاقب بالحبس والعزل كل موظف عمومى امتنع عمداً عن تنفيذ حكم أو أمر مما ذكر . بعد مضي ثمانية أيام من إنذاره على يد محضر إذا كان تنفيذ الحكم أو الأمر داخلاً فى اختصاص الموظف)

من كل في الفعل البيئي . وكذا أهمل دراسة تقييم الأثر البيئي للسياسات المعمول بها . ومراجعتها من منظور بيئي . مما يؤدي في النهاية إلى اتساع الفجوة بين الجانب النظري والجانب العملي في التشريعات البيئية^(١) .

ولعل تفعيل دور المواطنين والجمعيات البيئية . باعتبار الجميع شركاء في البيئة . والسعي لتحقيق هذه الشراكة علي أسس عادلة وتوفير آليات ممكنة لتفعيل قوانين البيئة يعتبر حلاً وخطوة علي الطريق الصحيح . وهو ما نعرض له في مبحث آخر .

المطلب الثالث

وضعية وزير الدولة

بداية نقرر أن نظر البيئية إلي وزارة البيئة وما يتبعها من مديريات البيئة في المحافظات كفيل بتجاوز العراقيل . لعدم تعاون المحليات ودوائر الصحة والداخلية مع مديريات البيئة . خاصة إذا علمنا أن مديرية البيئة لا تملك المعدات والإمكانات . بل تعتمد علي القطاعات الأخرى حتى ولو كان مشروع صغير للنظافة أو حرق نفايات .

ونرى أن إعطاء اليد العليا لمديريات البيئة بالمحافظات هو ما يحقق ما نصبو إليه من رعاية البيئة وصون مواردها .

ولاشك في أن كل هذا يتوقف علي مكانة ووضعية وزير البيئة . وما يحتله مصطلح وزير دولة في الثقافة القانونية للمسئولين والإداريين . ونعتبر هذه إحدى إشكاليات حماية البيئة في وطننا ولرفع هذا الإشكال نحاول التأصيل الشرعي لمصطلح وزير دولة . ومدلوله قديماً وحديثاً . وكذا في الفقه المقارن .

ف نجد الوزارة كمنصب رسمي لم تظهر في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم - ولا في الدولة الأموية إذ اتخذ الخلفاء الأمويين المستشارين أما في الدولة

^١ د/ زين الدين عبد المقصود . قضايا بيئية معاصرة . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص ١٣٤

العباسية فأصبحت الوزارة منصبا رسميا . وتطورت الوزارة وأصبحت نوعين : وزارة التفويض - وزارة التنفيذ^(١) .

وزارة التفويض : وهى أن يستوزر الإمام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه . وإمضاءها على اجتهاده . ويعهد فيها الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض إليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شؤونها دون الرجوع للخليفة مثل (النظر في المظالم وتعيين الولاة وتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف بأموال بيت المال) . لكن عليه أن يطلع الخليفة - فيما بعد - على كل قرار اتخذه فيقبله أو يبطله . ويسمى هذا النوع من الوزارة بوزارة السيف .

وزارة التنفيذ : ويتولى فيها الوزير تنفيذ - مجرد تنفيذ - ما يطلبه منه الخليفة فيكون بمثابة واسطة بين الخليفة والرعية أو الولاة . ويسمى هذا النوع من الوزارة بوزارة القلم .

وبالنسبة لشروط تولى الوزارة نجد الحرية والإسلام . والعلم بالأحكام الشرعية . والمعرفة بأمرى الحرب والخراج مطلوبة في وزارة التفويض وغير مطلوبة في وزارة التنفيذ . وصلاحيات ومهمات وزارة التفويض أكبر . إذ يجوز لوزير التفويض النظر في المظالم وتعيين الولاة وتدبير الحروب والتصرف بأموال بيت المال ولا يجوز ذلك لوزير التنفيذ .

أى أن وزارة التنفيذ حكمها أضعف وشروطها أقل ؛ لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدييره . فوزير التنفيذ معين للتنفيذ وليس والياً عليها ولا متقلداً لها . ولا يعتبر في المؤهل لها الحرية ولا الاجتهاد ؛ لأنه ليس له أن يفرد بولاية ولا تقليد فتعتبر فيه الحرية . ولا يجوز له أن يحكم فيعتبر فيه العلم والاجتهاد .

^١ كتاب الأحكام السلطانية . مرجع سابق .

ويرى المستشار طارق البشري^(١) أن "وزير التفويض" هو من يفوضه الإمام في تدبير الأمور حسب تقدير الوزير نفسه ورأيه ، فهي وظيفة أقرب إلى نظام "مجلس الوزراء" في النظم البرلماني الحديث الذي تقوم الوزارة فيه برسم السياسات.

أما "وزير التنفيذ" فهو من ينفذ مشيئة الإمام . ويبلغ قراراته . ويشرف على إنفاذها دون أن يكون راسم السياسة ، وهي وظيفة أقرب إلى وظيفة الوزير في النظام الرئاسي الحديث . كالنظام الأمريكي .

وحاول البعض^(٢) جاهداً أن يبرهن علي أن وزير الدولة مثل أي وزير آخر مستنداً إلى أن الدستور من المواد ٥٤ إلي ١٥٧ نص علي اختصاصات الوزير أياً كانت تسميته مؤكداً أن ذلك أبسط قواعد التفسير القانوني . خاصة أن الدستور المصري لم يفرق بين نوعي الوزارة .

ونحن إذ نتناول وضعية وزير الدولة لشئون البيئة لا نرى هذا . بل نرى أن مكانة وزير الدولة تشابه مكانة وزير التفويض في الفقه الإسلامي . ومكانته أعلي من وزير التنفيذ . وهو يستمد سلطته من قانون البيئة . الذي صدر سابقا علي القرار الجمهوري رقم ٢٧٥ لسنة ١٩٩٧ بتكليف أول وزير لشئون البيئة . وأعطى وزير البيئة الاختصاصات والسلطات كلها الموجودة في قانون البيئة وجعل جهاز شئون البيئة تابعاً للوزارة والجهة التنفيذية للوزارة واختصاصات رئيس الجهاز المشار إليه هي في الوقت ذاته اختصاصات الوزير . ومن ضمنها رسم السياسة العامة وإعداد الخطط اللازمة لحماية البيئة . ووضع المعايير لأصحاب المشروعات وللالتزام بها . والمتابعة الميدانية لتنفيذ ذلك .

^١ المستشار طارق البشري . مؤسسات الدولة في النظم الإسلامية والغربية . مركز دراسات العالم

الإسلامي . سلسلة الدراسات السياسية ، ص ٩٨

^٢ علي الشناوي محامي ضمن فريق حابي . إحدى إشكاليات قانون البيئة . شبكة المعلومات العربية القانونية

وبالتعليق علي تلك النشأة وقرار التكليف نجد أن :-

١- كان جهاز شئون البيئة - السابق لوزارة البيئة - يتبع مجلس الوزراء ويرئاسته. مما يؤكد أن السلطة الممنوحة للجهاز سلطة ووظيفة سياسية في المقام الأول. وليست مجرد (سلطة إدارة) وتنفيذ تعليمات وقرارات حكومية. بل الجهاز هو الذي يرسم السياسات الكفيلة بحماية البيئة.

ومعلوم أن هناك فارقاً بين سلطة الحكم وسلطة الإدارة. فسلطة الحكم وظيفة سياسية في المقام الأول. تبدأ من رئيس الدولة وتنتهي عند الوزير. أما سلطة الإدارة فهي مجرد تنفيذ الأوامر والتعليمات في ضوء خطة حكومية مرسومة مثل (المحافظين) كأعلى سلطة إدارة.

وهذا يتفق مع نوع الوزارة المسمى بوزارة التفويض التي أشرنا أن المستشار طارق البشري جعلها أقرب لنظام مجلس الوزراء في النظام البرلماني. فاختصاصات وزير الدولة اختصاصات سياسية وله دور رقابي.

وقد أولى نظام الحكم في الإسلام^(١) عناية لتفرد السلطة السياسية في المجتمع بالقوة القاهرة، إذ دون قوة القاهرة لا يحترم في المجتمع نظام، وتنزع من قلوب المتمردين والمجرمين المهابة من السلطة الحاكمة. كما جعلها سلطة عامة. ومعنى كون السلطة السياسية سلطة عامة أي أن سيطرتها تمتد إلى الأفراد والهيئات والمؤسسات التابعة للدولة كافة.

٢- ويلاحظ أن المفهوم الفرنسي لمصطلح وزير الدولة يتفق مع قرار نشأة الوزارة. إذ تسند لوزير الدولة مهمات خاصة. كتمثيل الملك في مهمات خارج البلاد. أو معالجة ملفات سياسية أو اقتصادية مهمة ضمن عمل الحكومة. وقريب من ذلك ما حدث في حكومة الكيان الصهيوني قبيل حرب ١٩٦٧. عندما استدعى مناحم بيجين وزير المعارضة في ذلك الوقت للمشاركة في قرار الحرب وتم اعتباره وزير دولة دون وزارة.

^١ المستشار طارق البشري. مؤسسات الدولة في النظم الإسلامية والغربية، المرجع السابق

ويجعل الفقه الفرنسي وزير الدولة أعلي من الوزير العادي من الناحيتين السياسية والإدارية. وأيضاً من حيث الأسبقية في البروتوكول. ولذا يشكّل من أشخاص يتمتعون بمكانة خاصة. ولا يخفي أن التشريعات المصرية مستمدة من القانون الفرنسي. وهو المفسر لكثير من أحكامها.

٣- كما يجوز لوزير الدولة تعيين الموظفين وإصدار القرارات الخاصة بالهيكل الوظيفي لجهاز شؤون البيئة^(١)

٤- ويحق لوزير البيئة - كوزير دولة - إصدار قرارات إدارية. وجزاءات. وأوامر مباشرة. فلو أصدر وزير البيئة بوقف قراراً لنشاط صناعي مخالف للبيئة^(٢). وأخطر المحافظة بذلك. فلا يحق للمحافظ الاعتراض. إذ يكون جهة تنفيذ لا يملك سلطة تقديرية. وذلك وفق القواعد العامة للقانون الإداري. ويستفاد أيضاً من قانون البيئة سواء بنصوص صريحة أو غير صريحة. لأن وزارة البيئة جهة حكم والمحافظة جهة إدارة. ناهيك عن إعطاء مفتشي البيئة سلطة الضبطية القضائية وفق المادة ١٠٤ من قانون البيئة.

٥- للوزير الصفة الإجرائية (التمثيل القانوني). فهو يمثل الدولة في الشؤون المتعلقة بالوزارة. وهو صاحب الصفة في تمثيل الوزارة. ولو كان سلطته إدارية كالمحافظة. فهو لا يمثل الأجهزة التي يشرف عليها بل رئيس الوحدة المحلية هو الذي يمثل أمام القضاء.

والمادة الأولى^(٣) التي تحدد الاختصاصات والسلطات المخولة لوزير الدولة لشؤون البيئة تؤكد على ذلك قائلة: (ويكون له تمثيل جهاز شؤون البيئة في علاقته بالغير وأمام القضاء). كما انه يحضر اجتماعات وزراء البيئة العرب ويدين أي اعتداء على البيئة ويصدر التوصيات معهم.

^١ الفقرة الرابعة من القرار الجمهوري ٢٧٥ لسنة ١٩٩٧

^٢ المادة ١٨ من اللائحة التنفيذية لقانون البيئة فيحق غلق المنشأة - وقف النشاط المخالف - المطالبة القضائية بالتعويضات المناسبة لمعالجة الأضرار الناشئة عن المخالفة.

^٣ القرار الجمهوري رقم ٢٧٥ لسنة ١٩٩٧ بتكليف أول وزير لشؤون البيئة.

والخلاصة التي يساندها المنطق القانوني أن وزير الدولة تغلب علي عمله السلطة السياسية لا التنفيذية . وهو مفوض في النظر بالمهمة التي اختير لها . والتصرف في شؤونها . ورسم السياسة للوصول إلى أهدافها المرجوة . وهذا الإغلاء للجانب السياسي على الجانب التنفيذي أسلوب تلجأ إليه الإدارة أحياناً لإيجاد هذه المكانة لبعض رجالها كما في المؤسسات الصناعية والتجارية . حيث تفصل بين سلطة رأس المال والإدارة فتعطي لقب (المفوض) أو العضو المنتدب . وتجعله أعلى مكانة من رئيس مجلس الإدارة الذي يعتبر حين ذلك مجرد سلطة تنفيذية .

هذا بالإضافة إلى أن الملف البيئي يمكن بحيث يختار له مفوضاً عاماً . يتصرف بإرادته المنفردة باتخاذ قرارات . دون حاجة إلى تصديق من أية جهة إدارية . أخرى غير قيد التنسيق الذي يحمل على مجرد فكرة التعاون بين الجهات الإدارية . لأن هدفها جميعاً الصالح العام . وهذا المفوض العام بأمر البيئة أو قل وزير الدولة لشئون البيئة يختار اختياراً مباشراً من صاحب الولاية العامة في الدولة وهو رئيسها . لا باختيار رئيس الوزراء .

ولنتفح صفحة من تاريخ الحسبة ، لنرى شيئاً من قيمتها ومكانتها في الأمة ، ولنقرأ هذا التقليد لمنصب المحتسب قديماً .

وجرت العادة على (خطاب يرسل للمحتسب) ^(١) وهذا التقليد دونه الوزير الأديب ضياء الدين ابن الأثير ، وأورده في كتابه المثل السائر . ومما قال " ومن أهم ما تقرر بناءه ، ونقدم عناءه ، ونصلح به الزمان وأبناءه أن غمضي أحكام الشريعة المطهرة على ما قررت في تعريف ماعرفته ، وتنكير ما نكرته ، ومدار ذلك على النظر في الحسبة التي تنزل منه بمنزلة السلك من العقد ، والكف من الزند ، وقد أخلصنا النية في ارتياد من يقوم فيها ويكفيها ، ويصطفي لها ولا يصطفيها . وهو أنت أيها الشيخ الأجل (فلان) .

^١ الشيخ / محمد بن عبد الله الدويش . صفحة من تاريخ الحسبة . لشبكة نور الإسلام

فمن شروط المحتسب الهيبة والرغبة والوجاهة . حتى يكون خضوع الناس له رغبة أو رهبة ، ومن هنا كان تخصيص ولاية للحسبة . ولما كانت الحسبة أمراً بـمعروف ونهياً عن منكر اقتضت أن تكون لصاحبها ولاية - أي سلطة ؛ لأن كلاً من الأمر والنهي لا يصدر إلا عن ولاية ، وإلا ما استوجب سمعاً ولا طاعة . فحين يصدر الأمر والنهي من غير ولاية لا يؤبه له ، ويكون لغواً من القول ، لا يؤدي الغرض من الحسبة ولا الحكمة من إيجابها .

ولما كانت اختصاصات المحتسب لا تقتصر على الاحتساب على أصحاب المهن الحرة ، وإنما تتعدى ذلك إلى الولاية والقضاة ، كما ذكر ابن بسام وغيره من المصنفين في الحسبة ^(١) . لهذا يشترط في المحتسب أن يكون عدلاً . ذا رأي وصرامة وهيبة وعلم بالمنكرات . وغير ذلك . كما ذكر الماوردي وغيره (أن الحسبة موضوعة للرهبة ، فلا يكون خروج المحتسب إليها بالسلطة والغلظة تجوزاً فيها ولا خرقاً ^(٢))

وبعد هذا الإثبات بالمنطق القانوني والشرع الحنيف للمكانة السامية لمصطلح (وزير الدولة) كيف ندعى أن وزير الدولة لشئون البيئة وزير وزعت أعمال وزارته على مختلف الوزارات ولم يبق منها شيئاً ؟ فيصير تابع لرئيس الوزراء . ولا يمكن توجيه الرقابة البرلمانية إليه منفرداً مثل الاستجواب وحجب الثقة . أو أن منصبه مجرد منحة لبعض الأشخاص . فلا خطورة المشكلة البيئية ولا الشرع يقبل ذلك .

¹ نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام (بتصرف) ، (ص ٢١٣ - ٢١٥) . ومعالم القرية في أحكام

الحسبة لابن الإخوة ، (٢٩ ص)

² الأحكام السلطانية للماوردي ، ص ٢٤٢ ، مرجع سابق .

المبحث الثاني آليات تفعيل القوانين البيئية

هل تعلم أن صمتك عن التلوث المحيط بك سيؤدي إلي قتلك يوماً ما ؟
هل تعلم أن المأكولات التي تضعها بيدك علي مائدة أبنائك قد عبثت بها أصابع
للتأثير في صفاتها الجينية أو حقتها بمركبات كيميائية وأنت تقف ساكناً دون
حرك.

فلا سبيل إلي بديل غير الحسبة علي هؤلاء المفسدين في الأرض . وعلي
كل مواطن مسؤولية تضامنية عن سلامة البيئة وصلاحتها . وهي مسؤولية كل
إنسان ومعركة مشروعة لشعوب جميع الدول ضد التلوث . فمسئولية الجميع
حماية بيئتهم ومنع الأيدي العابثة من أن تمتد نحوها بسوء .

نحن لا نعاني قصوراً في أنظمة حماية البيئة بل نعاني من قلة تطبيقها
فما الذي يجب علينا عمله لتفعيل تلك القوانين والاتفاقيات الدولية؟ وما هي
آليات التفعيل؟

وللإجابة علي هذا السؤال المطروح في هذا المطلب . نلاحظ أولاً أن أهم
مشكلة تعترض طريق الحماية البيئية . هي مشكلة اعتماد ثقافة جديدة هي ثقافة
المشاركة والفاعلية لجميع أفراد المجتمع وهذا ما تحققه الحسبة بلا شك . فالحسبة
علي صانعي القرار والوصول بهم إلي مرحلة التفكير الأخضر هو ما يجب أن
يكون .

وبناء عليه نرى هذه الوسائل كفيلة بذلك :-

- ١- الاحتساب عن طريق التقاضي
- ٢- الجمعيات الأهلية حصون جديدة للمحتسبين
- ٣- المشاركة في الوساطة البيئية

المطلب الأول الاحتساب عن طريق التقاضي

أستقر مصطلح الحسبة في التطبيق العملي إلي نظامين مختلفين هما : .
نظام المحتسب . والثاني دعوى الحسبة . ولقد ساهم الاحتساب بصفة عامة ومن
خلال دعوى الحسبة بصفة خاصة في مكافحة الفساد.

والسؤال الآن : هل يمتد نطاق دعوى الحسبة إلي الجرائم البيئية تأسيساً
علي أنها (من حقوق الله) ؟ وهل تعتبر دعوى الإلغاء من دعاوي الحسبة التي
يجوز لكل مواطن أن يرفعها لإلغاء قرار إداري خاص بالبيئة ؟
فقد صرح الفقهاء بأن المحتسب له أن يستعين فيما يعجز عنه بوالي
الحرب والقاضي^(١)

فولاية الأفراد للحسبة كما تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
على وجه الطلب المباشر ، تتضمن كذلك القيام بالادعاء والاستعداد أمام
القضاء . أو أداء الشهادة أمامه أو بالاستعداد إلى المحتسب أو والي المظالم .
والتداعي أمام القضاء في ذلك يسمى "دعوى الحسبة" . وتكون في
حقوق الله تعالى ، ويختص بها الناس جميعاً فليست وقفاً على أحد دون أحد .
ويكون مدعيها مدعياً بالحق وشاهداً به في وقت واحد . سواء أضر المدعي من
الجريمة مباشرة أم لا .

وهناك ميل من الفقهاء لتوسيع نطاق هذا النوع من الدعاوى (دعاوي
الحسبة القضائية) . فإذا كان من الشائع في الدعاوي الولائية التي من اختصاص
المحتسب أن تقتصر علي المنكرات الظاهرة، كدعاوي التجاحد والتناكر التي لا
تُسمع فيها بينة أو يحلف فيها يمين^(٢) . كدعاوي البخس في الكيل والوزن .
والغش والتدليس . والمطل والتأخير في الدين الثابت مع المكتنة . وكلها دعاوي

¹ انظر في ذلك الطرق الحكمية لابن القيم ، ص ٣١٩

² انظر حسن الليدي دعاوي الحسبة الناشر مركز الطباعة اسبوط . ص ١٧٨

ولائية تدخل في اختصاص المحاسب . أما بالنسبة لدعاوي الحسبة القضائية التي ينظرها قاض ويصدر فيها حكم قضائي فإن الوضع يكون علي الاتساع بحيث يشمل تصرفات الإنسان وأفعاله جميعاً^(١)

وهكذا لم يقتصروا دعاوي الحسبة . بل ضربوا . لها أمثلة . كان بعضها محل اتفاق وبعضها محلاً للاختلاف تبعاً لاختلافهم في نوع الحقوق التي يغلب فيها حق الله ولا تقبل الإسقاط . وهي حقوق مردها إلى المصلحة العامة أو النظام العام . وتلك يستحيل تحديدها ويستحيل حصر دعاوي الحسبة لاستحالة تحديد فكرة النظام العام ذاتها^(٢)

وفي ضوء هذه السعة نرى أن موضوع البيئة داخل لاشك ضمن هذه الدعاوي القضائية الاحتسابية.

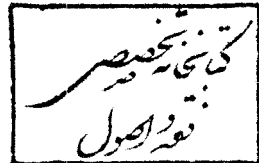
وفي القانون المصري هناك خلاف فقهي حول نطاق دعوي الحسبة . إذ قصره بعض القانونيين علي مسائل الأحوال الشخصية . وعلى الرغم من إن معظمها كذلك إلا أنه لا ينفي وجود أحكام للمعاملات المالية ترتبط بالنظام العام أو تتعلق بحقوق الله . وبالتالي تكون مجالاً لدعاوي حسبة . مثل الفوائد الربوية والتعدي علي الطرق العامة وممتلكات الدولة والتلويث للبيئة.

فدعوي الحسبة بناء يرتبط وجودها بظهور ترك المعروف وظهور فعل المنكر . كما إنها تراقب النشاط الإنساني . سواء تعلق بأمور الحكم أم الإدارة أو الجرائم أم الأحوال الشخصية أو المعاملات المالية . ما دام يمس حقاً من حقوق الله أو حقاً مشتركاً فيه حق الله غالب^(٣) ولذا نرى إجازة دعوي الحسبة بصفة عامة في المسائل كلها وفي المجالات كافة . من أجل حماية قيم المجتمع ومثله العليا و النظام العام والآداب.

^١ د/ محمود السيد التحيوي . دعوى الحسبة . كلية الحقوق جامعة المنوفية . دار الفكر الجامعي

^٢ التحيوي ، ص ١٩١ ، المرجع السابق

^٣ دعوي الحسبة ، ص ١٨٦ ، المرجع السابق



فالحسبة نوع من الرقابة علي السلوك الإنساني الذي يشكل تهديفاً لقيم المجتمع أياً كان مجال هذا السلوك^(١) وينبغي أن ينظر إلى الاحتساب من ناحية توافقه مع الواقع العلمي . من حيث الأشخاص والأزمات والأحوال . ولا يباح للمسلم ان يتخلى عن واجب الحسبة إلا إذا قام غيره برد المنكر ؛ فالأصل في الشريعة الاسلامية الحسبة العامة . أي تقرير حق الفرد - بل واجبه - في التوجيه والتغيير ، سواء أضر مباشرة أم لا ، وذلك فيما يختص بحقوق الله ويتعلق بها ، وتخصيص ال يقوم على الحسبة لا يتعارض مع هذا الأصل العام .

وخصوص دعوى الإلغاء وهل تعتبر من دعاوي الحسبة التي يجوز لكل مواطن أن يرفعها لإلغاء قرار إداري خاص بالبيئة؟

فقد قسم فقهاء القانون العام الدعاوي الإدارية . بالنظر لمدى ولاية القضاء فيها إلي : (دعاوي إلغاء لتجاوز السلطة ، ودعاوي القضاء الكامل) .

ودعوى الإلغاء ليست بين خصوم . وليست موجهة للإدارة . بل هي دعوى ضد قرار وموجهه للقرار المعيب ذاته . فهي دعاوى عينية أو موضوعية . لا تمثل خصومة شخصية بين طرفين . وإنما تنصب علي القرار الإداري يقرض إبطاله . بخلاف دعاوي القضاء الكامل حيث يمثل مطالبة المدعي بحق ذاتي له . ولذا تعد المنازعة بين طرفين^(٢) وترتب علي ذلك الخلاف بين الدعويين اتجاه بعض الفقهاء والقضاء علي اعتبار دعوى إلغاء القرار الإداري من قبيل دعوي الحسبة

وبالرجوع إلى الأحكام الإدارية نجد حكمين علي طرفي تقيض في هذا الشأن أولهما :-

تقرير مفوض الدولة في الدعوى رقم ٣٦/٦٥ ق^(٣) حيث دفعت

^١ د/ التحوي مرجع سابق ص ٤٠

^٢ التحوي ص ١٩٢

^٣ المقامة من : عبد الخليم حسن رمضان ضد : ١- رئيس الجمهورية ، ٢- رئيس مجلس ==

الحكومة بعدم قبول الدعوى لانعدام المصلحة تأسيسا على أن الرأي المستقر فى الفقه الإداري المصري هو أن دعوى الإلغاء ليست من دعاوى الحسبة ، وان المدعى ليس فى حالة قانونية خاصة بالنسبة للقرارين المطعون فيهما و ليس له ثمة مصلحة قانونية بما يتعين معه الحكم بعدم قبول الدعوى لانقضاء المصلحة .

والحكم الثاني (حكم المحكمة الإدارية العليا الصادر بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٣ فى الطعين رقمي ٩٤٣ و ١٦٤٠ لسنة ٤٠ ق وقد وسعت المحكمة الإدارية العليا فيه مدلول المصلحة المشترطة لقبول دعوى الإلغاء لدرجة أنها كادت تعترف بها لكل مواطن يهتم بالأمر العامة . فقضت بأنه لما كان من المسلم به أن الآثار من الأموال وأن الدستور نص فى المادة ٣٣ منه على أن (للملكية العامة حرمة وحمايتها واجب على كل مواطن) . فلا شك أن من وسائل هذه الحماية الالتجاء إلى القضاء للطعن على القرارات الإدارية التي تمس هذه الأموال العامة . وبناء عليه فمن باب أولى يكون للمطعون ضدهم باعتبارهم من المتخصصين فى الآثار والمشتغلين بالأموال العامة مصلحة فى طلب إلغاء القرار الصادر بالموافقة على عرض هذه الآثار فى الخارج . وتكون الدعوى بالتالي مقبولة شكلا^(١)

== الشعب وقال المدعى شرحا لدعواه انه بتاريخ ١٩٨١/٩/٢ اصدر السيد رئيس الجمهورية القرارين الجمهوريين رقم ٤٨٩ و ٤٩٠ لسنة ١٩٨١ مقرر فى أولهما (تقل الصحفيين وغيرهم من العاملين فى المؤسسات الصحفية القومية والعاملين باتحاد الإذاعة والتلفزيون الذين قامت دلائل جدية على إنهم مارسوا نشاطا له تأثير ضار فى تكوين الرأي العام أو هدد الوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعى أو سلامة الوطن الميئة أسماؤهم فى الكشف المرفق إلى هيئة الاستعلامات أو غيرها من الجهات الحكومية التى يحددها رئيس مجلس الوزراء ، ويتم النقل وفقا لأحكام الفقرة السابقة دون التقيد بأحكام القوانين واللوائح التى تنظم شئون العاملين .
^١ المستشار محمد عبد العزيز الجندى فهم البيبة والدفاع عنها ص ١٠٠ مطبوعات جمعية اصداقاء البيبة.

والخلاصة أنه على الرغم من أن دعوى الإلغاء مفتوحة لعدد كبير من الأشخاص ، لكنها لا ترقى إلي مستوى الدعوى الشعبية أو دعوى الحسبة ، التي تحول المواطنين حق مراقبة الإدارة في تصرفاتها.

وبعد عرض آراء الفقه والقضاء السابقة نجد أنه عند صدور قرار إداري مخالف للقانون يمس البيئة في أي عنصر من عناصرها يكون لكل ذي مصلحة أن يتظلم منه للإدارة ، وأن يطعن فيه أمام القضاء الإداري⁽¹⁾

والتظلم الإداري طلب يتقدم به صاحب الشأن إلي الإدارة لإعادة النظر في قرار إداري يدعي مخالفته للقانون ، وهو اختياري لصاحب الشأن فله أن يتظلم أولاً ، بشرط أن يتم خلال ستين يوماً ولنفس الهيئة الإدارية التي أصدرت القرار ، إما إذا اختار المتضرر الطعن بالإلغاء فتكون محكمة القضاء الإداري هي المختصة. ولا شك أن للجمعيات الأهلية المعنية بحماية البيئة دوراً مهماً في مواجهة القضايا البيئية والتغلب على جانب كبير من عوائق تنفيذها. وتعتبر من أهم القنوات التي تمكن المواطنين من التعبير والدفاع عن حقوقهم في بيئة صحية وآمنة ، وكيفية الاستفادة من التشريعات والقوانين المتصلة بموضوع التلوث عن طريق استخدام بعض الإجراءات السليمة التي يمكن أن تتبع في حالة التظلم من أي تلوث صناعي للبيئة ، وثبوت نتائجه الضارة على الأشخاص أو البيئة المحيطة بهم ، والتقاضي بخصوص ذلك.

وجمعية أصدقاء البيئة⁽²⁾ أول جمعية أهلية في مصر تلجأ إلى القضاء لوقف بعض القرارات أو التصرفات التي كانت تؤدي أو كان من شأنها أن تؤدي إلى التأثير بالسلب على سلامة البيئة ، وبالتالي على صحة وسلامة المواطنين ، وتم رصد عدة أحكام قضائية صادرة انتصاراً للبيئة وسجل قضائنا المصري أحكام إدارية نورد أمثلة منها.

¹ المستشار الجندي ، الدليل المبسط لتشريعات حماية البيئة والصحة في مصر وكيفية الإستناد إليها.

جمعية أصدقاء البيئة ، ص ٩٨.

² نشرة دورية من مطبوعات الجمعية

أولاً : أحكام إدارية فى الشأن البيئى:

القضية الأولى: بدأت عندما إهداء محافظ الإسكندرية عام ١٩٩١ أحد الشوارع فى أهم ميادين مدينة الإسكندرية إلى منظمة الصحة العالمية كي تبني عليه امتداداً للمبنى الذي تشغله بأجر رمزي فى وسط مدينة الإسكندرية . ورأت الجمعية فى هذا التصرف مخالفة قانونية جسيمة . تحرم المواطنين من شارع مخصص لسير المشاة والسيارات . ومن جزء عزيز من ذاكرتهم المكانية والعمرانية . ولجأت جمعية أصدقاء البيئة إلى الاتصال بمحافظ الإسكندرية كي يعدل عن قراره وبعد مفاوضات رفض العدول عن القرار ، كما لجأت إلى التفاوض مع مدير مكتب المنظمة فى الإسكندرية لكنه رفض التنازل عن "الهدية" ، بالرغم من أن الجمعية قدمت سبع بدائل لحل مشكلة المنظمة التى تحتاج لمكان أكبر ، كما أبدت الجمعية تفهماً لمطلب المنظمة ، وفى الوقت نفسه تمسكت بوجودها فى الإسكندرية لأنها تقوم بدور حيوي فى المدينة . وعندما فشل الاتصال والتفاوض ، ولم تجد الجمعية أمامها غير اللجوء إلى الضغط من خلال الصحافة وتحريك الرأي العام ، حتى وصل الأمر فى النهاية إلى المحكمة.

وبعد حوالي خمسة شهور أصدرت المحكمة حكماً شهيراً بإلغاء قرار محافظ الإسكندرية . ووصفته بأنه انتهك القانون ، وقال الحكم إن المال العام المخصص للنفع العام لا يجوز التصرف فيه بقرار إداري ، وقالت المحكمة إن الدفاع عن المال العام وكل ما هو مخصص للمنفعة العامة ليس حقاً للمواطنين فقط وإنما هو واجب عليهم^(١) .

القضية الثانية: الدعوة الشهيرة الخاصة بقضية موقف سيارات الأقاليم بسموحة^(٢)

حيث تم تخصيص مساحة من الأرض فى التخطيط العمرانى الشامل لمحافظة الإسكندرية لتصبح حديقة عامة فى منطقة "سموحة" بالإسكندرية. لكن

^١ الدعوى رقم ١٠١٧ لسنة ٤٩ ق محكمة القضاء الإدارى مجلس الدولة ، الإسكندرية.

^٢ الدعوى ٧٩٢ لسنة ٤٧ ق ، والدعوى ١٢٩٢ لسنة ٤٨ ق

السيد المحافظ اتخذ قراراً بإلغاء هذا التخصيص . وتحويل هذه المساحة كي تصبح موقف عام للسيارات ، وتقدم أهل المنطقة بشكاوى عدة إلى المحافظ يرجونه أن يعدل عن قراره لأن وجود الحديقة أمر غاية في الأهمية.

كما أن تحويل المساحة إلى موقف عام لمئات السيارات سوف يتسبب في تلوث هواء منطقة سكنية و يقلق راحة السكان ، لكن المحافظ أصر على موقفه . فلجأ الأهالي إلى جمعية أصدقاء البيئة التي حصرت المساحات الخضراء . وأرسلت الدراسة إلى السيد المحافظ . وأوضحت له أن اعتماد التخطيط العمراني الشامل لمدينة الإسكندرية يرفعه إلى مستوى القانون، وليس من سلطة المحافظ إلغاء هذا التخصيص ، لكن التفاوض لم ينجح ، فبدأت الجمعية حملة في الصحف.

ورفعت دعوى أمام القضاء . وبعد تداول القضية لمدة تسعة شهور أصدرت المحكمة حكماً بإلغاء قرار السيد المحافظ لأنه خالف القانون ، كما تحدث الحكم عن حق الناس في المساحات الخضراء، وأشارت في حكمها إلى ما جاء في الدراسة التي أعدتها الجمعية.

القضية الثالثة: رفعتها الجمعية استجابة لشكاوى أعداد كبيرة من مواطني مدينة الإسكندرية يعانون من ضوضاء ترام الإسكندرية الذي يخترق المناطق السكنية بطول حوالي خمسة عشر كيلومترا من (محطة الرمل حتى محطة فيكتوريا) وكانت ضوضاؤه تصل إلى ١٠٥ "ديسيبل" فتؤثر على حاسة السمع لدى الذين يسكنون بالقرب منه . وتسبب لهم القلق والتوتر وتحرمهم من النوم والتركيز ، بل تؤثر على سلامة الأبنية القريبة منه.

لذا قامت الجمعية بالبحث عن دراسات أجريت عن تأثير الترام . ونجحت في الحصول على دراستين إحداهما هندسية والأخرى طبية . واتضح أن ترام الرمل تم إنشاؤه عام ١٨٦٣ وكانت تجره الخيول في البداية ثم تم تحويله إلى قاطرة بخارية حتى بداية القرن العشرين حيث تم تشغيله بالكهرباء ، لكن صيانة

سكة الترام وقضبانه أهملت لفترات طويلة . فازدادت الضوضاء الصادرة عنه ، أما الدراسة الطبية فأوضحت أن أكثر سكان الإسكندرية شكوى من تدهور حاسة السمع هم الذين يقطنون بالقرب من الترام ، بل رصدت حالات تدهور سمعي لدى الأطفال .

ووفق الأسلوب الذي اعتادته الجمعية خاطبت هيئة نقل الركاب والمحافظة كي تقوموا بالإصلاحات اللازمة حفاظاً على صحة المواطنين وراحتهم وسلامتهم ، لكن الجمعية لم تتلق أية استجابة ، فأثارت الموضوع على صفحات الصحف كأداة للضغط . واتصلت بأعضاء في البرلمان

لكن هذا كله لم يحرك الهيئات المسئولة ، لذا لجأت الجمعية إلى رفع دعوى قضائية أمام المحكمة ، وفى أثناء تداول القضية أمام المحكمة . وقيل أن تصدر حكمها فيها وافقت الحكومة على تخصيص مبلغ خمسة وعشرين مليون جنيه لعمل الإصلاحات اللازمة ، وظل الإصلاح جارياً لمدة ثلاث سنوات وبعد أن انتهى الإصلاح المنخفضت الضوضاء من ١٠٥ "ديسيبل" إلى ٥٥ "ديسيبل" .

الدعوى الخاصة بعدائق الشلالات بالإسكندرية:

وتتمثل في الدعوى المقامة ضد محافظ الإسكندرية . ووزير الثقافة بصفته رئيساً للمجلس الأعلى للآثار . ورئيس حي وسط الإسكندرية . وآخرين بطلب الحكم بصفة مستعجلة . بوقف تنفيذ القرار الصادر من محافظ الإسكندرية بالترخيص لأحدهم بإدارة منطقة حدائق الشلالات واستغلالها . وما يترتب على ذلك من آثار . وفى الموضوع بإلغاء هذا القرار .

وقد قضت المحكمة بقبول الدعوى شكلاً وفى الموضوع بوقف تنفيذ القرار المطعون فيه وقالت فى أسباب حكمها "بتوافر شرط المصلحة للمدعين . وأن مفاد دعواهم المحافظة على الأوضاع الجمالية والتاريخية لحديقة الشلالات . وان المادة الأولى من قرار رئيس مجلس الوزراء رقم ٢٦٠٣ لسنة ١٩٩٦ قد حذرت وزارات الحكومة ومصالحها وأجهزتها ووحدات الإدارة المحلية والهيئات

والمؤسسات العامة إنشاء مبان أو إقامة أعمال في الأراضي الزراعية والحدائق والبساتين ، وسائر المساحات الخضراء المملوكة أو المخصصة لها ، أو التي في حيازتها بأي صفة كانت الواقعة داخل كردونات المدن والقرى المعتمدة . كما حظرت توسيع أو تغطية أية مبانٍ أو أعمال قائمة بالفعل على الأراضي والمساحات المشار إليها . ولا يجوز للجهة الإدارية المختصة بشئون التنظيم إصدار أي ترخيص بشيء مما ذكر .

حكم المحكمة الإدارية العليا في الطعن رقم ٨٤٥٠ لسنة ٤٤ ق

وتتعلق هذه الدعوى بطلب إلغاء قرار جهاز شئون البيئة ، برفض التصريح بدخول إحدى الشحنات إلى البلاد لاحتوائها على مواد وتقاييم ضارة ، بزعم أن بعض شركات قطاع الأعمال سمح لها باستيراد مواد مماثلة . وعلى ذلك فإن القرار الصادر في هذا الخصوص جاء موافقاً لأحكام القانون بما لا مطعن عليه .

هذا هو الدور الفاعل لما يجب ان تكون عليه الجمعية البيئية ، كما حرصت الجمعية علي موالاة النشرات والكتب التثقيفية في الشأن البيئي لتضع بين أيدي نشطاء حماية البيئية الطرق والأساليب الملائمة للتعامل مع المشكلات البيئية وتفعيل التشريعات الخاصة بحماية البيئة . وهذه بعض الإجراءات التي تتخذ في حالة الشكوى من وجود تلوث .

ثانياً : الإجراءات التي تتخذ في حالة وجود تلوث :

بداية الإجراءات هو التوجه إلى الجهة المسئولة قانوناً عن الحماية من التلوث^(١) وهناك جهات عدة يجب التوجه إليها حسب علاقتها بالموضوع ونوع التلوث . وتكون الشكوى مكتوبة وموقعا عليها من المتضررين ، ويسلم الأصل للجهة مع إثبات التاريخ وفترة البت في الشكوى ١٥ يوم على ان تقوم الجهة المختصة خلال هذه المدة بإجراءات جدية لبحث موضوع الشكوى .

^١ المستشار الجندي . جمعية أصدقاء البيئة . الدليل المبسط ، مرجع سابق

فبالنسبة لتلوث الهواء الجهات المختصة هي :-

١. جهاز شئون البيئة.
٢. المحليات لكونها مختصة بإصدار التراخيص.
٣. وزارة الصحة وهي مختصة بصحة المواطنين وتنفيذ السياسة الصحية.
٤. وزارة الإنتاج الحربي المصانع الحربية.
٥. وزارة البترول - معامل التكرير.
٦. وزارة الصناعة.
٧. وزارة السكان - مصانع الأسمنت والطوب.
٨. وزارة التموين - مطاحن الغلال.
٩. وزارة الدولة لشئون البيئة.

وفى حالة وجود تلوث صناعي للمياه العذبة يجب أن توجه الشكاوى إلى كل من وزارة الري وجهاز شئون البيئة وشرطة المسطحات المائية. مع العلم بأن هذه الشكاوى يكون لها مفعول أقوى إذا كان هناك قياس لحجم التلوث فى المياه من قبل الجهات البحثية المعنية . مثل الجامعات أو مراكز البحوث مع إرفاق النتيجة لهذه القياسات مع الشكاوى.

أما بالنسبة للصرف الصناعي على شبكة الصرف الصحي دون قيام المنشأة الصناعية بمعالجة الصرف الصناعي كما استلزم القانون لأن عدم المعالجة من الممكن أن يؤدي إلى التهالك السريع لهذه الشبكة . وفى حالة التضرر من هذا التلوث يكون اللجوء إلى جهاز الصرف الصحي التابع لوزارة الإسكان وإلى المحليات وإدارة الحي . بالإضافة إلى جهاز شئون البيئة.

وفى حالة الشكاوى من تلوث البيئة البحرية والشواطئ فالأجهزة المعنية عامة هي جهاز شئون البيئة والهيئة المصرية العامة لحماية الشواطئ . وحسب موقع ومصدر التلوث يمكن أيضا التوجه إلى هيئة قناة السويس أو هيئات الموانئ.

أما إذا لم تتحرك الجهة المختصة فى المدة المحددة . ولم تقم بأية إجراءات جدية لإزالة أسباب الشكوى أو حتى الرد عليها رداً يرضى أصحابها فعلى الشاكين أن يتوجهوا إلى قسم الشرطة لعمل محضر إثبات حالة للمشكلة التى يعانون منها . وفى حالة رفض قسم الشرطة التحرك معهم عليهم بالتوجه إلى النيابة التابعة لمكان الشكوى . وفى خلال فترة التحقيق يمكن الادعاء المدنى أمام النيابة .

ويجب التوجه إلى أقرب جامعة وأن يطلب قياس لحجم الملوثات . سواء فى الهواء أو المياه أو التربة . وذلك شكل من أشكال إثبات الحالة لاستخدامها قضائياً .

ووفقاً لقرار رئيس مجلس الوزراء ٤٢٤٨ لسنة ١٩٩٨ بشأن تبسيط إجراءات حصول المواطنين على الخدمات الجماهيرية . ومنها طلب تحليل عينة مياه خاصة أو تطهير خزان خاص أو تحليل أغذية أو تربة .

وتلتزم الجهات الإدارية المعنية بتقديم الخدمة وفقاً للوارد بالنماذج لكل نوع . ووفق القواعد الحاكمة لإجراءات الحصول على الخدمة والأوراق والمبالغ المطلوبة للحصول على الخدمة . والتوقيتات المحددة لإنجازها - وأية مخالفة لذلك ترتب المسؤولية . وبالتعاون بين وزارتى التنمية الإدارية والصحة والسكان والمحافظات . وبناء عليه يمكن للمواطن التقدم لهذه الجهات لطلب التحليل لعينات المياه أو التربة (مديرية الشئون الصحية إدارة الطب الوقائى أو المكاتب الصحية)^(١)

ويمكن فى الوقت نفسه القيام بعمل مسح صحى للسكان المتأثرين بالمشكلة أو زيارة المستشفيات والمراكز الصحية بالمنطقة المقصودة للتعرف على حجم المترددين عليها نتيجة التلوث الموجود .

^١ مرفق بالملاحق بعض هذه النماذج . آخر الرسالة

المطلب الثاني

الجمعيات الأهلية حصون جديدة للمحتسبين

(أثر العمل التطوعي في حماية البيئة)

الجهد الفردي مهما كانت قدرات صاحبه ومواهبه لا يمكن أن يوازي جهده حينما تُضمَّ إليه جهود الآخرين وخبراتهم ومواهبهم وطاقاتهم ، حتى ولو كانوا أقل منه كطلابه . أو عامة الناس من أصحاب التخصصات المتنوعة التي تحتاجها الأمة. ولو تأملت حال مجددي الأمة على مر العصور للمست طابع التفاعل مع المجتمع ، والتفعيل لقواه المختلفة أمراً مطرداً ، وهذا طبيعي ؛ فكيف يتأتى لأمة خاملة منهكة أن تنهض دون أن تستجمع قواها ، ولو كان أحد يستغني عن الآخرين في نشر الدعوة لاستغنى الأنبياء عليهم السلام.

وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ، فالتعاون على جلب منافعهم ، والتناصر لدفع مضارهم ، ولهذا يقال: الإنسان مدني بالطبع ، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة ، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة^(١)

ويمكن أن يقال بحق إن الاهتمام بحماية البيئة بدأ في صورة حماية الأفراد. والجمعيات التي أخذت علي عاتقها كشف المتسبين في تلوث البيئة ، وممارسة الضغوط عن طريق التجمعات والمظاهرات. ووجد المدافعون عن البيئة ضالتهم في نظام الجمعيات الأهلية ، فهي جهات لها أهلية قانونية ، و التمثيل أمام القضاء ، وأصبحت جمعيات حماية البيئة وجمعيات الدفاع عن المستهلك واجهة معبرة في الأنظمة الديمقراطية ، وتلجأ إلي وسائل عدة من أجل تحقيق أهدافها ، بداية بجمع المعلومات المتعلقة بالبيئة وحصرها في قواعد بيانات ، كما تقوم بدور استشاري للجهات المعنية باتخاذ القرار المتعلق بالبيئة ، ويلزم القانون في بعض

^١ قول ابن تيمية في الحسبة ، مجموع الفتاوى ، المجلد ٢٨

الدول تلك الجهات بعدم اتخاذ قرار إلا بعد أخذ رأي الجمعيات الأكثر تمثيلاً
بفرض تأكيد ديمقراطية هذه القرارات^(١)

وفريضة الحسبة تتطلب تفعيلاً لها من قبل المدركين لأهميتها . للبحث
عن آليات جديدة لتفعيل دور الحسبة في درء الإفساد البيئي . والإطار القانوني
الذي يسمح بهذا الآن هو الجمعيات الأهلية التي تتيح لأعضائها التواصل مع
الناس . والتأثير فيهم . وهي وسيلة ناجحة للاحتساب . وطريقة لتكاتف الجهود
الفردية . فإذا كان العمل الرسمي للحسبة يكاد يندثر فالعمل التطوعي جماعياً
كان أم فردياً سيقوم بالمهمة نفسها .

إن الاحتساب بشكله التقليدي قد لا يكون ممكناً في كثير من البلاد
الإسلامية . لكن تبقى آليات عدة يستطيع المحتسبون من خلالها حماية الدين ، ودفع
المنكرات ، والأمر بالمعروف على قدر الاستطاعة والمتاح والممكن .

والحقيقة أن المنظمات غير الحكومية آلية مهمة للمحتسبين في الإنكار ، وما يمكن
أن يطلق عليه مجال (الحسبة السياسية) . فالعمل التطوعي قد يصل في ثقافتنا الإسلامية إلي
حد الواجب والفرض الملزم إذا كان الفرد أو الجماعة أكثر قدرة علي القيام بهذا الواجب .
ويسمى ذلك (فروض الكفاية) فإذا تقاعس الفرد عن أداء الواجب وتقدم للعمل من هو
أقل منه قدرة أصبح من الأثمين . ويعتبر هذا الأسلوب للعمل مع الجمعيات الخيرية نوعاً
من الممارسة الجماعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وعلى الرغم من هذه الأهمية غاب عن مجال المؤسسات الأهلية كثير من
المسلمين المحتسبين . بسبب توهم البعض أنها لا تؤتي خيراً . وصد البعض عنها
أيضاً سيطرة الدولة علي تلك المؤسسات عن طريق القوانين المقيدة والرقابة
الخانقة وكأن فعل الخير أصبح جريمة^(٢)

^١ عبد محمد مناحي النوخ العازمي . الحماية الإدارية للبيئة في النظام الكويتي والمقارن رسالة دكتوراه
٢٠٠٨ ، جامعة الإسكندرية .

^٢ الأهرام ١٩٩٨/٧/٢٩ تحقيق

إلا أن هذا كله لا يبرر عدم انخراط المسلمين في هذه المؤسسات ؛ فلقد أصبح من المتفق عليه أن تقدم الأمم يقاس بمدى إسهام المواطنين في العمل العام، ومدى انشغالهم بالشأن العام . ومن المفترض أن كل مسلم مسئول مسؤولية تضامنية عن سلامة البيئة وصلاحها . وإذا رأى من يجور عليها بتلويث أو إتلاف أو إفساد . وجب عليه أن ينهأ عن ذلك بل المطلوب أساساً أن يغير هذا المنكر بقدر استطاعته . بيده إن كان ذا سلطة . فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلمه . وذلك أضعف الإيمان . وبهذا يحاصر المنكر والفساد حصاراً أديباً . ويبقى في أضيق نطاق ممكن . ويدخل في هذا المجال : إنشاء (الجمعيات الأهلية) للحفاظ على البيئة . وهذا من التعاون على البر والتقوى . وهذه الجمعيات هي البديل الشعبي لدور (المحتسب) في عصور الحضارة الإسلامية .

وفي عرض الشيخ القرضاوي للوسائل الإسلامية المعاصرة لرعاية البيئة جعل التعاون مع المؤسسات الإقليمية والعالمية . من هذه الوسائل . مبرراً ذلك بأن الحق - سبحانه وتعالى - خاطب الناس جميعاً بقوله (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً)^(١) فعندما يكون العدو واحداً يجب أن يتحد الموقف ضده . والتلوث والإفساد البيئي عدو الناس جميعاً ومخربي البيئة هم أعداء للإنسانية جمعاء . لذا اقترح برنامج الأمم المتحدة للبيئة لنظام (حارس البيئة) لمراقبة وضع البيئة العالمي أياً كانت الدولة مصدر التلوث . وكتب أحد الباحثين كتاباً عنوانه : (يا سكان الأرض اتحدوا)^(٢) أي ضد الأخطار الكبرى التي تنذر البشرية بشر مستطير إذا لم يتداركهم الله برحمته ويسارعوا إلى العمل معاً لسد الخلل . وترميم الخراب . وإصلاح الفساد . ويد الله مع الجماعة .

¹ سورة فاطر الآية ٦

² السفير/ عصام الدين حواس مندوب مصر في الأمم المتحدة سابقاً . الناشر المكتبة العربية الدوحة . ١٩٨٩ .

فالنشاط الخيري والتطوعي يحتل حيزاً مهماً من الثروة الوطنية ويعتبر إحدى القطاعات المهمة في التقسيم الاقتصادي الحديث. بجانب القطاعين العام والخاص. باعتبارهما قطاعات ربحية. ويقدم هذا القطاع خدمات كثيرة في مجالات عدة حتى أصبح يشكل رقماً مهماً في المعادلة الاقتصادية في كثير من البلدان الصناعية. ففي الولايات المتحدة الأمريكية ٩٠ مليون متطوع في الأعمال الإغائية والإنسانية، بواقع خمس ساعات عمل أسبوعياً.

وأطلقت علي النشاط الخيري أسماء عدة بحسب المنطق الثقافي والبيئي. فهو قطاع تطوعي أو غير حكومي أو قطاع غير هادف للربح. وهو أيضاً القطاع المستقل. أو القطاع الثالث. ويسمى أيضاً الاقتصاد الاجتماعي والقطاع الخفي أو الجمعيات الخيرية العامة.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المفكرين الإسلاميين يستخدموا مصطلح المجتمع الأهلي بدلاً من المجتمع المدني من منطلق أنه دخيل أفرزته البيئة الثقافية الغربية، على حين تذهب تفسيرات أخرى إلى أن المجتمع المدني إنما يضرب بجذوره في مجتمع المدينة في عهد النبوة، كما يجد في نص صحيفة المدينة التي آخت بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى دستوره^(١).

أولاً : أهمية المجتمع الأهلي والعقبات التي تواجهه:

تزداد أهمية المجتمع الأهلي للاعتبارات الآتية :-

- الجماعات أقدر علي الإقناع وتجميع الخبرات وتكاملها مما يساعد علي تحقيق أهدافها
- الجماعات دائمة وحياة الأفراد قصيرة وظروفهم لا تسمح لهم دائماً بمتابعة الأمور

^١ هناك خلط واضح واختلاف في تعريف مؤسسات المجتمع المدني والنظمات غير الحكومية فبعض الدارسين يؤيد مفهوم المجتمع المدني مدعين أنه يستند إلى المواطنة وتتحدد الأوضاع الاجتماعية فيه وفق معياري الإنجاز والمهارة في هذا الإنجاز وآخرون يفضلون مصطلح المجتمع الأهلي.

- هي أكثر فاعلية وتأثير في المجتمع من الحكومات ، لأنها تجمع بين أعضاء مختلفين يمثلون طوائف وطبقات مختلفة من المجتمع . بخلاف الحكومات التي يهدف أعضاؤها إلي تحقيق مبادئ وأهداف حزبية واحدة الأمر الذي يجعل للجمعيات والمؤسسات الأهلية الاجتماعية دوراً فريداً في الحفاظ علي أمن المجتمع وحماية البيئة.

ونظرا لهذا النفوذ والأهمية المتزايدة للمنظمات غير الحكومية ، أصبحت الحكومات تعتمد عليها . خاصة في الأنشطة التي كانت من اختصاص الحكومات ؛ ذلك أن هذه المنظمات تستطيع التحرك بسهولة ويسر متخطية الحواجز البيروقراطية .

♦ لكن هناك انتقادات وجهت إلى المنظمات غير الحكومية منها :

- اتخاذها من المنظمة غطاء ووسيلة لجمع المال ، فهذه المنظمات تعتمد في ممارسة نشاطها على ما تحصل عليه من دعم وتبرعات من جهات حكومية وخيرية . وأفراد وشركات ، وكثيراً ما تعتمد هذه المنظمات في جمع المال على الجانب الإعلامي و الدعائي لنشاطها .

- الاتجاه نحو عولمة نشاط هذه المنظمات ومشاركتها في صياغة الرأي العام العالمي . وتأثيرها على منظمات عالمية رسمية من خلال نشاطات وبرامج المؤتمرات العالمية ، بدءا ببروتوكول عام ١٩٨٧ المتعلق بثقب الأوزون ، ومؤتمر البيئة بريو دي جانيرو عام ١٩٩٢ إلى مؤتمر القاهرة السكاني عام ١٩٩٤

- إضافة إلى امتلاكها لكم هائل من المعلومات عن الدول التي تنشط فيها . حتى لتعد مصدرا مهماً لجمع المعلومات واستطلاع الرأي العام العالمي .

عقبات في طريق جمعيات حماية البيئة:

الجمعيات الأهلية والمعروفة عالمياً بالمنظمات غير الحكومية ، شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي . والجمعيات الأهلية في مجال البيئة طرف مشارك لجهاز شئون البيئة وأفرعه بالمحافظات ، وقد قادت الجمعيات مبادرات طيبة في

التصدي للقضية . والمهتمون بهذا النوع من النشاط ، يعلمون ما تعانیه هذه الجمعيات من مشكلات وما تلاقيه من عقبات . تحول دون تحقيق أهدافها . منها عدم توافر المقرات . وضعف التمويل . وعدم التنسيق بين الجمعيات . ومن تلك العقبات ما يتعلق بالمؤسسة التطوعية نفسها . فعدم قدرتها علي التخطيط وتدريب المتطوعين واستقطاب جدد . وعدم تجانس أفراد لجانها . وغياب التخصصات العلمية بين أعضائها . وعدم التواصل الجيد مع الجمهور . هذه كلها أسباب تضعف من فاعلية بعض الجمعيات .

ونجمل هذه الانتقادات في الآتي :

١- ضعف الرغبة في التطوع والفضال المدني :

التطوع نوع من المبادرة الإنسانية والممارسة الإيجابية للقيم الإسلامية . فالقيم الداعية للتطوع قيم سامية لا تقف عند المفهوم القانوني لحقوق الإنسان . فهي تنتج الأفكار . وتقدم الخدمات فأساسها قول الحق (وتعاونوا علي البر والتقوى) . وبها يتدرب الفرد علي الاحتساب وطلب الأجر من الله في صفات الأمور وعظائمها . وهي تنمي قدرات الفرد المتطوع .

والمسلم كما هو مطالب بالركوع والسجود مطالب أيضاً بعمل الخير . وهذا يشمل ما هو أبعد من سد النقص في الغذاء والدواء والكساء . بل أن سد النقص في نشر العلم والمعرفة . وتجميل البيئة وغيرها من الأمور أشد حاجة^(١) لذا فإن التشريعات التي يمكن أن توصف بأنها تشريعات جيدة هي تلك التي تحفز المواطنين على المشاركة في الشؤون العامة وتيسر لهم هذه المشاركة . ومن الضرورة التفتيش عما نملكه في مخزوننا الثقافي والقيمي من محفزات ودوافع لتنشيط العمل التطوعي وتطويره .

^١ مؤتمر الخير العربي الثالث . الأمانة العامة لمؤتمر الخير العربي . لبنان ، الاتحاد العام للجمعيات الخيرية في المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان ٢٢ - ٢٤ يونيو / حزيران ٢٠٠٢ .

٢- ضعف التمويل

التمويل عصب الحياة للجمعيات . وكلما أمكن التغلب على مشكلة شح الموارد المالية وتوفيرها . استطاعت هذه المنظمات أن تقوم بالدور المنوط بها . وتتلقى الجمعيات غالب تمويلها من الدعم الحكومي . وهذا ما يطرح مشكلة التبعية . وأن الجمعيات تكيف مصالحها وفقاً لما تراه الجهة الحكومية الممولة وهنا مكنم الخطر . إذ تصبح هذه المنظمات جزءاً من الآلة السياسية . وتلجأ إلي تأييد الحكومة حتى لا تظهر بمظهر التحدي للسياسات وخوفاً من القمع الحكومي . بالإضافة إلي إشكالية التمويل الخارجي لهذه المؤسسات^(١)

ولا شك في أن العجز المالي للمنظمات غير الحكومية العربية . وموقفها كمتلقية من منظمات غير حكومية دولية يجعل للأخيرة دوراً رقائياً مما يعني تحديد أولويات قد لا تتفق مع حماية البيئة علي المستوى الوطني .

ومن العجب أن تعاني جمعيات البيئة من هذه المشكلات . وعلى الرغم من ذلك تظهر أحزاب تحمل عنوان البيئة والخضر وهي نه ترق بعد إلي مستوى الجمعية الأهلية البيئية الحقيقية الفاعلة^(٢) أن العبث بالملف البيئي للتكسب المادي أو الانتخابي أمر لا يحسمه إلا الاحتساب والولاء لمبادئ ومؤسسات لا يهمها الاسم أو الشعار بقدر اهتمامها بتنظيم كيانتها لتكون مؤثرة في صنع القرار . واقتراح خطط إنمائية لحماية البيئة . وتنفيذ برامج نموذجية . وتجميع المهتمين بالشأن البيئي .

ثانياً : الدور المأمول للجمعيات الأهلية العاملة في مجال حماية البيئة :

المنظمات الأهلية العاملة في مجال الدفاع عن البيئة نوع حديث نسبياً من

^١ د/ سلوى شعراوي جمعة . صنع السياسات البيئية في مصر . ١١٢٦ الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

مركز البحوث الاجتماعية ١٩٩٧

^٢ نجيب صعب . أحزاب البيئة العربية بين التسلية والاحتراف . مجلة البيئة والتنمية عدد الصيف يوليو

- أغسطس ٢٠٠٨

المنظمات. تضم مجموعات من القلقين على ما حدث ويحدث من تدهور للبيئة وأنظمتها ومواردها ومكوناتها، يسعون إلى الإصحاح البيئي. وتم رصد حوالي ٢٠٠ جمعية أهلية في مجال البيئة، تنشط في مجالات مختلفة أبرزها^(١):-

- التوعية، وهو مطلب أساسي لتوفير الوعي البيئي الذي يضمن نجاح الجهود الحكومية

- الاهتمام بالنظافة والتشجير.

- تطوير المناطق العشوائية.

- تدوير المخلفات.

- المرأة الريفية والبيئة.

- افتتاح خط ساخن لتلقى الشكاوى ومتابعتها.

- تلوث الهواء والبيئة.

- التعاون مع مراكز ومؤسسات أكاديمية والقطاع الخاص.

وللجمعية الحق في اختيار الأسلوب الذي توصل به رسالتها (إعلام الجمهور ونشر المعلومات أو اللجوء للقضاء أو التشاور مع المنتجين. أو تسير وحيازة النشاط البيئي). علماً بأن الجمعيات الحالية لا تغطي كل المجالات التي يمكن أن تتدخل فيها^(٢)

ثالثاً: الأسس المتفق عليها لقياس فاعلية الجمعيات الأهلية:

هناك مجموعة من الأسس المتفق عليها عالمياً لتكون الجمعية جمعية فاعلة. أهمها:-

- احترامها لقانون الجمعيات والنظام الأساسي للجمعية ذاتها.

¹ د. أماني قنديل. دور الجمعيات الأهلية في تنفيذ الأهداف الإنمائية الناشر لجنة متابعة المنظمات الأهلية العربية ٢٠٠٥

² د. نانسي أبو الفتوح. (الجمعيات الأهلية والدور الاجتماعي). مجلة لواء الشريعة ٢٠٠٨

- أن تكون لها قيادة واعية وأدوارها واضحة ، تلتزم بمبدأ المساواة لأعضائها .
وتشركهم في القرارات المهمة . ومراعاة الأسلوب الديمقراطي . ولديها نظام
مالي واضح ودقيق . وتسعى إلى توسيع قاعدة العضوية . وتكون لها إستراتيجية
عمل واضحة وملائمة لمتطلبات المجتمع المحلي . تتضمن سياسات في مجالات
الأنشطة الرئيسة . منها سياسة لتقييم أعمال الجمعية : أهي تحقق منفعة حقيقية
أم لا ؟ وسياسة تحليل التغذية الراجعة (رأي أعضاء الهيئة العامة والجمهور عامة
في عمل الجمعية . ومدى استجابة أعضاء مجلس الإدارة لهذه الآراء)^(١)
- أن تتجاوز الفكرة السائدة على أنها جمعية خيرية أو خدمية وتتحول الى
جمعية للدفاع عن الحقوق

- أن تشكل جماعة حوار ومفاوضة وضغط مع كل ، وعلى كل من يلوث
مكونات البيئة أو يهدر مواردها . وكذلك على المشرع ومتخذ القرار . ومن يراقب
تنفيذ القوانين .

- أن تكون عضوية هذه المنظمة مفتوحة للمواطنين كافة . وأن يمتد دفاعها
ليشملهم جميعاً لا تفرق بينهم بسبب جنسهم أو دينهم أو أصلهم العرقي أو
آرائهم السياسية .

- أن تروج لأساليب فى العيش لا تسرف ولا تبذر فى موارد البيئة خاصة
الشحيحة والنادرة .

- الانتقال من مجرد الموقف ذو الطابع الاحتجاجي المحض إلى موقف فعال .

رابعا : الوسائل التي تملكها الجمعيات البيئية لتفعيل القوانين البيئية:

١- تكوين تيار عام وتحريك المجتمع للتعاطف مع قضية حماية البيئة . عن طريق
تزويده بالمعلومات والمعرفة الصحيحة عن البيئة ومواردها ومكوناتها . وأثر
السلوكيات عليها ؛ فمن أهم ما تقوم به المنظمات الأهلية الناجحة كي تحقق
أهدافها هو تحميس الجمهور وتحريكه . وإخراجه من حالة اللامبالاة والسلبية .

^١ نجيب صعب . الجمعيات البيئية الواقع والطموح . مجلة البيئة والتنمية القاهرة مرجع سابق

و يتفاوت الجمهور المخاطب من حيث مستوى حيازته للسلطة، فهناك النخبة الحاكمة، أى الذين يبدعهم صنع القرار وإصدار التشريعات، وهناك المنفذون للقرارات، ثم هؤلاء الذين يتابعون ويراقبون التنفيذ وصولاً إلى مستوى الجمهور العام أو العادي.

كما يمكن تقسيم المجتمع المخاطب إلى الذين لا يعرفون شيئاً عن المشكلة ثم الذين يعرفون قدرأ يسيراً عنها. وصولاً إلى الذين يعرفون كل شيء، كما أن هناك أيضاً السليين والمترددين، ثم المعادين للفكرة وصولاً إلى الإيجابيين والمؤيدين^(١)، ولكل مستوى من هذه المستويات أسلوب خاص فى التخاطب معه. وفى محاورته من خلال تقنيات خاصة.

ولا يمكن لأية مجموعة مهما كانت أن تنجح فى مثل هذا العمل إلا إذا توفرت لها مهارات خاصة. مثل القدرة على الاتصال الناجح. والقدرة على الإقناع. وعلى التفاعل. وعلى التفاوض. وعلى الضغط، وعلى إثارة رغبة الجمهور واهتمامه بالإسهام فى العمل العام، مع منحه الأمل فى إمكان حل بعض ما قد يصادفه من مشكلات، مع إعطائه شعوراً قوياً بأن إسهامه فى العمل العام سوف يحسن من أحواله.

و المجموعة التي تنجح فى تحريك الجمهور هي تلك التي تؤمن برسالتها. وتسعى إلى تحقيق أهداف واضحة محددة وممكنة، ويتفق سلوكها فى الواقع مع ما تدعو إليه وتطالب به.

٢- المساندة القانونية:

تهدف عملية مساندة الحقوق أو المناصرة إلى تجميع حزمة من الحجج القوية لدعم قضية ما. وتشتمل هذه العملية على سلسلة من الخطوات. مثل تنظيم المعلومات وإعداد الحجج لتقديمها من خلال قنوات ووسائل متعددة تبدأ بالاتصال الشخصي لتصل إلى الإعلام واسع الانتشار، بهدف الحصول على القبول السياسي أو الاجتماعي وإعداد المجتمع لتغيير معين

^١ د. أماني قنديل. مرجع سابق

وتظهر أهمية المساندة والمساعدة القانونية في مجتمعات ترتفع فيها معدلات الانتهاكات الخاصة بحقوق الإنسان وخاصة الحق في بيئة نظيفة⁽¹⁾ باعتبارها حقاً أساسياً. وفي مثل هذه الظروف يكون لتوعية المواضع والأفراد بحقوقهم الدستورية والقانونية، والعلاقة بينهم وبين السلطات أهمية واضحة، بل هو ضرورة أولية في بعض المجتمعات التي ترتفع فيها نسبة الأمية بشكل عام. والأمية الحقوقية بشكل خاص.

كما أن الجهل القانوني وعدم الإلمام بالحقوق يؤدي لعدم الوصول للعدالة. ويلعب المحامون دوراً كبيراً وأساسياً في تقديم المعونة القضائية. وحق التقاضي وحق الدفاع أمورٌ جوهرية وأساسية في تحقيق العدالة وبصفة خاص العدالة البيئية.

وحدثة الدراسات القانونية في مجال البيئة وقلة المراجع المتخصصة في هذا الشأن للدرجة التي تجعل معظم جوانب الموضوع لا تزال غامضة ومجهولة. فعلى الرغم من الكتب والدراسات التي تناقش الجوانب الفنية والعلمية والاقتصادية والبيولوجية للبيئة، إلا أننا لا نصادف تطوراً ماثلاً على الصعيد القانوني، والملاحظ ندرة ما قدم في مجال الحماية القانونية⁽²⁾ لدرجة عدم وضوح إجراءات التقاضي والجهة القضائية المختصة بنظر النزاع وأي القوانين سيكون واجبة التطبيق بشأنه، خاصة في التلوث العابر للحدود⁽³⁾ والتوعية القانونية تخلق جماعات يساندون نفس القضايا التي ندعو إليها بنفس الحماس، وعلى أساس من المعرفة الصحيحة.

ومن ثم فوجود نخبة مؤهلة لتعميق المعرفة القانونية أمر من شأنه أن ينعكس إيجابياً على القضايا البيئية لضمان التمثيل القانوني الفعال في القضايا

¹ د. ناسي أبو الفتوح مرجع سابق

² د/جمال محمود الكردي، دراسات في التشريعات البيئية، كلية الحقوق، جامعة طنطا

³ د/جمال محمود الكردي، المرجع السابق

البيئية . وتنمية الوعي لدى الأفراد بحقوقهم وبالطرق القانونية لمواجهة الأضرار التي يواجونها.

٢- دور الجمعيات البيئية في التفاوض والضغط:

تكوين الضمير الاجتماعي للمجتمع والسهر علي ذلك يعد دوراً مهماً للجمعيات الأهلية لتحقيق رقابة الرأي العام الواعي علي مفسدي البيئة. وتمتلك الجمعية من أن تكون جماعة ضغط علي صانعي القرار ومنفذيه . وعلي الذين ينتهكون القوانين وعلي المنوط بهم مراقبة الالتزام بالقوانين.

ولاشك أن ذلك يعتمد علي الإرادة والمهارة وحسن الاحتساب لأعضاء الجمعيات البيئية . والجمعية تمارس هذا الدور دون أن تكون لها صفة المعارضة بل شريكا للحكومة في تحسين الأوضاع البيئية.

والتفاوض عملية تتم بين أطراف. وتهدف إلي الوصول إلي اتفاقيات . عن طريق الحوار والنقاش وتقديم الحجج . وتقديم الخيارات والبدائل ، ومن المؤكد أن عملية التفاوض لا تعتمد علي البراعة في الحديث وإنما تعكس موازين القوة النسبية بين الأطراف المتفاوضة ، كما تعكس القدرات التنظيمية والدراسة الجيدة لما لدي الطرف الآخر من نقاط للقوة ونقاط للضعف .

ويتميز المفاوضات الناجح بمجموعة من القدرات والمهارات. منها :

- ١- القدرة علي جمع المعلومات والبيانات وتحليلها.
- ٢- دراسة ما لدي الطرف الآخر من مواطن للقوة ومواطن للضعف.
- ٣- معرفة المفاوض لإمكاناته وقدراته ونقاط القوة والضعف لديه.
- ٤- القدرة علي تحديد الأهداف التي يسعى إليها بدقة.
- ٥- القدرة علي التمييز بين الأهداف التي لا يمكن التنازل عنها والأهداف التي يمكن النقاش حولها أو التنازل عنها.
- ٦- اختيار الآليات المناسبة لعملية التفاوض.

- ٧- وضع سيناريوهات وبدائل متنوعة يمكن القبول بها.
 - ٨- الاستفادة بأراء الخبراء في بعض القضايا الفنية.
 - ٩- القدرة علي اختيار الزمان والمكان المناسبين لعملية التفاوض.
 - ١٠- توزيع الأدوار بين الفريق الذي يقوم بالتفاوض.
 - ١١- حسن استخدام وقت التفاوض.
 - ١٢- تدوين النقاط والملاحظات الأساسية التي تطرح أثناء عملية التفاوض.
 - ١٣- القدرة علي الإقناع وحسن استخدام الحجج.
 - ١٤- التركيز علي الموضوع الرئيسي وعدم الإغراق في التفاصيل.
 - ١٥- ضبط النفس وكبح الانفعال والغضب أثناء عملية التفاوض.
 - ١٦- التدريب علي مهارة الاتصال الجيد وحسن الاستماع إلي الطرف الآخر.
- ومفهوم الضغط هنا يشير إلي ممارسته علي صانع القرار أو متخذه لتنفيذ قرار معين أو تعديله، أو تغيير قانون معين أو تعديله، بهدف تحقيق مصلحة للمنضمين إلي هذا التجمع أو لتحقيق مصلحة عامة. وذلك من خلال حسن استخدام وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وتحريك الرأي العام كي تجعل متخذ القرار يقبل مناقشة بعض المشكلات المهمة التي تؤثر على سلامة البيئة الطبيعية والبيئة العمرانية.

٤ المسيرات السلمية:

استخدمت جمعية أصدقاء البيئة بالإسكندرية هذا الأسلوب في أثناء نظر القضايا الخاصة بها، وكان أعضاؤها من النساء والرجال يذهبون إلى المحكمة بأعداد كبيرة، ويضعون علامة تميزهم هي زهرة على صدورهم، ثم يذهبون كل أسبوع لوضع إكليل من الزهور على قمة الشارع المحفور (قضية سبق عرضها) حتى أصبحت قضية شارع الإسكندرية قضية عامة يتحدث عنها الناس في المنازل والمقاهي والأندية وأماكن العمل في أنحاء متفرقة من مصر.

واعتادت الجمعية في الخامس من يونيو من كل عام (يوم البيئة العالمي) أن تنظم مسيرة سلمية، تستهدف رفع وعي المواطنين بمشكلات البيئة، ورفع وعيهم بوجود تشريعات لحمايتها وبحقهم في الحياة في بيئة سليمة وصحيحة وآمنة، وتقود المسيرة فرقة موسيقية، وأربعة من الفرسان على خيولهم، ثم فرق من الأطفال يرتدون ملابس مميزة ويحملون شعارات رسموها بأنفسهم ووضعوها على صدورهم، كما يحملون الزهور في أيديهم. ويليهم مجلس إدارة الجمعية بصحبة قناصل الدول الأجنبية بالإسكندرية. ومدراء عموم الهيئات الحكومية بالمدينة، يليهم حشد من أعضاء الجمعية يحملون لافتات كتب عليها أهم مشكلات البيئة وأهم تشريعات حماية البيئة، وتتم تغطية المسيرة إعلامياً بحضور الصحافة والإذاعة والتلفزيون.

د/حقوق الأفراد والجمعيات في التبليغ عن الجرائم البيئية (شهادة العسبة):

الحق في التبليغ متفرع عن الحق في مخاطبة السلطات. وهذا الأخير من حقوق الإنسان الطبيعية. وهو تكليف على الأفراد لصالح الجماعة^(١). وينص قانون الإجراءات الجنائية على (إن كل من علم بوقوع جريمة أو بتدبيرها له أن يبلغ النيابة العامة أو أحد مأموري الضبط القضائي. فإذا كانت الجريمة من النوع الذي يستدعى رفع شكوى أو تقديم طلب عند تحريك الدعوى الجنائية، يكون حق التبليغ مقصوراً على صاحب الحق في التقدم بالشكوى أو الطلب)^(٢). ويتكامل حق التبليغ مع حق الأفراد والجماعات في الوصول إلى المعلومات والحصول عليها. وهو ما يقتضيه مبدأ الشفافية حتى تسهل المساءلة والتقاضي. وبعض القوانين والديساتير يعتبر حق التبليغ من الحقوق التي لا يمكن تقييدها حتى في ظل الأحكام العرفية ولا عند إعلان حالة الطوارئ. لأهميته في تحقيق السلم الاجتماعي والوقوف على بعض أوجه القصور في تسيير المرافق العامة.

^١ د/ عبد الحكيم فودة وكيل التفتيش القضائي سابقاً. موسوعة التعميصات. الناشر المكتب الدولي

للمؤسسات القانونية

^٢ م ٢٧ قانون الاجراءات الجنائية المصري

ويتجاذب حق التبليغ طرفان: كونه واجباً وكونه مجرد رخصة. ولو كان رخصة فإنه يتوقف على إرادة صاحبها ومشيئته. فإن هو أستخدمها فلا غبار عليه. وإن تركها فلا مسئولية يتحملها. وبهذا المعنى فإن التعرض مع التبليغ كحق يبيح لصاحبه حجب المعلومات عن السلطة ولا يقوم بالتبليغ.

وحين يكون التبليغ واجباً ترقى به الوجوبية إلى أن يغدو الامتناع عن ممارسته مما يوجب المساءلة. هذا بخلاف التجاذب والمفارقة أيضاً في نوع الجريمة. فإذا كانت الجريمة تتعلق بالأمن العام والمال العام فيكون إبلاغ السلطات واجباً. وبخلاف تلك الجرائم فإن حق التجريم رخصة حسب الوصف السابق.

ويتطبيق ما سبق على الجرائم البيئية وقانون البيئة المصري نجد المادة (١٠٣) تنص على أن - لكل مواطن أو جمعية معنية بحماية البيئة الحق في التبليغ عن أية مخالفة لأحكام هذا القانون.

والمادة (٦٥) من اللائحة التنفيذية لقانون البيئة المصري تعطى هذا الحق بنصها على (يجوز لكل مواطن أو جمعية معنية بحماية البيئة اللجوء إلى الأجهزة الإدارية والقضائية والمختصة بغرض تنفيذ أحكام قانون البيئة وما ورد بهذه اللائحة، وعلى وزارة الداخلية بالتنسيق مع جهاز شئون البيئة إنشاء شرطة متخصصة لحماية البيئة بالوزارة ومديريات الأمن بالمحافظات، تختص بتنفيذ أحكام القوانين والقرارات المتعلقة بحماية البيئة، وكذا تلقى الشكاوى والبلاغات التي تقدم في هذا الشأن، وإتخاذ الإجراءات القانونية بشأنها).

ويلاحظ أن الحق جوازي. ولا تترتب على عدم القيام به أية مسئولية. لكن تيسيراً على الأفراد لممارسة هذا الحق فقد أعلنت وزارة البيئة عن طرق متعددة لاستقبال شكاوى المواطنين^(١) وبالتوجه نحو الحكومة الإلكترونية لرفع

^١ تعدد أساليب وآليات تلقي الشكاوى وتنوع إلى التسليم باليد أو الفاكس و غرفة العمليات المركزية بوزارة البيئة التي تعمل على مدار ٢٤ ساعة يومياً لاستقبال جميع البلاغات عن الحوادث التي تؤثر على نوعية البيئة على الأرقام الآتية: تليفون مباشر: ٠٢٥٢٥٦٤٩١/٠٢٥٢٥٦٤٩٢ ==

الكفاءة الإدارية . وتسهلاً علي المواطنين فقد سرت الوزارة تلقي البلاغات عن طريق الرسائل الإلكترونية علي موقع الوزارة بشبكة الانترنت . وفتحت الوزارة قناة اتصال دائم مع المجتمع عن طريق الخط البيئي الساخن (١٩٥٨٨) الذي أطلق في ١٨ أبريل ٢٠٠٧ وشمل في البداية عدد من المحافظات.

كذا فتحت الجمعيات والمراكز البيئية هذه الخدمة إمام المواطنين لتلقي الشكاوي ومتابعتها من خلال الجمعيات^(١)

وتبنت وزارة التضامن الاجتماعي مشروع مركز الاتصالات لخدمات شكاوي المواطنين Call Center لتلقي شكاوي المواطنين ومقترحاتهم لخدمات الوزارة بقطاعها. ويهدف المشروع الى التواصل مع المواطنين واستقبال الشكاوي والاستفسارات والاقتراحات

وقد خصصت شركة موبينيل رقماً للشكاوي البيئية . وآخر للإبلاغ عن الحوادث المرورية^(٢) بالإضافة إلي إمكان تقديم الشكاوي للجهات السابقة كلها عن طريق التسليم باليد أو بالفاكس أو بالبريد العادي . وذلك لتفعيل دور الجمعيات والأفراد وتحقيق المشاركة .

== فاكس ٠٢٥٢٥٦٤٩٤ خطوط الجهاز : ٠٢ ٥٢٥٦٤٥٢ داخلي : ٨٨٥٠-٨٨٦٧-٨٨٤٨ وفي حالة وجود صور وبيانات يمكن إرسالها علي الإيميل الخاص بغرفة العمليات : Cor_ccaa@yahoo.com وفي حالة الطوارئ ٠١١٢٣٥٩١٩٢

^١ حابي للحقوق البيئية العنوان البريدي : ١٢٤ شارع مصر والسودان - حدائق القبة - القاهرة رقم الفاكس ٤٨٢٨٠٠٣ الموقع الإلكتروني www.hcer.org ومركز الأرض لحقوق الإنسان ١٩٩٦ اسم المسئول : أ.كرم صابر العنوان البريدي : ١٢٢ ، شارع الجلاء ، ميدان رمسيس ، القاهرة - مصر رقم الفاكس ٥٧٥٠٤٧٠ (٢٠٢) موقع الإنترنت www.Lchr-eg.org

الشبكة العربية للمنظمات الأهلية تاريخ التأسيس : ١٩٨٩ اسم المسئول : د. أماني قنديل العنوان البريدي : ٥ شارع بهاء الدين قرقوش ، الزمالك ، القاهرة. مصر رقم الفاكس ٧٣٥٨٠١١ (٢٠٢) ^٢ الرقم الخاص لشكاوي البيئية هو ٠١٢٣٢٠٠٠٢٩ وللإبلاغ عن حوادث المرور رقم ٠١٢٢٢٢١١١٠

٦- جلسات الاستماع الجماهيري وتنمية الوعي العام:

هذه الجلسات من أكثر الوسائل فاعلية في رفع وعي المواطنين . إذ يُدعى لحضورها ممثلون للحكومة ومراكز وأقسام البحث العلمي ، ومواطنون عاديون . وممثلون لجمعيات أهلية ، وممثلون لمؤسسات صناعية ، ويدور بينهم حوار يعرض فيه الحاضرون وجهات نظرهم وآراءهم ، ويستمعون باهتمام وعناية لوجهات النظر الأخرى.

المطلب الثالث

المشاركة في الوساطة البيئية وفض المنازعات

إذا كان بطء العدالة عيباً في إجراءات التقاضي عموماً فهو في القضايا البيئية جرم لا يغتفر . لما يترتب عليه من تزايد الآثار السلبية للتلوث . التي قد لا تتدارك بالإصلاح.

وقد كان بطء إجراءات التقاضي السبب الرئيس في التفكير عن حلول بديلة لفض النزاعات ، فلا يكفي لتحقيق العدالة بين المتقاضين إعطاء كل ذي حق حقه . وإنما ينبغي ألا تأتى العدالة بعد فوات الأوان ، وبعد أن يفقد الحق بريقه وأهميته .

لذلك كان لا بد من إيجاد حلول بعيدة عن ساحات المحاكم لفض المنازعات . عن طريق فتح المجال أمام عدد من القضاة المتقاعدين والمحامين . والمهنيين المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة للمساهمة في تسوية بعض المنازعات بصورة ودية تعتمد على التوافق والتراضى بعيداً عن الحزم والإجبار . دون أن يكون هناك غالب أو مغلوب . ولا مخطئ أو مصيب . ودون أن يترك ذلك أثراً في نفوس المتنازعين . ويشكل تُراعى فيه السرعة المطلوبة والمصالح المتبادلة للمتنازعين .

لذلك استحدثت المتغيرات العالمية نظماً بديلة^(١) لتحقيق العدالة خارج النظام القضائي، كنظم الرقابة المستقلة ولجان التوفيق أو الوساطة ونظام التحكيم.

ومن مزاياها سرعة حسم النزاع والحفاظ على السرية، إضافة إلى مرونتها، من حيث إجراءات حل النزاع وبناته والقواعد المطبقة عليه، كما أنها تُعد الوسائل الملائمة لطائفة من المنازعات، كما في منازعات التجارة الدولية والمنازعات الناشئة في بيئة الإنترنت، والتجارة الإلكترونية، والملكية الفكرية في العصر الرقمي، والمنازعات البيئية. ولقد نمت الوساطة في العقدين الماضيين نمواً كبيراً وملحوظاً.

أولاً: أهمية الوساطة البيئية:

تتميز وسائل التسوية السلمية لمنازعات المسؤولية عن الإضرار بالبيئة عن غيرها من الوسائل القضائية بمجموعة من الخصائص^(٢) وهي:

١- تحررها من القواعد والشكليات التي عادة ما تنقيد بها الوسائل القضائية؛ إذ تتخذ الوسائل السلمية من كافة الظروف والملابسات إطاراً تتحرك من خلاله، وفي حدوده وبلاستعانة في ذلك بالأعمال الاتفاقية وقواعد القانون الدولي، بل وأحياناً بالقواعد المشتركة في القوانين الداخلية، فضلاً عن قواعد العدل والإنصاف.

٢- إن الحل الذي يتفق عليه في إطار يعد حلاً توفيقياً بأي يوفق بين مصالح الأطراف المتنازعة ويحوز رضاهم، وذلك خلافاً للوسائل القضائية، إذ يصدر الحكم القضائي عادة لتغليب مصلحة طرف علي آخر.

^١ الطرق البديلة لفض المنازعات (ADR (Alternative Dispute Resolution) أو الطرق المناسبة لفض المنازعات كما تسمى في الوقت الحاضر (Appropriate Dispute Resolution)، ويعبر عنها أحياناً "بفض المنازعات" (Dispute Resolution (DR)،

^٢ د/ جمال محمود الكردى، دراسات في التشريعات البيئية، كلية الحقوق جامعة طنطا، ص ٥٠.

٣- الحلول السلمية التي يتم التوصل إليها تصدر غالباً متضمنة خطوات وأساليب تنفيذ مضمونها . في حين تصدر الأحكام القضائية بصورة مجردة بحيث لا تتعرض لمشكلات التنفيذ . التي يتوقف نطاقها ومداهها علي حسن - أو سوء - تصرف الطرف المحكوم ضده ووفقاً لتوايه الخاصة . وليس بخافٍ ما تشيرهُ الأحكام القضائية من منازعات حال طلب تنفيذها .

٤- تمييز الوسائل السلمية بالسرعة في حسم النزاع بالتوصيات والقرارات الملزمة أحياناً ، والتي تصدر عنها . إذ تقضي عادة علي المشكلة أو النزاع علي عكس ما تتسم به وسائل التسوية القضائية عادة من طول إجراءات التقاضي حتى علي المستوى الدولي

هذا وتلعب الوساطة دوراً مهماً في مجال المنازعات البيئية ؛ لما تتسم به من المرونة وحرية حركة القائم بالوساطة في الزمان والمكان . بل ونوعية الحلول المقدمة لحل النزاع ؛ إذ يساعد ذلك كله في القيام بالمعاينات وإجراء الفحوصات اللازمة في مواقع الأحداث مما يسهم في تكوين المفاهيم والملاحظات القيمة لأطراف النزاع .

وقد دفع هذا الدور المهم للوساطة جانباً من الفقه إلي الدعوة إلي إنشاء منظمة دولية أو وكالة تأخذ علي عاتقها تسهيل وتنفيذ عمليات الوساطة في المنازعات الدولية المتعلقة بالبيئة . فضلاً عن قيامها بالتنسيق بين أطراف المنازعات البيئية بشأن مكان وزمان الاجتماعات بين الأطراف . وإمداد القائمين عليها بالمعلومات الفنية والتقنية اللازمة . ولأ نرى مانعاً من تأيد هذه الدعوة ومساندتها لحل المنازعات البيئية في جو من الهدوء والسكينة وتدعيماً لأواصر الود بين الدول .

والأصل العام في فض المنازعات هو القانون رقم ٧ لسنة ٢٠٠٠ . الخاص بإنشاء لجان للتوفيق في بعض المنازعات . الذي قرر في مادته الأولى أن ينشأ في كل وزارة أو محافظة أو هيئة عامة - وغيرها من الأشخاص الاعتبارية

العامة - لجنة أو أكثر ، للتوفيق فى المنازعات المدنية والتجارية والإدارية التى تنشأ بين هذه الجهات والعاملين بها ، أو بينها وبين الأفراد والأشخاص الاعتبارية الخاصة.

ويصدر هذا القانون صار لزاماً على كل صاحب شكوى أو دعوى أن يتقدم قبل رفع دعواه بطلب إلى لجنة فض المنازعات الخاصة بالجهة أو الوزارة المشكو فى حقها ، أو المدعى عليها. وإلا قضى بعدم قبول الدعوى . فيما عدا الاستثناءات والمنازعات التى تفرضها القوانين بأنظمة خاصة أو توجب فضها أو تسويتها . أو نظرتظلمات المتعلقة بها عن طريق لجان قضائية أو إداريه كمنازعات الجمارك وحماية البيئة^(١)

وللمنازعات البيئية إعتبرات عدة . سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية . مما يتطلب شخصاً محايداً يهدف إلى مساعدة الأطراف المتنازعة للاجتماع والحوار وتقريب وجهات النظر . وتقييمها . ومحاولة التوصل إلى حل وسط يقبله الطرفان.

لذا نجحت الوساطة فى حل مشكلات كانت تبدو للوهلة الأولى مستعصية على الحل ؛ لأن الوسطاء غير المنحازين من ذوي الخبرة فى مجالات

¹ نظم قانون البيئة رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ فى بابه الثالث الخاص بحماية البيئة المائية من التلوث . إجراءات خاصة بالتظلم من القرارات التى تصدرها الجهة الإدارية ضد السفن والمنصات البحرية والمنشآت القائمة على شاطئ البحر . إذا تبين لها عدم التزامها بتطبيق أحكام قانون البيئة والقرارات الصادرة تنفيذاً له . وتوفير معدات ووسائل معالجة المخلفات . وتشكيل اللجنة المنصوص عليها فى المادة ٨١ من قانون البيئة (عضو من مجلس الدولة بدرجة مستشار رئيساً - ممثل لجهاز شئون البيئة عضواً - ممثل لمصلحة الموانئ والمناشر عضواً - ممثل لوزارة الدفاع عضواً - ممثل لوزارة البترول والثروة المعدنية عضواً - ممثل للجهة الإدارية المختصة التى وقعت المنازعة فى مجال نشاطها عضواً ولها أن تستعين بخبير أو أكثر فى شئون البيئة المائية . وتصدر اللجنة قراراتها بعد سماع أقوال الطرفين بأغلبية أصوات الأعضاء الحاضرين وفى حالة التساوي يرجع الجانب الذى منه الرئيس . ولصاحب الشأن الطعن على قرارات اللجنة أمام محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة.

التخطيط والإدارة البيئية باستطاعتهم توجيه المفاوضات نحو الإجماع ، ويسبب كونها وليدة المشاركة المباشرة للجهات المعنية ، فان اتفاقات الوساطة تجنى نتائج أكثر دوماً من تلك المفروضة من قبل صائغي القرارات.

ويساعد على ذلك اشتراط حضور أطراف النزاع جلسات الوساطة مع وكلائهم القانونيين أو حضور وكلائهم القانونيين . أما إذا كان أحد أطراف النزاع شخصاً معنوياً فيشترط حضور مفوض من إدارته من غير الوكلاء القانونيين . لتسوية النزاع . مما يجعل هذه الجلسات تتجاوز العقبات وتوفر الحلول الخلاقة والإبداعية لحل النزاع.

ولقد جمعت إدارة النزاعات باستعمال ثقافة الوساطة والصلح فرقاء لم يكن يتصور اجتماعهم . وقد استحدث برنامج JEMS كجمعية غير حكومية لنقل خدمات الوساطة البيئية وبناء قدرات محلية لإدارة النزاعات البيئية في دولة فلسطين وإسرائيل.

وتأسست JEMS بالمشاركة بين "المركز الإسرائيلي - الفلسطيني للأبحاث والمعلومات" ، وبين "معهد بناء الإجماع" (CBI) ومقرها مدينة كامبردج بولاية ماساتشوسس الأمريكية . بهدف توفير الوساطات للجهات الخاصة والعامة في كافة أنحاء العالم^(١).

¹ ويشرف على هذا البرنامج البروفيسور "لاري سكيند" وهو مدير "دائرة النزاعات العامة" في جامعة MIT والتابع لقسم الحقوق في هارفارد وهو ايضا رئيس مؤسسة CBI. وهو باحث ومدرس في حقل حل النزاعات. وكان له دور في اكثر من خمسين وساطة متعددة الاطراف في مختلف أنحاء العالم (لتحديد مواقع منشآت مثيرة للجدل ووضع مواصفات للصحة العامة والسلامة وصياغة وتنفيذ خطط ومشروعات تطويرية ، وحل نزاعات بين طوائف عرقية وعنصرية) العنوان البريدي ، ص.ب: ٩٣٢١ ، القدس ٩١٠٩٢ وصفحة الانترنت www.ipcri.org/jems رقم الفاكس

وإضافة إلى ذلك يساند هذا المشروع بشكل فعال عدداً من النشطاء والمهنيين ذوي الامتياز والخبرة. ويحظى برنامج JEMS بدعم من وزارة شؤون البيئة الفلسطينية ووزارة البيئة الاسرائيلية. ويأتي تمويل المشروع من مؤسسة V.Kann-Rasmussen السويديه. ويستقبل المركز جميع طلبات وساطة النزاعات البيئية وخاصة تلك المتعلقة بالقضايا الفلسطينية - الإسرائيلية. وهذه الوساطة اختيارية.

ويقدم المركز خدمات التدريب على المفاوضات والوساطات البيئية للمحترفين في مدينة بيت لحم، ويشمل برنامج التدريب الطرق العلمية والأبعاد النظرية لفن وعلم الوساطة والمفاوضات لحل النزاعات البيئية، ويشترك المدربون مشاركة فعالة لدعم الوساطات في نزاعات يشرف عليها وسطاء ذوي خبرة رفيعة.

ثانياً: حاجة الوساطة البيئية إلى الاحتساب:

تكشف قضايا البيئة عن تضارب المصالح، سواء علي المستوى المحلي، أم الدولي؛ فعلي مستوى الوزارات أو المصالح العمومية والخاصة، قد تعارض وزارة البيئة تنفيذ بعض المشروعات لأسباب بيئية، وقد يفسر ذلك علي أنه تدخل في شؤون الوزارات الأخرى وبما تعده هذه الوزارات عائقاً للتنمية، وعلي المستوى الدولي نجد استحالة التصرف الانفرادي للدول بعيداً عن القانون الدولي للبيئة إذ لا مناص من اللجوء إلي حل كل تلك النزاعات من خلال الوساطة البيئية⁽¹⁾

تلك الوساطة التي لو لم يكن فيها ضمير الوسيط يقطاً لكانت طريقاً للقمع، وتحولت إلى أداة خطيرة لزيادة قوة الأقوياء، فالنوايا الحسنة تلعب دوراً في الوساطة، لما تتسم به الوساطة من عدم الرسمية، وبالتالي عدم وجود قواعد

¹ خاصة وأن الاتفاقيات الدولية والمبادئ القانونية الدولية تحض علي تسوية تلك النزاعات بالطرق السلمية قبل القضائية.

إجرائية وموضوعية . مما قد يجعلها تضخم أموراً وتفتح باباً لتلاعب والإكراه . فتؤدي إلي نتائج غير عادلة والانهيار للطرف الأقوى .

فمثلاً قد يشكو عمال من تلوث بيئة العمل . ويحال الموضوع إلي التسوية الودية فتحاول الإدارة من خلال الوطاء التأثير علي حوافزهم . ويميل الوطاء لجانب الإدارة . وتتحول الوساطة إلي أسلوب للقمع حتى علي مستوى الدول باستخدام الضغوط الاقتصادية .

فحياد الوسيط أمر مهم نظراً لما له من سلطة واسعة في التحكم في المناقشة ونمط الممارسة . وتعين الحسبة الوسيط علي هذا الحياد المطلوب . وتجعل من الضمير والأخلاق البيئية الوسيط الحقيقي . وبالتالي تتكشف أبعاد المشكلة التي تواجه الأطراف . وتعمل علي إعادة تصوير النزاع علي أنه مشكلة مشتركة . فلا تحدث مغالاة في الطلبات والمساومات . بل يتعاون الجميع لحل المشكلة . والتركيز علي المصالح المشتركة . والوقوف بجانب الطرف الضعيف . وتستطيع مهارة القائمين بالوساطة من التغيير في شخصية المتنازعين ودرجة اعتمادهم علي ذواتهم في مواجهه المشكلة^(١) فحقاً الصلح فن والوساطة أسلوب علاج ناجح . ونحن بحاجة لمزيد من الدراسات في هذا المجال لتعزيز حماية البيئة . واستيعاب مدخلات هذه الثقافة الإصلاحية .

^١ كتاب الوساطة في حل النزاع ترجمة د/ علاء عبد المنعم . الدار الدولية للنشر والتوزيع القاهرة . وهو للكاتب سيليكو . كارل . (١٩٩٩) وهو كاتب ومؤلف أمريكي عمل بالتدريس في علم النفس في العديد من الجامعات وهو حاصل على درجة الماجستير والدكتوراه في علم اللاهوت . وشمل الكتاب صوراً عديدة من التجارب الحية التي خاضها المؤلف كوسيط والتي تساعد في إدراك أكبر وأعرق لمفهوم الوساطة وأثرها في منع الخلافات والنزاعات كما تمثل هذه التجارب استناداً حقيقية لدور الوسيط والإبداع في خلق وإيجاد الحلول والقدرة على إدارة جلسة الوساطة بطريقه مبدعة والمهارات الضرورية واللازمة أثناء التعامل مع أي نزاع .

وأخيراً تعمدت أن أرفق بالهامش أمثلة لشخصيات تناولت موضوع الصلح والوساطة فى حل النزاعات البيئية لاستشارة علمائنا فى المجال البيئى . وإشعارهم بالواجب الملقى على كواهلهم . فقبل أن يكون الصلح والوساطة قانوناً كان - ولا يزال - سلوكاً وفناً^(١) فى تراثنا الإسلامى . وتفعيل الدور الدينى تجاه هذه الآلية أمر هام يجب ان يسترعى انتباه ذوى الاختصاص .

¹ انظر باب - الصلح بين الناس فن أسلامى غائب - فى كتابنا , عضل النساء جريمة بلا عقاب ٢٠٠٤ توزيع دار الشهاب

الفصل الثالث الاحتساب في طلب العلوم البيئية

تمهيد:

البيئة وحدة واحدة لا تحدها حدود . وهي وحدة متكاملة . تتجمع فيها الكثير من العلوم التي اكتشفها الإنسان . من سياسة واجتماع واقتصاد وغير ذلك . فموضوع البيئة نقطة التقاء كل العلوم ، إلا أن السبق يحسب للبيولوجيا . وصياغة أرنيست هنكل لمفهوم الأيكولوجيا . الذي يعبر عن تكيف الكائن الحي مع الوسط الذي يعيش فيه . هذا بالإضافة إلى أن العلوم ما عادت جزر منعزلة ينفصل بعضها عن بعض بل أصبحت علوماً متداخلة متشابكة . يأخذ بعضها بمجبر بعض ، وما هذا التصنيف لعلوم بحثة وعلوم طبيعية وإنسانية وكونية إلا تيسيراً لتحصيل تلك العلوم . وفق منهجية متبعة . حسب تناسبها وقرب بعضها من بعض . فكما ينبغي أن ينظر إلى القرآن على أنه وحدة واحدة لا تنقسم ينبغي أن ينظر إلى العلوم وما فيها من تداخل وتشابك . ولعل في إشارة القرآن الكريم (كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين)^(١) إشارة لذلك^(٢) .

حتى علم البيئة نفسه اتسعت دائرته لتشمل العديد من الفروع المتعلقة به ، وصعب فصله عن غيره من العلوم الطبيعية والبحثية ، فهو مرتبط بكل فرع من فروع علم الأحياء ارتباطاً وثيقاً كالفسولوجيا وعلم الحيوان وعلم النبات ، والكيمياء الحيوية ، والوراثة والتطور ، وعلم السلوك ، والبيولوجيا الحيوية . كما يرتبط علم البيئة أيضاً بعلم الإحصاء ، لتوزيع البيانات التي يحصل عليها الباحث البيئي توزيعاً إحصائياً ، وكذلك فهو يرتبط بعلم الكيمياء ، والفيزياء ، والجيولوجيا ، والهندسة ، وله علاقة كبيرة مع علم الصيدلة ، والطب ، والزراعة بشتى فروعها^(٣) .

¹ سورة الحجر الآية ، رقم ٩٠

² د/ الخبر يوسف نور الدائم . أستاذ اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الخرطوم . البيئة من منظور

إسلامي . شبكة المشكاة الإسلامية

³ د/ علياء حاتوغ ، بوران و محمد حمدان أبودية ، علم البيئة . دار الشروق عمان ١٩٩٤ ، ص ١٢ .

ومن هنا فإن مجال علم البيئة واسع جداً، مقارنة بعلوم الحياة الأخرى. فالبيئة تولد مشكلات و علاقات لا تشغل فقط رجال العلوم البحتة وحدهم بل أيضاً رجال العلوم الاجتماعية . كعلم النفس و علم الاجتماع و الاقتصاد والقانون الذي هو وليد واقع الحياة الاجتماعية، مما يدل على أن حماية البيئة من اعقد قضايا العصر التي تستحوذ على اهتمام المتخصصين فى شتى المجالات. فمثلا علم النفس البيئي ساعدت علي ظهوره مشكلات ارتفاع نسبة التخلف العقلى في المناطق الملوثة . ووجود علاقة بين البيئة المادية وبعض المتغيرات النفسية. ومن هنا شرع علماء النفس في دراسة العلاقة بين البيئة المادية والسلوك الإنساني . واهتموا بكيفية تعديل السلوك من أجل البيئة وتصميم البيئة النموذجية كالمدرسة والمستشفى . مع الأخذ في الاعتبار للأسس النفسية للتصميم البيئي . ودرسوا أثر الضوضاء والازدحام والكثافة السكانية علي السلوك . وتأثير الكوارث علي الأفراد فأصبح الكون بأفاهه . والنفس بشعابها يمثلان مجالاً لكثير من الأبحاث.

ويستطيع رجال التربية وهم النخبة المؤمنة علي إيصال رسالة التربية للمجتمع . وأن يضمنوا أبحاثهم القيم البيئية بمراحل التعليم المختلفة. واقترح برامج لتنمية هذه القيم . وكيفية قياس القيم البيئية لدى الشباب . وكل ذلك يحتاج إلى أبحاث ودراسات تلقي اليوم علي كاهل التربويين لتكون أمام مخططى المناهج . ورغم أهمية تلك الأبحاث ما زالت الدراسات التربوية لعلاج المشكلات البيئية قليلة جداً.

وفي مجال الصناعة يحتاج الأخذ بأسلوب (الإنتاج الأنظف) إلى مزيد من البحث العلمى . وكذلك تشجيع التخصص العلمى في مجال السلامة والصحة المهنية . واعتماد أسلوب البحث العلمى وإيجاد نظام لتحفيز العاملين في هذا المجال مادياً ومعنوياً . والاهتمام بالبحوث التطبيقية فى مجال الصناعة . ووضع وتطوير جداول الأمراض المهنية الوطنية . وفق المستجدات العلمية الدولية والعربية

الصادرة في هذا المجال ، وكذا في مجال الزراعة نحتاج إلى سياسة زراعية تحترم النظم البيئية.

والعجيب انه ويرغم أن طلب العلم من أفضل العبادات في الدين الخفيف ، لكن مازال العالم العربي بحاجة إلى التوسع في الأبحاث العلمية البيئية ، من أجل الوصول إلى حلول للأخطار التي تهدد الطبيعة ، مع الحاجة إلى أخلاقيات جديدة ، ولذا فينبغى الاستعانة بأراء علماء الاجتماع والاقتصاد وسائر المختصين في العلوم الإنسانية ، لرسم الحلول المنشودة.

فالناظر في واقع العلوم الإسلامية يتضح له أن هناك صروحاً علمية يجب أن تقام ومشروعات كبرى يجب أن تُنجز ، حتى يتسنى لهذه الأمة الانطلاق على الصعيدين : العلمى والمنهجى . فقد يبدو للباحث بعد التحقيق والتدقيق ، أن علماً ما من العلوم الإسلامية غير قائم الأركان ، ولا مبنى على نسق دقيق ، فيهب عمره لهذا الأمر الجليل ، وينذر أن يقوم بهذا البناء والتركيب ، حتى يتم له المقصود أو يهلك دونه ، و بإنجاز بحثه كلها في هذا الاتجاه ، خطوة خطوة ، حتى يصل إلى نهاية المشروع أو نهاية أجله ، ولعل الله بعد ذلك ييسر لهذا البناء من يتممه .^(١) إذ أنه ليس هناك علم مهم وآخر أهم بل إن سائر العلوم والفنون والصناعات والحرف تعد ، وبالنسبة لأي مجتمع كالحلقة المفرغة التي لا يدري أين طرفها ، ولا تدرى من أي منها يأتيك الخير. ولم يعد من المستطاع حل مشكلاتنا البيئية بمجهودات تجالية ، وإنما عن طريق جهود علمية جادة تقوم على الدراسة الصحيحة والتخطيط السليم.

^١ د. فريد الانصارى ، أبحاث في العلوم الشرعية . دار الحامد ، عمان ٢٠٠٧

المبحث الأول ضوابط البحث العلمي

أصل البحث في اللغة (طلبك الشيء في التراب). ومنه استعمل (البحث) بمعنى (أن تسأل عن شيء وتستخير) والمعنى طلب أمر غائب ! فما وراء التراب لا شك يكون قد غير عن الأنتظار ، فهو متغيب ، وكذلك ما غاب عن العقل أيضا هو غابر عن التصور ، لذلك يجري البحث عن هذا أو ذاك ، للكشف عن حقيقته أو طبيعته^(١). والبحث العلمي عمل منظم يهدف إلى حل مشكلة معرفية باستقراء جميع مكوناتها التي يظن أنها أساس الإشكال .

فالبحث العلمي من وجهة النظر الإسلامية عبارة عن مشروع رباني . وهو في الوقت ذاته إحياء للحضارة الإسلامية المتعددة الجوانب . وما البحث العلمي إلا جانبها منها والتعلم الحق ، ليس جمع المعارف واحتطابها ، بقدر ما هو بحث في مناهجها لاقتناص أسرارها ، وفرق في مقامات العلوم بين من يروي أشكالها ورسومها ومن يستنبط ويخترع أحكامها وقواعدها ، إذ ليس العالم من يحمل في رأسه خزائن ومكتبات ، لكنه الذي يعرف كيف يوظف ما في رأسه ، وما في الخزائن والمكتبات ، من أجل بعض الإضافات^(٢) وقد استطاع المسلمون الذين استجابوا لله وللرسول أن يحققوا نتائج باهرة يوم التفتوا إلى الكون كما دعاهم قرآنهم التفاتة متفكر متدبر لا التفاتة مقدس مسحور مقطوع الأنفاس (...لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)^(٣) وبدءوا بالملاحظة أولى درجات النظر العلمي المحكم . فإذا بالكون كتاب ناطق تحتشد فيه الآيات ، وتظاهر فيه الشواهد على الخالق بلسان فصيح .. وَإِنْ مِنْ

^١ د/ أحمد فؤاد باشا . أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي دراسات تأهيلية . دار الهداية .

القاهرة ١٩٩٧

^٢ د/ أحمد فؤاد باشا أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي . المرجع السابق

^٣ سورة فصلت الآية ٣٧

شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا^(١))
ولقد سبقنا معشر المسلمين سبقاً بعيداً في مضمار العلم . وأخذ منا غيرنا فلسفة
التجريب.

لكن العلم المادي انفصم عن عقال الإيمان . فعاد وبالأعلى الإنسانية .
لغياب المنهجية الواعية في معالجة شؤون الحياة . فعندما يصبح العلم مصارعة
ومنازعة . ومعركة في غير ما معترك . يصبح (صراع الطبيعة) هو الشعاع المرفوع .
(والتعبد) ضابطاً من ضوابط البحث العلمي ، غير أننا نحن المسلمين نستغرب
إقصاءه . لا من مجال البحث العلمي وحسب ، بل من كل أنشطة الحياة ، داخل
المجتمع الذي ينتسب إلى الإسلام وضابط التعبد بالنسبة للمسلم صمام الأمان
الذي يضمن له ولغيره الإخلاص في العمل والنصح فيه ، لنفسه ولمجتمعه
وللبشرية كلها^(٢) . أما العلم الذي يتخلى عن المبادئ والقيم فيؤدي إلى
الخسران ، وفي القرآن الكريم إشارة إلى عدم جدوى العلم الذي لا يؤدي إلى
الربح في مجال الفضيلة ونشر الإسلام . ومن ذلك قوله تعالى (فَرَحُوا يَمًا عِنْدَهُمْ
مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)^(٣) وقال - صلى الله عليه وسلم
"اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا
يُسمع ومن صلاة لا ترفع"^(٤) . وتظهر قيمة هذا الضابط التعبدى في البحث
العلمي . خاصة بعد أن رأينا أبحاثاً تؤثر سلباً على البيئة ويظهر عنها مشكلات
بيئية.

1 سورة الإسراء ، الآية ٤٤

2 د/أحمد فؤاد باشا أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي ، المرجع السابق

3 سورة غافر ، الآية ٨٣

4 مسند الإمام أحمد حديث ، رقم ١٣٥١٢

المطلب الأول

العلم والقدرة شرط الاحتساب

القيام بفريضة الاحتساب في مجال البيئة يستلزم معرفة بعض الأحكام ،
والتقيّد بجملة من الآداب. فينطلق المحتسب من خلال العلم ذلك أن الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعى . لذا على من يقوم به أن يكون عالماً
بمواضع الأمر والإنكار ، وحكياً في ذلك .

والمحتسب معنيٌ بمراقبة جوانب الخلل والقصور في رعاية البيئة . وما
ينتج عنها من أضرار وملوثات . ولا يمكنه ذلك دون معرفة كافية بالمجال الذي
يحتسب فيه . وما يمكن أن يحدث فيه من اختلال .

فالعلم من ضمن الشروط التي يجب أن يتحلّى بها المحتسب عموماً .
فضلاً عن أن المحتسب في مجال البيئة يجب أن يلم بعلوم تعينه على أداء مهمته
الاحتسابية والإنكارية على أهل الإفساد البيئي .

والاهتمام بالبيئة كما سبق الإشارة اشتركت فيه علوم مختلفة . لذا
فالصبر على طلب تلك العلوم أمر واجب . حتى يتعلم المحتسب ما يأمر به وينهى
عنه . والعلم أدب على المحتسب السعى للاستزادة منه ليكون عالماً بما ينهى عنه ،
وبما يأمر به . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ولا يكون عمله -
أي المحتسب - صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه^(١) كما قال عمر بن عبد العزيز:
من عبّد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح . والاحتساب على علم هو
هدي الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي بينه لأمته في قوله تعالى (قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)^(٢)

العلم الذي يجب على المحتسب يتخلف بحسب حاله ؛ فإذا كان من عامة
الناس ويريد أن يحتسب على أمر ما فيجب أن تكون لديه معرفة بما سيحتسب

^١ ابن تيمية . قاعدة الحسبة . مجموع الفتاوى . المجلد ٢٨

^٢ سورة يوسف . الآية رقم ١٠٨

عليه ، أما من انتصب للاحتساب كرجال الحسبة أو المختصين بالتفتيش البيئي فعليهم أن يكون لديهم علم شامل كاف . مما يعنى أن أهل الاختصاص في العلوم المتعلقة بالبيئية يكون الاحتساب في طلب تلك العلوم عليهم فرض عين لا فرض كفاية . فمن المتفق عليه أن الاحتساب يكون فرض عين في حالات . منها الفرد بالعلم الموجب للإنكار . بمعنى أن يقتصر العلم بوقوع الإفساد البيئي على فلان و فلان من الناس فاقصر العلم عليهم جعل الإنكار في حق الفرد منهم فرض عين دون غيره ^(١) فانحصار القدرة بشخص أو أشخاص ليس قادر علي الإنكار إلا سواهم يسقط الحق في الاحتساب علي عموم الناس إلا هؤلاء . فالعجز العلمي قيد يسقط الوجوب وينقل عبء الإنكار علي من يعلم . ويجعله فرض عين في حقه

ومن الحالات التي يكون فيها الاحتساب فرض عين أيضاً كون الشخص معيناً من قبل السلطات . ومكلفاً بهذا الدور . وينطبق ذلك علي المفتشين البيئيين التابعين للجهات المعنية بالتفتيش . فإن الإنكار فرض عين عليهم .

إلي هذا الحد يشكل العلم قدرة علي الاحتساب . ومن المقرر في الشريعة أن التكليف يسقط بعدم الاستطاعة . والاحتساب من أشق التكاليف ؛ لذا تناول علماؤنا أنواع العجز المسقط لوجوب الحسبة .

ولعل أول من تناول هذه المسألة بالتفصيل هو الإمام الغزالي . فذكر أن العجز حسي وآخر في حكمه وهو العجز العلمي ^(٢) . والمسلم مطالب برفع هذا العجز قدر استطاعته فلا مكان للقنوط أو الكسل في الجهد العلمي . لأن الخضوع لمثل هذا الشعور يعد خطأ شرعياً ووطنياً وأنسانياً

¹ الشيخان عبدالله الوطبان و يوسف الأحمد .دورة جامع الراجحي بالرياض بعنوان قواعد في الاحتساب(كتيب)

² إحياء علوم الدين . ريع المعاملات . دار التراث

فتزايد معاناة الإنسان من أثر التلوث تتطلب مزيداً من البحث العلمي ، ومضاعفة التصميم علي رفع تلك المعاناة عن كاهل البشرية ، وأن تتضافر الجهود في شتي أنواع المعرفة لتكوين بصيرة بالطرق والأساليب والحلول للمشكلات البيئية ، سواء بالطرق التقنية أم السلوكيات الايجابية أو التشريعات البيئية . والاهتمام برعاية البيئة يأخذ صوراً عدة منها إعداد الفنيين الأكفاء في مجالات العلوم البيئية ، وفهم الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكيفية تأثيرها علي البيئة ، وتشجيع المهارات التحليلية والتوسع في تلك الأبحاث يعتبر حاجة ملحة في عالمنا العربي .

ولاشك أن عدة المحتسب في كل ذلك هو الصبر والاحتساب عند تعلم ما يأمر به وينهي عنه ، والصبر علي مداومة الطلب صبراً جميلاً لا ضجر فيه ولا ملل ، وهذا نوع من المراقبة والجهاد وثبات القلب علي لزوم هذا الثغر حتى لا يدخل منه المفسدون لبيئتنا وحياتنا .

المطلب الثاني

علم الاحتساب

يستند طلب العلوم البيئية علي مبدأ إسلامي مهم هو (لا تكليف إلا بمعلوم ولا تكليف بمستحيل) ، ومن جملة العلوم التي لا بد أن يكون المحتسب عالماً بها (علم آداب الحسبة) ، الذي يتطلب أن يكون المحتسب عالماً بمواقع الحسبة ، وأن يكون ورعاً حسن الخلق ؛ إذ العلم والورع لا يكفي ما لم يكن لصاحبه خلق حسن ، ومن آدابها تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه ، ويقطع الطمع حتى تزول عنه المداهنة ، وهذا العلم من العلوم المتعلقة بالعادات ، ذكره صاحب كتاب أجد العلوم^(١)

^١ صديق حسن خان. أجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، تحقيق المهندس عبد الجبار

زكار ، ج ٢ ، ص ٣٦ . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨

وعلى المحتسب أن يعمل بما يأمر الناس به ، وينتهي عما ينهاهم عنه ولا يخالف قوله عمله . والقذوة لها أهمية عظيمة فى شخصية المحتسب ، ويتعين على المحتسب أيضاً أن يمد جذوره العلمية إلى التراث ليعلم كيف كانت الحال فى علم الاحتساب لتحصيل الملكة فى تلك الأمور.

وقد عرّف صاحب كشف الظنون علم الاحتساب بأنه (علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم اللاتى لا يتم التمدن بدونها . من حيث إجرائها على قانون العدل بحيث يتم التراضى بين المتعاملين وعن سياسة العباد بنهى المنكر وأمر المعروف . وفائدته إجراء أمور المدن على الوجه الآتم^(١)) وهذا العلم من أدق العلوم . ولا يدركه إلا من له فهم ثاقب وحس صائب ؛ إذ الأشخاص والأزمان والأحوال ليست على وتيرة واحدة . فلا بد لكل واحد من الأزمان والأحوال سياسة خاصّة . وذلك من أصعب الأمور ؛ فلذلك لا يليق بمنصب الاحتساب إلا من له قوّة قدسيّة مجردة عن الهوى كعمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه ، ولذلك كان علماً فى هذا الشأن.

وعرفه آخرون بالنظر فى أمور أهل المدينة بإجراء ما رسم فى الرئاسة . وما تقرر فى الشرع ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً . ثم قال : وعلم رئاسة السياسة المدنيّة مشتمل على بعض لوازم هذا المنصب^(٢)

ومن الاحتساب أيضاً . (تعليم العلم لمن يحبه ولن يرغب فيه) . فنشر العلم والثقافة البيئية يعد نوعاً من الاحتساب . وأعضاء الجمعيات الأهلية المعنية برعاية البيئة بحاجة إلى الإمام بتلك العلوم وتحصيلها على أيدي متخصصين . وكذلك مساعدة الفئات الاجتماعية والأفراد على اكتساب الوعى بالبيئة ومشكلاتها . واكتساب خبرات متنوعة تتصل بالبيئة . وتحقيق فهمها أفضل لها . وتعريفهم بالمهارات اللازمة للتعامل مع المشكلات البيئية . والإسهام فى تزويد

¹ حاجي خليفة . كشف الظنون . تحقيق محمد شرف الدين . ج ١ ، ص ١٥ . دار إحياء التراث العربى

² موسى راضى نصار . التنظير . مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٥

تلك الفئات بالمعلومات بغرض الإسهام الفعال على مختلف المستويات في العمل على حل المشكلات البيئية .

المبحث الثاني

العلوم البيئية في التراث الإسلامي

ولربط تلك المجالات العلمية بتراثنا الضخم لا بد من فهم هذا التراث فهماً دقيقاً حتى يتسنى ربط قنوات الاتصال به . وذلك الربط ضروري حتى يتوجه العلم وجهته الصحيحة وفق المبادئ والقيم الإسلامية . والعلم الذي حث الإسلام علي تحصيله لا بد أن يكون علماً نافعاً قريناً للتقوى . وملازماً للأخلاق . ولا يخلو من فائدة . وأن لا يؤدي إلي تدمير البشرية . وهلاك الحرث والنسل ومقياس النفع هو الشرع لا المقياس المادي النفعي . أما إذا تخلى العلم عن تلك المبادئ ووصل إلى الكبر وسوء الاستغلال فإنه يقود إلي الخسران والإفساد والطغيان وهذا كله مصدر للتدهور البيئي .

وقد يظن البعض أن علم البيئة علم مستحدث منبت عن الماضي . منقطع عن الإسلام . وذلك ظن السوء وطعن في خير القرون . بل المسلمون استجابوا لله وللرسول . ونظروا إلى الكون كما دعاهم قرآنهم . واقبلوا على الكتاب الكوني يقليبون صفحاته . ونقل التراث لنا بعض هذه المؤلفات حول البيئة وسلامتها من جوانب مختلفة ؛ لأنهم اعتبروا حماية البيئة من التلوث مسؤولية شرعية . وألف عنها العلماء المسلمون منذ عصور مبكرة ، ومنهم^(١) :

- أبو يوسف بن يعقوب الكندي (المتوفى سنة ٥٢٦٠هـ) . الذي ألف (رسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء) وله رسالة أخرى بعنوان (رسالة في المد والجزر).

^١ د/ أحمد فؤاد باشا . في فقه العلم والحضارة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٩٩٧

وثلاثة بعنوان (حوادث الجو) . و (رسالة في الأدوية الشافية من الروائح المؤذية).

- ووضع ابن المبرد كتاباً أسماه "فنون المنون في الوباء والطاعون"، وتكلم ابن سينا بالتفصيل في كتابه "القانون" عن تلوث المياه بشكل عام . وكيفية معالجة هذا التلوث لتصبح المياه صالحة للاستعمال ، كما وضع شروطاً تتعلق بطبيعة الماء والهواء المؤثرين في المكان عند اختيار موقع ما للسكنى.

أما الرازي فقد نشد سلامة البيئة . - عندما استشاره عضد الدولة - في اختيار موقع لمستشفى ببغداد^(١) . فاختار الناحية التي لم يفسد فيها اللحم بسرعة . وكانت المستشفيات بصورة عامة تتمتع بموقع تتوافر فيه شروط الصحة والجمال ، فعندما أراد السلطان صلاح الدين أن ينشئ مستشفى في القاهرة اختار له أحد قصوره الفخمة البعيدة عن الضوضاء . وحولّه إلى مستشفى ضخم كبير هو المستشفى الناصري.

- وقد ألف الرازي (رسالة في تأثير فصل الربيع وتغير الهواء تبعاً لذلك) . بينما تحدث أبو مروان الأندلسي في كتابه (التيسير في المداواة والتدبير) عن فساد الهواء الذي يهب من المستنقعات والبرك ذات الماء الراكد . وجاء في كتاب "بستان الأطباء وروضة الألباء" لابن المطران الدمشقي ما يؤكد ضرورة مراعاة تأثير البيئة عند تشخيص المرض ، حين قال : "ينبغي للطبيب إذا أقدم على مداواة قوم في بلد ، أن ينظر في وضع المدينة ، ومزاج الهواء المحيط بها ، والمياه الجارية فيها ، والتدبير الخاص الذي يستعمله قوم دون قوم ، فإن هذه هي الأصول ، ثم بعدها النظر في سائر الشرائط" ، وهذه رؤية متقدمة في "علم الطب البيئي".

والتبريزي له (رسالة في آلات لقياس ارتفاع الغيوم والأبخرة)^(٢) . وفي الخلاقة العباسية اشترط أن يكون المحتسب على درجة كافية من العمل . والإدراك لكي يستطيع أن يكشف أشكال الغش . وناقش أرباب تلك المهن .

¹ د/ خالد حري . صناعة الطب عند الرازي . كلية الآداب جامعة الإسكندرية

² د/ سيد رضوان . مجلة التاريخ العربي . العدد ١٦٥٤

لذلك عين الخليفة المعتضد أول محتسب، وغلبت عليه صفة العلماء، وهو أحمد بن الطيب السرخسي. وكان طبيب المعتضد ثم ندميه، وقد ترك كتابين يمكن عدّهما أقدم ما كتب في موضوع الحسبة، وهما:

١- كتاب الأغشاش أو صناعة الحسبة الكبير

٢- كتاب غش الصناعات أو الحسبة الصغير

- ولمحمد التميمي^(١) كتاب بعنوان (مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من أضرار الأوباء) الذي فاز بحقه بجائزة معهد المخطوطات العربية لتحقيق التراث^(٢)، لكونه أقدم مصدر علمي عربي اهتم بمعالجة مشكلات التلوث، وقد حققه الباحث السوري يحيى شعار.

ويُعدُّ كتاب التميمي "مادة البقاء" موسوعة في الطب الوقائي والحماية البيئية في ذلك الزمن، وتعبيراً عن الروح العلمية التي كانت سائدة آنذاك، وذكر التميمي في كتابه أسماء مصادر مفقودة الآن، مثل (رسالة في إصلاح فساد الهواء لابن الجزائر)^(٣)

ويذكر التميمي أسباباً لتلوث الهواء، منها: الانقلابات الفصلية، وهي - كما يذكر المحقق - أوقات مناسبة لنمو الجراثيم وظهور الأمراض، خاصة أنها أوقات تغيرات شديدة في درجات الحرارة والرطوبة، وكذلك وجود مصادر

^١ ولد بالقدس وأقام بها، وتعلم فيها الطب، حيث كان جده سعيد طبيياً، وكانت للتميمي معرفة بالنبات وماهيته والكلام فيه، وكان متميزاً في الطب، كما كانت له خبرة واسعة بالأدوية وتركيبها، تدلنا المصادر التاريخية على أنه عاش في القرن الرابع الهجري، وانتقل من القدس إلى مصر، حيث عمل وتوفّي. ألف التميمي هذا الكتاب لكي يهديه إلى الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس الذي عمل طبيياً له، وساعده على التفرغ للبحث العلمي

^٢ وهي الجائزة التي يخصصها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة لشباب المحققين في البلاد العربية وقام المعهد بطباعة الكتاب

^٣ التميمي أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن سعيد الحكيم المقدسي ثم التميمي المصري، مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء، المكتبة المارونية ببلب، ص ٥٦١

مياه قريبة من مكان الإقامة ، خاصة إذا كانت فى هذه المصادر مياه فاسدة أو راكدة.

وعرف التميمى الأثر المتبادل فى التلوث بين الماء والهواء والتربة . وأدرك أن تلوث أحد هذه العناصر الثلاثة يمكن أن يلوث العناصر الأخرى ، وهذه نظرة حضارية للبيئة تتلخص فى أن عنصراً من عناصرها إذا اختل توازنه الطبيعى فإنه يؤثر فى العناصر الأخرى .

ومن الموضوعات التى تناولها المؤلف ، التنفس . وانتقال الأمراض عن طريق الهواء ، وشبه آلية عمل الرئة بالاحتراق ، ورأى أنه إذا لم يتغير الهواء الذى يحيط بالشخص المتنفس فإنه يختنق ، ويشبه ذلك بالنار التى لا يتغير الهواء المحيط بها فتتطفئ ، وهذا التشبيه دقيق جداً ؛ فالرئة تطرح غاز ثانى أكسيد الكربون ، والنار ينتج عن احتراقها غاز ثانى أكسيد الكربون ، وإذا تنفس الإنسان فى جو ملئ به اختنق ، وإذا لم يتحرك ويتبدل هذا الغاز من الجو المحيط بالنار فإنها تنطفئ . وأكد انتقال الأمراض بالعدوى عن طريق الهواء ، وهذا أمر لم يعرف إلا فى العصر الحديث .

ويرى أن من طرق الوقاية اتخاذ تدابير خاصة بمراقبة أماكن انتقال العدوى كالحمامات العامة ، وتحدث التميمى بإيجاز شديد عن تلوث المياه . فأكد تبادل التلوث بين الماء والهواء ، وأقترح طرقاً عدة لتنقية المياه ، حسب ما أصابها والظروف المحيطة ، فأقترح علاج المياه الغليظة بالطبخ أى الغليان الشديد ، بأن يُيخَّرِيع الماء . وهذا يعقمه تعقيماً تاماً . وأضاف أنه من الضروري ترشيح الماء عبر أوان خزفية ، وإضافة مواد إليه تساعد على ترسيب المواد العالقة به^(١) . وهذا قليل من كثير يحتاج إلى التقصى والتحقيق .

^١ مجلة التراث العربى - مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب . دمشق العدد السابع . السنة الثانية . أبريل ١٩٨٢

وهذا يدل على اهتمام العلماء المسلمين منذ القدم بموضوع البيئة وحمايتها من الملوثات. ولا يزال هذا الاهتمام متواصلاً علمياً وعملياً، على المستويين الفردي والجماعي، وما زالت أطروحات للدكتوراه والماجستير في الجامعات العربية تقدم عن حماية البيئة من منظور إسلامي. ولم لا وموضوعات البيئة ومصطلحاتها العصرية كلها يتناولها القرآن وأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووفقنا الله أن نبث ذلك بين صفحات هذا البحث .

المبحث الثالث

إشكاليات البحث في العلوم البيئية

لكل مهنة في الحياة مشاقها وأمجادها ومتعتها أيضاً . ويصدق هذا علي مهنة البحث العلمي كما يصدق علي سواها ؛ فلا شك في أن هناك متعة وراحة نفسية تصاحب الوعي بمضات الإلهام ونفاذ البصيرة . وهي التي قيل فيها سهرى لتفتح العلوم الذلّي ❖ من وصل غانية وطيب عناق^(١) .
وان كانت هناك نزعة طبيعية غير قابلة للشفاء لدى الإنسان . تتمثل في ميله لتبويب الأشياء وترتيبها فليس التصنيف العلمي إلا إضفاء المنهجية الواعية علي هذه النزعة للجدولة والتبويب .

لكن الإشكالية الحقيقية أن حجم التقدم المعاصر في المعرفة وسرعته يؤديان بنتائج البحث العلمي في أكثر الأحيان إلي سرعة الزوال . فالمعرفة التي احتيج تكوينها إلي كفاح طويل ينظر إليها اليوم علي أنها شيء عادي . فكل فكرة تكون شيئاً مؤقتاً . وهي محطة توقف علي طريق رحلتنا نحو فهم أكمل لكن ليس الفهم الكامل أبداً . تلك هي طبيعة الأفكار العلمية فهناك فوران متواصل للأفكار . وكل فكرة يتم اختبارها والتأكد من صحتها هي خطوة صغيرة إلي الأمام في حصيلة الفهم .

^١ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (للأوسى).

والبحث العلمي عمل منظم يهدف إلي حل مشكلة معرفية باستقراء مكوناتها التي يظن أنها أساس الإشكال ولا يتم ذلك ارنجاليا بل وفق منهجية . والاستمتاع بالبحث العلمي والسعادة بإعادة صياغة أنماط الأفكار والحقائق . والتحسس للملاحظة . هي - في الواقع - أمور لاغني عنها للاستمرار في ممارسة البحث العلمي المميز . حتى يصبح عادة عقلية وطريقة مريحة في الحياة . لذلك هناك مجموعة من الصفات يجب أن يتصف بها الباحث العلمي . وأولى هذه الصفات المثابرة وعلي كل باحث علمي أن يدرك تماماً ما يدين به لزملائه وسابقيه . وقد عبر نيوتن عن ذلك حين كتب : (إذا كنت قد رأيت أكثر مما رأى معظم الرجال فذلك لأنني وقفت علي أكتاف عمالقة) ومن المستحسن أن يكون الباحث قادراً علي التعبير عن نفسه بطلاقة وبشكل جذاب عن طريق إلقاء المحاضرات⁽¹⁾

أما الإشكاليات الأخرى التي تواجه البحث العلمي بعيداً عن الإمكانيات المادية والتشجيع المجتمعي فهي إشكاليات تخص المهنة ذاتها . منها أننا نجد محاولات قديمة وحديثة لقمع حرية التعبير العلمي المعارض للآراء السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية . أي تضيق الخناق علي الآراء العلمية والرفض التسلطي لها ودفن الحقائق المزعجة للسلطة .

لأن عادة الأبحاث المتعلقة بالبيئة أنها تظهر أضرار بعض المواد المستخدمة في الصناعات . وتنذر بخطورة بعض التصرفات والقرارات السياسية . فيراها هؤلاء . معارضة للتنمية ويجب عدم نشرها حتى لا تثير الرأي العام . وعلي العكس نجد إذاعة ونشر لاكاذيب تحت ستار البحث العلمي من أجل غرض تحسين سمعة منتج أو مواد أو سياسات وقرارات معينة .

¹ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث تأليف د/ جون ب ديكنسون ترجمة شعبة الترجمة باليونيسكو سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت .

ولعل الكسل والفتور هما آفة المشتغلين بالبحث العلمي . ولا نظن علاج لهما إلا بالاحتساب للدقائق و الأوقات التي يقضيها الباحث في فليئ المراجع والأبحاث

وان كانت الأدبيات العلمية مازالت تفاضل بين الفردية في البحوث التي تنطوي علي حق المرء في اختيار موضوع بحثه . ووجهة النظر التي ترى العلم أداة اجتماعية . وإخضاع مسيرة العلماء لاحتياج المجتمع . وضرورة تعهد العلماء بالابتعاد عن البحوث التي يمكن تطبيقها في الصناعة الحربية وتسبب دمار البشرية. فإن ضابط التعبد هو الميزان في هذا التفاضل.

وخلاصة القول إنه لا يمكن أن يحقق العلم مقصوده بسعادة البشرية إلا إذا توجه وجهه إسلامية. وتحمل الباحث العلمي مسئوليته المجتمعية . وإذا كانت علة وجود الجنس البشري هي السعي للتقدم. فعلي العلم أن يتحالف مع الضمير^(١) . ونحتم بهذا الدعاء: رنا هب عوامنا العلم ، وعلماءنا العمل وعاملينا الإخلاص ، وهب مخلصينا السداد .

¹ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث ، المرجع السابق

الفصل الرابع الاحتساب فى بيئة العمل

تمهيد وتقسيم :

الاحتساب عبادة قلبية وممارسة عملية ثمنها الجنة ، والاحتساب يزيد الحسنات. ويضاعف الدرجات. ويقيل العثرات ويمحو السيئات ، ويدفع للعمل. ويورث السعادة والطمأنينة فى الدنيا قبل الآخرة . ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه (أيها الناس اَحْتَسِبُوا أَعْمَالَكُمْ فَإِنَّ مِنْ اَحْتَسَبَ عَمَلَهُ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ عَمَلِهِ وَأَجْرُ حِسْبَتِهِ).

والمكان الذي نعمل فيه هو بيئة نعيش فيها ما يقارب أربعين ساعة أسبوعياً على اقل تقدير . وفى تلك البيئة التي نعيش فيها - سواء أكانت المكتب أو المصنع أو عيادة طبية.او الورشة - قد تكون فيها عوامل جاذبة للتحسين المستمر للأداء وللبيئة نفسها وقد تكون العكس.

وتعد بيئة العمل الملائمة من أهم عوامل نجاح الشركات واستمرارها فى سوق المنافسة الذي يعيشه عالم الأعمال فى الوقت الحاضر ؛ لما ستواجهه أكثر الشركات من تحديات فى جذب العمالة الماهرة المدربة وضمان استمرارها . الأمر الذى يفرض على تلك الشركات والمؤسسات تنظيم بيئتها من الداخل للمحافظة على مواردها البشرية . التي هي عماد أداء تلك الشركات واستمرارها . والصناعة من أكثر الأنشطة الاقتصادية تأثيراً على ظروف البيئة المحيطة ؛ فقطاع الصناعة هو المستهلك الرئيس لعدد كبير من الموارد الطبيعية . وهو أيضاً القطاع الرئيس الذي يحدث تلوثاً كبيراً للبيئة . ومع تطوره زادت حدة التلوث الصناعي . إذ زاد استهلاك المواد الخام وإنتاج المخلفات والمواد السامة . وازدادت الانبعاثات الغازية والمخلفات السائلة والصلبة .

وبالرغم من وجود تشريعات عدة ذات أبعاد بيئية ، إلا أن القانون وحده لم - ولن - ينجح فى حل المشكلات البيئية ؛ لأن التشريعات ليست

الآلية الوحيدة التي سوف تجبر الشركات على الالتزام بمعالجة مخلفاتها، إذ تبقى الركيزة الأساسية في التصدي لمشكلات التلوث الصناعي هي المجتمع ذاته وفاعليته التي عرفناها سابقا بنظام الحسبة .

لذا من الضروري تمكين الناس - الذين هم أكثر المتضررين من هذا التلوث - للتعبير. والدفاع عن صحتهم وبيئاتهم، لأن هذا شرط أساسي لإدارة ناجحة للبيئة. ويبرز هنا دورُ رئيس للجمعيات الأهلية في الدفاع عن حقوق الناس والصالح العام، وتحفيز الجمهور للمطالبة بحقه في العيش في بيئة صحية وأمنة. لأن البيئة النظيفة الآمنة حق من حقوقنا الأساسية التي يجب أن نضمن الحصول عليها دون تهاون أو تفريط .

ولما كان هناك فرقٌ بين الاحتساب على أهل المشروعات المفسدة والملوثة للبيئة. والاحتساب على الوقائع الفردية الجارية في كل مجتمع، جعلنا هذا الباب بعنوان (الاحتساب في بيئة العمل). لتتعرف على الآلية الشرعية والقانونية المعهودة في معالجة الأمور داخل المنشأة الصناعية.

تعرف المنشأة في قانون العمل بأنها⁽¹⁾ كل مشروع أو مرفق يملكه - أو يديره (شخص من أشخاص القانون العام أو الخاص) . فالمنشأة هي الشركة أو المؤسسة أو المصنع أو المشروع سواء أكانت محدودة أو غير محدودة، ولها وظائف وأداره ذاتية :

وبيئة العمل هي الحيز الذي تعمل المنشأة في كنفه⁽²⁾. شاملا الهواء، والماء، والأرض، الموارد الطبيعية، النبات، الحيوان، الإنسان وعلاقاتها البيئية. الإدارة البيئية الناجحة هي التي تعتمد على الحد من التلوث الصناعي عند المنبع أي داخل المنشأة والمصنع .

¹ قانون العمل المصري الجديد (مادة ٢٠٢)

² دكتور/ أبو بكر احمد الصديق التهامي . بحث بعنوان : التلوث البيئي في مدن العالم الثالث الأسباب والمردودات . مقدم إلى المؤتمر العربي للبيئة المنعقد أيام - ٧ ديسمبر ٢٠٠٦ . القاهرة . ص ١٠.

والاهتمام ببيئة العمل كان محل اهتمام المعاهدات الدولية والاتفاقات الجماعية والقوانين البيئية . وتنص الاتفاقية العربية رقم (١٣) لعام ١٩٨١ بشأن بيئة العمل على أن تلتزم كل دولة عربية تصدق على هذه الاتفاقية بالآتي :

١ . حماية وتحسين بيئة العمل وجعل محيطه أكثر إنسانية وملاءمة للقدرات البشرية للعاملين وذلك وفقا للأحكام العامة المنصوص عليها في هذه الاتفاقية .
٢ . وضع معايير خاصة للحدود القصوى للعوامل المؤثرة في بيئة العمل بالاستعانة بالخبرات والإمكانات التي يوفرها مكتب العمل العربي .

وعلى المستوى الأكاديمي كان فى (معهد الصحة العامة) بالإسكندرية قسم خاص ببيئة العمل . وللحفاظ على البيئة داخل مكان العمل وحماية للعاملين فيه ألزم القانون^(١) صاحب المنشأة باتخاذ

الاحتياطات والتدابير اللازمة لعدم تسرب أو انبعاث ملوثات الهواء داخل مكان العمل إلا في الحدود المسموح بها . وأوجب عليه أن يوفر سبل الحماية اللازمة للعاملين تنفيذاً لشروط السلامة والصحة المهنية . وأن يكفل ضمان التهوية الكافية . وتركيب المداخن وغيرها من وسائل تنقية الهواء . كما ألزم صاحب المنشأة باتخاذ الإجراءات اللازمة للمحافظة على درجتي الحرارة والرطوبة داخل مكان العمل بما لا يتجاوز الحدين الأقصى والأدنى المسموح بهما وأن يكفل وسائل الوقاية المناسبة للعاملين . من ملابس خاصة وغيرها في حالة ضرورة العمل في درجتي حرارة أو رطوبة خارج هذه الحدود . واشترط القانون في الأماكن العامة المغلقة وشبه المغلقة أن تكون مستوفية لوسائل التهوية الكافية بما يتناسب مع حجم المكان ونقائه واحتفاظه بدرجة حرارة مناسبة .

وأوجب القانون على المدير المسئول عن المنشأة اتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع التدخين في الأماكن العامة المغلقة . إلا في الحدود المسموح بها في الترخيص الممنوح لهذه الأماكن . وتخصيص حيز للمدخنين بما لا يؤثر على الهواء في

^١ المواد ٤٢\٤٣\٤٤ من قانون البيئة ٤ لسنة ١٩٩٤

الأماكن الأخرى. كما حظر القانون التدخين في وسائل النقل العام. وفي مجال الحماية من التلوث الإشعاعي حظر القانون أن يزيد مستوى النشاط الإشعاعي أو تركيزات المواد المشعة بالهواء عن الحدود المسموح بها والتي يصدر بها قرار من وزير الكهرباء والطاقة المسئول عن الأمان النووي بعد الرجوع لوزارة الصحة وجهاز شئون البيئة. ويعاقب على هذه الجريمة بالسجن مدة لا تقل عن خمس سنوات وغرامة لا تقل عن عشرين ألف جنيه ولا تزيد على أربعين ألف جنيه . وسوف نتناول في هذا الفصل المباحث الآتية :-

- ١- تقييم الأثر البيئي والاجتماعي.
- ٢- الجرائم البيئية داخل المنشأة الصناعية.
- ٣- الإبلاغ عن الجرائم البيئية وإفشاء السر المهني.
- ٤- الرصد الذاتي البيئي وسجل الحالة البيئية.
- ٥- تحسين بيئة العمل.
- ٦- دور النقابات المهنية والعمالية في حماية البيئة
- ٧- الحسبة الرسمية والتفتيش البيئي
- ٨- المسؤولية الاجتماعية للشركات
- ٩- أخلاقيات المهنة والأجر والاحتساب في مجال العمل (مدونة السلوك الوظيفي)

المبحث الأول

تقييم الأثر البيئي والاجتماعي

حرص المشرع علي خفض التلوث عند المنبع ، وتقليل الملوثات عند أماكن انبعاثها ، ولتحقيق هذه الخطوة الضرورية كان لابد من أداء قانونية ، تبدأ مع بداية أي مشروع أو التجديد لأية مشروعات قائمة لحساب التوقعات البيئية المحتملة ، والتعامل معها مبكراً قبل أن تكون واقعاً وكانت تلك الأداة القانونية هي ((تقييم الأثر البيئي))

المطلب الأول ماهية تقييم الأثر البيئي

أصبح لاختيار مواقع المشروعات الصناعية فى الآونة الأخيرة أهمية . بعد أن وُجد أن معظم الصناعات تشيد فى المناطق الحضرية . مما ترتب عليه مشكلات اجتماعية وبيئية عديدة . لذا أوجب المشرع إجراء تقييم للأثر البيئي للمشروعات الجديدة أو التوسعات والتجديدات الخاصة بالمنشآت القائمة . علي أن يتم ذلك قبل البدء فى العمل .

والتقييم ليس مجرد إعداد تقرير للحصول علي الموافقة . أو عمل روتيني لمجرد الحصول علي تلك الموافقة بل هو دراسة للتأثيرات البيئية المحتملة والمتبادلة . وليس لدراسة تأثيرات المشروع علي البيئة فقط . بل لدراسة تأثير البيئة علي المشروع أيضا ؛ فقد يتأثر المشروع بعوامل البيئة أو تحدث به خسائر إذا كان موقع المشروع بجانب أنشطة غير متجانسة معه .

وإنك لتعجب حين تجد أن كتب الحسبة تتضمن مثل هذا الحس . فيقول الشيزري في كتابه (نهاية الرتبة) : (ومن كانت صناعته تحتاج إلي وقود نار كالخباز والطباخ والحداد . فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزارين لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار)

ويوصي ابن بسام المحتسب بأن يفرق الفرانين علي الدروب والمحال وأطراف البلد ؛ لما فيها من المرافق وعظم الحاجة إليها^(١) فتقييم الأثر البيئي عنصر أساسي لإقامة المشروع . ويجب أن يُرصد التمويل اللازم له منذ البداية . والجديد أن (تقييم الأثر البيئي) قد يتم ليس فقط علي مشروع بل علي برنامج أو خطة عمل أو إستراتيجية^(٢)

¹ ابن بسام . نهاية الرتبة ، ص ٦١ - ٦٢ ، مرجع سابق

² دكتورة/ نبيلة عبد الحليم كامل . نحو قانون موحد لحماية البيئة ، ص ٢١٢ ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٣ .

أولاً: الأهداف التي يسعى إليها تقييم الأثر البيئي:

١- تعتبر من أهم أدوات اتخاذ القرار، إذ توفر لمتخذ القرار المعلومات والأسس العلمية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية لاتخاذ قراراته التي تحقق أهداف التنمية، وإن كان تقييم الأثر البيئي ليس بحثاً علمياً بل يستند علي نتائج الأبحاث العلمية لتكون سنداً في يد متخذ القرار.

٢- تحمي المستثمر من الأنشطة المجاورة، إذ يختار له تقييم الأثر البيئي موقع مشروعة بدقة.

٣- هي أداء للتخطيط وأسلوب إدارة متكاملة للمشروع فى أثناء مراحل التخطيط والتنفيذ والتشغيل جنباً إلى جنب مع دراسة الجدوى النهائية والتصور الكامل عن المشروع.

٤- وترجع أهميته أيضاً إلى أنه دراسة للبدائل المقترحة للمشروع (الموقع - التكنولوجيا المستخدمة - المواد الخام ٠٠٠٠ الخ) وكذلك توقع للتأثيرات البيئية للمشروع. بدائل الحد من الملوثات والمخاطر، ويعني ذلك كله العناية بالأبعاد البيئية عند اتخاذ القرار، للحيلولة دون حدوث تعطيل أو تكاليف إضافية قد تنتج عن مشكلات بيئية غير متوقعة (وما موضوع مصنع الأسمدة الكندية في دمياط - أجريوم) منا ببعيد.

ثانياً: الأثر المضاعف للتلوث:

كان قياس الأثر البيئي، يتم وفق مبدأ الأثر الفردي للمشروع، بحيث ينظر إلى مقدار العوادم التي يلقيها هذا المشروع منفرداً إلى البيئة دون ملاحظة الأثر المضاعف للتلوث الناتج عن المشروع، أي ليس منفرداً بالحد المسموح به لذاته بل فيما يضيفه من ملوثات تزيد من حمل التلوث في المحيط الحيوي. واعتماد الأخذ فكرة الأحمال بديلاً للتركيزات^(١) ولأهمية كل ذلك ومن أجل أن يتم

^١ أ.د/ جمال إبراهيم محمد علي أستاذ الهندسة الكيميائية كلية الهندسة - جامعة المنوفية، تعديل التشريعات البيئية المصرية .. ملاحظات عامة. خاص مجلة أخبار البيئة، مصر.

تقييم الأثر البيئي علي أسس علمية فقد قام جهاز شئون البيئة بإصدار دليل إرشادي لإجراءات عملية تقييم الأثر البيئي وذلك عام ١٩٩٦ ويعتبر هذا الدليل مرجعا لكل الباحثين في موضوع تقييم الأثر البيئي . بل يعتبر سندا للمشاركة الجماهيرية في تقييم الأثر البيئي والتي أغفلها قانون البيئة

ثالثا : المبادئ التي تستند إليها عملية تقييم الأثر البيئي :

- ١- المشاركة . بمعنى مشاركة أطراف كثيرة . ولاسيما المتأثرين بهذا المشروع وسوف نتناول هذا الموضوع تفصيلا في مبحث قادم.
- ٢- الشفافية . فلا بد من التأكد من عدم إخفاء أي من التفاصيل أو المعلومات عن المشروع . بحيث تتمكن كل الأطراف المعنية من الإدلاء برأيها فيه .
- ٣- المرونة . فلا يجب أن يطلب المستحيل ؛ لأن هذا سوف يمثل عبئا علي أطراف معنية مختلفة . ومن ثم من الضروري أن نبدأ في عمل بعض التوازنات قدر الإمكان^(١)

رابعا : الإطار القانوني لتقييم الأثر البيئي:

تتضمن المواد ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٧٠ - ٧١ - ٧٣ من القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ الإجراءات الخاصة بتقييم الأثر البيئي للمنشآت والمشروعات . كما تتضمن المواد من ١٠ إلي ١٩ والمواد من ٥٧ إلي ٦٠ من اللائحة التنفيذية لهذا القانون - والصادرة بقرار رئيس مجلس الوزراء رقم ٣٣٨ لسنة ١٩٩٥ - الأحكام المكملة لمواد القانون السابق ذكرها.

وتنص تلك المواد علي أن المنشآت والمشروعات الجديدة . وكذلك التوسعات للمنشآت القائمة يجب إخضاعها لتقييم الأثر البيئي.

وخص المشرع المشروعات التي تقع داخل المحميات الطبيعية أو في المناطق المحيطة بها (وهي تختلف قليلا عن الإجراءات العامة لتقييم الأثر البيئي) .

¹ ا.د / علي ناصر حسن . ورشة العمل .عملية تقييم الأثر البيئي المفاهيم والإجراءات . مطبوعات معهد البيئة عين شمس .

وتتضمنها المادة ٥٩ من اللائحة التنفيذية والتي أوجبت إحالة الدراسة ومعها أية آراء إلي الإدارة المركزية لحماية الطبيعة أو طلب بيانات إضافية من المستثمر^(١). وتكليف مقدم الطلب بتحمل تكاليف المعاينات التي تمت. وحظرت المادة (٦٠) من اللائحة التنفيذية أي عمل من شأنه المساس بخط المسار الطبيعي للشاطئ إلا بعد موافقة البيئة العامة لحماية الشواطئ. بالتنسيق مع جهاز شئون البيئة وتكون المحافظة الساحلية هي الجهة الإدارية المختصة بمنح الترخيص. ويرفق بالطلب دراسة متكاملة عن الاتزان البيئي للمنطقة الساحلية بما في ذلك (النحر والتيارات الساحلية).

خامساً : الإجراءات المتبعة في تقييم الأثر البيئي:

- يهدف تقييم الأثر البيئي إلى تلافي التأثيرات البيئية السالبة للمشروعات. وتهيئة الفرصة أمام متخذ القرار لإنجاح المشروع اقتصادياً وبيئياً ؛ لذلك أحاطه المشرع بإجراءات قانونية وأوجب أتباعها. ووفقاً للإطار القانوني السابق ذكره. يمكن ترتيب الإجراءات الخاصة بتقييم الأثر البيئي علي النحو الآتي^(٢)
- ١- يصدر جهاز شئون البيئة قراراً بالعناصر والمواصفات والأسس التي تتولي الجهة الإدارية مانحة الترخيص تقييم الأثر البيئي علي ضوئها وذلك مضمون المادة ١٩ من القانون والمادة ١٠ من لائحته
 - ٢- يقوم جهاز شئون البيئة بمراجعة تلك الأسس كلما لزم الأمر. حيث أنها تعتمد علي نتائج أبحاث علمية متجددة.
 - ٣- يلتزم طالب الترخيص بأن يرفق بطلبه بياناً وافياً عن المنشأة. شاملاً البيانات التي يتضمنها النموذج الذي يعده جهاز شئون البيئة بالاتفاق مع الجهة الإدارية المختصة.

^١ أ.د/ أحمد حسن حسين - أ.د/ محمد حسن رمضان أستاذان لمادة صحة البيئة بالمعهد العالي للصحة العامة جامعة الإسكندرية برنامج التدريب التخصصي في المركز الدولي لدراسات التفتيش والمراجعة (كوميصل)

^٢ مرجع سابق ، البرنامج التخصصي بمركز (كوميصل)

٤- ولما كان متوقفاً أن يكون عدد المشروعات التي تخضع لتقييم الأثر البيئي كبيراً جداً

وتمثل عبئاً علي جهاز شئون البيئة فقد تم وضع نظام يتسم بالمرونة لتنظيم الإجراءات. وهو نظام القوائم أو تصنيف المشروعات تبعاً لشدة الآثار المحتملة إلى ثلاث فئات، لكل فئة مستوى من الإجراءات^(١)

- أ- مشروعات القائمة البيضاء (القائمة أ) وهي ذات الأثر البيئي الضئيل.
- ب- مشروعات القائمة الرمادية (القائمة ب) وهي التي قد تحدث آثاراً مهمة.
- ج- مشروعات القائمة السوداء (القائمة ج) وتتطلب دراسة كاملة للأثر البيئي.
- وحدد القانون المدد الزمنية المتاحة لإتمام الإجراءات، فتعين علي جهاز شئون البيئة إبداء الرأي في تقييم الأثر البيئي الوارد من الجهات الإدارية المختصة والمألحة للترخيص خلال ستين يوماً من تقديمه مشفوعاً بالمقترحات المطلوبة، ويعتبر عدم الرد خلال تلك المدة موافقة من الجهاز. ويحق للجهاز أن يستعين بالمختصين الذين تصدر بهم قائمة لإبداء الرأي في تقييم الأثر البيئي للمشروع المزمع إقامته، ويحق لصاحب المنشأة الاعتراض كتابة علي قرار جهاز شئون البيئة مستوفياً أسباب الاعتراض مستنداً علي أسانيد قانونية. وينظر الاعتراض لجنة دائمة للمراجعة بأغلبية أصوات أعضائها.

المطلب الثاني

الاحتساب البيئي وتقييم الأثر الاجتماعي

إدراكاً من جهاز شئون البيئة بأهمية عملية المشاركة والمشاورة للجمهور، أضافها كأحد البنود في الدليل الإرشادي الصادر عن الجهاز كأسس تقييم الأثر البيئي، ولم ينص عليها القانون، لكنها ناحية إجرائية، وجزء من تنظيم الجهاز.

^١ / محمد حامد علي، أسس وإجراءات تقييم التأثير البيئي في مصر - الإدارة المركزية لتقييم الأثر البيئي بجهاز شئون البيئة، مطبوعات الجهاز

وأحسن صنفاً في ذلك إذ فتح أمام المحتسبين البيئيين حصوناً جديدة . ولسوف أفضل مصطلح " المحتسب البيئي " علي سائر الألقاب المناظرة مثل (حراس البيئة - أو حماة البيئة أو غيرها)

فقد يتحرك البعض للدفاع عن البيئة بدافع المصالح الشخصية والمكاسب المادية . أو لأن المشروع المذمع القيام به يقتطع جزءاً من أرضه . أو يؤثر علي تجارته . أو غيرها من المصالح الشخصية . أما المحتسب البيئي فلا يحركه إلا مرضاة الله وطلب الأجر منه في حماية ما أوجب صيافته وحمايته وهي البيئة .

وبداية نؤكد علي أن إقامة مشروع هو زرع لجسد (بيئة مشيدة) وسط بيئة طبيعية واجتماعية . ولكي تؤتي هذه الزراعة ثمرتها يجب معرفة الخصائص الطبيعية والثقافية والحضارية لهؤلاء الجيران حتى لا تحدث مضار للجوار . ويكون التفاعل الإيجابي بين الجمهور والمشروع .

والمشاركة الشعبية في تقييم الأثر البيئي عملية ذات أهمية بالغة ؛ لأنها تتضمن آراء الأطراف المتأثرة بالمشروع . لأن لدي هؤلاء معلومات عن المنطقة قد لا يعلمها صاحب المشروع ولا القائمون على الدراسة . ومن خلال تلك المشاركة يستطيع أصحاب الحقيقة التأثير علي القرارات التي تنعكس عليهم .

وتعد تلك المشاركة حق من الحقوق الدستورية . وما كان تغيير مواد من الدستور الحالي إلا من أجل تعزيز تلك المشاركة الشعبية . وتأكيد حق المواطنين فيها . ومن أهداف تلك المشاركة زيادة دور المنظمات الأهلية في الرقابة علي الجهات الرسمية .

اولاً : فوائد مشاركة الجمهور في عملية تقييم الأثر البيئي^(١)

١ - التحديد المبكر للآثار الناتجة عن المشروع المزمع تنفيذه والحد من السلب منها .

^١ آمال إبراهيم صبري مدير برنامج البيئة والتنمية . جمعية التنمية الصحية والبيئية . مطبوعات الجمعية ،

٢- تجنب المواجهات بين الجمهور وصانعي القرار ، والقائمين علي تنفيذ المشروع ، التي قد تؤخر في تنفيذه.

٣- تخفيض التكلفة .

ثانيا : مشكلات مشاركة الجمهور في عملية تقييم الأثر البيئي

- ١- عدم توافر المعلومات الكافية عن النشاط أو المشروع.
- ٢- لم تحدد الإجراءات الحالية في أية مرحلة من مراحل العملية يُؤخذ برأي الجمهور ، كما لم تحدد كيفية الأخذ برأيهم ، فما زال هناك فراغ تشريعي في هذا المجال ، ولولا الدليل الإرشادي لجهاز شئون البيئة ما كان لهذا الدور أن يكون.
- ٣- لتفعيل تلك المشاركة يجب أن يكون هناك تنسيق بين المهتمين.
- ٤- التأكد من أن الجمهور تم إعلانه وأنة أخذ الوقت الكافي لمراجعة الموضوع، وأن جميع الفئات مكنت من التفاعل.

٥- تعدد الأجهزة التي لها دور في تقييم الأثر البيئي ، فهناك جهات إدارية مانحة للترخيص، وجهات مانحة للتصريح . حتى داخل جهاز شئون البيئة نجد قطاع الإدارة البيئية وقطاع المراجعة ، وقطاع حماية البيئة ، ومكاتب مشروع الجهاز.

٦- وتظهر إحدى المشكلات من الإجابة علي السؤال الآتي : من الذي يشارك؟ ففي الحقيقة فإن كل فرد يعتبر من أصحاب المصلحة في هذا المجال ؛ لأن الملوثات لا تعرف حدوداً. فمثلا قد يصرف مشروع ما علي مصدر المياه فيلوث أماكن تبعد كثيراً عن مكانه بالإضافة إلي المتأثرين تأثيراً مباشراً من المشروع . كما أن الجمعيات المهتمة بأمر البيئة والمحامين والخبراء لهم دور في ذلك ؛ فمن أجل تفاعل جيد يجب تحديد المجموعات الأساسية في التفاعل ، وأن يعاونهم أهل الخبرة . ولذلك حاول البنك الدولي وغيره من الهيئات تحديد تلك الفئات في الأدلة الإرشادية لتقييم الأثر البيئي.

٧- قد تظهر صعوبات أخرى تتعلق بنقص ثقافة المشاركة الشعبية ؛ لانخفاض المستوى التعليمي للفئات المتأثرة تأثيراً مباشراً بالمشروع . أو لكونهم مهمشين اجتماعياً . أو غير معنيين بالمشاركة . وعادة ما يستغل هذا الموقف صاحب المشروع . فتأتي المشاركة شكلية تهدف في الأساس إلى تجميل الشكل العام . ومجرد إعلان مختصر بالصحف عن إقامة المشروع . وإمداد بسيط بالمعلومات . وتنفيذ المشاركة وكأنها نوع من العلاقات العامة .

ثالثاً : صور المشاركة :

توافر المعلومات شرط أساسي للتفاعل الإيجابي^(١) . فتدقق المعلومات والشفافية يؤثران علي درجة هذا التفاعل . الذي يتراوح بين مجرد الإمداد البسيط بالمعلومات إلي السيطرة المباشرة من قبل الجمهور . والوصول إلي حق التقاضي . ومعارضة تنفيذ المشروع .

ونعرض هنا للصور المتبعة لمشاركة الجمهور علي النحو الآتي :-

أ- الاستبيانات والمسح الاجتماعي لاستطلاع رأي الجمهور وفق أسئلة موضوعية بطريقة منهجية . ينعقد فيها الحوار المتبادل .

ب- الإعلان العام عن المشروع و تفاصيله . عن طريق المطويات أو الصحف أو الإذاعة والتلفاز (لكنها طريقة لا تتضمن ردود أفعال الجمهور).

ج- اللجان الاستشارية التي تمدهم الجمهور بالمعلومات المطلوبة .

ح- ورش العمل الجماعية . وتكون لعدد محدود من ذوي الاهتمام .

خ- الاجتماعات العامة . وتعقد في أماكن عامة يسهل وصول الجمهور إليها .

د- جلسات الاستماع العام . وهي اجتماع عام أكثر تنظيماً وتعد الطريقة

المثلي للحوار في مثل هذه الحالة

ولاشك في أن المحتسب البيئي يستطيع المشاركة في هذه الصور كلها .

ويتطلب هذا منه التوضيحية بوقته . وأن يبذل جهداً في التقصي والبحث عن

¹ آمال إبراهيم صبري . مرجع سابق

حقيقة المشروع ؛ حتى تأتي مشاركته فاعلة، وهذا التفاعل الاجتماعي المطلوب يعتمد علي فهم الدور المنوط بالفرد في المجتمع.

وهناك خبرات فعلية في عملية تقييم الأثر البيئي في مصر ، مثالها المشورة الشعبية فيما يخص مشروع الغاز الطبيعي المسال بادكو^(١) وإسالة الغاز تعني الاحتفاظ بوزنه وتقليل حجمه بما يقرب من ٦٠٠ مرة عن حجمه الأصلي ، حتى نستطيع تصديره لأسواق بعيدة ، والمشروع تكلفته من البنك الدولي الذي اشترط دراسة لتقييم الأثر البيئي ، وفي جلسة الاستماع تم شرح الفكرة لجمهور إدكو فتخوفوا من أن يمنعوا من الصيد وتم أزاله تخوفهم بان مسافة ٣٥٠ متر فقط هي التي سوف يمنع فيها الصيد ، وفيما يتعلق بالتأثير علي البيئة وجد أن المشروع يؤثر علي التلوث السمعي فتم التفاهم على التعديل مع الشركة المنفذة بما يقلل حجم الصوت ، وطالب الأهالي تشغيل شباب البلد في المشروع وتم أجابتهم وتطلب ذلك قدر من التدريب المهني لهم ويعتبر ذلك مثلاً حقيقياً لمشاركة الجمهور في عملية تقييم الأثر البيئي .

رابعا : الحق في المشاركة والحق في التفاضل في المواثيق الدولية والمحلية :

اهتم المجتمع الدولي بهذه الحقوق ، وأدرجها في الكثير من المواثيق الدولية إلا أن من الملاحظ أنه منذ قمة الأرض عام ١٩٩٢ زاد هذا الاهتمام . ويؤكد المبدأ (١٠) من إعلان ريو ١٩٩٢ ، الصادر أثناء قمة الأرض على أن تعالج قضايا البيئة على أفضل وجه ، بمشاركة جميع المواطنين المعنيين على المستوي ذي الصلة ، وأن تتاح لكل فرد فرصة مناسبة ، على الصعيد الوطني ، للوصول إلى المعلومات التي تحتفظ بها السلطات العامة بشأن البيئة ، بما في ذلك المعلومات المتعلقة بالمواد والأنشطة الخطرة في مجتمعاتهم ، وإتاحة الفرصة له للمشاركة في عملية صنع القرار .

^١ م / أحمد طه ، مكتب هاوس أوف ايجبت الاستشاري ، ورشة عمل خاصة بدور الجمعيات الأهلية في عملية تقييم الأثر البيئي ، بدعم من مشروع التحكم في التلوث الصناعي بجهاز شئون البيئة ، مطبوعات الجهاز ٦٧ .

وأن تشجع الدول توعية الجمهور ومشاركته . عن طريق إتاحة المعلومات علي نطاق واسع ، وتهيئة فرص الوصول بفاعلية إلى الإجراءات القضائية والإدارية ، بما في ذلك التعويض وسبل الإنصاف .

وفى الاتفاقية الإطارية للتغير المناخي (مايو ١٩٩٢) جاء بالمادة (٤) منه باب عن الالتزام بالعمل والتعاون على التعليم والتدريب والتوعية العامة . فيما يتصل بتغير المناخ ، وتشجيع المشاركة على أوسع نطاق في هذه العملية ، بما في ذلك مشاركة المنظمات غير الحكومية^(١) . وإتاحة حصول الجمهور على المعلومات المتعلقة بتغير المناخ وآثاره . وتطوير وتبادل مواد التعليم والتوعية العامة بشأن تغير المناخ وآثاره .

وفى اتفاقية التصحر (سبتمبر ١٩٩٤) كان التأكيد على المشاركة . لا سيما مشاركة مستعملي الموارد . بما في ذلك المزارعون والمشتغلون بالرعي والمنظمات المثلة لهم ، في تخطيط السياسات وصنع القرارات . وتنفيذ برامج العمل الوطنية .

وأهم تلك الاتفاقيات اتفاقية (أرهس) الخاصة بإتاحة فرص الحصول علي المعلومات عن البيئة . ومشاركة الجمهور في اتخاذ القرارات بشأنها . والاحتكام إلى القضاء في المسائل المتعلقة بها .

وبمخصوص الإعلام وتثقيف الجمهور وتوعيته . فقد كانت اتفاقية (استكهولم) للملوثات العضوية الثابتة (مايو ٢٠٠١ السويد) . وقد جاء بالمادة ١٠ من الاتفاقية أن يعمل كل طرف في حدود قدراته على تشجيع وتيسير ما يأتي :-

(أ) إذكاء الوعي بين صفوف واضعي السياسات وصانعي القرار . فيما يتعلق بالملوثات العضوية الثابتة .

(ب) تزويد الجمهور بالمعلومات المتاحة كلها عن الملوثات العضوية الثابتة .

^١ المادة (٦) الاتفاقية الإطارية للتغير المناخي

(ج) وضع برامج توعية للجمهور ، وبخاصة للنساء والأطفال والأقل حظاً من التعليم ، بشأن الملوثات العضوية الثابتة ، وآثارها على الصحة البيئية وبشأن بدائل هذه الملوثات.

(د) مشاركة الجمهور وتوفير فرص المساهمة على الصعيد الوطني فيما يتعلق بتنفيذ هذه الاتفاقية .

وفى ١٦ مايو ١٩٩٤ اجتمع مجموعة من الخبراء المعنيين بالحقوق الإنسانية والحماية البيئية فى الأمم المتحدة بجنيف وأعدوا مسودة هى الأولى من نوعها لتوضيح المبادئ المتعلقة بحقوق الإنسان والبيئة . وقد جاء بالمبدأ ١٥ من المسودة ما يلي : (كل فرد له الحق فى الحصول على المعلومات المتعلقة بالبيئة . وهذا يتضمن توفير المعلومات والأفعال والتصرفات التي يمكن أن تؤثر على البيئة ، وتوفير المعلومات الضرورية التي تمكن الأفراد من المشاركة الفعالة فى عملية اتخاذ القرار).

اهتمت التجمعات الإقليمية كذلك بالحق فى المعلومة ، والحق فى المشاركة ، والحق فى التقاضي فى مجال البيئة . لكن هذا الاهتمام لم يصل إلى خروج موثيق ملزمة ، وإنما تمثل فى توصيات بعض المؤتمرات أو إعلانات عامة تحبذ وجود هذه الحقوق .

فعلى المستوى العربى جاء التقرير الختامى للمؤتمر الأول للمنتدى العربى للتنمية البشرية القاهرة فى ٢٤ - ٢٦ فبراير ٢٠٠٣ والصادر عن جامعة الدول العربية

وفى التشريعات المحلية نجد قانون البيئة ٤ لسنة ١٩٩٤ الذى يؤكد على أن لكل مواطن أو جمعية معنية بحماية البيئة الحق فى التبليغ عن أية مخالفة لأحكام هذا القانون^(١) ، وتضمنت اللائحة على الآتى : يجوز لكل مواطن أو جمعية معنية بحماية البيئة اللجوء للأجهزة الإدارية والقضائية المختصة بغرض

^١ المادة (١٠٣) من قانون البيئة المصرى.

تنفيذ أحكام قانون البيئة وما ورد بهذه اللائحة ، وعلى وزارة الداخلية بالتنسيق مع جهاز شئون البيئة إنشاء شرطة متخصصة لحماية البيئة بالوزارة ومديريات الأمن بالمحافظات ، تختص بتنفيذ أحكام القوانين والقرارات المتعلقة بحماية البيئة ، وكذا تلقي الشكاوي والبلاغات التي تقدم في هذا الشأن واتخاذ الإجراءات القانونية بشأنها .

وقد جاء بالمادة الخامسة بالقانون ٤ لسنة ١٩٩٤ أن جهاز شئون البيئة يعد التقارير الدورية عن المؤشرات الرئيسية للوضع البيئي وينشرها بصفة دورية ، وتودع نسخة من هذا التقرير بمجلس الشعب للاطلاع عليها .

وتناول قانون التخطيط العمراني رقم ٣ لسنة ١٩٨٢ موضوع المشاركة .
فنص على^(١) أن تعرض الوحدة المحلية مشروع التخطيط العام بمقرها لبيدي المواطنين ملاحظاتهم وأراءهم فيه ، ثم تصدر قراراً بشأنه في ضوء ما أبدي من ملاحظات ، ورأي الهيئة العامة للتخطيط العمراني ، وتبين اللائحة التنفيذية أوضاع المشروع وإجراءاته ومدة عرضه وإيداء ملاحظات المواطنين فيه .

ويعرض التقرير بمقر الوحدة المحلية المختصة لمدة شهر^(٢) ، ويتضمن العرض تحديد موعد عقد جلسة الاستماع للرأي العام بعد انتهاء مدة العرض . ثم تعلن الوحدة المحلية عن موعد ومكان عقد جلسة الاستماع في جريدتين يوميتين قبل الموعد المحدد بأسبوعين على الأقل .

ويدعى أعضاء المجالس الشعبية المحلية المختصة التي يجري إعداد مشروع التخطيط العام لها . لحضور الاجتماع . وفي الموعد المحدد يتولي المخططون للمشروع شرحه للمواطنين الحاضرين لجلسة الاستماع ويجيبون على أسئلة المستفسرين منهم مع تدوين تعليقاتهم وملاحظاتهم واقتراحاتهم^(٣) .
مما يجعل الحق في المشاركة في الحياة العامة بأشكالها ومجالاتها كافة حقاً

^١ المادة (٣ / ١) من قانون التخطيط العمراني رقم ٣ لسنة ١٩٨٢

^٢ قرار وزير التعمير رقم ٦٠٠ لسنة ١٩٨٢ بإصدار اللائحة التنفيذية للقانون مادة (١٢)

^٣ سلسلة كيبات حايبى . مركز حايبى للحقوق البيئية www.hcer.org

من حقوق الإنسان الأساسية ، وأداة للتنمية الفعالة . وأسلوباً للممارسة السياسية والمسئولية الاجتماعية والتربوية لأفراد المجتمع ، ويعطي الإنسان الحق في إخضاع كافة القضايا للرقابة الشعبية .

وآليات تلك الرقابة تقديم الشكاوي للجهات المختصة في النطاق المحلي ورفع التظلمات أو رفع قضايا معينة أمام الجهات القضائية . سواء كانت شكوي فردية يتقدم بها مواطن يتظلم من شئ أو يلفت النظر إلي ضرر معين أم شكوي تتقدم بها جمعية أو منظمة مدنية لدعم مطلب فردي أو مطالب عدد من المواطنين أو تنوب فيها عن عدد من المواطنين للتظلم من ضرر معين.

المطلب الثالث

تقييم الأثر البيئي والاجتماعي في المدن الإسلامية

يمكننا أن نستنتج من خلال المصادر والنصوص الكثيرة أن المدن الإسلامية عرفت منذ بداية التمدن الإسلامي التطبيق (أو نظام المناطق) . الذي يقضي بوضع كل نشاط حضري في منطقة معينة من المدينة^(١) . وقد روعي في هذا معيار التجانس بين الصناعات المتشابهة والمتكاملة.

ومعيار الضرر الذي يقتضي إبعاد الأنشطة ذات الأثر السلبي على المحيط وعلى الإنسان (الدخان ، الرائحة ، الإزعاج الصوتي ، التلوث ، العرقلة) . ومعيار تلبية الحاجات اليومية للسكان . بالإضافة إلى معيار المراقبة بالنسبة للمحتسب الذي يسهر على منع الغش والجهالة والغرر ، ويساعده في ذلك عرفاء المهن وخبرائها.

وقد كان للحسبة في المدينة الإسلامية دور فعال في التنظيم العمراني^(٢) ،

^١ د/ مصطفى أحمد بن حموش ، أستاذ مساعد بكلية الهندسة جامعة البحرين . مجلة الملك سعود . المعايير الهندسية والتخطيطية في المدن الإسلامية العتيقة . دار قابس للطباعة بيروت .

^٢ خالد محمد مصطفى عزب . سلسلة كتب الأمة ٥٨ - تخطيط وعمارية المدن الإسلامية الفصل

نلمسه من خلال أثرها في المدينة، وما فيها من خطط وأسواق ومنشآت، وهو دور جعل المدينة الإسلامية متميزة عن غيرها من المدن. وقد فصلت كتب الحسبة التي وصلت إلينا، ما يجب أن تكون عليه الأسواق والمناطق الصناعية في المدن الإسلامية. وظهر هذا التخصص على مسميات الأحياء؛ فقد سميت أسواق المدن الإسلامية بأسماء منتجاتها، فوجدت أحياء القضايين، والخبازين، والعتارين، والنحاسين، والصاغة، وغير ذلك من الأسماء المرتبطة بالحرفة.

وقد أبرز ابن عقيل هذه الحقائق في وصفه لبغداد، حيث يقول: "وكانت أسواق الكرخ، وباب الطاق، لا يختلط فيها العطارون بأرباب الزهائم والروائح المنكرة، ولا أرباب الأنماط بأرباب الأسقاط. وكانت هناك تربيئات معينة للمنشآت الصناعية، التي تسبب في دخان أو روائح كريهة، أو صوت مزعج، أو تمثل ضرراً واضحاً إذا زادت حدتها. وكان يراعى عند إنشاء مثل هذه المؤسسات، أن توضع في أمكنة - أو تختار لها مواضع - يمكن معها تجنب ما قد ينشأ عنها من أضرار. واختلفت أشكال الحوانيت ومساحاتها تبعاً للأغراض التي تستعمل فيها. وهناك من الحوانيت ما اشترط فيه أن يكون بمواصفات بنائية معينة، كحانوت القصاب الذي يذبح في حانوته، فيشترط في حانوته أن يتسع لوجود مذبح صغير، حتى لا يضر بالطريق والعامّة وكذلك حانوت الخباز الذي يشترط فيه ارتفاع السقف والتهوية اللازمة لإخراج الدخان. ومن الوظائف التي دخلت ضمن اختصاص المحتسب^(١)، مراقبة الحالة العامة لفراغات السوق، وسلوك استخدامه. بما يضمن حرية المستخدمين وصحتهم والممتلكات وسلامتها. فقيماً يتعلق بحرية وسهولة الحركة عند استخدام السوق، كان المحتسب يمنع إخراج مصطبة الدكان عن سمت السقف، لئلا يتضرر المارة.. كما كان يأمر الفخارين بإزالة ما يضعونه من حوائجهم في الطرق،

الربيع الحسبة وأثرها في المدينة الإسلامية، ص ١٢٢.

^١ خالد محمد مصطفى عزب. سلسلة كتب الأمة ٥٨، مرجع سابق

لتضيقهم الطريق بها ، فتكون داعية للشر والخصومة .. كذلك كان يمنع الناس من دخول الأسواق على ظهور الدواب ، أو إيقافها في الطرق الضيقة ، وإرسالها من غير ممسك لها . ومنع من يجلس في الطريق لبيع السلعة ، إذا كان يحيق بالناس من ذلك ضرر.

المبحث الثاني

الجرانم البيئية داخل المنشأة الصناعية

العمليات الإنتاجية فى المصانع تنفث عوادم تلوث البيئة و يتضرر منها الإنسان أشد الضرر. وهذا التلوث الناتج عن المصانع نوعان: تلوث خارجي ، يحدث بانبعاث الملوثات من المصانع والمنشآت الصناعية إلى المحيط الحيوي للكرة الأرضية . وتلوث داخلي لبيئة العمل الصناعية نتيجة انبعاث مواد كيميائية وغازات ومواد صلبة ، ومخلفات سائلة ناتجة عن عمليات صناعية مختلفة داخل المصانع . ويندرج حديثنا هنا عن تلوث البيئة الداخلية للمصنع أو ما يعرف بتلوث بيئة العمل ، ولاشك أن العامل هو أشد المتأثرين بالأضرار البيئية الناجمة عن التصنيع ؛ فإلى جانب أنه يعاني من تلوث البيئة الخارجية مثله مثل بقية الناس ، فإنه يعاني أيضاً من تلوث بيئة العمل . ولذلك ازداد الاهتمام بإجراء الدراسات والأبحاث حول بيئة العمل ، كما حرصت المؤسسات المعنية بحماية البيئة في مختلف الدول على إنشاء إدارة خاصة ببيئة العمل ، ينحصر هدفها الأساسي في السعى من أجل حماية العمال الصناعيين من مخاطر الماكينات والآلات والحد من الإصابات المهنية التي يتعرضون لها ، وتتهيئه ظروف عمل ملائمة لهم بالحد من انبعاث الملوثات الصناعية للمحافظة على سلامتهم.

وتضع وحدة تأمين بيئة العمل بمديرية العمل ، خطة التفيش الدوري على المنشآت. للتأكد من أن المنشآت وفروعها أعدت تقيماً وتحليلاً للمخاطر والكوارث الصناعية والطبيعية المتوقعة و خططاً للطوارئ لحماية المنشأة والعمالين

بها عند وقوع الكوارث وإجراء التحليلات اللازمة حول المخاطر الخاصة بالمنشأة والإطلاع على المخزون السلي من المواد الخطرة . واتخاذ الإجراءات اللازمة فى هذا الشأن.

ولقد جاء الكتاب الخامس من قانون العمل الموحد^(١) ليتناول حماية وتأمين بيئة العمل من المادة (٢٠٨ إلى المادة ٢١٣) وقد ألزمت هذه المواد المنشأة وفروعها بتوفير وسائل السلامة والصحة المهنية . وتأمين بيئة العمل فى أماكن العمل ، بما يكفل الوقاية من المخاطر وذكر بعض أنواع المخاطر وضرورة اتخاذ جميع الاحتياطات والتدابير اللازمة وتأمين بيئة العمل للوقاية من هذه المخاطر . كما يلزم القانون بإنشاء إدارة للسلامة والصحة المهنية داخل المنشآت .

وتُعرف الجريمة البيئية^(٢) بأنها كل فعل أو امتناع عن فعل . يصدر عن شخص عام أو خاص . على المستويين المحلي والدولي ، ويمس بالتوازن البيئي أو بموارد البيئة الطبيعية والاجتماعية . بما يؤدي إلى حدوث ضرر ما مباشر أو غير مباشر . أو يشكل خطراً يهدد صحة الإنسان وأمنه ومن ثم يتضرر منه بعض البشر أو كلهم ، طبقاً لنصوص القانون المحلي أو الاتفاقيات الدولية .
وتتصف الجرائم البيئية بسمات متعددة من أهمها :

١ - حداثة تجريم الأفعال المكونة لها ؛ إذ يمكن رد الاهتمام العالمي بقضايا البيئة إلى بداية السبعينيات من القرن العشرين ، بعد عقد مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة البشرية فى استكهولم عام ١٩٧٢ ، الذي صدرت فى أعقابه أول وثيقة دولية عن مبادئ العلاقات بين الدول فى شئون البيئة . وكيفية التعامل معها . والمسئولية عما يصيبها من أضرار ، ودعوة الحكومات ووكالات الأمم المتحدة ، والمنظمات الدولية إلى التعاون فى اتخاذ تدابير من أجل حماية البيئة .

^١ قانون العمل رقم ١٢ لسنة ٢٠٠٣

^٢ أندليل المرجعى للشباب والبيئة . مجموعة خبراء . الناشر المنظمة العربية للعلوم الإدارية . مرجع سابق ٧٨ .

٢- البعد الدولي للجريمة البيئية ، لأن ما يصيب البيئة من تلوث وتدهور . لم يعد أمراً محلياً ، يقتصر على دولة دون أخرى ، بل أضحى - في حالات كثيرة - لا يعترف بالحدود . ولا يفرق بين المجرم والضحية . ومن ثم لم تعد لدولة واحدة مهما بلغت قوتها القدرة على أن تحمي مصيرها منفردة . أو تتماهى فى الإضرار بالآخرين .

٣- اتساع نطاق الأضرار والمخاطر الناتجة عن الجريمة البيئية ؛ فالجرائم الأخرى . لا سيما الجرائم الواقعة من الأشخاص . غالباً ما يقتصر ضررها على شخص المجنى عليه دون غيره . أما الجريمة البيئية فإن الضرر الناتج عنها يمتد ليصيب المئات أو الآلاف من الأشخاص . فتلوث الهواء مثلاً ، نتيجة تصاعد الغازات والضوضاء الصادرة من مصدر معين تؤثر سلباً على الحالة الصحية العامة لعدد من الأشخاص المتأثرين بها عضوياً ونفسياً .

٤- في حالات كثيرة يصعب تحديد الجاني وتقدير نطاق الأضرار .

٥- امتداد الاثار السلبية المترتبة على الجريمة البيئية لفترات طويلة . وأجيال متعاقبة . فالاختلاف فى الدورة الطبيعية لعناصر النظام البيئى . نتيجة التلوث بمختلف أنواعه . وسوء استخدام الموارد الطبيعية . يؤثر سلباً على القدرة الاستيعابية لهذه العناصر . ومع إفتراض توقف التعدى على البيئة فإن إعادة التوازن البيئى تستلزم فترات طويلة . فالنفايات المشعة يستمر تأثيرها لفترات طويلة . تصل أحياناً إلى ١٦٠٠ سنة . كما أن نمو الشعب المرجانية يحتاج آلاف السنين لكي تعود إلى وضعها الطبيعي .

المطلب الأول أنواع الجرائم البيئية داخل المنشأة الصناعية

أولاً: عدم اتخاذ القائمين علي إنتاج المواد الخطرة أو تداولها الاحتياطات التي تضمن عدم الأضرار بالبيئة

النصوص التجريبية لهذه الجريمة تناولها (مادة ٣٣ من قانون البيئة المصري) فتوجب علي القائمين علي إنتاج أو تداول المواد الخطرة سواء كانت في حالتها الغازية أو السائلة أو الصلبة أن يتخذوا جميع الاحتياطات التي تضمن عدم حدوث أي أضرار بالبيئة . واللائحة التنفيذية الاحتياطات التي تضمن عدم حدوث أي أضرار بالبيئة^(١) والاشتراطات التي تلتزم بها الجهات المستوردة أو المنتجة لتلك المواد .

وأن تراعي عند إنتاج أو استيراد تلك المواد الاشتراطات التالية :

مواصفات العبوة : التي ستوضع فيها تلك المواد . بحيث تتناسب مع نوع المادة . وسعة العبوة بحيث يسهل حملها أو نقلها دون التعرض للتلف . أو إحداث أضرار . وأن تكون العبوة من الداخل من نوع لا يتأثر بالتخزين طوال مدة فاعلية المادة .

و يجب أن تتضمن بيانات العبوة : الإسعافات الأولية الواجب اتخاذها في حالة حدوث الضرر . وأسلوب التخزين السليم . وسبل التخلص من العبوة الفارغة . وتكتب جميع تلك البيانات باللغة العربية . وبأسلوب يسهل علي الشخص العادي قراءته و فهمه . وأن تكون الكلمات مقروءة و مثبتة علي مكان ظاهر من العبوة . ولا يسهل طمسها أو إزالتها أو تعديل محتواها ، وأن تصاحب تلك البيانات صور توضيحية لكيفية الفتح و التفريغ و التخزين . والتخلص . والرموز الدولية للخطورة و السمية .

^١ المادة (٣١) من اللائحة التنفيذية لقانون البيئة المصري

وتناول قانون العمل هذه المسألة^(١). فنص على أن تلتزم المنشأة وفروعها بتوفير وسائل الوقاية من المخاطر الكيميائية الناتجة عن التعامل مع المواد الكيميائية الصلبة والسائلة والغازية . مع مراعاة ما يلي :

- عدم تعرض العمال للمواد الكيميائية والمواد المسببة للسرطان . بما لا يجاوز أقصى تركيز مسموح به . على أن لا يتجاوز مخزون المواد الكيميائية الخطرة كميات العتبة لكل منها .

توفير الاحتياطات اللازمة لوقاية المنشأة والعمال عند نقل وتخزين وتداول واستخدام المواد الكيميائية الخطرة والتخلص من نفاياتها .

- الاحتفاظ بسجل لحصر المواد الكيميائية الخطرة المتداولة متضمنا جميع البيانات الخاصة بكل مادة ويسجل لرصد بيئة العمل . وتعرض العمال لخطر الكيماويات .

- وضع بطاقات تعريف لجميع المواد الكيميائية المتداولة في العمل موضحا بها الاسم العلمي والتجاري . والتركيب الكيميائي لها . ودرجة خطورتها . واحتياطات السلامة وإجراءات الطوارئ المتعلقة بها . وعلي المنشأة أن تحصل علي البيانات المذكورة عن هذه المواد من موردها .

وقد وضع النهج الاستراتيجي للإدارة الدولية للمواد الكيميائية مدونة سلوك دولية للتعامل مع المواد الكيميائية الخطرة . والمادة السادسة من الاتفاقية العربية رقم (١٣) لعام ١٩٨١ بشأن بيئة العمل تنص على انه يجب حماية العاملين وبيئة العمل من أخطار المواد الكيميائية وعدم تجاوز تركيزها عن الحدود المسموح بها .

و يمكن أن يشكل إلزام المنشآت المختلفة المنتجة بعمل ما يعرف ببيان الخصائص و اجراءات السلامة للمنتج **Material and Safety Data Sheet** احد الأدوات المفيدة في تتبع دورة الملوثات المختلفة.

^١ مادة ٢١١ من قانون العمل رقم ١٢ لسنة ٢٠٠٣

ثانياً: جرمان تجاوز الحدود المسموح بها:

١- جريمة استخدام آلات أو محركات أو مركبات ينتج عنها عدم تجاوز الحد المسموح به قانوناً^(١)

ألزم قانون البيئة المصري^(٢) صاحب المنشأة باتخاذ الاحتياطات والتدابير اللازمة لعدم تسرب - أو انبعاث - ملوثات الهواء داخل مكان العمل إلا في الحدود المسموح بها ، التي تحددها اللائحة التنفيذية لهذا القانون ، سواء أكانت ناتجة عن طبيعة ممارسة المنشأة لنشاطها أم عن خلل في الأجهزة ، وأن توفر سبل الحماية اللازمة للعاملين لتنفيذاً لشروط السلامة والصحة المهنية . بما في ذلك اختيار الآلات والمعدات ، والمواد وأنواع الوقود المناسبة ، علي أن يؤخذ في الاعتبار مدة التعرض لهذه الملوثات ، وعليه أن يكفل ضمان التهوية الكافية و تركيب المداخن وغيرها من وسائل تنقية الهواء.

وأوضحت اللائحة التنفيذية^(٣) تلك الالتزامات ، وبين الملحق رقم (٨) الحدود القصوى للملوثات الهواء داخل أماكن العمل وفقاً لنوعية كل صناعة ، وشمل الملحق التعريفات الآتية :-

الحدود العتبية : وهي تركيزات المواد الكيميائية في الهواء التي يمكن أن يتعرض لها العاملون يوماً بعد يوم دون حدوث أضرار صحية وتنقسم إلى ثلاثة أنواع :

١. الحدود العتبية المتوسط الزمنى (TLV)

أي المتوسط الزمنى ليوم عمل عادي (٨ ساعات) والتي يمكن أن يتعرض له العامل ٥ أيام في الأسبوع طوال فترة عمله دون حدوث أضرار صحية .

^١ دكتور/ محمود طه ، أستاذ القانون الجنائي جامعة طنطا ، الحماية الجنائية للبيئة من التلوث ، توزيع

منشأة المعارف الإسكندرية ، ص ٣٩ .

^٢ المادة (٤٣) من قانون ٤ لسنة ١٩٩٤

^٣ المادة ٣٦ من قانون البيئة المصري

٢- الحدود العتبية - حدود التعرض لفترة قصيرة .

وهي تركيز الملوثات التي يمكن أن يتعرض لها العاملون لفترة قصيرة - لمدة ١٥ دقيقة والتي لا يجوز تجاوزها بأية حال خلال فترة العمل . ولا أن يتكرر ذلك أكثر من ٤ مرات في اليوم الواحد. ويجب أن تكون الفترة بين كل تعرض قصير والذي يليه ٦٠ دقيقة على الأقل .

٣- الحد السقفي .

وهو الحد الذي لا يجوز تجاوزه ولو للحظة . وعندما يكون الامتصاص عن طريق الجلد عاملاً في زيادة التعرض توضع إشارة + جلد " أمام الحد العتبي ، وبالنسبة للأتربة الكلية التي تسبب الضيق فقط وليست لها آثار صحية ملموسة فإن الحد العتبي هو ١٠ مجم/م^٣ بالنسبة للجسيمات القابلة للاستنشاق . وبالنسبة للغازات الخائفة البسيطة التي ليست لها آثار فسيولوجية تذكر يكون العامل المؤثر هو تركيز الأوكسجين في الجو بما لا يجوز أن يقل عن ١٨٪

ب : جريمة تجاوز الحدود المسموح بها لشدة الصوت :

حرص المشرع المصري - والدولي - على تجريم التلوث السمعي وجرم استخدام مكبرات الصوت دون ترخيص . وقيادة مركبات تصدر أصواتاً مزعجة^(١)

وما يهمننا هنا هو نطاق هذه الجريمة في بيئة العمل . وتناولت اللائحة التنفيذية^(٢) لقانون البيئة هذا الالتزام . فنصت على أن (تلتزم جميع الجهات والأفراد عند مباشرة الأنشطة الإنتاجية أو الخدمية أو غيرها وخاصة عند تشغيل الآلات والمعدات واستخدام آلات التنبيه ومكبرات الصوت . بعدم تجاوز الحدود المسموح بها لشدة الصوت داخل أماكن العمل والأماكن العامة المغلقة الموضحة بالجدول رقم (١) من الملحق رقم (٧) لهذه اللائحة.

^١ مادة ٧٢ مكرر من قانون المرور رقم ١٢١ لسنة ٢٠٠٨

^٢ المادة ٤٤ لائحة قانون ٤ لسنة ١٩٩٤

وعلى الجهات المانحة للترخيص مراعاة أن يكون مجموع الأصوات المنبعثة من المصادر الثابتة فى منطقة واحدة فى نطاق الحدود المسموح بها ، والتأكد من التزام المنشأة باختيار الآلات والمعدات المناسبة لضمان ذلك ، وفق ما هو مبين باللائحة ومدة الفترة الزمنية للتعرض له.

ويلاحظ أن الالتزام واقع على الأفراد والجهات عند مباشرة أية أنشطة إنتاجية ، أو تشغيل آلات بعدم تجاوز الحدود المسموح بها لشدة الصوت . تلك الحدود التى أوضحتها اللائحة ومدة التعرض الآمن له . ويجب ألا تزيد شدة الضوضاء المكافئة عن ٩٠ ديسبل خلال وردية العمل اليومى ٨ ساعات ، وفى حالة ارتفاع منسوب شدة الضوضاء عن ٩٠ ديسبل يجب تقليل مدة التعرض طبقاً للجدول الوارد باللائحة.

ج : جريمة تجاوز الحدود المسموح بها للأدخنة الضارة عند حرق الوقود :

لا يتصور أن نحظر حرق الوقود ، إذ هو أمر ضروري للنهضة الصناعية ولتقدم البشرية ، خاصة إذا علمنا أن القاهرة وحدها بها ١٢٦٠٠٠ تجمع صناعى ، سواء صغير الحجم أم منشأة كبيرة تعتمد فى صناعتها على حرق الوقود . لذا وضع المشرع حدوداً ينبغي عدم تجاوزها عند حرق الوقود وجرم تجاوز هذه الحدود^(١).

فأوجبت على الجهات المختصة أن تراعى - حسب طبيعة نشاطها- عند حرق أى نوع من أنواع الوقود سواء فى أغراض الصناعة أو توليد الطاقة أو الإنشاءات أو لغرض تجارى أن يكون الدخان والغازات والأبخرة الضارة الناتجة فى الحدود المسموح بها ، وعلى المسئول عن هذا النشاط اتخاذ جميع الإحتياطات لتقليل كمية الملوثات فى نواتج الاحتراق.

وحدد ارتفاعات المداخن التى يصدر عنها انبعاث إجمالى للعادم تتراوح بين ٧٠٠٠ - ١٥٠٠٠ كجم بالساعة ، بإلا يقل ارتفاعها عن ما بين ١٨ - ٣٦

^١ المادتان (٤٠) (٤٢) من اللائحة التنفيذية

متراً. والمداخن التي يصدر عنها انبعاث إجمالي أكثر من ١٥٠٠٠ كجم/ساعة يجب أن يكون ارتفاع المدخنة أكثر من مرتين ونصف على الأقل من ارتفاع المبنى المحيطة. بما فيها المبنى الذي تحدمه المدخنة. وبالنسبة للمدخن التي تحدم الأماكن العامة كالمكاتب والمطاعم والفنادق والأغراض التجارية الأخرى يجب ألا يقل إرتفاعها عن ٣ متر عن حافة المبنى (أعلى المبنى) مع العمل على رفع سرعة تسريب الغاز من المدخنة.

ثالثاً : إدارة النفايات الخطرة بالمخالفة للقواعد والإجراءات القانونية:

وهي جرائم عدة تناولها المشرع فى المواد (٢٩- الى ٣٣) من قانون البيئة المصرى . فجرم الاستيراد والتداول لهذه النفايات دون ترخيص . وحددت اللائحة التنفيذية شروط منح الترخيص. وجرمت كذلك مرور النفايات الخطرة فى الأراضى المصرية . ونصت المادة (٣٠) على تجريم إدارة النفايات الخطرة بالمخالفة للقانون . وعدم مراعاة اللائحة التنفيذية فى ذلك وعرضت اللائحة جدولاً للنفايات الخطرة التي تخضع لأحكام قانون البيئة .

وقبل ذلك - وفى باب التعريفات - حدد القانون^(١) المقصود

بالنفايات الخطرة بأنها :-

(مخلفات الأنشطة والعمليات المختلفة - أو رمادها - المحتفظه بالمواد الخطرة . التى ليس لها استخدامات تالية أصلية أو بديلة . مثل النفايات الإكلينيكية من الأنشطة العلاجية . والنفايات الناتجة عن تصنيع أي من المستحضرات الصيدلانية والأدوية أو المذيبات العضوية أو الأحبار والأصباغ والدهانات)

والجدير بالذكر أن الأمثلة التى عددها المشرع للمواد والنفايات الخطرة ليست على سبيل الحصر وإنما أوردها على سبيل المثال . ونستدل على ذلك بنص المادة (٢٩) من قانون البيئة . والمادة (٢٥) من اللائحة التنفيذية لهذا القانون ؛ إذ

^١ القانون ٤ لسنة ١٩٩٤

تقول: (ويصدر الوزراء - كل فى نطاق اختصاصه - بالتنسيق مع وزير الصحة وجهاز شئون البيئة جدولاً بالمواد والنفايات الخطرة المشار إليها)^(١)

رابعاً: جريمة صرف أو إلقاء مخلفات فى مجارى المياه دون ترخيص:

التشريعات البيئية ليست قانوناً واحداً^(٢) هو القانون ٤ لسنة ١٩٩٤ . بل هناك مجموعة من التشريعات البيئية التى تناولت موضوعات تخص البيئة . وتجريم إلقاء مخلفات فى مجارى المياه تناوله القانون ٤٨ لسنة ١٩٨٢ الخاص بحماية نهر النيل والمجارى المائية فى المادة الثانية منه . والقانون رقم ٩٣ لسنة ١٩٦٢ بشأن صرف المتخلفات السائلة.

وتضمنت المادة (٨٩) من قانون البيئة ٤ لسنة ١٩٩٤ الجزاءات التى توقع على مرتكب الجريمة

ويتجسد الفعل المادى للجريمة فى أحد فعلين: الصرف أو الإلقاء للمخلفات بجميع أنواعها صلبة كانت او سائلة أو الغازية وجرم الفعل لو تم دون ترخيص أو دون التقيد بالضوابط .

ونصت المادة (٨٩) على عقوبة الغرامة من مائتي جنيه وبما لا تزيد عن عشرين ألف نجنية وفى حالة العود يشدد العقاب ليصبح الحبس والغرامة^(٣)

خامساً: جريمة عدم إزالة مسببات الضرر فى مجارى المياه فوراً:

إذا ثبت من نتائج التحاليل التى تجريها وزارة الصحة أنها تخالف المواصفات والمعايير المحددة . يخطر صاحب الشأن بإزالة الخطر فوراً . وإلا قامت وزارة الرى بذلك على نفقته وألغت الترخيص الممنوح له^(٤) وحظر قانون

^١ الدكتور / محمود أحمد طه . مرجع سابق ، ص ١٣

^٢ د / ماجد راغب الحلوى ، مرجع سابق

^٣ دكتور / محمود طه ، مرجع سابق ، ص ١١٤

^٤ المادة الثالثة من القانون ٤٨ لسنة ١٩٨٢

البيئة^(١) على جميع المنشآت بما في ذلك المجال العامة المنشآت التجارية و الصناعية و السياحية و الخدمية تصريف أو إلقاء أية مواد أو نفايات أو سوائل غير معالجة من شأنها إحداث تلوث في الشواطئ المصرية أو المياه المتاخمة لها . سواء تم ذلك بطريقة إرادية أو غير إرادية . مباشرة أو غير مباشرة . ويعتبر كل يوم من استمرار التصريف المحظور ، مخالفة منفصلة .

ويوقف التصريف بالطريق الإداري . و يسحب الترخيص الصادر للمنشأة و ذلك دون الإخلال بالعقوبات الواردة بهذا القانون^(٢) . كما تحدد اللائحة التنفيذية المواد الملوثة غير القابلة للتحلل و التي يحظر علي المنشآت الصناعية تصريفها في البيئة المائية .

ولضمان التنفيذ^(٣) اعتبر ممثل الشخص الاعتباري أو المعهود إليه بإدارة المنشأة التي تصرف في البيئة المائية مسئولاً عما يقع من العاملين بالمخالفة لأحكام المادة المذكورة ، و عن توفير وسائل المعالجة طبقاً للمعايير و المواصفات الواردة باللائحة التنفيذية لهذا القانون . وتوقع عليه العقوبات المنصوص عليها في المادة (٨٧) من هذا القانون .

التعليق على تلك الجرائم :

يتميز قانون البيئة بالاعتماد على الأساس العلمي . و تلك السمة غالبية عليه ؛ وأنه يأخذ بنتائج البحوث و الدراسات العلمية المتخصصة . و هنا المجال متسع للاحتساب فقد يعكف باحث علمي للتنبية إلى مواد أو مخلفات لم يعرفها ولم تدرج في الجدول المذكور فيعمل على بيان خطرها وخطورتها تمهيدا لإدراجها في الجدول .

¹ المادة (٦٩) من القانون المصري للبيئة

² (مادة ٧١) من قانون البيئة المصري

³ (مادة ٧٢) من القانون ٤ لسنة ١٩٩٤

وتزيد الحاجة لذلك إذ علمت أن المعلومات عن مخاطر الجرعات المنخفضة من هذه الملوثات محدودة للغاية، خاصة تلك التي يتعرض لها الإنسان لفترات طويلة ٢٠ أو ٣٠ سنة مثلاً مما أدى إلى تعقيد وضع معايير محددة لمعظم الملوثات، سواء في بيئة العمل أو في البيئة العامة خارج المصانع، ولذا فإن معظم المعايير التي وضعتها منظمة الصحة العالمية والدول المتقدمة لبعض الملوثات الرئيسية هي معايير "إرشادية" تعكس معلوماتنا الحالية عن الآثار الصحية المعروفة الناتجة عن التعرض لهذه الملوثات. وتجري مراجعة هذه المعايير كلما توافرت معلومات جديدة عن آثارها الصحية.

والعلوم البيئية من العلوم التي يواكبها الكثير من المستجدات العلمية؛ لذا فإن على المحتسب طلب الأجر من الله في عمله وأن يداوم على طلب العلم حتى تكون ممارسته مبنية على الدليل العلمي الصحيح. قال تعالى (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)^(١) بالإضافة إلى أن العبء البيئي داخل العمل لا يمكن لجهاز واحد أن يتحمله، بل هي مسؤولية مشتركة، ومن هنا يظهر دور الاحتساب؛ فقد لا تكون البيئة هي مجال تخصصك داخل العمل لكن عليك ان تتحمس لحمل عبء الإصحاح البيئي لأنها مسؤولية دينية.

وأخيراً فإن الواجب تجريم الأفعال الضارة بالبيئة على اختلاف صورها، سواء كانت عمد أو إهمال واعتبار المخالفات أيضاً جرائم^(٢) ومن مقتضيات تلك الحماية أن الدولة لا تملك حق العفو أو وقف تنفيذ العقوبة في تلك الجرائم، لا سيما حين يكون الفاعل منشأة صناعية أو تجارية تخص الدولة.

¹ سورة المجادلة الآية ١١

² د/ عادل عبد الرشيد المصدر موقع البيئة الآن باحث يمني - رئيس قسم المعلومات بالبيئة العامة

لحماية البيئة

المطلب الثاني

الإبلاغ عن الجرائم البيئية وإفشاء السر المهني

داخل المنشأة التي يعمل فيها العامل قد تقع جرائم بيئية ؛ ولا يملك الحيلولة دون وقوعها . أو تكون وشيكة الوقوع أو متكررة . فكيف يكون الاحتساب في منعها بعد ان استفذا الشكوى الداخلية ولم تجدى نفعاً؟ وهل لو ابلغ الجهات الخارجية المسئولة يكون قد أفسى سرا مهنيا؟

إن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الثامن بدار السلام الموافق (٢١ - ٢٧ يونيو ١٩٩٣ م). قرر في هذا الموضوع وبما يخص المهن الطيبة ما يلي :

الأصل حظر إفشاء السر . وإفشاؤه بدون مقتضى معتبر موجب للمواخذة شرعاً . ويتأكد واجب حفظ السر على من يعمل في المهن التي يعود الإفشاء فيها على أصل المهنة بالخلل.

لكن تستثنى من وجوب كتمان السر حالات يؤدي فيها كتمانها إلى ضرر يفوق ضرر إفشائه بالنسبة لصاحبه ، أو يكون في إفشائه مصلحة ترجح على مضرة كتمانها .

وهناك حالات يجب فيها إفشاء السر . بناء على قاعدة ارتكاب أهون الضررين لتفويت أشدهما ، وقاعدة تمحيق المصلحة العامة التي تقضي بتحمل الضرر الخاص لدرء الضرر العام .

وهذه الحالات نوعان : (ما فيه درء مفسدة عن المجتمع جلب مصلحة للمجتمع . وما فيه درء مفسدة عن الفرد) وهذه الحالات يجب الالتزام فيها بمقاصد الشريعة وأولوياتها .

وقد قرر المجلس أن الأمور التي يجب فيها الإفشاء أو يجوز . ينبغي أن ينص عليها في نظام مزاوله المهن موضحة ومنصوصاً عليها على سبيل الحصر ، مع تفصيل كيفية الإفشاء ، ولمن يكون ، وتقوم الجهات المسئولة بالتوعية بذلك .

والفقه الإسلامي عند تناوله حكم الستر على مرتكب المنكر . أكد إن كان المنكر بحيث لو سكت عنه تجددت مفسدته ، وانتشر ضرره ، فيلزم عدم ستره . ولا ستر صاحبه ، بل يجب رفعه إلى من يقطع شره وضرره . والستر في هذه الحالة مؤد إلى المفاصد فلا يجوز . ومن أدلة ذلك حديث (المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : مجلس يسفك فيه دم حرام ، أو يستحل فيه فرج حرام ، أو مجلس يستحل فيه مال من غير حله)^(١) .

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن يتبين حكم بعض الوقائع :-

١- إذا قام المهني بعمل يخل بأداب المهنة . واكتشف ذلك زميل له ، هل يقوم بالإبلاغ وإفشاء السر؟

٢- زميل العمل الذي يتعاطى المخدرات أثناء العمل أو يأتي سلوكيات تنم عن إهمال للدرجة يكون معها قيامه بعمله خطر عليه وعلى الناس ، هل يجوز الإفشاء بأمره للمسئولين ؟

٣- أخطأ زميل العمل خطأ مهنيًا جسيمًا ولم يعلم بذلك غيري فهل أقوم بإبلاغ المسئولين ؟

تلك كانت بعض الفتاوى المتعلقة بموضوع إفشاء السر المهني التي عرضتها الموسوعة الفقهية وأجابت عنها بالإيجاب^(٢)

ولو انتقلنا للجانب القانوني لوجدنا الموائيق الدولية والتشريعات الوطنية توجب على الموظف إفشاء السر في بعض الحالات . فمثلا تحرص الموائيق الدولية المتعلقة بمكافحة الجريمة والفساد على إلزام الدول الموقعة عليها على تضمين تشريعاتها الداخلية نصوصا قانونية تلزم الموظفين الإبلاغ عن جرائم الفساد التي يكتشفونها . أو تصل إلى علمهم بحكم قيامهم بواجباتهم الوظيفية ،

¹ سنن أبي داود . الحديث ، رقم ٤٨٧١

² الدكتور / محمد سليمان الأشقر خبير بالموسوعة الفقهية . إفشاء السر في الشريعة الإسلامية . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

وكذلك وضع الضمانات القانونية لحمايةهم من العواقب التي قد تنجم عن الإبلاغ عن جرائم الفساد، وتوفير الحماية من أية معاملة لا مسوغ لها. ولأي شخص يقوم بحسن نية ولأسباب وجيهة، بإبلاغ السلطات المختصة بأية وقائع تتعلق بأفعال مجرمة^(١)

واتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة لعام ٢٠٠٠. تتضمن مجموعة من النصوص المتعلقة بالإبلاغ عن جرائم الفساد وحماية المبلغين والضحايا والشهود مما قد يمارس ضدهم نتيجة هذا الإبلاغ.

ومن أجل توفير حماية فعالة من أي انتقام أو ترهيب محتمل للشهود في الإجراءات الجنائية، في الجرائم المنصوص عليها في هذه الاتفاقية، وكذلك لأقاربهم والأشخاص وثيقي الصلة بهم حسب الاقتضاء. ويجوز أن تشمل تلك التدابير: تغيير أماكن إقامتهم، والسماح عند الاقتضاء بعدم إفشاء المعلومات المتعلقة بهوية أولئك الأشخاص وأماكن وجودهم، أو بفرض قيود على إفشائها. وكذلك نجد المدونة الدولية لقواعد سلوك الموظفين العموميين الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٦. تشير^(٢) إلى وجوب محافظة الموظفين العموميين على ما في حوزتهم من معلومات ذات طبيعة سرية. ما لم يقتضِ التشريع الوطني أو الواجب أو العدالة خلاف ذلك.

ومدونة قواعد سلوك الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين لعام ١٩٧٩ تلزم في المادة الثامنة منها الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين، الذين لديهم ما يحملهم على الاعتقاد بوقوع - أو شك ووقوع - انتهاك لهذه المدونة، إبلاغ الأمر إلى سلطاتهم العليا وكذلك - عند اللزوم - إلى غيرها من السلطات والأجهزة المختصة التي تتمتع بصلاحيات المراجعة أو رفع المظلمة.

^١ المادة (٣٣) من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد لعام ٢٠٠٣

^٢ المادة (١٠) من المدونة الدولية لقواعد سلوك الموظفين العموميين الصادرة عن الجمعية العامة للأمم

المتحدة عام ١٩٩٦

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الإبلاغ عن الجرائم بشكل عام . وعن جرائم الفساد بشكل خاص لا يعد من قبيل الوشاية ، ويخرج عن نطاق الأسرار الوظيفية التي يتعين كتمانها ، بل إن السر الوظيفي ذاته يتعين إفشاءه إذا كان القصد من هذا الحيلولة دون وقوع جريمة . أو كان القانون يوجب القيام بعملية الإفشاء . من هنا ، فإن الإبلاغ عن الجرائم البيئية . يعد واجب قانوني وأخلاقي وشرعي ، عملاً بمحذيث الرسول عليه الصلاة والسلام (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)^(١)

إلا أن النص على حق كل شخص في الإبلاغ عن جرائم البيئة يبقى متوقفاً وغير فاعل ، إذا لم تصاحبه مجموعة من الضمانات من السلطات العامة . حماية للمبلغين من أية أضرار ، إذ قد يعلم الشخص بالجريمة ، ولكنه لا يبلغ عنها خشية مما قد يمارس ضده من أعمال انتقامية أو إجراءات تعسفية^(٢) . وأعطى قانون البيئة هذا الحق للأفراد والجمعيات المعنية بالبيئة فنص على :^(٣) يجوز لكل مواطن أو جمعية معنية بحماية البيئة اللجوء إلى الأجهزة الإدارية والقضائية المختصة ، بغرض تنفيذ أحكام قانون البيئة وما ورد بهذه اللائحة ، وعلى وزارة الداخلية بالتنسيق مع جهاز شئون البيئة إنشاء شرطة متخصصة لحماية البيئة بالوزارة ومديريات الأمن بالمحافظات ، تختص بالعمل على تنفيذ أحكام القوانين والقرارات المتعلقة بحماية البيئة ، وكذا تلقي الشكاوى والبلاغات التي تقدم في هذا الشأن ، واتخاذ الإجراءات القانونية بشأنها^(٤) .

¹ رواه في سنن النسائي . عن أبي سعيد الخدري رقم ٥٠٢٥ باب الإيمان وشرائعه .

² ومن المؤسف أن في إسرائيل قانون مراقب الدولة لعام ١٩٥٨ يمنح بموجب المادة (٤٥) منه "كل مستخدم قام مشغله بالمساس به بسبب تبليغه عن أعمال فساد في مكان عمله ، صلاحية تقديم شكوى بهذا الصدد إلى مراقب الدولة بصفته مندوب شكاوى الجمهور" .

³ مادة ١٠٣ ومادة ٦٥ من اللائحة

⁴ نص بلاغ لشكوى بيئية (انظر الملاحق) .

وتساند هذا النص تشريعات أخرى ومعمول به في قوانين أخرى . مثل غسل الأموال والرشوة والاختلاس . وقانون الممارسات الاحتكارية. وتشجيعاً على الوفاء بالتزام الإبلاغ ، قضى القانون رقم ٣٥ لسنة ٢٠٠٢ بأنه لا يجوز إقامة الدعوى الجنائية ، بتهمة انتهاك سر المهنة ، على أي شخص طبيعي أو معنوي في البيئات أو المؤسسات من هذا القانون ، يكون قد قام بحسن نية بالإبلاغ عن الأموال أو العمليات المشبوهة ، كما لا يجوز إقامة دعوى مسؤولية مدنية ، أو تطبيق جزاءات مهنية ، وتأديبية ، على المؤسسات أو الأشخاص الذين قاموا بحسن نية بتقديم البلاغ المنصوص عليه ، حتى لو ثبت في وقت لاحق أن هذا البلاغ لا يستند إلى أي أساس من الصحة^(١) .

وقد كان تمسك الحكومة بنص المادة ٦٢ مكرر . بشأن إعفاء من يقوم بالإبلاغ عن الممارسة الاحتكارية من العقوبة لأسباب ، أبرزها أن جريمة الاحتكار من الصعب جداً إثباتها وإقامة الدليل عليها . والاتفاقيات الدولية الجديدة تطالب الدول بإضافة هذا النص ، بسبب صعوبة الكشف عن هذه الجرائم وهو الحال بالنسبة للجرائم البيئية^(٢)

لذا نرى وضع نظام خاص للإبلاغ عن جرائم البيئة وحماية المبلغين ، أو ادرج نصوص واضحة حول ذلك في النظام المتعلق بحقوق وواجبات موظفي - ومستخدمي - المنشآت الصناعية.

ويمكن في هذا الصدد الاستعانة بمدونة قواعد السلوك . التي يجب أن يوقع عليها الموظف عند بدء التعيين . وتتضمن ميثاقاً للشرف المهني وتعهدات عن الإبلاغ عن الجرائم عموماً والجرائم البيئية خاصة . وانتهاكات البيئة الوشيكة الوقوع .

^١ المادة رقم ١٤ من القانون رقم ٣٥ لسنة ٢٠٠٢ بشأن مكافحة عمليات غسل الأموال.

^٢ المادتان رقم ٥ و ١٦ من قانون رقم ٣٥ لسنة ٢٠٠٢ بشأن مكافحة غسل الأموال.

وذلك بالنص صراحة على وجوب الإبلاغ عن جرائم الفساد كأحد الواجبات الوظيفية، وتوفير الحماية القانونية للمبلغين. وتحديد الأشخاص الملزمين بهذا الإبلاغ، ومضمون ذلك الإبلاغ. والحالات التي يجب فيها، والجهات المختصة بالإبلاغ. حيث ثبت أن عدم الوعي من جانب المواطنين بالقوانين البيئية وكيفية الإبلاغ عن المخالفات من جهة أخرى⁽¹⁾ ثغرة عادة ما ينفذ منها المخالفون للقانون للاعتداء على حقوقنا البيئية صغيرة كانت أم كبيرة.

أما القول بأن المنكر لا يجوز التثبت منه بالتجسس، أو "لا إنكار في مسائل الخلاف" أو "الوسائل الاجتهادية لا مسوغ لها هنا". فليس في حرمة إفساد البيئة خلاف وهي من المسائل التي يدق النظر فيها، وتطلب من أماراتها الدالة عليها.

والحكمة من منع التجسس أن المعاصي إذ تم سترها لا تضر إلا صاحبها والأمر هنا بخلاف ذلك، بل قول الإمام احمد (ليس لفاسق حرمة) هو الأولي بالأبواب وان يكشف أمر المفسد للمسئول فالإسرار والإعلان في الحسبة مدارهما على المصلحة وهي هنا في الإنكار على المخالف المفسد، مع اعتبار ان المحتسب ليس منتقماً لنفسه، ولا قاصدا إيذاء فاعل المنكر، وإنما غايته حمله على ترك المنكر.

والمحتسب يقوم بواجبه امتثالاً لأمر الشارع، فيجب أن لا تكون له مصلحة شخصية فيما يأمر به أو ينهي عنه وإنما تكون غايته الإصلاح، فإذا خاف على نفسه من المكروه والأذى وغلب على الظن وقوعه، فانه يسقط عنه الوجوب ويتحول إلى الاستحباب، أما ما دون ذلك كالتوبيخ أو الغيبة أو التسفيه فان ذلك لا يسقط الوجوب، فمن خاف مجرد التوبيخ أو السخرية أو الاستهزاء أو العيب فإن ذلك لا يسقط الوجوب عنه، ويؤكد ذلك المعنى الحديث

¹ المستشار محمد عبد العزيز الجندي النائب العام السابق. المعوقات التي تعوق تنفيذ القانون. مقال بجريدة الأخبار، القاهرة، الجمعة ذو القعدة 2001.

القدسي (أن الله عز وجل يقول لعبده : مامنك إذا رأيت المنكر كذا وكذا إلا تنكره ؟ فيقول : يارب خشيت الناس • فيقول الله عز وجل له : إياي كنت أحق أن تخشاه)

المطلب الثالث

الرصد الذاتي وسجل العالة البيئية

المنشآت مطالبة بالاحتفاظ بسجل بيئي . يجب أن يتضمن رسداً للمدخلات والمخرجات والانبعاثات . وفقاً لنصوص القانون ٤ لسنة (١) ١٩٩٤ . ويجب أن يشمل هذا السجل كل المعلومات المطلوبة طبقاً للقانون ٤/٤ ١٩٩٤ . ويعتبر جهاز شؤون البيئة المصري مسئولاً عن مراجعة مصداقية بيانات السجل البيئي .

وتهدف برامج الرصد الذاتي إلى :

- ١- جمع المعلومات الموثقة عن عمليات الإنتاج . والمخلفات والانبعاثات الناتجة عن التشغيل .
- ب- تحليل البيانات بهدف تحسين إجراءات التحكم في العملية الإنتاجية ، أو وضع الضوابط التي تؤدي إلى خفض الفاقد وبالتالي تقليص التأثيرات البيئية الضارة .
- د- التأكد من الالتزام باللوائح القانونية و شروط الترخيص .
- و- التعرف على المصادر الرئيسية للملوثات . ورصد الانبعاثات وطرق تقليلها . ويتضمن نظام الرصد الذاتي القيام بالقياسات الخاصة بعمليات التشغيل والتحكم . و قياس الانبعاثات وتأثيرها على البيئة . بالإضافة إلى إعداد التقارير التي تتضمن كافة نتائج القياس والتحليل وتقديمها إلى الجهات المعنية (٢) .

^١ المادة ١٧ من اللائحة التنفيذية للقانون ٩٤/٤

^٢ جهاز شؤون البيئة . المشروع المصري للحد من التلوث - دليل الرصد الذاتي 1999 EPAP

ويمكن للمنشأة الصناعية أن تقوم بإجراءات الرصد الذاتي بنفسها، أو توكل هذه المهمة إلى جهة استشارية على نفقتها الخاصة. وينبغي تسجيل البيانات الخاصة بإجراءات أخذ العينات والتحليل ثم إبلاغها إلى المسؤولين عن اتخاذ القرار داخل المنشأة أو خارجها.

و يتضمن نظام الرصد الذاتي المتكامل: الرصد الذاتي لعمليات التشغيل التي لها علاقة بالانبعاثات، والصيانة الوقائية، والإيقاف الاضطراري، وترشيد استخدام الطاقة والمياه بهدف خفض النفقات.

الاختلاف بين الرصد الذاتي والتفتيش:

١- تتولى المنشأة الصناعية إجراءات الرصد الذاتي بنفسها (أو عن طريق مكاتب استشارية متخصصة)، بهدف زيادة الأرباح، بينما تتولى هيئات رسمية القيام بأعمال التفتيش بهدف التأكد من صحة البيانات الواردة في السجل البيئي للمنشأة.

٢- تتم إجراءات التفتيش على فترات متباعدة بينما يمكن تطويع مواعيد إجراءات الرصد الذاتي (الداخلي) لتحقيق أهداف التطوير المطلوبة، بل يمكن أن تصبح إجراءات الرصد الذاتي عملية مستمرة.

وتقرير الرصد الذاتي هو بمثابة عرض منظم لنتائج إجراءات الرصد لفترة زمنية محددة، ويتم سنويا ليتضمن كافة بيانات العام المنصرم، أما في حالات مصادر التلوث الشديد فيتم إعداد تقارير الرصد الذاتي عنها على فترات زمنية أقصر. ويتضمن التقرير بيانات عن حالة التشغيل والمعدات ومواقع نقاط الرصد.

وتستخدم بيانات الرصد لأغراض البحوث والتخطيط على المستوى القومي والأغراض الإحصائية، وعمليات التقييم بواسطة الهيئات القومية ووسائل الإعلام.

وينبغي قبل الشروع فى إجراءات الرصد^(١) تحديد مواقع أخذ العينات و القياسات ، و الجداول الزمنية الخاصة بتنفيذ خطة الرصد الذاتى. والإلمام بعمليات التشغيل ، ومعرفة مصادر التلوث المحتملة. ووضع ملخص إحصائى للانبعاثات الغازية من كل مدخنة (مقارنة بالحدود القانونية) ، وعمليات المعالجة للانبعاثات الغازية ، والجداول الزمنى لأخذ العينات ، وبيروتوكولات التحاليل.

وإذا وضعنا الضرورة القانونية للرصد الذاتى جانبا ، فقد ظهرت ضرورته كأداة للمصنع لإدارة الملوثات الصادرة عنه ، وكذلك للتحكم فى وطاتها البيئية وتحسين أدائه البيئى. كما يساعد الرصد الذاتى على القيام بالإجراءات التصحيحية عندما يحدث عدم الالتزام وتحديد النزعات Trends فى أداء المصنع ، وكذلك وضع وسائل التحذير المناسبة.

وإن كان هدف الرصد الذاتى هو إنتاج بيانات يمكن استخدامها فى المقارنة ، فإن ذلك يعتمد على الإجراءات التى يتم تطبيقها فى سلسلة إنتاج البيانات ، أى خلال أخذ العينات والمعالجة الأولية لها ، ثم معالجة العينات وتحليلها ، ثم استخراج البيانات وكتابة التقارير ؛ للوصول إلى بيانات موثوق بها للانبعاثات. حيث تحتوى النتائج التى يتم الحصول عليها من أى قياس على قدر معين من عدم اليقين ، ومن المهم تقدير قيمة عدم اليقين وأخذها فى الحسبان عند استخدام النتائج فى إدارة العمليات أو فى أغراض الرصد. وتلزم عملية الرصد المعايير والصيانة لأجهزة القياس والتوثيق الجيد للإجراءات.

ويالنظر فى عمليات الرصد الذاتى نجد أن جزء منها يقوم بها عاملون فى المستوى الوظيفى الأدنى ولا يدركون كيف تؤثر عملية اخذ العينات أو القياسات اليومية على خطة الرصد البيئى.

¹ جهاز شئون البيئة ، المشروع المصرى للحد من التلوث - دليل الرصد الذاتى 1999 EPAP

وبالنظر أيضا لكثير من عمليات الرصد الذاتي نجد أنها تتطلب كثير من الأمانة والاحتساب وعدم التحيز لإخفاء العيوب . ومراعاة الضمير المهني ؛ لأن بعض من القياسات قد تكون روتينية عند البعض فيكررون البيانات السابقة . لأن الرصد الذاتي عادة ما تقوم به لجنة داخل الشركة فتضعف الرقابة و يقل الاهتمام . كما تلعب شخصية المراجع الداخلى ومدى تحليه بالخلق والأمانة دورا فى نتائج الرصد .

المبحث الثالث

دور النقابات المهنية والعمالية فى حماية البيئة

تمهيد

ترجع الروايات التاريخية بداية التنظيم الحرفي إلى الطوائف الحرفية . والطوائف منظمات تقوم علي أساس المهنة أو الحرفة . وتجمع كل من يعمل في هذه الحرفة أو المهنة . بحيث صار لكل حرفة رئيس أو شيخ منتخب يعرف باسم الأمين أو العريف . وكان الأمين أو العريف مسئولاً ومدافعا عن طائفته أمام المحتسب . ويبلغ المحتسب بتكاليف السلعة التي تضعها طائفته لتحديد ثمنها . وكان رأيه مقبولا لدى المحتسب . وقد نقلت لنا كتب الحسبة ضرورة وجود عريف لكل صنعة . وقد عبر (الشيذري) عن ذلك خير تعبير بقوله : (ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوق تحت وسع المحتسب جازله أن يجعل لأهل كل صنعه عريفاً من صالح أهلها خبيراً بصناعتهم بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم مشهورا بالثقة والأمانة يكون مشرفاً علي أحوالهم ويظالعه بأخبارهم وما يجلب إلي سوقهم من السلع والبضائع . وما تستقر عليه الأسعار . وغير ذلك من الأسباب التي تلزم المحتسب معرفتها)^(١)

^١ الشيذري . نهاية الرتبة ، ص ١٢ . تحقيق السيد الباز العرنى . الناشر دار الثقافة . بيروت ١٩٩٣

وازدهر نظام الطوائف الحرفية ، حتى كان له من القوة والامتيازات ما يدافع به عن أعضائه تحت إشراف المحتسب ورقابته وكان شيخ الحرفة حلقة الاتصال بين أهل الحرفة والمحتسب ، ولعب شيخ الحرفة دور الضبط الاجتماعي مع المحتسب في الأسواق . وبينما لم يستطع نظام الحسبة أن يؤدي رسالته كاملة ظلت الطوائف الحرفية تحمي نفسها بنفسها^(١)

ومن الأسباب التي أدت إلى القضاء على الطوائف الحرفية التطور الصناعي ، وإساءة المعلمين والشيوخ استعمال سلطتهم تجاه الحرفيين وكانت النهاية الرسمية بصدور القانون العثماني في ٢٧ نيسان ١٩١٢ برقم ٨ ، في محاولة لإعادة تنظيم المنظمات الحرفية علي أسس جديدة ، فألغيت وظيفة شيخ الحرفة وأوجد لكل مهنة جمعية عمومية ومجلس إدارة ، إلا أن قوة التقاليد جعلت رئيس تلك الجمعيات يتصرف بطريقة شيخ الحرفة ، ويستمد سلطاته لا من القانون بل من الأعراف في المهنة ، وشبه نظام الطوائف الحرفية السابق عرضة بنظام نقابات الصناع واتحادات العمال في أوروبا ، لكنها في الواقع كانت تختلف عنها لأنها لم تشارك في إدارة المصالح العامة في المدينة أو الضبط الاجتماعي ، كما كانت الطوائف الحرفية تفعل بل اقتصر دورها على التحكيم في المشكلات المهنية.

كما أن الطوائف الحرفية لم تعرف الانقسام الذي ظهر في أوروبا بين أصحاب العمل والعمال ، والذي انتهى بنشأة جماعات لأصحاب العمل وجماعات للعمال ، وما زال موضوع التشابه محل نقاش بين المؤرخين^(٢)

ويستمد العمل النقابي بصفته الحالية مشروعيته من الدستور نفسه ؛ إذ تنص المادة ٥٦ منه علي أن إنشاء النقابات والاتحادات حق يكفله القانون .

^١ موسى نصار. التنظير والتطبيق ، مرجع سابق (الحسبة ونظام الطوائف الحرفية في العهد العثماني ،

ص ٤١٠

^٢ المؤرخ العمالي أمين عز الدين. تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى ١٩١٩ دار الكاتب

العربي للطباعة والنشر ، ص ٦٨ - ٦٩

والقانون المنظم للنقابات العمالية حالياً هو رقم ٣٥ لسنة ١٩٧٦ المعدل بقانون ١ لسنة ١٩٨١ والمعدل بالقانون ١٢ لسنة ١٩٩٥^(١)

وما يهمننا في نص هذا القانون هو ما يتعلق بموضوع حماية البيئة . وهو نص المادة (١٤) التي تؤكد علي أن النقابة العامة تتولي الدفاع عن حقوق العمال . والعمل علي تحسين شروط وظروف العمل وإبداء الرأي في التشريعات التي تمس المهنة أو الصناعة .

فالعمل علي تحسين شروط العمل وظروفه يقتضي من العمل النقابي الاهتمام الدائم بقضايا البيئة داخل المنشأة الصناعية واليقظة . والاحتساب لكل ما يتعرض له العاملون من أخطار وملوثات .

وعادة ما تشكل اللجنة النقابية ألي لجان . وتكون منها لجنة للبيئة والأمن الصناعي يستطيع عضو النقابة الواعي لدوره الحريص علي بيئته الداخلية والخارجية أن يعمل من خلالها علي إزالة كل المخالفات البيئية والعمل علي تفادي وقوع كوارث بيئية مستقبلية . وبذلك يكون قد أعطي دورا هاما لمنع التلوث من المنبع . لأن الانبعاثات والملوثات داخل المنشأة تنعكس علي البيئة العامة خارجيا . والنقابات الحقيقية للعمال لا تنفصل عن قضايا وطنها ؛ فالعمال ونقاباتهم دائماً في مقدمة الصفوف وطلانح الشعب المصري . فهم الشركاء الاجتماعيين للدفاع عن مصالح أعضائها الذين هم في الوقت ذاته أبناء المجتمع . مما يحتم لعب دور سياسي بما في ذلك السياسات البيئية .

لكن هناك جدلاً حول اشتغال النقابات بالسياسة . فيرى بعض الباحثين أن دور النقابة ينبغي أن ينحصر في تحسين شروط وظروف العمل (تفرغ الدولة

^١ وحرصت الموائيق الدولية علي أقرار هذا الحق بالمادة ٨ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان نصت علي أن لكل شخص الحق في أن ينشئ - وينضم - الي نقابات حماية نصلحته . وكذلك المادة ٨ من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية . وحق النقابات في العمل بحرية دون قيود القانونية وانظر أيضاً إعلان التقدم والتنمية الصادر ١٩٦٩

للسياسة وتفرض العمال لزيادة الانتاج). ورأى يتخطى ذلك ، ويجعل لها دورا سياسيا ، لأنها المدرسة الأولى للديمقراطية والعمل السياسى . ويؤيد الأستاذ جمال البنا اشتغال النقابات بالسياسة ، فيقول (إن النقابات - أصلاً هيئات مهنية تعنى أولاً بالقضايا المهنية وعلاقات العمل الخ ، بما يتطلبه من رعاية آداب المهنة وواجباتها) ، إلا أن النقابات لا تعمل في خواء ، ولا تعيش في جزيرة منعزلة عن مجتمعا إنها شريحة من هذا المجتمع ، ولا تغير صفتها المهنية هذه الحقيقة ، لكنها تجعلها تقيم نوعا من التوازن ما بين واجبه المهني نحو أعضائها وضرورة العمل لحفظ حقوقهم ورعاية مصالحهم و دورها القومي نحو المجتمع الكبير الذي تعيش فيه وتتأثر به .

وقد أثبتت التجارب وواقع النقابات في المجتمعات الحديثة أن فكرة انعزال النقابة عن مجتمعا ، وانغلاقها على نفسها غير ممكن ، كما أنه غير مطلوب فللنقابات دور قومي عليها أن تؤديه^(١)

ولا شك في أن أحقية النقابة في العمل السياسى وحدود ذلك الدور مرتبط بمسألة اعتبار النقابة من أشخاص القانون العام أو الخاص . وقد ذهبت المحكمة الدستورية العليا في حكمها الصادر بجلسة ١٥ - ٤ - ١٩٩٥ فى الدعوى رقم ٦ لسنة ١٥ دستوري إلى أن النقابات المهنية من أشخاص القانون العام ، لكن نقابات العمال تختلف عن النقابات المهنية من عدة وجوه ؛ فالنقابات العمالية تنشأ بإرادة تكوينها وان كان ينظمها قانون لكن اشتراك الأعضاء فى النقابة المهنية حتمي و لهؤلاء الأعضاء (أطباء صيادلة مهندسين محامين معلمين) دون سواهم حق احتكار المهنة . بينما تقوم المنظمات النقابية العمالية على مبدأ حرية الانضمام ، لذا يرى البعض ان النقابات العمالية من أشخاص القانون الخاص . لأن غايتها حماية الحقوق المشروعة لأعضائها .

¹ جمال البنا . النقابات المهنية المصرية . حركة البقاء ، ص ١١ ، ١٠ ، ٩

ويغض النظر عن هذه التفرقة فإن العمل النقابي يعتمد علي التفاوض الجماعي ؛ إذ التفاوض هو الصيغة العقلانية والرشيده لفض أي نزاع . لكنه مسألة تقتضى توافر عناصر موضوعية . حتى يتمكن الطرفان من الوصول الي حلول ممكنة . تلك الشروط ^(١) هي :-

- ١- أن يكون لطرفي التفاوض نفس القوة (النقابة والسلطة) فإن كان الأمر عكس ذلك يصير التفاوض ذا طابع إلزامي أو إجباري ويفقد معناه.
- ٢- أن يكون الإطار التشريعي الذي يحدد كيفية ممارسة الحق النقابي من القوة بما يعطي لعملية التفاوض الجماعي التوازن المطلوب.
- ٣- الثقافة الاجتماعية المكتسبة لدي العاملون تجاه العمل النقابي . تدعم قوتهم وتكسبهم المهارة الفنية في عملية التفاوض.
- ٤- تغيرات الحالة الاقتصادية أو استقرارها عامل مهم في توازن هذا التفاوض ؛ فكلما تمتع الاقتصاد القائم بالصحة كلما كان جانب النقابة اقوي.
- ٥- انضباط أعضاء النقابة . واحترامهم تعليمات نقاباتهم يعطي مصداقية لعملية التفاوض والانضباط معيار لقياس مستوى العمل النقابي ومدى ارتباط العمال بنقاباتهم.
- ٦- ترشيد المطالب العمالية بما يسمح به صحة الاقتصاد الوطني.
- ٧- كفاءة أعضاء النقابة ومهاراتهم الفنية في إحداث وإثراء هذا التفاوض . وتحكم في ذلك الانتخابات النقابية . ونزاهتها ومدى تمثيلها الصحيح للعاملين . وذلك الأمر بحاجة لوعي مجتمعي لاختيار عناصر جيدة .

ومن أهم القضايا التي ناضل العمال من أجلها تحسين الأجور . وتحديد ساعات العمل . والاستقرار الوظيفي والتأمين والضمان الاجتماعي . وقد حان الوقت لكي يكون الحفاظ علي سلامة بيئة العمل من ضمن أولويات العمل النقابي فذلك هو الضمان الاجتماعي الحقيقي وكون العامل يعيش في بيئة عمل

^١ أمين عز الدين . مرجع سابق

سليمة غير مؤثرة علي صحته ؛ وتقل فيها المخاطر التي يتعرض لها ويسودها التفاعل الاجتماعي الصحيح . هذا مما يستحق أن يناضل العمال من أجله .

ويتعاطم دور المنظمات النقابية في حماية البيئة أيضا ؛ لكونها تتضمن مؤسسات تابعة للاتحاد العام للنقابات . تختص بالشقيف العمالي . وتدريب الكوادر . والارتقاء بمستواهم الثقافي والفكري والعلمي . مثل (مؤسسة الثقافة العمالية) . ولاشك أن مثل هذه المؤسسات يمكن من خلالها أنهاء الحس البيئي والاهتمام بقضايا البيئة . وغرس ثقافة المحافظة عليها .

وقد تباينت الآراء في تلك المنظمات النقابية ؛ فهناك من يصفها بأنها إحدى مؤسسات المجتمع المدني^(١) . وهناك من يفضل وصفها بجماعات المصالح والتي تعنى : (تجمعات من الأفراد تنشأ على أساس تطوعي أو اختياري . و تهدف إلى تحقيق مصالح أعضائها ، وتستهدف التأثير في العملية السياسية ، ويمثل الدور الأساسي الذي تقوم به هذه الجماعات في كونها وسيطا بين النخبة السياسية الحاكمة والمواطن ، كما أنها تعبير عن جانب من القوى الاجتماعية ، والاقتصادية في المجتمع سواء من حيث وزنها أو مطالبها)^(٢)

وتصنف المنظمة النقابية ضمن الجماعات الضاغطة . التي تمثل القوة الشرعية في ممارسة وظائف منظمة وتهدف إلى الوصول إلى حالة من السلم الاجتماعي . والمساواة والعدالة الاجتماعية والاستقرار داخل المجتمعات^(٣) وقد تعددت الدراسات حول هذا النوع من المنظمات بسبب أهميته العلمية في إحداث حراك اجتماعي داخلي والقوة الذاتية التي يؤثر بها على مختلف الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية^(٤)

¹ مقال للمستشار شريف كامل - جريدة الأهرام ١١/٩/١٩٩٦

² د/ أماني قنديل الدور السياسي لجماعات المصالح في مصر - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، ص ٩

³ عبد الله حنفي - دور النقابات في الحياة الدستورية ، ص من ٨٨ ، ١٠١

⁴ د/ أماني قنديل - النقابات المهنية - المكتب العربي للمعارف ١٩٩٥ ، ص ٣ ، ٤ ، ٥

ويُذكر أن الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل الذي تكون في جنيف عام ١٩٨١، وضم عدداً من النقابات في السودان والأردن والمغرب وباكستان وبنجلاديش. وضع نظيراً إسلامياً للحركة النقابية يختلف عن تنظيمها في المجتمع الرأسمالي وتنظيمها في المجتمع الاشتراكي، ويرهن على تقبل المجتمع الإسلامي للنقابات.

وقد قام الاتحاد بنشاط كبير، لكنه قوبل بمعارضة من كثير من الاتحادات العمالية التي ربطت مصيرها بالنظم الحاكمة، وما يفرضه ذلك عليها من إتباع لهذه النظم وعدم الخروج عليها، كما أن الاتحادات العمالية ذات الاتجاهات اليسارية ضاقت به أيضاً..

وتضمنت الكتب التي أصدرها الاتحاد كتاباً عن الحرية النقابية من ثلاثة أجزاء وكتاباً عن أزمة النقابية في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي... إلخ. ونأمل أن تجد هذه الأفكار مستقراً في عقول أعضاء النقابات.

المبحث الرابع تحسين بيئة العمل وأخلاقيات المهنة

المطلب الاول

تحسين بيئة العمل

تعتبر فكرة تحسين بيئة العمل بمثابة العامل المساعد لتوجيه الشركات والمؤسسات للتركيز على بعض العناصر المهمة، وأخذ التدابير اللازمة لتحسين ظروف العمل ضماناً لثبات العمالة الوطنية بعد تدريبها، وإكسابها المهارات المختلفة. وعدم تسربها، وضمان أداء متميز يدعم عامل الانتماء وأخلاقيات مبنية على قيم ومنهجيات تتجهها تلك الشركات من خلال بيئة عمل صحيحة، لا تتأثر بقوة المنافسة وتغيرات الظروف الاقتصادية المختلفة. كما أن بيئة العمل

الصحية تورث حب العامل لشركته . وتزيد من ولائه وإخلاصه في العطاء وبالتالي لا يكون الأجر أو الراتب الشهري العامل الأساسي في استمرار العامل لدى تلك الشركات بل تدخل عوامل أخرى غفلت عنها تلك الشركات على الرغم من أنها عوامل أساسية.

ومن أجل خلق بيئة تنافسية بين الشركات لتحسين بيئة العمل ، أنتشر مؤخراً مؤسسات تحمل أسم (أفضل بيئة عمل)^(١) وهي تقوم بعملية تقييم علمية لبيئة العمل في مناطق كثيرة لكن للأسف لا تشمل منطقتنا العربية . وعلى نفس الطريق تتبنى جريدة الاقتصادية السعودية عملية تقييم علمية لبيئة العمل في السعودية . من خلال تعاونها مع أحد دور الاستشارات الإدارية للقيام باستبيان لموظفي الشركات الراغبة في الدخول في المنافسة من أجل الحصول على نتائج التقييم.

من خلال استبيان طورَ خصيصاً لهذا الغرض ، بحيث يشمل عديداً من المعايير التي روعى فيها الرضا الوظيفي . بالإضافة إلى تقييم ممارسات إدارة الموارد البشرية لدى كل منشأة.^(٢) وفكرة المشروع رائدة ويتم تنفيذها لأول مرة على مستوى الشرق الأوسط. ولا شك أننا بحاجة لمثل هذه الأجواء المهنية الصحيحة لخلق بيئة عمل أفضل .

فثقافة المنظمة لها تأثير قوى على حماية البيئة . لأن المنظمات كالأمم لها ثقافتها المميزة ولها تأثير قوى على الانتماء التنظيمي . وتوفر الثقافة التنظيمية القوية للعاملين طريقة واضحة لفهم طريقة القيام بالأشياء . ووضوح للمعايير التي ترشد وتوجه السلوك داخل المنظمة .

والثقافة التي يعتنقها الأفراد في المنظمات ونظام القيم السائدة لهما تأثير قوى ومباشراً على سلوكهم وأدائهم لأعمالهم . وتعكس هذه القيم والمعتقدات

¹ http://www.bestsaudiocompany.com/ar/home_ar.aspx

² مجلة "الاقتصادية" الرياض - بتاريخ ١٨/٠٦/١٤٢٨ هـ

درجة التماسك والتكامل بين أعضاء المنظمة كأنها نظام رقابة داخلي يدق الأجراس عندما يخرج السلوك عن الحدود التي رسمت لهم . ويحدد لهم القواعد الملزمة . ومن المقولات الشهيرة لأحد رجال الأعمال⁽¹⁾ إن من يدير شركتك فعلاً هم جميع من يعملون معك . شخص واحد قادر على أن يعيق سياسة الشركة البيئية . فيستطيع بكبسة زر أن يفتح صمام أتوماتيكيا فيصب أطنان من الملوثات . وليس هناك منظمة أو منشأة بغير ثقافة خاصة بها وإلا كانت منظمة فوضوية وتلك الثقافة التنظيمية هي التي تميز منظمة عن غيرها . والعمل على تحويل تلك الثقافة الي قوة دافعة لتحقيق أهداف المنظمة هو هدف الإدارة دائما . وليس غير الاحتساب وثقافة الحسبة من سبيل لتحقيق ذلك ؛ فتعزيز السلوك الإنساني بالرقابة الداخلية الذاتية قبل الرقابة الخارجية هو الأساس في تحويل ثقافة المنظمة . لأن الحسبة قوة فاعلة يمكن ان تستغل في هذا التغير .

المطلب الثاني

أخلاقيات المهنة والأجر والاحتساب في مجال العمل (مدونة السلوك الوظيفي و أخلاقيات العمل)

بهدف جعل المؤسسة أو المصنع بيئة آمنة ، ومرحبة وصادقة للبيئة ، وحرصاً على نجاح عملية دمج الموظفين الجدد . وتفعيل آليات الإدارة البيئية . وتطوير الثقافات والممارسات الداعمة لمشاركة العاملين في حماية البيئة . يتطلب ذلك أن يلتزم العاملون في المؤسسة بمجموعة من المبادئ والسلوكيات في أثناء التعامل بشكل عام . وقد جمعت هذه المبادئ في ما يعرف بـ (مدونة السلوك) أو (مدونة السلوك الوظيفي و أخلاقيات العمل) . وأصدرت كثير من الهيئات مدونات سلوك خاصة بها . استناداً إلى

¹ تلخيص كتاب Copy This لصاحب سلسلة محلات كينكوز الفصل الثالث . كن مديراً على بيئة العمل لا الناس موقع www.Shabayek.com

المبادئ الادارية الحديثة . و كثرت الدعوات من قبل المختصين في الإدارة في الدول الغربية إلى استخدام القيم والعادات التي تحث على الالتزام ، وهو فيما يطلق عليه أسلوب استخدام القيم في التحكم في السلوك الإنساني. وتدخل في ذلك موثيق العمل وأخلاقيات المهنة⁽¹⁾

وليست (مدونة السلوك) بديلاً عن التعليمات والقوانين و المنظمة للعمل في المنشأة . وإنما هي مكملة لها. بل هي وثيقة أخلاقية طوعية لا إلزامية إلا لمن يوقع عليها بشكل طوعي.

وقد يلزم أعضاء مهنة معينة أنفسهم بمجموعة من المبادئ والقواعد السلوكية التي تحكم عملهم. تزيد على المتطلبات النظامية التي تفرضها الدولة. وتضفي عليها بعداً آخر أخلاقياً هو ما باسم قواعد سلوك المهنة و آدابها . وهذه تهدف إلي رفع مستوى المهنة. وتحسين أداء أعضائها. واكتساب ثقة المجتمع . وهي مفيدة أيضاً فى اختيار الموظفين. وبرنامج التطوير الوظيفي و الآمال الآن معلقة على الانطلاق من مدونة السلوك إلى إعادة تشكيل الحياة العامة بأكملها.

وتتضمن المدونات السلوكيات الواجب إتباعها مع الزملاء. ومع الرؤساء. ومع ظروف العمل. وتحدد التصرفات و السلوك المتوقع من الموظفين بالمؤسسة . والسلوك غير المقبول الذي لا يتوافق مع قيمها. من خلال توعية الموظفين بأطر الانضباط الذاتي⁽²⁾ التي تحكم سير العمل في المنشأة بما يتفق مع القوانين والأنظمة السارية ، و من خلال بيان واجباتهم ومسئولياتهم الوظيفية. ودورهم في تحسين بيئة العمل.

فما قد يرد من أحكام عامة مجملاً في القوانين - مثل موضوع النزاهة والأمانة - تضع له قواعد سلوك المهنة وآدابها أحكاماً تفصيلية. وتتضمن أحكاماً أخرى لا تتطرق إليها القوانين عادة. مثل الاحتساب. والعمل قربة إلى الله.

¹ مدونة لقواعد سلوك الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين . مجموعة خبراء الناشر المركز العربى لاستقلال القضاء والمحاماة .

² مدونة لقواعد سلوك الموظفين . المرجع السابق.

وطلب الأجر منه سبحانه • وأخلاقيات العمل التي تنبثق من اعتباره قريبي إلى الله هي الكفيلة بتجويد العمل. ولا يعنى ذلك أن نخرج من دوافع العمل عناصر الربح الخاص أو إشباع الميول الشخصية فهي دوافع أيضاً ولكنها ثانوية في حس المسلم. ولورسّخ هذا في ثقافة المؤسسة لما كان هناك فرق بين التقرب إلى الله بالعمل، والتقرب إليه بمختلف شعائر العبادة من صلاة أو صيام.

فاعتبار العمل قريبي إلى الله إنما يبعد عنه عناصر الشر والدنس. والاستغلال والتلفيق. والكذب. والمنافسة غير الشريفة. كما أنه يخضع دوافع الربح والكسب والطموح للحدود التي وضعها الإسلام. بحيث تؤتي خيرها وتبعد شرها.

وهذه المبادئ والقيم الأخلاقية التي تتضمنها قواعد سلوك المهنة وآدابها ليست ابتكاراً جديداً. بل تمثل قيماً إسلامية أصيلة. مصدرها القرآن والسنة فمبادئ الشهادة الصادقة. واجتناب شهادة الزور. وعدم كتمان الحق. والاستقامة والصدق. والأمانة والتمسك بالحق والعدل. والتحكم في الأهواء. وعدم الخيانة. والإخلاص في أداء العمل من مكارم الأخلاق التي حث عليها الإسلام

بعد الاطلاع على مدونة السلوك الوظيفي وأخلاقيات العمل في الخدمة العامة⁽¹⁾ بالسعودية. ومدونة قواعد سلوك الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين⁽²⁾ التي اعتمدت ونُشرت علي الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٦٩/٣٤ المؤرخ في السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩. وكذا مدونة قواعد السلوك القضائي الأردني. ورصد أهم القيم التي علي العاملين داخل المنشأة الصناعية التحلي بها ويكون من شأنها تعزيز بيئة العمل وحمايتها. نجمل القول في صياغة لمدونة سلوك على النحو الآتي :

- أتعهد بتطبيق القوانين والتعليمات المتعلقة بالعمل وعدم مخالفتها

¹ د/ فؤاد عبد الله العمر. المعهد العالي للبحوث والتدريب. مطبوعات جامعة الملك فهد. جدة.

² مدونة لقواعد سلوك الموظفين لإنفاذ القوانين. مرجع سابق.

- أتعهد بالمساهمة في تطوير أساليب العمل الموكل إلي، وتقديم اقتراحات لرفع مستواه
- أتعهد بإبلاغ رؤسائي عن أي تجاوز أو إهمال أو تلاعب أو إجراء يضر بمصلحة
- أتعهد بالتعامل مع رؤسائي باحترام، وألا أحاول كسب أية مزايا عبر أساليب التملق أو الخداع، أو من خلال الوساطة والمحسوبية.
- أتعهد بعدم إخفاء معلومات متعلقة بالعمل بهدف التأثير على القرارات المتخذة، أو إعاقة سير العمل .
- أتعهد بالإبلاغ عن حالات الشروع في عمل قد يضر بمصلحة البيئة، أو يخالف القوانين والتعليمات، عن طريق إرسال شكوى إلى صندوق الاقتراحات أو إعلام رئيس المنشأة مباشرة، أو مدير السلامة والصحة المهنية، أو مدير إدارة البيئة.
- أتعهد بالتعاون مع زملائي، ومشاركتهم آراءهم بمهنية وموضوعية عالية، وتقديم المساعدة لهم حيثما أمكن لحل المشكلات التي تواجههم في مجال العمل، والحرص على نشر الاتجاهات الإيجابية بين الزملاءو للمساعدة في الارتقاء بأداء العمل، وتحسين بيئة وتعميق الثقافة المؤسسية السليمة في المنشأة.
- أتعهد بأن أتعامل مع المرءوسين ومساءلتهم، وتقييم أدائهم بموضوعية وتجرد، والسعي لتوفير فرص التدريب والتطوير لهم، ونقل المعرفة والخبرات التي اكتسبتها إليهم، وتشجيعهم على زيادة تبادل المعلومات، ونقل المعرفة، فيما بينهم، وتحفيزهم على تحسين أدائهم، وأن أكون قدوة حسنة لهم.
- أما عن آلية تطبيق هذه المدونة فعلى كل موظف جديد، قبل مباشرته العمل توقيع وثيقة يتعهد فيها بالالتزام بهذه المدونة ، وتحفظ نسخة من هذا التعهد في ملفه الوظيفي. وأية مخالفة لأحكام هذه المدونة تستوجب المساءلة التأديبية على الموظف.

المبحث الخامس الحسبة الرسمية والتفتيش البيئي

لا أظن أن ينقلب التفتيش البيئي بأجهزته وإدارته المعنية الى (حسبة رسمية) لمجرد اختيارنا للعنوان بل يتطلب الأمر من كل غيور علي الإسلام أن يفرس في نفوس القائمين علي هذا التفتيش بأنه من صميم الاحتساب . وأن عملهم داخل في اختصاصات المحتسب ونظام الحسبة.

وها هي الاتفاقات الدولية والتشريعات الوطنية تنبه إلي أهمية دور القائمين علي عملية إنفاذ القوانين عموماً وتضع لهم شروط و ضوابط لأخلاقيات المهنة في (مدونة لقواعد سلوك الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين)^(١) (وفى مادتها الأولى) أن على الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين، أن يؤديوا الواجب الذي يلقيه القانون على عواقبهم، بخدمة المجتمع وحماية الأشخاص من الأعمال غير القانونية، على نحو يتفق رفعة درجة المسؤولية التي تتطلبها مهنتهم.

وتدعو المنظمات الدولية إلى تحسين استعمال السلطة الرقابية . فمجموعة العمل المعنية بالرقابة البيئية، التابعة لمنظمة (إنتوساي) تهدف إلى مساعدة الدول الأعضاء في المجموعة على تحسين استعمال السلطة الرقابية والأدوات الرقابية في ميدان السياسات الرامية إلى حماية البيئة. ويتركز اهتمامها في الرقابة والمراجعة المشتركة للسياسات والقضايا البيئية التي تقوم بها الأجهزة العليا ومراقبة ومراجعة الاتفاقيات البيئية الدولية.^(٢)

^١ اعتمدت ونشرت علي الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٦٩/٣٤ المؤرخ في ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩

^٢ وهي المنظمة المهنية التي تجمع الأجهزة العليا للرقابة والمحاسبة في الدول الأعضاء في الأمم المتحدة أو وكالاتها المتخصصة. وقد أنشئت إنتوساي سنة ١٩٥٣ وتضم سبع منظمات إقليمية للأجهزة العليا للرقابة والمحاسبة من ضمنها في الدول العربية (أرابوساي)

وكذلك قانون العمل . تحت عنوان (تفتيش العمل والضبطية القضائية) .
يعرض في (المادة ٢٣٢) أن للعاملين علي تنفيذ أحكام هذا القانون لهم صفة
مأمور الضبط القضائي وعلى أن يحلف كل منهم قبل مباشرة عمله يمينا أمام
الوزير المختص بأن يقوم بأداء عمله بالأمانة والإخلاص .

هذا لإن المشرع أدرك العبء الملقى على كواهلهم من دخول المنشآت
وآخذ العينات اللازمة وإجراء الاختيارات المناسبة للتحقق من الالتزام بالمعايير
الموضوعة لحماية البيئة . وفي كل ذلك لا رقيب عليهم سوى ضمائرهم وحسن
الاحتساب وطلب الأجر من الله . وهو ما عبر عنه المشرع بالأمانة والإخلاص .
ولاشك في أن زيادة كفاءة التفتيش البيئي تزداد بزيادة كفاءة كل فرد
من فريق التفتيش في أداء مسؤولياته واحترام المهام الموكلة له . عن إيمان بأهمية
الحفاظ علي البيئة والاحتساب في ذلك . وتؤكد هذا المعني الاتفاقية العربية رقم
(١٩) لعام ١٩٩٨ بشأن تفتيش العمل^(١)

ومما يزيد العبء على كواهل مأموري الضبط القضائي العاملين بجهاز
شئون البيئة والفروع الإقليمية للجهاز . القرار الذي أصدره وزير العدل
بتحويلهم تحصيل مبالغ التصالح في جرائم القانون ٤/١٩٩٤ والمعاقب عليها
بغرامة فقط .

و يعد التفتيش البيئي أحد الأذرع الأساسية لجهاز شئون البيئة . وهذا يتطلب
من القائمين عليه الأمانة والإخلاص . أو بتعبير أدق الاحتساب في قيامهم بمهامهم ؛
فالتفتيش فن لا يقدر عليه إلا من كان من أهل الاحتساب لا مجرد تصيد للأخطاء .
وهذا ما تؤكد وزارة البيئة إذ تؤكد أن سياستها تمزج بين عدد من الآليات المتكاملة
التي تجمع بين مفاهيم الالتزام الجبري والالتزام الطوعي ومعاونة المنشأة علي توفيق

^١ الاتفاقية العربية رقم ١٩ لعام ١٩٩٨ بشأن تفتيش العمل . المنبثقة عن مؤتمر العمل العربي المنعقد في
دورته ٢٥ بمدينة الأقصر ٩ مارس ١٩٩٨ .

أوضاعها والتصالح، وفي المعنى نفسه يذكر (دليل قائد فريق التفتيش)^(١) أنه يجب في المرحلة الأولى من الزيارة عدم توجيه أسئلة مباشرة عن الملوثات والاكتفاء بملاحظة الحوارات عن سير العملية الإنتاجية، وهناك مهارات فردية لازمة لكل عضو كمهارة الاتصال الفعال مع الآخرين، والقدرة على البحث والتقصي والاستدلال، وجمع الأدلة والقرائن من خلال أساليب مميزة في سؤال الأفراد والإلمام بالتشريعات البيئية.

ويذكرنا هذا بالشروط التي اشترطها الفقهاء فيمن يتولى الحسبة، ومنها: أن يكون فطنًا، يقظًا عارفًا بأصناف المعايير والمهن المختلفة، وله خبرة في الموازين والمكاييل؛ حتى يتوصل إلى حيل الباعة في الغش والتدليس، ويميز بين الصحيح وغير الصحيح، وأن يكون عفيفًا عن أموال الناس، متورعًا عن قبول الهدية من أرباب الصناعات؛ فتلك رشوة، وقد قال الرسول، صلى الله عليه وسلم لعن الله الراشي والمرتشي^(٢)، وأن يكون لين القول طلق الوجه، سهل الأخلاق، حتى يكون أبلغ في استمالة القلوب وحصول المقصود، وأن يكون خالص النية، بعيدًا عن الرياء، حتى تكون له في القلوب مهابة وجلالة ومبادرة إلى السمع والطاعة، وأن يكون عدلًا ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين، عارفًا بأحكام الشريعة، عالمًا بالمنكرات الظاهرة، لا يخالف قوله فعله، ذلك أن الحسبة لا تقتصر على مجرد الإنكار على الآخرين دون النظر إلى النتائج والنظر في المآلات، ومراعاة الحكمة في تغيير المنكر^(٣)

والتفتيش البيئي عملية تفاعلية تشارك فيها أطراف عدة، هي إدارة التفتيش البيئي، وفريق التفتيش المكون من قائد وأعضاء، ومسؤولي البيئية بالمنشآت، وجودة تفاعل أطراف هذه العملية يعتمد على التعاون المتبادل.

وهدف التفتيش دعم تطوير الأداء البيئي للمنشآت الصناعية، عن طريق إرشادها للاستعانة بآليات الدعم الفني والمالي بجهاز شؤون البيئية، في

¹ مرجع سابق، مطبوعات جهاز شؤون البيئة.

² عن أبي هريرة حسنة الترمذي الحديث، رقم ١٢٥٦

³ الأستاذ الدكتور/ محمد عثمان شبير، إحياء وتطوير مؤسسة الحسبة لحماية حقوق الإنسان، سلسلة كتاب الأمة العدد ٨٧ - محرم ١٤٢٣ هـ - السنة الثانية والعشرون.

مجالات عدة منها التحكم فى النفايات ، وتطبيق برامج للحد من التلوث عند المنبع . ومساعدته المنشآت المخالفة على توفيق أوضاعها البيئية بما يؤدي إلى الحفاظ على الصحة والموارد الطبيعية والاقتصادية.

كما يهدف التفتيش البيئي إلى دعم كل من البيئة والصحة العامة . إذ للتلوث الناتج عن المنشآت الصناعية تأثير ضار لا على البيئة فقط بل صحة الإنسان أيضاً . ولذا فإن كثيراً من الإجراءات التى يمكن تطبيقها لتخفيف الآثار البيئية الضارة ، تؤدي فى نفس الوقت إلى الحد من المخاطر على صحة العاملين بالمنشأة ، والمواطنين المقيمين فى المناطق التى تتأثر بالانبعاثات الصادرة من تلك المنشآت . وبناء على ذلك فإن فاعلية عملية التفتيش على المنشآت الصناعية تؤدي إلى حماية البيئة وحماية العمال وحماية الصحة العامة.

ولما كان التفتيش بهذه الأهمية فقد قام المشروع المصري لمكافحة التلوث (EPAP) الممول من الوكالة الفنلندية للتنمية الدولية بتكليف الاستشاريين المصريين والفنلنديين بإعداد خطوط إرشادية محددة للرصد والتفتيش على القطاعات الصناعية المختلفة والذي نتج عنه إعداد دليل إرشادي بعنوان دليل إجراءات التفتيش البيئي (GIM, EPAP-2002) والذي تم تطويره بحيث يغطي جوانب التفتيش المشتركة فى الصناعات المختلفة . ويعتبر هذا الدليل عمدة الباحثين والمفتشين فى مجال البيئة الآن.

وفى حالة تأكيد فريق التفتيش من وجود مخالفة المنشأة للقانون . يتم تحرير محضر قانوني بما أسفر عنه التفتيش . مع توصيف المخالفات البيئية الصادرة عن النشاط طبقاً لما جاء بقانون البيئة رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ ولائحته التنفيذية . ويرسل المحضر للنيابة العامة للاختصاص .

ويتم إنذار^(١) المنشأة عن طريق الجهة مصدرة الترخيص عن المخالفات البيئية خلال مدة لا تتجاوز ٦٠ يوماً من تاريخ العلم بالإنذار ، وفى حالة إعادة

^١ المادة ٢٢ من القانون والمادة ١٨ من لائحته التنفيذية

التفتيش بعد انتهاء المدة وتبين استمرار المخالفات البيئية يتم تحرير محضر ثم يرسل للنيابة ويتم إخطار الجهة الإدارية لإيقاف نشاط المنشأة لفترة محددة . أو للإيقاف التام وسحب الترخيص في حالة الإصرار على ارتكاب المخالفة البيئية . ويرجع جهاز شئون البيئة في كافة الأحوال على المنشأة لأداء التعويض عن الأضرار التي ألحقتها بالبيئة . سواء اتفاقاً أو قضاء .

ومن أجل الحماية الإجرائية للبيئة أعطى القانون الضبطية القضائية لموظفي جهاز شئون البيئة وفروعه بالمحافظات ، الذين يصدر بتحديدهم قرار من وزير العدل بالاتفاق مع الوزير المختص بشئون البيئة . وتكون لهم صفة مأموري الضبط القضائي في إثبات الجرائم التي تقع بالمخالفة لأحكام قانون البيئة و القرارات المنفذة له ^(١)

ومن أجل توسيع قاعدة المشاركة الشعبية نرى أن يفسح المجال للجمعيات والمؤسسات الأهلية ذات الصلة بالبيئة لتقوم بدورها في المتابعة والمراقبة . ورصد أية تجاوزات على البيئة . ومنح سلطة الضبطية القضائية لأعضاء الجمعيات البيئية وأفراد السلامة في المنشآت . وينبغي أن يكون فريق التفتيش مؤهلاً لإثبات المخالفات بشكل قانوني . أو أن يكون ضمن الفريق محامى متخصص في الشئون البيئية .

ومن العوامل المساعدة في إنجاح عملية التفتيش البيئية ^(٢)

- ١- التعاون الكامل بين فريق الشركة وفريق التفتيش
- ٢- ثقة الشركة في فريق التفتيش
- ٣- إقناع الشركة أن إدخال تحسينات عديم التكاليف . أو بيان جهات التمويل لأن البعض يجهلها . وبيان عوائد التكاليف لمنع التلوث .

^١ المادة (١٠٢) من القانون ١٠٤ لسنة ١٩٩٤

^٢ أ.د/ سامية مسعود محمد . مطبوعات . المجموعة الاستشارية لهندسة البيئة ومعالجة المياه . القاهرة ، ص ٣٩ .

وحتى تكون عملية التفتيش البيئي أكثر فاعلية وتأثيراً يجب تكوين منظومة موحدة للتفتيش البيئي في مصر، يتم على أساسها التنسيق بين الجهات المختلفة المعنية بالتفتيش البيئي. والاستفادة من الخبرات المتخصصة في وسط بيئي معين في الوزارات المختلفة. وعمل اتفاقيات بين الوزارات والهيئات المختلفة المعنية بالتفتيش البيئي. والتنسيق بينها وتبادل المعلومات. من اجل التغلب على قلة الإمكانيات وتنوع مستوى الخبرة في الجهات المعنية بالتفتيش متعدد الأوساط. وتوحيد منهج التفتيش البيئي. وأدوات القياس واجراءاته القانونية. وتدريب المفتشين البيئيين. وإعدادهم ليكونوا قادرين علي أداء عملهم علي أكمل وجه وفق معايير وأسس قانونية صحيحة. وتدريبهم على كيفية التعامل مع الجمهور. إذ ليس دور المفتش البيئي رصد المخالفات فقط. وإنما المساهمة في نشر الوعي البيئي أيضاً.

٤- يجب التأكد من تشغيل الخطوط الإنتاجية المسببة للتلوث في أثناء الزيارة التفتيشية تحسباً لقيام بعض المنشآت المخالفة بإيقاف خطوط الإنتاج ساعة التفتيش.

٥- توفير الحماية اللازمة لموظفي الوزارات والدوائر الحكومية المختصة بحماية البيئة في أثناء تأدية عملهم

٦- منع التداخل المؤسسي السلبي. ونقصد به تداخل المسؤوليات الى حد التعارض بين عدد من مؤسسات حماية البيئة والموارد المائية والاراضى في مصر. مثل وزارة الري و وزارة الزراعة و وزارة شئون البيئة و هيئة التخطيط العمرانى. وغيرها من المؤسسات و الأجهزة الحكومية.

المبحث السادس المسئولية الاجتماعية للشركات

(بين الواجب الوطني الاجتماعي والمبادرات الطوعية)

لم يعد تقييم شركات القطاع الخاص يقتصر على ما تدره من ربح ، ولم تعد سمعة تلك الشركات تعتمد على مراكزها المالية فقط ؛ فقد ظهرت مفاهيم حديثة تساعد على خلق بيئة عمل قادرة على التعامل مع التطورات السريعة في الجوانب الاقتصادية والتقنية والإدارية فى أنحاء العالم . وكان من أبرز هذه المفاهيم مفهوم "المسئولية الاجتماعية للشركات" . وقد أصبح دور مؤسسات القطاع الخاص محورياً في عملية التنمية ، وهو ما أثبتته النجاحات التي تحققتها الاقتصاديات المتقدمة في هذا المجال .

وقد أدركت مؤسسات القطاع الخاص أنها غير معزولة عن المجتمع ، وتبتهت إلى ضرورة توسيع نشاطاتها لتشمل ما هو أكثر من النشاطات الإنتاجية ، مثل وجوب حمل هموم المجتمع والبيئة ، وإلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الأضلاع الثلاثة التي عرفها مجلس الأعمال العالمي للتنمية . المستدامة وهي (النمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي وحماية البيئة) .

وقد ينظر للمسئولية الاجتماعية للشركات على أنها . بمثابة تذكير للشركات بمسئولياتها وواجباتها إزاء مجتمعها ، أو مجرد مبادرات اختيارية تقوم بها الشركات صاحبة الشأن بإرادتها المنفردة تجاه المجتمع^(١) .

وحتى وقتنا الراهن ، لم تعرف المسئولية الاجتماعية بشكل محدد قاطع تكتسب بموجبه قوة إلزام قانونية وطنية أو دولية ، ولا تزال هذه المسئولية في جوهرها أدبية ومعنوية ، أي أنها تستمد قوتها وقبولها وانتشارها من طبيعتها الطوعية الاختيارية . ومن هنا تعددت صور المبادرات والفاعلية بحسب طبيعة

¹ مجلة الوعي الإسلامى العدد ٥٣١

البيئة المحيطة ، ونطاق نشاط الشركة وأشكاله ، وما تتمتع به كل شركة من قدرة مالية وبشرية.

وقد عرف مجلس الأعمال العالمي للتنمية المستدامة المسؤولية الاجتماعية⁽¹⁾ على أنها: الالتزام المستمر من قبل شركات الأعمال بالتصرف أخلاقياً. والمساهمة في تحقيق التنمية الاقتصادية والعمل على تحسين الظروف المعيشية للعاملين وعائلاتهم ، والمجتمع المحلي والمجتمع ككل.

ومن المتفق عليه أن الشركات التجارية والاقتصادية والمالية الوطنية والدولية ، على حد سواء ، ليست بشركات خيرية . وأن شاغلها الأول تحقيق ربح لأصحابها. ومن هنا تبلورت فكرة وجوب تذكير الشركات بمسئولياتها الاجتماعية والأخلاقية. حتى لا يكون تحقيق الربح عن طريق أمور غير مقبولة أخلاقياً أو قانونياً. كتشغيل الأطفال والإخلال بالمساواة في الأجور وظروف وشروطه العمل ، وحرمان الفرد من حقوقه الأساسية .

فإن الدور الرئيس الذي تلعبه الشركات ، وكونها مصدراً للثروة والتحديث وتوليد فرص عمل ، يحتم عليها القيام بواجباتها الاجتماعية وفقاً للمفاهيم الحديثة ، خاصة إن قيام الشركات بدورها تجاه المجتمع يضمن - إلى حد ما - دعم أفراد ذلك المجتمع لأهدافها⁽²⁾ ورسالتها التنموية . واعترافها بوجودها ، والمساهمة في إنجاح أهدافها وفق ما خطط له مسبقاً ، علاوة على المساهمة في سد احتياجات المجتمع ومتطلباته المعيشية الضرورية ، إضافة إلى خلق فرص عمل جديدة. من خلال إقامة مشروعات خيرية واجتماعية ذات طابع تنموي. إي المسؤولية بطبيعتها ليست جامدة ولا محدودة بنشاط معين و ما يسمى "صندوق المسؤولية الاجتماعية" من أهم آليات عمل قيام الشركات بمسئوليتها الاجتماعية⁽³⁾.

¹ أ / صالح حسين . المسؤولية الاجتماعية . الناشر اتحاد المصارف العربية ٢٠٠٤

² أ / صالح حسين . المسؤولية الاجتماعية . مرجع سابق.

³ تم تعديل مسمى الصندوق ليصبح "صندوق المسؤولية الاجتماعية" بدلاً من "صندوق العمل الاجتماعي".

والدور الاجتماعي الغائب للقطاع الخاص ضرورة اقتصادية لا وجهة اجتماعية . ومن هنا بادرت غرفة التجارة الأمريكية بتنظيم مؤتمر علمي موسع حول المسؤولية الاجتماعية للشركات . بالتعاون مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة . شارك فيه عدد كبير من ممثلي القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني . كما تناول القضية نفسها المركز المصري للدراسات الاقتصادية . للبحث عن كيفية تطبيق معايير المسؤولية الاجتماعية في الشركات ومنح جائزة سنوية لأفضل المشروعات الاجتماعية . لتشجيع الشركات علي القيام بالأنشطة الاجتماعية . ويشمل هذا الدور الاجتماعي المحافظة علي البيئة . وحماية حقوق العاملين . وتوفير فرص عمل . وتضافر جهود رأس المال الخاص لتنمية المناطق النائية . التي يفتقر أهلها إلي احتياجاتهم الأساسية . وقيام الشركات بدورها الاجتماعي لا يخدم المجتمعات الفقيرة فقط وإنما عامل أساسي في نجاح هذه الشركات ذاتها وتناجحه غالباً ما تفوق توقعات أصحاب هذه الشركات ؛ إذ يزيد الطلب علي منتجاتها مع تحسن أحوال المجتمع . بالإضافة إلي شعور العاملين في هذه الشركات بالرضا والولاء لشركاتهم التي تساهم في تنمية مجتمعهم .

ليست المسؤولية الاجتماعية للشركات إذن مجرد تبرعات . لكنها عبارة عن قيم ومبادئ تلتزم بها الشركات في مجالات عدة تتعلق بالعمالة والتدريب والتعليم . ويجب أن تكون المسؤولية الاجتماعية من صميم سياسة الشركات . وأن تدرك حجم المنافع التي ستعود عليها بمشاركتها في تنمية المجتمع . ومما ساهم في زيادة أهمية المسؤولية الاجتماعية هو تعزيز قوة القطاع الخاص ، والضعف النسبي في دور القطاع العام والقطاع الحكومي في دعم سياسات الرعاية الاجتماعية والرفاه الاجتماعي . مما وضع علي عاتق القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية مهمة تقديم بعض الخدمات التي كان تقديمها حكراً علي الحكومات في . لكن التزام الشركات بتقديم بعض الخدمات لا يكفي إنها تقوم بدورها ومسئوليتها المجتمعية ، أو اتجاه بعض رجال الأعمال

للاهتمام بالعمل الاجتماعي بغرض تحقيق طموحات سياسية كنوع من البيزنس الاجتماعي.

وتشير بعض الممارسات إلى الفهم القاصر لدى بعض الجهات للمسئولية الاجتماعية ، الذي يكتفي بمحصر تلك المسئولية في جانب السياسة الداخلية للمنشأة ، من حيث وفاء تلك المؤسسة ببعض الشروط كالحوكمة في إدارتها ، وضمان حقوق الإنسان ، وممارسات التشغيل العادلة ، دون أن تعير اهتماماً كافياً لدور تلك المنشآت ومؤسسات القطاع الخاص في التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع^(١).

ولقياس مدى مساهمة الشركات في المسئولية الاجتماعية . أصدرت منظمة المقاييس الدولية شهادة "ISO 26000" وقد استمدت مبادئ هذه الشهادة وأهدافها من المؤتمرات الدولية . لاسيما مؤتمر قمة الأرض والمؤتمرات المختصة للفقر والقضاء عليه التي اهتمت اهتماماً بالغاً بأهمية دور الشركات والمؤسسات في الحفاظ على البيئة والقضاء على الفقر.

وتوفر هذه المواصفة القياسية الدولية دليلاً إرشادياً يتضمن مبادئ المسئولية الاجتماعية الأساسية وموضوعاتها ، وطرق تطبيقها داخل كل منشأة . بغض النظر عن حجمها أو موقعها ، وما إذا كانت حكومية وغير حكومية . وكذلك الأمر بالنسبة للمنشآت التجارية ، وما زال السعي قائماً لإقرار هذه الشهادة دولياً ومحلياً ، ؛ لأن أداء الشركات والأفراد لمسئوليتهم الاجتماعية بات معياراً دولياً في تقييم الشركات . علماً بأن الاتحاد الأوروبي لا يؤيد فرض القواعد والقوانين على الشركات لتنظيم المسئولية الاجتماعية . بل يهتم بدور المستهلك في أن يمارس ضغوطاً على الشركات لتحمل مسئوليتها تجاه العاملين بها وتجاه المجتمع.

¹ مجلة الوعي الاسلامي . العدد ٥٣١

و تؤكد في خاتمة هذا الفصل على أن النشاط الصناعي أشد الأنشطة الإنسانية تأثيراً على سلامة البيئة. لكن الحوار بين التنمية والبيئة انتهى إلى أهمية النشاط الصناعي و ضرورته للتنمية^(١) ولعل من أهم الدراسات في علم البيئة هي التي تناولت أنجح السبل لمكافحة التلوث دون إيقاف عجلة النمو الصناعي، والإنتاج الأنظف ثمرة للإدارة البيئية المتكاملة.

و لم يكن هذا الترابط بين (البيئة والتنمية) ليتم دون الحديث عن الإدارة البيئية المتكاملة^(٢) الصناعية. تلك الإدارة التي تضع في سياستها عناصر متنوعة. كما تراعى للمنشآت صحة بيئة العمل. وتقليل الانبعاث. وضبط الملوثات. وتراعى صحة العامل. وهو ما عبّر عنه بنظام (HSE) (سلامة بيئة صحة) النظام المدمج (البيئة والسلامة والصحة المهنية) ومن المؤكد أن عدم مراعاة قواعد السلامة أو عدم اتخاذ الاحتياطات اللازمة في أثناء عمليات التصنيع يسهم بدرجة كبيرة في تخريب البيئة وإتلافها^(٣)

^١ قرار وزير التجارة والصناعة رقم ٢٦٥ لسنة ٢٠٠٨. بخصوص الالتزام بالمواصفات الدولية لنظم السلامة والصحة المهنية.

^٢ د/ عادل أبو زهرة. مطبوعات جمعية أصدقاء البيئة بالإسكندرية. ص ٩٤.

^٣ حسن احمد شحاتة. البيئة والمشكلة السكانية. عربية للطباعة والنشر (٢٠٠١م). ص ٦٥.

الفصل الخامس

الاحتساب في مواجهة الكوارث البيئية

لم يعد تعريف الكوارث بالنسبة للإنسان يقتصر على الكوارث الطبيعية، المتمثلة في الزلازل والبراكين والأعاصير والحرائق. إنما اتسع المفهوم ليشمل الكوارث البيئية. ومن الملاحظ أن جانباً مهماً من المشكلات البيئية يحدث على المستوى المحلي، وبالتالي يتطلب تدريب وتجهيز القدرات المحلية على حل المشكلات البيئية بشكل فعال. ولا بد من أن يكون واضحاً أن وجود السياسات لا يكفي بحد ذاته لضمان تنفيذها بأمانة، بل لابد من توافر طواقم فنية لها قدرة المراقبة للتأكد من الالتزام بتنفيذ تلك السياسات، ووجود نظام فعال لمشاركة المواطنين.

وتخلق الكوارث البيئية عدداً من اللاجئين يفوق ما تسببه الحروب^(١) والصراعات المسلحة، وهؤلاء يفرون من الكارثة كما يفر اللاجئون التقليديون والسياسيون من الحروب والاضطهاد في بلادهم لكن طلباتهم للجوء تقابل بالرفض لعدم الاعتراف بهم.

وبداية أحب أن أقدم التعريفات الآتية :

١ - الكارثة: عرفتها المنظمة الأمريكية لمهندسي السلامة بأنها (التحوّل المفاجئ غير المتوقع في أسلوب الحياة العادية، بسبب ظواهر طبيعية، أو من فعل الإنسان وتتسبب في العديد من الإصابات والوفيات أو الخسائر المادية الكبيرة).^(٢)

وعرف قانون البيئة المصري^(٣) الكارثة البيئية بأنها (الحادث الناجم عن عوامل الطبيعة أو فعل الإنسان والذي يترتب عليه إضرار شديد بالبيئة، وتحتاج

^١ أوراق المؤتمر الدولي لإدارة الكوارث. القاهرة. ٢٤ سبتمبر ١٩٩٠ الناشر أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا.

^٢ مجلة اخصائى الأمن الصناعي. المركز القومى لدراسات الأمن الصناعي. بالإسكندرية.

^٣ قانون ٤ لسنة ١٩٩٤. الفصل الأول. أحكام عامة.

مواجهتها إلى إمكانات تفوق القدرات المحلية).

وتنعكس على حالة السكان في الآتي:

- عدم توافر الغذاء بالكميات الكافية.
- عدم توافر مياه الشرب النقية أو نقصها.
- انقطاع التيار الكهربائي وفساد الأطعمة والأدوية . وتعرض حياة المرضى للخطر.

- ضعف القوة الشرائية وازدياد حجم الفقر مع ارتفاع أسعار السلع.

- صعوبة الحركة والاتصال.

- حدوث حالة من الفوضى والنهب والسراقات التي تنشأ في ظروف غير طبيعية
- كما تنعكس تلك الظروف على الثروة الحيوانية لعدم وجود من يهتم بها
- وانشغال الناس بإنقاذ حياتهم خاصة في حالات الحروب أو الجذب الشديد وعدم
- نزول الأمطار

٢- خطة الطوارئ: وتعني مجموعة من التدابير والإجراءات لمواجهة المخاطر المحتملة . ووضع الخطط اللازمة لمواجهة ما قد ينجم عنها من آثار على المواطنين والمقيمين . والعمل على تهيئة كافة الإمكانيات . وتنسيق خدمات الجهات المعنية وتوفير المستلزمات الضرورية لتنفيذ هذه الخطط متى دعت الحاجة إلى تنفيذها.

٣- خطة الإخلاء الطبي: وتعني قيام الجهات المشاركة في هذه الخطة بإخلاء المصابين وإنقاذهم ونقلهم وفرزهم وعلاجهم . والكشف عن هوياتهم . وحفظ الأمن في منطقة الكارثة وفقاً للأدوار التنفيذية المناطة بكل جهة في الخطة.

ومنذ كارثة انفجار مفاعل تشيرنوبل ، استفاق العالم على مبدأ - كاد يستقر - مفاده أن المساس بالبيئة في أية بقعة من بقع العالم لا تقتصر آثاره على تلك البقعة ، بل تمتد إلى غيرها من البقاع ، و من ثم على الدول كافة أن تتشاور وتعاون في رسم خطط احترازية للأوضاع الطارئة^(١) التي يمكن أن تسبب

^١ الملحق رقم ١ ملخص بالمبادئ القانونية المقترحة لحماية البيئة والتنمية المستدامة التي أقرها فريق ==

تداخلات بيئية عبر الحدود . وتسارع إلى تنبيه الدول المعنية وتزويدها بالمعلومات المناسبة والتعاون معها في حالات الطوارئ.

وفي الحروب الحديثة عرف العالم شكلاً جديداً من أشكال الإرهاب المعاصر يسمى الإرهاب البيئي . فمثلاً حروب رواندا ، لم تقف المأساة الإنسانية فيها عند قتل مئات الآلاف من المواطنين لكنها تفاقمت بترك الجثث تتعفن . فانتشرت الأوبئة والأمراض ، ثم أقيت آلاف الجثث في مياه نهر النيل الذى يمر بالعديد من الدول الإفريقية . وقد كان لجمعيم الحروب تقريبا استراتيجية أساسية واحدة ، هي تدمير نظم دعم الحياة لهزيمة الجيوش والشعوب ، ومن اجل ذلك اتخذت الدول المختلفة احتياطات تشريعية بعضها يجيز التدخل الدولى في حالة التهديد ، الخطير بالتلوث.

المبحث الأول

الجهود الدولية فى مواجهة الكوارث البيئية

فى عام ١٩٧١ ، أنشئ مكتب الأمم المتحدة للإغاثة من الكوارث المعروف باسم " مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية " لتحفيز أنشطة الإغاثة من كافة المصادر والجهات فى أوقات الكوارث ، وفى المنطقة العربية تمت الموافقة فى عام ٢٠٠٤ على إنشاء المركز العربى للوقاية من أخطار الزلازل والكوارث الطبيعية الأخرى ومقره الجزائر.

ويصدر النظام العالمى للإعلام والإنذار المبكر حول الغذاء والزراعة نشرات منتظمة . وبذلك يقدم لصانعي القرار أحدث المعلومات المتاحة حول جوانب العرض والطلب على الغذاء ، كما يحذر من أزمات الغذاء المحدقة . حتى يمكن اتخاذ الإجراءات اللازمة فى الوقت المناسب.

== الخبرء فى قانون البيئة التابع للمؤتمر العالمى للتنمية الاقتصادية . مستقبلنا المشترك سلسلة (عالم المعرفة)

وتسعى الإستراتيجية الدولية للحد من الكوارث إلى تمكين المجتمعات كافة من تحمل آثار المخاطر الطبيعية والكوارث البيئية . وكان إعلان النوايا الخاص بالعقد الدولي للحد من الكوارث الطبيعية فى عام ١٩٩٩ .

ويعمل صندوق الأمم المتحدة للسكان فى مجال الإغاثة فى أثناء النزاعات وحالات الكوارث الطبيعية على إنقاذ حياة السيدات والأطفال حديثى الولادة عن طريق تقديم خدمات رعاية صحية إنجابية شاملة . وهناك جهود لا تنكر للاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر فى معظم دول العالم لتحسين معيشة الأشخاص الأكثر عرضة للكوارث^(١) .

بالإضافة إلى منظمات تطوعية تقدم خدمات الإغاثة والحماية وإعادة الاستيطان للاجئين وضحايا الاضطهاد أو النزاعات العنيفة ، مثل لجنة الإنقاذ الدولية ، ومرصد عالم واحد للأزمات أسسته "شبكة المنظمات التطوعية للتعاون فى الطوارئ" ، وهى تضم أكثر من ثمانين منظمة غير حكومية تعمل فى مجال استعدادات الكوارث ومنع النزاعات فى جميع أنحاء أوروبا .

ولم تعد المساعدات الإنسانية ارتجالية ، بل غدت علماً له أصوله ، وطرقه فى الحصول على المعرفة واكتساب المهارات ، وكان قصب السبق فى هذا المجال ، لمجموعة من المنظمات غير الحكومية إلى جانب الصليب الأحمر والهلال الأحمر ، إذ ووضعت إطاراً للميثاق الإنساني وحددت المعايير الدنيا فى مجال المعونة الإنسانية وقت الكوارث ، وهو (دليل اسفير للكوارث الطبيعية) مؤكداً على ضرورة تقديم المعونة بصرف النظر عن الانتماء العرقي لمتلقيها أو عقيدتهم أو جنسيتهم ، ودون تمييز بينهم أياً كان شكله فيجب أن تحكم الحاجة وحدها تحديد أولويات المعونة . وهى مبادرة دولية تهدف إلى تحسين فاعلية الاستجابة للكوارث والمساءلة حولها .

¹ مفهوم الكارثة البيئية وخسائرها دليل الشباب العربى للبيئة والتنمية ، مرجع سابق .

جهود المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة:

الإغاثة هي المصطلح الذي استخدمه الفقه الإسلامي لدرء الكوارث وكأنه عبر بالحل بدلاً من ذكر الكارثة^(١). والإغاثة أكبر من مجرد تقديم وجبات وأعطية؛ لذا أعد المجلس الإسلامي العالمي^(٢) مشروع أول إستراتيجية متكاملة لتطوير العمل الإغاثي الإسلامي، وخطه للتحرك السريع لمواجهة الحالات الطارئة. ويتضمن نص المشروع ثمانى عشر محوراً مهماً. يؤدي تنفيذها إلى الارتقاء بالعمل الإغاثي الإسلامي في مجالاته وميادينه المختلفة، ومنها:

- إشاعة مفهوم الإنفاق الإنتاجي وتطبيقه، من خلال التدريب المهني، والتأهيل الاقتصادي للمجتمعات المنكوبة. ونشر ثقافة الوقف الإسلامي كأحد أهم موارد العمل الخيري. ودراسة كيفية الاستفادة القصوى من أموال الزكاة لصالح العمل الخيري.

- إعداد قاعدة بيانات بالاحتياجات الإغاثية الفعلية للدول الأكثر تعرضاً للكوارث. بالتنسيق مع الجهات المعنية في ذلك. وتكوين قاعدة بيانات بالمتطوعين من رجال الإغاثة.

- تشجيع إبرام اتفاقيات بين الدول لإعفاء مواد الإغاثة. وتسهيل دخولها وخروجها في حالات الكوارث. والسماح بنقل المواد من دولة إلى أخرى دون عقبات.

- إنشاء مركز إعلامي يُعنى بجمع المعلومات عن الكوارث. وتزويد المنظمات الأعضاء بها.

- توجيه اهتمام الدول العربية والإسلامية لإنشاء مراكز للإنذار المبكر ودرء الكوارث، وتشجيع إجراء أبحاث في هذا المجال، وإدارة الكوارث في مراحلها المختلفة. ورصد تأثيرها على المجتمعات المحلية، بغية تحسين مستوى الاستعدادات لمواجهةها وتخفيف الآثار الناجمة عنها.

¹ مجلة الإغاثة السعودية بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/١٣. الدور السعودي في الإغاثة.

² مقر المجلس بالقاهرة برئاسة شيخ الأزهر. بناء على قرار جمهوري رقم ٢٩٣ لسنة ١٩٩٣.

ومكتب تنسيق العمل الاغاثي للمنظمات الأعضاء في بلد ما هو فريق التدخل السريع عند حدوث الكارثة ، وعليه القيام بالاتصال المباشر بمنطقة الحدث وجمع المعلومات الأولية عن حجم الكارثة والأضرار البشرية والمادية وإرسالها إلى رئاسة لجنة الإغاثة العامة ، وإلى المنظمات الأعضاء. والاتصال بالتجار ورجال الأعمال للمساهمة الفورية في تأمين المساعدات المالية والعينية. وتوزيع المناطق الجغرافية على الهيئات الخيرية ، وتوثيق الصلة مع الجهات الإعلامية المحلية ووكالات الأنباء ومنسوبي القنوات الفضائية لتغطية النشاط الاغاثي ، والتزام الحياء والاستقلالية في العمل الخيري ، وعدم السماح بعسكرته أو تسييسه.

المبحث الثاني

الخطة الوطنية لمواجهة الكوارث البيئية في مصر

تأسس جهاز شئون البيئة المصري EEAA عام ١٩٩٤ ، بموجب المادة الثانية من القانون رقم ٤ لعام ١٩٩٤^(١) ، ووفاء بالتزامات الواردة بقانون البيئة ، ولائحته التنفيذية ، كان على جهاز شئون البيئة وضع خطة لمواجهة الكوارث البيئية تكون مظلة لمجموعة من خطط الطوارئ المتخصصة. وتؤكد التنسيق والتعاون مع الجهات والوزارات المعنية على مستوى الحكومة المركزية لتحديد مسؤوليات كل جهة من الجهات المشاركة ، على ان تتسم بالواقعية والمرونة ووضوح الهدف وسهولة الاستخدام. وتعتمد الخطة من مجلس الوزراء^(٢)

أولاً: خطة الطوارئ

تتضمن خطة الطوارئ ما يأتي^(٣) :

- تحديد أنواع الكوارث البيئية والجهات المسؤولة عن الإبلاغ عن وقوعها أو

¹ قانون البيئة المصري ، مادة ٢

² اللائحة التنفيذية لقانون البيئة المصري ، مادة ٢١

³ كيميائي / أحمد قاسم شتا مدير إدارة الكوارث البيئية ، جهاز شئون البيئة المصري ونائب المنسق الوطني لخطط الكوارث البيئية مطبوعات الجهاز.

توقع حدوثها . ذلك أن نوع الكارثة أهم محدد يتم الانطلاق منه والتعامل مع كل نوع مختلف عن الآخر .

- إنشاء غرفة عمليات مركزية لتلقي البلاغات عن الكارثة البيئية . ومتابعة استقبال وإرسال المعلومات الدقيقة عنها بهدف حشد الإمكانيات اللازمة لمواجهتها .

- تكوين مجموعة عمل لمتابعة مواجهة الكارثة البيئية عند وقوعها أو توقع وقوعها . ولرئيس مجموعة العمل المشار إليها السلطات اللازمة لمواجهة الكارثة البيئية بالتعاون والتنسيق مع الأجهزة المختصة .

وفي مرحلة ما قبل وقوع الكارثة يتم جمع المعلومات المتوافرة محليا ودوليا عن كيفية مواجهة الكوارث البيئية . وسبل التخفيف من الأضرار التي تنتج عنها . وحصص الإمكانيات المتوافرة على المستوي المحلي والقومي والدولي . وتحديد كيفية الاستعانة بها بطريقة تكفل سرعة مواجهة الكارثة . ووضع الخطط والسيناريوهات . والتدريب على أساليب إدارة الكوارث البيئية . وإنشاء قواعد البيانات المناسبة . وتجهيز غرفة عمليات مركزية .

وفي مرحلة اجتياح الكارثة (مرحلة المواجهة) تنفذ الخطة الموضوعية بمرونة وسرعة لتبادل المعلومات بين الجهات المختلفة واتخاذ الإجراءات للسيطرة عليها .

ثم تأتي مرحلة إزالة آثار الكارثة (مرحلة إعادة التوازن) . وهي فرصة لتطوير الخطط بهدف تحسين الأداء . وتسجيل نتائج الكارثة و الدروس المستفادة والمقترحات لتفادي أوجه النقص والقصور التي ظهرت في أثناء المواجهة . وبالإضافة إلى خطة الطوارئ العامة ألزم^(١) قانون العمل المنشأة وفروعها باتخاذ الاحتياطات والاشتراطات اللازمة للوقاية من مخاطر الحريق طبقاً لما تحدده الجهة المختصة بوزارة الداخلية وحسب طبيعة النشاط الذي تزاوله

^١ مادة ٢١٤ ، من قانون العمل المصري

المنشأة والخواص الفيزيائية والكيميائية والمواد المستخدمة والمنتجة . مع مراعاة أن تكون كافة أجهزة وأدوات الإطفاء المستخدمة مطابقة للمواصفات القياسية المصرية. وتطوير معدات الإطفاء والوقاية باستخدام أحدث الوسائل وتوفير أجهزة التنبيه والتحذير والإنذار المبكر والعزل الوقائي والإطفاء الآلي التلقائي كلما كان ذلك ضروريا ، بحسب طبيعة المنشأة ونشاطها .

كما ألزم القانون^(١) المنشأة وفروعها بإجراء تقييم وتحليل للمخاطر والكوارث الصناعية والطبيعية المتوقعة ، وإعداد خطة طوارئ لحماية المنشأة والعمال عند وقوع الكارثة ، علي أن يُختبر فاعلية هذه الخطة وإجراء بيان عملي عليها للتأكد من كفاءتها ، وتدريب العمال لمواجهة متطلباتها ، وتلتزم المنشأة بإبلاغ الجهة الإدارية المختصة بخطة الطوارئ ، وبأية تعديلات تطرأ عليها ، وكذلك في حالة تخزين مواد خطرة أو استخدامها .

ثانياً: مصادر الكوارث البيئية المحتملة في جمهورية مصر العربية^(٢)

١- المنشآت الصناعية : وتشمل المنشآت التي تقوم بتداول (إنتاج - استخدام - تخزين) مواد خطرة سواء (سامة - قابلة للاشتعال - مشعة - قابلة للانفجار) وتعتبر خزانات الوقود الإستراتيجية و منشآت التخزين الكيماوية والبتروكيماوية بالموانئ من مصادر الأخطار. وتمثل أنشطة استخراج البترول من الآبار البحرية أحد مصادر الكوارث البيئية. وهناك أيضا الأنشطة والمنشآت التي تتعامل مع المواد المشعة. بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية تُصبح كوارث بيئية حينما تؤدي إلى تحرر مواد كيميائية أو بيولوجية أو مواد مُشعة إلى عناصر البيئة. ومن أن لآخر تظهر في الأفق المخاطر البيولوجية ،التي تتجسد في الفيروسات والآفات الزراعية.

¹ مادة ٢١٥ ، قانون العمل

² محمد رشاد الحملاوى ،كلية تجارة عين شمس. التخطيط لمواجهة الكوارث ، عشر كوارث هزت مصر الناشر مكتبة عين شمس .

- ٢- السكك الحديدية: إذ تخترق السكك الحديدية بجمهورية مصر العربية المدن و المحافظات ذات الكثافة العالية.
- ٣- النقل الجوي: حوادث سقوط الطائرات المحملة بمواد خطيرة يؤدي إلى تدمير تلك المواد.
- ٤- النقل البحري: حوادث تصادم أو حريق أو غرق السفن المحملة بالمواد الخطرة بالمياه الإقليمية بالبحر المتوسط أو البحر الأحمر أو قناة السويس وخطوط أنابيب نقل المواد البترولية التابعة لشركات البترول . ويعد تلوث المياه العذبة ونهر النيل وفرعية أحد مصادر الكوارث البيئية المحتملة.
- ٥- النقل البري: يستخدم النقل البري بكثافة في نقل الوقود والمواد الخطرة والقابلة للانفجار، أو المواد السامة مثل غاز الكلور وغيره.
- ٦- العواصف المدارية والرملية
- ٧- مشكلة الجراد الصحراوي: يقضى الجراد على الغطاء النباتي ، وهذا يؤدي إلى ظاهرة التصحر وهجرة السكان من المناطق المتضررة للمدن وما يسببونه من ضغط على كافة الخدمات بها.
- ٨- مشكلة الألغام: تعاني مناطق شمال أفريقيا من الألغام التي زرعتها ألمانيا وبريطانيا إبان الحرب العالمية الثانية ، وهناك عدد منها في الصحراء الغربية بجمهورية مصر العربية ، بالإضافة إلى الألغام التي زرعتها إسرائيل في سيناء ومنطقة قناة السويس ، وتغطي رقعة زراعية وطرق ومواصلات إستراتيجية ، من الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة وتحويلها إلى أرض بور غير مستثمرة.

المبحث الثالث

السند القانوني للمشاركة الشعبية في مواجهة الكوارث

الحق في الحياة منصوص عليه في الدساتير. ويعتبر الشرع الخفيف أن إنقاذ نفس واحدة كإنقاذ للبشرية كلها (.. وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) ^(١) وهذا ما يؤكد علي وجوب الامتناع عن عرقلة المساعدات التي من شأنها إنقاذ الأرواح.

ويتضمن قانون البيئة المصري النص على هذه المشاركة بقوله (علي جميع الجهات العامة والخاصة ولأفراد أن تسارع بتقديم المساعدات والإمكانات المطلوبة لمواجهة الكارثة البيئية^(٢) و يقوم الصندوق المشار إليه في المادة (١٤) من هذا القانون برد النفقات الفعلية التي تحملتها الجهات الخاصة والأفراد).

وقد تطور مفهوم الوقاية من الكوارث، وتحول من ثقافة رد الفعل إلى ثقافة الفعل والوقاية، و تقليل تكاليف الكوارث ، فالوقاية ليست فقط أكثر إنسانية من العلاج، بل أقل تكلفة أيضاً. وأصبح تحليل المخاطر، ووضع خطط للتعامل مع الكوارث مطلباً، والتدريب على الخطط الوهمية ورفع ثقافة الاهتمام بمواجهة الكوارث وحفز الناس على ذلك عامل أساسي في درء الكارثة.

فالسكان المحليون هم القادرون على تقديم مساعدة فعالة في الساعات الأولى من وقوع الكارثة، ومن ثم فإن قدراتهم هي التي تحتاج إلى تعزيز؛ إذ

^١ المراد من إحياء النفس إبعادها عن المهلكات، مثل الحرق والغرق والجوع المفرط والبرد والحر المفرطين، والكلام في أن إحياء النفس الواحدة مثل إحياء النفوس على قياس أن قتل النفس الواحدة مثل قتل النفوس. مختصر تفسير الصابوني

١د/ مجاهد أبو المجد كلية طب المنصورة. الإسلام وصحة البيئة. موسوعة الأعجاز العلمي في القرآن.

^٢ مادة ٢٦، قانون البيئة المصري

التفاعل عند حدوث كارثة وتنظيمها مسبقاً يؤدي إلى تقليل الخسائر ودرء آثارها. و مشاركة المجتمعات وتنظيمها منذ البداية في التخطيط والتدريب لبرامج مكافحة الكوارث. وأي تطوير لقدرات الجهات الرسمية والجهات المساعدة. يجب أن يوازيه عمل في المجتمعات وتنظيمها منذ البداية. والتخطيط والتدريب لبرامج مكافحة الكوارث.

ويجب أن لا تُغفل الكفاءات المتوافرة بالمجتمعات المحلية^(١)، التي يمكن استغلالها إلى أبعد حد في كافة مجالات التخطيط والتنفيذ. فالعادة أن الذي يُخطط هو الذي على رأس الهرم التنظيمي. وربما يفقد إلى الخبرات العملية والميدانية. ومن تحته يُجاملونه ولا يصارحونه.

والواجب أن الذي يقوم بالتخطيط أشخاص ذوو علم وتخصص في المجال. أو من لديه خبرة ميدانية عملية أو يجمع بين الاثنين وليس بالضرورة الأقدم أو الأعلى رتبة. ويجب ان تتضمن الخطة بدائل متعددة لاحتمال وفاة - أو غياب - أحد نقاط الاتصال. وتكون واضحة جداً وسهلة التطبيق مع صلاحيات تفويضية واسعة في الميدان قدر الإمكان.

ومن اجل إكساب الجمهور مهارة التعامل مع الطوارئ. لابد من أن توجه لهم إرشادات عامة عند حدوث كوارث طبيعية^(٢). لتعريف الجمهور بكيفية مواجهة الكوارث والإعداد لها علي المستوى الفردي. وتأمين المنزل بالضروريات الأساسية. كغطاية الحريق والإسعافات الأولية. وتدريب أفراد الأسرة علي كيفية عزل مصادر الغاز والكهرباء. وإتباع التعليمات عند الطوارئ. وكيفية طلب خدمة الطوارئ والنجدة. ولما كان إنقاذ حياة الإنسان والحفاظ عليها واجباً شرعياً يقره الإسلام وجب الاستعداد لذلك. وطلب العلم المفروض لإنقاذ حياة الإنسان والحفاظ عليها.

^١ د/ محمد رشاد الحملاوي. إدارة الأزمات تجارب محلية وعالمية. دار أبو المجد. القاهرة. ص ٩٧

^٢ الكوارث الطبيعية هل أنت مستعد لمواجهةها. أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ١٩٩١

وخدمات طب الطوارئ والكوارث هي الحلقة الأضعف فى الكوارث .
على الرغم من أن دورة الإنعاش القلبي الرئوي CPR : والإسعافات الأولية
مثلاً خبرة بسيطة التعلم ومهمة ضرورية.
وهناك دور آخر يقع عبؤه على عاتق الأفراد والجمعيات البيئية . إذ تعتمد
بعض الحكومات إلى إخفاء الكوارث البيئية . فعلى الجمعيات البيئية إظهار ما
خفى وتحذير الناس ونشر المشكلة فى الوسائل الإعلامية . ومثال ذلك ما حدث فى
روسيا أثناء انفجار المفاعل النووي (تشرنوبل) الذى تم الصمت فى البداية على
جسيم الكارثة وتعهد التعقيم الإعلامى . مما ترك المواطنين عرضة للإشعاع .
بالإضافة إلى عجرائم أخرى مستمرة . منها التخلص من النفايات النووية . التى لا
تجد الدول المشتجة مئوى لها سوى قيعان البحار والمحيطات أو أراضي دول العالم
الثالث . وهى مجال للنضال المدنى أيضاً .

الفصل السادس الاحتساب فى البيئة الاجتماعية

يعيش الإنسان ويعمل فى بيئتين : بيئة طبيعية (هواء وماء وتربة وكائنات حية) وبيئة حضارية اجتماعية . ويقاء الإنسان مرتبط ببقاء البيئتين الطبيعية والاجتماعية . وللإنسان احتياجات طبيعية واجتماعية وتشبه البيئة الاجتماعية فى مضمونها وتأثيراتها وإحباطاتها البيئة الطبيعية ؛ فكما إن البيئة الطبيعية تلبى احتياجات الإنسان من مأكى ومشرب وخلافه . فإن تأثير البيئة الاجتماعية مشابه لذلك تماماً ، لكن على المستوى المعنوي لا المادي . فالبيئة الاجتماعية هى التى تحتزن الفرح والتسامح والمحبة . والقيم الروحية والأخلاقية والإيمان . وتترك تأثيراً إيجابياً على شخصية الفرد . بينما البيئة المشحونة بالعداوة والبغضاء والانحراف والقسوة وما إلى ذلك تؤثر سلباً على الفرد .

فكيان الإنسان يتنفس أجواء البيئة الاجتماعية كما يتنفس أجواء البيئة الطبيعية . بشكل عفوي ولا شعوري . وتأثيراتها تنفذ إلى مسام إحساسه وشعوره بشكل غير مباشر .

وقد أكد الإسلام على تأثير البيئة الاجتماعية القوي فى الحديث الشريف (كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجْسَانِهِ ، ...) ^(١) وكما يتلوث الماء بأية مادة تلقيها فيه . فيتغير طعمه أو لونه . كذلك الإنسان يولد على الفطرة نقياً صافياً . لكنه يتطبع أو يتلوث بالجو الذى يحيط به . فيأخذ من العادات والتقاليد التى يشب وينشأ عليها فتشكل فى داخله خليطاً من السلوكيات الممزوجة بنوعية ذلك المحيط الذى ترعرع فيه .

¹ صحيح البخارى حديث رقم ١٣٨٥

ويقول الدكتور زغلول النجار^(١) إن السائد بين الناس قصر لفظة البيئة على الجوانب المادية من الوسط الذي يعيش فيه الإنسان؛ ويمثل ذلك انعكاساً للطبيعة المادية البحتة للحضارة المعاصرة، ولرصيد (الفصل بين المعارف). بدعوى الحرص على التخصصات الدقيقة. وانطلاقاً من هذا المفهوم الضيق لمعنى البيئة أهملت قضايا تلوث المعتقدات، وانحراف العبادات، وفساد الأخلاق والمعاملات، ونتاج ذلك من سوء السلوك، والتلوث الفكري، وإشاعة الفواحش بين الناس بدعوى إطلاق الحريات بلا حدود، وأخطار ذلك على المجتمعات الإنسانية أشد وأنكى من تلوث التربة أو الماء أو الهواء أو الأحياء؛ فآثار هذا الإفساد المادي قد تفضى إلى المرض أو الموت، أما آثار الإفساد المعنوي فتفضى إلى الخلود في الجحيم؛ لذلك يهتم الإسلام العظيم بالإنسان بكل أبعاده كما يهتم ببيئة الإنسان بكل جوانبها المادية والمعنوية؛ حتى يتربى الإنسان الصالح الذي يحافظ على صلاح بيئته بمجموعها وبمختلف جوانبها؛ لأن الإنسان إذا صلح صلحت بيئته، والعكس.

ومن أبرز قواعد الشريعة عند الأصوليين أن الشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. والفساد في الإسلام مفهوم موسم يشمل الجانب العقدي والأخلاقي والبيئي وكل ما هو ضار. لذلك شجع الإسلام على مقاومة الفساد وإبعاده عن الناس. لدرجة أنه جعل أبسط أنواع هذا الدفع جزءاً من الإيمان^(٢) فما بالك بشواب من فعل أكثر من ذلك؟

وبلغت شدة النهي عن الفساد في الأرض درجة سفك دم المفسد حيث قال سبحانه: (..مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ

^١ الدكتور/ زغلول النجار. الأهرام بتاريخ ١٧ - ١٢ - ٢٠٠٧

^٢ في الحديث المتفق عليه الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

جَمِيعًا...^(١) . فجعل الفساد في الأرض مبرراً لقتل المفسد . ودعا إلى توحيد الأمة في مقاومة المفسد .

فمن اختار مجالاً من مجالات الفساد ، واحتسب على الناس فيه ، ووقف في وجه المفسدين ، وتحمل الأذى في سبيل ذلك ؛ فقد اقتدى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشارك في حفظ المجتمع من الانحراف والعذاب . ومن لم يكن هكذا ، وليس له في مقاومة الفساد والمفسدين نصيب ، فقد حُرِمَ خيراً كثيراً ، وسيسأل يوم القيامة عن تقصيره .

مفهوم البيئة الاجتماعية:

ويمكن تلمس دلالة هذا المفهوم أكثر في أقوال علماء الاجتماع والتربية والتي غالباً ، تشير للبيئة الاجتماعية علي أنها المجال الاجتماعي . وشبكة العلاقات الاجتماعية . ومجموعة القوانين والنظم السائدة . وتشمل المؤسسات الاجتماعية علي اختلاف أنواعها . والهيئات السياسية . والإعلام وكل ما يؤثر علي علاقات الإنسان من نظم اجتماعية سائدة ؛ فهي بحق محیط تحدث فيه كل أنواع التفاعل الإنساني . ومن ثم يمكن النظر إلى البيئة الاجتماعية علي أنها الطريقة التي نظمت بها المجتمعات البشرية حياتها . وغيرت البيئة الطبيعية . وكيفتها لخدمة الحاجات البشرية^(٢)

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى خطورة التلوث في تلك البيئة الاجتماعية . حيث يعد هو الأخطر علي الاطلاق ويستوجب الاهتمام من كل الجهات وعلي جميع المستويات . بل إن تفسير آية سورة الروم بظهور الفساد فسراً أولاً بالفساد المعنوي والشرك وارتكاب المعاصي لكون البيئة كانت نظيفة وقتها او بسبب ان الفساد المعنوي هو ما يؤدي إلي الإفساد المادي .

¹ سورة المائدة ، جزء من الآية ٣٢

² رشيد الحمد ومحمد صباريني ، البيئة ومشكلاتها ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون

والآداب ، الكويت ١٩٧٩ ، ص ٢٤ .

وأخيراً اتجهت العلوم البيئية هذا الاتجاه فنجد إعلاء لهذا الجانب من البيئة بعد أن ظل علماء البيئة ينظرونه إلى الأرض فقط معتبرين أنها المحيط الحيوي في المرتبة الأولى. متناسين أهمية البيئة الاجتماعية لكن الآن أصبحت مجالاً للدراسة والتخصص. ومؤتمر الأمم المتحدة للبيئة في ستكهولم عام ١٩٧٢ أشار إلى الموارد الاجتماعية. فوصف البيئة بأنها بمثابة رصيد من الموارد المادية والاجتماعية المتاحة. في وقت ما. وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته^(١).

وسوف نتناول في هذا المبحث ظاهرتين من أخطر صور التلوث والإفساد للبيئة الاجتماعية ليس فقط علي المستوى المحلي بل امتدت آثارهما إلى المستوى العالمي ألا وهما: ظاهرتا (البلطجة - وتزايد الجرائم المخلة بالثقة العامة) وإن كانت مظاهر التلوث في البيئة الاجتماعية لا تقتصر عليهما. بل لشيوعهما وخطورة تأثيرهما.

المبحث الأول

ترويع الأمنين وظاهرة البلطجة

الأمن والاستقرار مطلب إنساني ضروري. لا يقل أهمية عن المطالب الأخرى كالغذاء والكساء، وبدونه لا يستطيع الإنسان أن يمارس حياته اليومية على الوجه الأمثل، فضلاً عن أن يدع أو يقيم حضارة راقية. وقد انتبه الإنسان إلى ضرورة الأمن منذ بداية حياته على الأرض وظل يعبر عن هذا الشعور أو هذه الحاجة بشتى الوسائل.

والأمن نعمة من نعم الله - عز وجل - على عباده المؤمنين، قال تعالى: (.. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ

^١ رشيد الحمد - د. محمد سعيد صياريني. البيئة ومشكلاتها. مرجع سابق، ص ١٢٩.

خَوْفٍ^(١) وقال - صلى الله عليه وسلم - من أصبح آمناً في سربه، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا^(٢)

والشائع أن كلمة البلطجة تعنى فرض الرأي بالقوة . والسيطرة على الآخرين ، وإرهابهم والتكيل بهم . والفظ دارج في العامية ليس له أصل في العربية ، ويعود أصله إلى اللغة التركية ، ويتكون من مقطعين : (بلطة) و(جي) أي حامل البلطة^(٣)

و كان حاملو البلط (البلطجية) في أيام الإمبراطورية العثمانية يشكلون فصيلاً عسكرياً ، يناط به السير أمام قوات المشاة ، لتمهيد طريقها إلي القرى والبلدات والمدن ، وسيطرتها على الأرض . وكان هؤلاء يقطعون الأشجار والتخيل الذي يعترض سبيل هذه القوات ، وظل هذا الفصيل العسكري حتي أيام محمد علي باشا .

والبلطجة في الاصطلاح هي استعمال القوة لاستغلال موارد الآخرين . بهدف تحقيق مصلحة خاصة وهي تابعة من احتياج صاحب القوة - فرداً أم مجتمعاً أم دولة - لموارد الآخرين ومواهبهم وقدراتهم لتوظيفها بطريقة نفعية . ويفض النظر عن معنى البلطجة ، فمن المؤكد أنها أصبحت من الظواهر المعتادة في حياتنا الحديثة - فردياً وجماعياً ومؤسسياً - وربما تذكرنا بظواهر القرصنة وقطع الطريق تاريخياً .

أما مجال الطب النفسي فيرى فيها ضرباً من الانحرافات السلوكية نتيجة الاضطراب في تكوين الشخصية يطلق عليه "الشخصية المضادة للمجتمع" . لخروجها على قوانين المجتمع وعدم التوافق مع الآخرين ، والاصطدام بالقوانين الاجتماعية والأعراف العامة . والسلوك المضاد للمجتمع من الأمراض

¹ سورة قريش ، الآية (٣- ٤)

² صحيح البخارى . باب من أمن فى سربه .

³ البلطجة والإفساد في الأرض موقع إسلام أون لاين

الاجتماعية الخطرة التي تصيب الحياة العامة . وتعطل القوانين وتضعف السلطة .
وتهدد منظومة القيم والتقاليد الاجتماعية السائدة.

وغالباً لا يحتاج البلطجي لاستعمال القوة بشكل سافر ؛ إذ يكفي التلويح بها أو استعمالها مرة واحدة ليصير المتضرر مثلاً يدفع الآخرين للمخوع .
وبخصوص الأسباب الداعية إلي هذه الظاهرة فقد أعدت جريدة البديل المصرية ^(١) ملف عن البلطجة وعرضت بعض من آراء بعض العلماء عن أسباب تلك الظاهرة . مثل الإحساس بعدم توقيع العقاب الرادع على مقترفيها ؛ فمن المعروف أن من تعود على الوصول لأغراضه بالعنف دون أن يعاقب يستولى عليه شعور مزيف بالقوة الخارقة . وبأنه فوق القانون . وبالتالي لا يمكن أن يلجأ إلى وسيلة أخرى . وكذلك التباطؤ في تحقيق العدالة . وعدم استهجان المجتمع لبعض صور العنف والسكوت علي المخالفات اليومية . وساعد على ذلك أن أعداد رجال الشرطة لا تكفي للمقاومة . لذلك يفضل رجال الأمن عدم إهدار الوقت في حادث لم يسفر عن ضحايا أو مصابين . ويكتفي بتحرير محضر والأدهي أن تطلعننا الصحف ببعض التعدييات علي رجال الشرطة من قبل البلطجية ^(٢)

وقد يتعكس التلوث في البيئة الطبيعية على البيئة الاجتماعية . في صور سلوكيات مضادة للمجتمع ؛ فالإنسان يكون عنيفاً عندما يتواجد في مجتمع يرى العنف سلوكاً ممكناً ، مسموحاً ومتفقاً عليه . كما يعتبر التفكك الاجتماعي والأسرى سبباً في إحداث الظاهرة . وساهمت الأوضاع السكانية في تعظيم ظاهرة البلطجة . بانتشار العشوائيات والمناطق الخارجة علي الأمن والازدحام السكاني . وعلى مستوى الإعلام نلاحظ دوراً سلبياً في تمرير ثقافة العنف خاصة في

^١ نشر في جريدة البديل القاهرية في ٢٦/٤/٢٠٠٨

^٢ اعتدي ثلاثة "بلطجية" علي ضابط شرطة بمديرية أمن القاهرة . ومزقوا جسده بالمطايي عندما عاتبهم علي جلوسهم علي سيارته في شارع الهرم . المصري اليوم العدد ١١٨١

الأفلام . لقد تراكت عوامل عدة حتى ارتسمت ثقافة اليوم باعتماد العنف وسيلة لحل المشكلات.

وامتدت البلطجة إلي فئات من الطلاب ورجال الأعمال والمثقفين^(١) فلم تعد مقصوره علي معتادي الإجرام. وأصحاب السوابق. وبعض العاطلين ممن لم ينالوا أي قسط من التعليم.. إنما تجاوزت هؤلاء لتشمل فئات اجتماعية أخرى. تمارس البلطجة جهاراً نهاراً. وأسقطت القانون من حساباتها نهائياً. واعتمدت علي منطق القوة لتحصل علي ماتريده.

فشملت المجتمع المصري كله ريفه وحضره . ولم يعد السن أو النوع أو المهنة أو المستوي التعليمي أو الاجتماعي والاقتصادي العنصر الحاسم فى هذه المسألة. وإنما أصبحت تتصل بمتغيرات معينة فى السمات الشخصية والثقافية للبلطجي . ومتأثرة فى الوقت ذاته بشيوع وانتشار العنف فى المجتمع المصري. تماماً مثل فترة (الفتونة) التي انتشرت فى منتصف القرن الماضي وفى حين كانت الفتونة تقتصر علي حماية الضعفاء أو فرض إتاوات علي التجار والأغنياء. فإن البلطجة فى الآونة الأخيرة^(٢). أخذت صوراً وأساليب جديدة. مثل بلطجة الحرس الخاص. وفى أثناء العملية الانتخابية. وفى الاستيلاء علي الشقق والأراضي والعقارات. وفى الطريق العام. والتعرض للإناث بالخطف والاعتصاب باستعمال أدوات كالسنج والأسلحة النارية والمواد الكاوية (ماء النار).. ولاشك أن البلطجة بهذه الصور لها آثار سلبية . حيث تعكس عدم الاحساس بالأمان فى الشارع المصري. ولا شك ان بلطجة الاستيلاء علي العقارات والأراضي والشقق من شأنها إحداث مشكلات اقتصادية. وإخافة المستثمرين. سواء المواطنين أو الأجانب من الاستثمار فى هذا المجال. وكذلك بلطجة الانتخابات . وما تثيره من إحساس بعدم

¹ الأهرام ٢٠٠٢ أغسطس الأربعماء البلطجة.. تهدد الشارع المصري

² الدكتور أحمد يوسف وهدان. أستاذ القانون الجنائي ورئيس قسم الجريمة بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية فى تحقيق الأهرام السابق.

نزاهة العملية الانتخابية. حتى أصبحت هناك أماكن يمكن منها استئجار البلطجية لتنفيذ مهام معينة بمقابل مالي، واستقر في ذهن الناس في هذا الزمان أن البلطجة هي الأهم والأفضل لحماية الحقوق.. وهي نفس الوسيلة المتبعة لسلب الحقوق!!
مما دعا الدولة إلى التحرك. بإصدار القانون الخاص بالبلطجة. وعرف ذلك القانون البلطجة بأنها ترويع وتخويف الأشخاص الأمنيين باستعراض القوة أمامهم. واستخدام العنف معهم. ويعاقب بالحبس مدة لا تقل عن سنة كل من قام بنفسه أو بواسطة غيره باستعراض القوة أمام شخص أو تهديده باستخدام القوة أو العنف معه أو مع زوجته أو أحد أصوله أو فروعه وترويع المجني عليه أو تخويفه بإلحاق الأذى به بدنيا ومعنويا أو هتك عرضه أو سلب ماله. ثم شدد القانون العقوبة إلى ستين إذا وقع الفعل والتهديد من شخص أو أكثر. أو باصطحاب حيوان يشير الذعر أو يحمل سلاح أو آلة حادة أو عصا أو أي جسم صلب.

وجعل القانون العقوبة بالحبس مدة لا تقل عن ستين ولا تتجاوز خمس سنوات إذا وقع الفعل أو التهديد علي أنثي أو علي من لم يبلغ ثماني عشرة سنة ميلادية. ثم جاء القانون نفسه وغلظ العقوبة إلى الأشغال الشاقة المؤقتة أو السجن. ووصل بالعقوبة إلى الإعدام إذا كان القتل جنائية.

وهذا القانون قد سد الثغرات التي كانت في قانون العقوبات. ولجأ جهاز الشرطة إلى إصدار أوامر اعتقال للمسجلين الخطرين الذين يقومون بأعمال البلطجة في الطريق العام. وكان من حسنات أوامر الاعتقال هذه أنها كانت تتيح للشرطة للبحث عن صحيفة السوابق لهؤلاء الأشخاص وغالباً ما كانت تظهر وجود سوابق وأحكام غيابية أو نهائية لهؤلاء البلطجية.⁽¹⁾

¹ تحقيقات الأهرام العدد ١٣٠ الثلاثاء مايو ٢٠٠٦. رجال القانون يقولون: الحل في إعمال قانون الطوارئ مؤقتاً حتى صدور البديل.

لكن المحكمة الدستورية قضت بعدم دستورية القانون رقم ٦ لسنة ١٩٩٨ المعروف بقانون البلطجة فيما تضمنه من إضافة باب جديد إلي أبواب الكتاب الثالث من قانون العقوبات ، وقالت المحكمة في أسباب حكمها ان المادة ١٩٥ قد نصت علي أن يُؤخذ رأي مجلس الشوري في مشروعات القوانين المكملة للدستور^(١) . ومؤدي ذلك إن عرض هذه القوانين علي مجلس الشوري ليقول كلمته فيها واجب ولا يجوز التفريط فيه . وإلا تقوض ببيان القانون كله من أساسه . فإذا تحققت المحكمة من تخلف هذا الإجراء يتعين إسقاط القانون وهو ما حدث

والخلاصة أن البلطجة أصبحت الفعل الأبرز في حياة المصريين ، وتواري خلفها القانون وما تفرضه الأخلاق من سلوك ؛ إذ لم يعد القانون يخيف أحداً ، وصار الشك في أن القانون سيعيد الحق المسلوب ، واختلط الحق بالباطل بل أصبح الباطل والبلطجة سادة الموقف .

إنها الفضيحة بكل ما تعنيه الكلمة للقيم والأخلاق ، فضيحة لكرامة الإنسان ؛ لما تنطوي عليه البلطجة من قدر هائل من الإكراه المادي والمعنوي الذي يرمي إلي إخضاع شخص أو جماعة لإرادة قوة باطشة غاشمة ، وإجباره علي اتخاذ قرار أو إتيان سلوك ينافي رغبته . وليست لهذا الفعل القسري القائم علي البغي والطفغيان والتكليل بالآخرين ، صورة واحدة أو شكل نمطي ، إنما

^١ المادة (٤٩) من قانون المحكمة الدستورية العليا برقم (٤٨) لسنة ١٩٧٩ بالفقرة الثالثة . تنص علي أنه يترتب علي الحكم بعدم دستورية نص في قانون أو لائحة . عدم جواز تطبيقه من اليوم التالي لنشر الحكم في الجريدة الرسمية . فإذا كان الحكم بعدم الدستورية متعلقاً بنص جنائي (كما هو الحال مع هذا القانون) . تعتبر الأحكام التي صدرت بالإدانة استناداً إلي ذلك النص كأن لم تكن . ويقوم رئيس هيئة المفوضين بالمحكمة بتبليغ النائب العام بالحكم فور النطق به لإجراء مقتضاه . أي أن هذا الحكم يلغي جميع الأحكام عمن سجن بموجب قانون البلطجة . ويتم الإفراج عن جميع المساجين الذين خضعوا لهذا القانون . لأنه لا يجوز التجريم بأثر رجعي .

تعدد صورته وأشكاله ، وتفاوت أحجامها ، من ظرف إلي آخر . وموقف إلي غيره " ولا نبالغ إذا قلنا إنه تطل علينا بقوة "مافيا آل كابوني" في الولايات المتحدة . وبلطجية "إس إس" في ألمانيا النازية و"الفلانج" في إسبانيا ، وأصحاب القمصان السود في إيطاليا الفاشية .

وللأسف برغم كل ما قيل عن مقاومة البلطجة وعلاج الظاهرة . وبالرغم من الصعود التشريعي للتغلب علي الظاهرة . وتطبيق قانون البلطجة ثم استخدام قانون الطوارئ لعلاج المشكلة . إلا أن الظاهرة في تزايد ولعل السبب الحقيقي في ذلك عدم التجنيد الكامل للفقهاء الإسلامي وإيراز دورة في علاج الظاهرة وقد يكون إقصاء عن عمد أو غفلة . لكنه الدواء الشافي والناجع للظاهرة .

وقبل أن نضع بين يدي القارئ هذا الدواء . نتناول بعض من الحلول التي اقترحت لعلاج المشكلة

المطلب الأول

الشرطة المجتمعية مقارنة ولكن لم تكتمل .

تقوم فكرة الشرطة المجتمعية على تحمل كافة قطاعات المجتمع مسئولية الأمن بصورة مباشرة . وأن تكون المشاركة الكاملة في المسئولية بين المجتمع المحلي والشرطة . من خلال تحديد المشكلات المحلية والوقاية منها ومكافحتها . وتمثل الشرطة المجتمعية الفلسفة التي توجه أساليب الإدارة واستراتيجيات العمل الأمني . وهدفها خفض الخوف من الجريمة في المجتمع المحلي وزيادة رضا المواطنين عن خدمات الشرطة .

وإن كانت الشرطة التقليدية تتخذ اكتشاف الجريمة معيار لقياس كفاءة الأداء . فالشرطة المجتمعية تستهدف معالجة المشكلات وحلها . واكتساب احترام أفراد المجتمع المحلي لرجل الشرطة المجتمعية . الذي يعامل الجمهور بشكل أفضل .

ويستمع أكثر حتى يتعلم أكثر . ولا يتجه دائما للقوة ويحاول فهم سلوكيات أفراد المجتمع الذي يعمل فيه . والظواهر الإجرامية المنتشرة . وتنشئ لذلك نقط فرعية متنقلة للتعلم في المجتمع المحلي . وفي أمريكا تم إغراء الضباط بامتلاك منزل في المناطق عالية الإجرام ليشعر أهل الحي بوجود شرطي بينهم .

كما تعتمد على برامج حديثة استخلصها المختصون والباحثون من التراث الإنساني . ومن واقع تطبيقات محددة وخبرات سابقة ، لخلق أجواء التعاون والتكامل والدعم والموازرة المتبادلة . بين الأجهزة الأمنية والمجتمع بكافة أفراد وجماعاته وجمعياته الأهلية ومنظماته الرسمية والشعبية لمواجهة متطلبات تحقيق الأمن في إطار علاقات متطورة وفعالة ، تنمي الثقة وتحقق رضا الجمهور وتوفر إمكانات العمل الجماعي المشترك والمنظم⁽¹⁾

ونظام الشرطة المجتمعية شهد اختلافات في التطبيق علي مستوى الاسم وعلي مستوى نماذج التطبيق ؛ فبرامج التطبيق يطلق عليها أحيانا المرافق لرجال الشرطة - الأحياء الآمنة - الأمن مسئولية الجميع ، وعلي مستوى الدول العربية نجد الاسم أحيانا الشرطة الشعبية في السودان والأمن المحلي الشعبي في ليبيا . شرطة المجتمع في الإمارات ، الشرطة المجتمعية أو الشرطة الدينية . وتساءل بحسن نية لم لا يكون الاسم هو (المحتسب) فذلك هو الوصف الحقيقي لما يقوم به المشارك في هذه البرامج الأمنية؟ .

وبخصوص نماذج التطبيق فقد كانت تختلف أيضاً من بلد إلي آخر اعتماداً علي السياسة المتبعة والإستراتيجية الأمنية الموضوعية ، ففي بعضها يعتمد على رفع كفاءة رجال الشرطة وفي أخرى اقتصر الأمر على مجرد توعية المواطنين ، فنجد مثلا النموذج الفرنسي يعتمد على تغيير نمط العلاقة وأسلوب التعامل مع المواطن ، على أساس أن جهاز الأمن جهازاً خديماً كأي مرفق آخر وبالتالي يفترض فيه يسعى إلى كسب حب الجمهور وتأييده .

¹ العقيد الدكتور / هاشم بن محمد الزهراني الباحث العامة . ورقة عمل مقدمة لندوة المجتمع والأمن المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض من ٢/٢١ حتى ٢/٢٤ من عام ١٤٢٥هـ

وتتميز تجربة فنلندا في تطبيق مفهوم "الأمن مسئولية الجميع" بالتركيز على المؤسسات التربوية وجعلها المنطلق الأساس لبرامج الوقاية. إذ عمدت إلى إدخال مقررات أمنية في المنهج الدراسي يقوم بتدريسها مجموعة من رجال الأمن بحيث تهدف في مجملها إلى توضيح الدور الحقيقي للشرطة في المجتمع باعتبارها حامية للأفراد وممتلكاتهم ومنفذة للقوانين^(١).

وتتركز تجارب الدول العربية في إنشاء المجالس الوطنية واللجان الأهلية لرسم الأهداف، ووضع الخطط، بالإضافة إلى الجمعيات الشعبية، كجمعيات أصدقاء الشرطة، ولجان الأحياء، وجمعيات الدفاع الاجتماعي، وجمعيات مكافحة تعاطي المسكرات والمخدرات، وجمعيات الدفاع المدني، وجمعيات رعاية أسر المسجونين والمفرج عنهم، بالإضافة إلى اللجان المحلية والعليا للوقاية من الجريمة كلجنة التوعية الأمنية ولجنة جنوح الأحداث^(٢). وتسمح تلك الجمعيات بانخراط أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع في أعمالها، وتستفيد من الدوافع الذاتية للمتطوعين والناشطين في المجتمع على اختلاف مسؤولياتهم وتخصصاتهم وميولهم الشخصية. وتتنوع أهداف هذه الجمعيات بتنوع مسمياتها وغاياتها، ومن المفترض إن تشجع الدولة على إنشاء هذه الجمعيات وتستفيد من آرائها.

^١ د. خالد بن سعود البشر، مدير إدارة الشؤون الإعلامية بجامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ورقة عمل مقدمة لندوة (المجتمع والأمن) المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض من ٢/٢١ حتى ٢/٢٤ من عام ١٤٢٥ هـ.

^٢ عميد دكتور/ محمد إبراهيم الأصيلي، الشرطة في النظم الإسلامية والقوانين الوضعية دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون، الناشر المكتب العربي الحديث الإسكندرية، ص ٦٤ - ١٠٢.

الفرع الأول

الشرطة المجتمعية في مصر.

في الرابع عشر من يناير ٢٠٠٧م. شهدت قاعات مركز بحوث الشرطة بأكاديمية مبارك للأمن. وبالتعاون مع إدارة الإعلام والعلاقات العامة ندوة علمية بعنوان "الشرطة المجتمعية" "الأمن مسئولية الجميع" وكان من أهداف الندوة: صياغة رؤية عملية متطورة لمحددات عمل الشرطة المجتمعية. وإقرار مجموعة خطط او برامج عمل لدعم عمليات التعاون والتنسيق بين الأجهزة الأمنية ومؤسسات المجتمع المحلي.

وتناول المجلس الأعلى للشئون الإسلامية دراسة الموضوع وصدرت أبحاثه في سلسلة قضايا إسلامية^(١). وشكلت جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية كلية الدراسات العليا (ندوة الأمن مسئولية الجميع). قدمت خلالها بحوث عدة حول نماذج تطبيقات الشرطة المجتمعية.

أولا : موقفات التطبيق.

تعد المؤسسات الأمنية عماد سلطة المجتمع ؛ لأنه مهما تباينت النظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. فمن المسلم به أنها تمثل التجسيد الطبيعي لسلطة المجتمع. من خلال قيامها بواجباتها الأمنية للحفاظ على الأمن والاستقرار^(٢). وللمؤسسات الأمنية وظائف عدة بجانب الواجبات الأمنية التقليدية. ولكي تؤدي المؤسسات الأمنية وظائفها لابد من أن تكون مقبولة لدى المجتمع حتى تستطيع أن تطلب مساعدته.

^١ مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام سلسلة قضايا إسلامية تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ووزارة الأوقاف المصرية ، العدد ١٥٨

^٢ المقده الدكتور عبد الكريم عبد الله المجيدلي الحربي الأمن العام. شرطة الرياض. الدور الاجتماعي للمؤسسات الأمنية. ورقة عمل مقدمة لندوة المجتمع والأمن المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض.

فالتوتر القائم في العلاقة بين المجتمع والمؤسسات الأمنية ، وبناء تلك العلاقة علي أساس القمع تؤدي إلى عزله تلك المؤسسات واتساع الفجوة بينها وبين أفراد المجتمع ومحاولات تقوية تلك العلاقة لا بد أولاً أن تركز علي الاقتناع⁽¹⁾ بأهمية مشاركة الجمهور لا مجرد تعاونه علي النحو السائد في الفكر الشرطي العربي (كمرشد للبوليس) بل إشراك المجتمع في وضع الخطط والإشراف عليها والبحث عن قادة العمل الاجتماعي بالمنطقة والتعامل معهم بعلانية وتعزيز ثقافة المشاركة لدى الجمهور حتى تتكون الثقة المتبادلة. وكذا تغيير الثقافة المهنية لدى رجال الشرطة وإيجاد الحافز لديهم لتبني نظام مشاركة الجمهور . كما يجب أن يكون للإعلام دور في إرساء دعائم هذه العلاقة بين المواطن ورجل الشرطة . حتى يترسخ لدى المواطن الاقتناع الكامل بأهمية دوره وبأن الأمن مسئولية الجميع.

فالشرطة المجتمعية ليست برنامجاً بل فلسفة في إدارة الشرطة وتعاملها مع المواطنين . وتبني هذه الفلسفة مبدأ المبادرة بدلاً من مبدأ رد الفعل التقليدي في العمل الشرطي . لكن البيروقراطية ونقص التدريب المناسب عوائق أمام هذه الفلسفة . بالإضافة إلى تعامل الجماهير اليومي مع الشرطة ، وما قد ينشأ عن ذلك من الأخطاء التي تحتزن في ذاكرة الرأي العام ، ويفسر ذلك أحياناً بانخفاض المستوى التعليمي لبعض أفراد الأمن . ومن ثم تعاملهم مع الجمهور بصورة غير مناسبة. وتظهر خطورة ذلك الوضع إذا علما أن أي تصرف خطأ لهؤلاء الأفراد سوف ينعكس سلباً على الصورة الذهنية لدى الجماهير عن المؤسسة الأمنية.

وذكرنا ذلك بمقولة في الفقه الإسلامي لاختيار رجال الشرطة . وهي :
(ينبغي على الأئمة وولاتهم أن لا يختاروا لشرطتهم إلا الرجال العقلاء الأمناء المستقيمين المخلصين ذوي الحزم واللطافة ، لا يعنفون فيذلون الشعب ، ولا يضعفون فيتمرد عليهم ، يطبقون قانون الدولة على الناس لا يحاربون أحداً ولا

¹ المرجع السابق ، مطبوعات جامعة الملك فهد د/ عبد الكريم المجيدلي

يستنون إنساناً).^(١) ويستحسن أن يكون الشرطة من الوافدين على المدينة ومن الذين جاؤوا من نواحي أخرى من الدولة حتى لا تكون لهم عشاير يجابونها ولا أقرباء ينحازون لهم.

ولاشك أن تقديم نموذج لنظام إشراك المواطن في تحقيق الأمن يكون قابلاً للتطبيق لا بد أن يستند إلى فهم الأجهزة الأمنية وإدراكها لأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه المواطن في تحقيق الأمن . وان يتناسب النموذج مع الواقع الاجتماعي وطبيعة الشعوب العربية وتليته للطلبات التطوعية للأفراد وكيفية إنماء روح المسؤولية والعطاء لديهم . وإن أرادت هذه الأجهزة أن تجد لها واقعاً ملموساً فلا بد لها من الاستفادة بالتجارب التاريخية لنظام المحتسب .

ومن الملاحظ بعد أن حل القانون كضابط للسلوك الإنساني محل الضوابط التقليدية (مثل التقاليد والأعراف والمعتقدات والقيم) . التي كانت تمثل معايير للسلوك الاجتماعي . بدأت تلك الضوابط التقليدية تفقد تأثيرها تدريجياً . في الوقت الذي لم تستطع فيه القوانين القيام بالدور نفسه خاصة في مجال مكافحة البلطجة والتعدي على حقوق الآخرين ؛ لذلك بدأت المناادة بضرورة مشاركة الجمهور.

ثانياً: دور المواطن في حفظ الأمن.

- ١- الانضباط وتنفيذ القوانين ؛ لأن السلوك المنضبط يحقق هدف الأجهزة الأمنية ويترك فرصة مناسبة لرجال الأمن للملاحقة المخالفين لحرمة النظام^(٢)
- ٢- الحيلة من حيل المجرمين . فالوعي الأمني لدى الفرد هو الدعامة الأساسية في تقليل معدلات الجريمة . والحرص على الممتلكات واليقظة والانتباه لحيل المحتالين وقاية وفريضة شرعية.

^١ محمد على دبور . تاريخ المغرب العربي . مكتبة الإسكندرية . ص ١٢٩ .

^٢ المقدم الدكتور / عبد الكريم عبد الله المجيدلي الحربي . الدور الاجتماعي للمؤسسات الأمنية

٣- الاحتساب بنشر الوعي الأمني . فخلق الثقافة الأمنية مهمة الجميع .
والتوعية بتوضيح أحكام الشرع والقانون في شأن الأفعال المخلة بالأمن والجزاء
الذي ينتظر العصاة في الدنيا والآخرة . والتبصير بأساليب المجرمين وكيفية
مواجهتهم . والسبل للوقاية الذاتية من الجريمة . وكيفية تأمين الممتلكات ونشر
المعلومات والبيانات الصحيحة والمعارف بين أفراد المجتمع للتأثير علي اتجاهات
الفرد وأفكاره ومواقفه للتجاوب مع رسالة الأمن .

كل هذه الأمور يستطيع المحتسب أن يقوم بها سواء علي مستوى أفراد
عائلته أو أقاربه وزملاء العمل أو من خلال الجمعيات الأهلية المختصة بشئون
الأمن أو من خلال مسجد الحي مع التأكد علي ضرورة التعاون والتآزر فيها .
وأنها من الواجبات الشرعية الاجتماعية .

٤- شهادة الحسبة وهي أن يتقدم للشهادة من تلقاء نفسه دون تردد . وعدم
كتمانها خوفا أو رهبة . فإن ذلك يساعد علي التوصل إلى الجاني . وهو تعاون
علي الخير نحن مأمورون به . ونصره للعدالة .

٥- التبليغ عن الجرائم : فمن عاين الجريمة حال ارتكابها عليه أن يسرع بالتبليغ
عنها أو التقدم بشكوى بخصوصها . وذلك حق نظم القانون وكفله الشرائع . لما
يترتب عليه من كشف للجرائم ومعاونة الأجهزة الأمنية في حفظ النظام العام
والأرواح والأموال والأعراض . وقد يمنع الجريمة قبل وقوعها . ويحدثنا القرآن
عن مبادرة أمنية قام بها عبد صالح بقوله تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ
يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
النَّاصِحِينَ) ^(١)

¹ سورة القصص ، الآية ٢٠

٦- المحافظة على مسرح الجريمة: المروءة والواجب يقتضيان النجدة علي الفور لكل مستغيث . تلك النجدة ان لم تحقق هدفها في دفع المعتدي . فإنها بلا شك تؤدي واجباً آخر . هو المحافظة علي مكان الجريمة بجائته التي كان عليها ليتمكن رجال البحث الجنائي من الاستدلال علي الجاني . فمن قدرة الله ومحبه للحق ان يترك الجاني عادة في مكان الجريمة ما يدل عليه . وأي عبث بتلك الأدلة يغير الحقيقة .

٧- ملاحقة الجناة: يفر الجناة عادة بعد ارتكابهم للجريمة . واكتشاف أمرهم . وتتبع المواطنين لهم كان ينجح أحياناً في الإمساك بهم . أو التعرف علي أوصافهم وأرقام سياراتهم . وتلك أدلة مهمة تخدم البحث الجنائي لكن تلك الملاحقة مع الاحتمال القوي لتسلح الجناة لا تكون إلا بمن أدرك أن عمله قربة إلي الله واحتساباً للأجر .

هذا بعض ما يمكن أن يحققه الفرد علي المستوى الأمني . لكن اتساع ميدان عمل المؤسسات الأمنية يتيح مجالات أكثر من ذلك بكثير . فبالإمكان أن يتطوع الفرد بالاشتراك في فرق الدفاع المدني . والمساهمة في تيسير حركة المرور . والحراسة الليلية المصاحبة لدوريات الشرطة .

المطلب الثاني

دفع الصائل في الفقه الإسلامي وأثره في مقاومة ظاهرة البلطجة

الدعوة إلي حفظ الأمن ونصره الحق . وإغاثة الملهوف وردع الظالم توجهات إسلامية . تقود المجتمع إلي الطمأنينة وتغرس التعاطف الاجتماعي ومد يد العون للمظلوم . مما يؤدي إلي الخيلولة دون وقوع الخلل الأمني . والأمن حالة عامة تسود ثقافة المجتمع . ولا يكفي أن يكون شعوراً فردياً عند بعض الناس . لكونه يتمتع بحراسة خاصة أو مكانة اجتماعية تصد عنه البغي .

ومن أجل أن تسود حالة الطمأنينة والأمن المجتمع حرص الإسلام علي تأمين الطرق بالهيبة والرهبة . وجعل المسؤولية عن ذلك ذات طابع اجتماعي .
توجب التعاون والتأزر من أجل تحقيق الأمن بمفهومه الشامل .

وتناول الفقه هذه المسألة تحت عنوان (دفع الصائل)^(١) فمن خصائص هذه الأمة جواز دفع الصائل علي خلاف بني إسرائيل الذين كتب عليهم أن الرجل إذا بسط يده إلي رجل لا يمتنع منه حتى يقتله^(٢) .

وقد عُرف الصائل بأنه : كل معتد على الغير قاصداً نفسه ، أو ماله ، أو عرضه دون حق . وأنه يجب الدفاع ضده عن النفس والعرض . ويجوز عن المال . وكذا الحكم عن نفس الغير وعرضه وماله . وفي روضة الطالبين وعمدة المفتين :^(٣) أما الصائل فكل قاصدٍ من مسلمٍ وذميٍّ وعبدٍ وحرٍ وصبيٍّ ومجنونٍ وبهيمةٍ يجوز دفعه ، فإن أبى الدفع على نفسه فلا ضمان بقصاص ولا دية ولا كفارة ولا قيمة^(٤) وفي الدر المختار^(٥) ويجب قتل من شهر سيفاً على المسلمين ولا شيء بقتله . ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى^(٥) وَالْعَادِي هُوَ الصَّائِلُ الَّذِي يَجُوزُ دَفْعُهُ بِمَا يَدْفَعُ ضَرَرَهُ وَلَوْ كَانَ قَتْلًا .

ويشترط في الفعل الذي يوصف فاعله بأنه صائل أن يهدد بضرر غير مشروع ، وأن يكون الضرر المتوقع منه حالاً . وإذا توافر في فعل الصائل شروطه ، ترتب على ذلك أن تصبح الأفعال التي يأتيها المدافع أفعالاً مشروعة ، ولا يعد فعله جريمة ، ودلت النصوص الشرعية على وجوب دفع الصائل . منها قوله

^١ والموضوع يحتاج إلى بحث للوقف علي مزيد من أدلته وتأكيدا علي استثناء السلطان وأعوانه من النصوص الواردة للأمور بالصبر وللتعرف أكثر على عدم التلازم بين دفع الصائل ومقاتلة الفئة الباغية فتلك للأحداث الفردية لمن صال عليه أما مقاتلة الفئة الباغية لا تكون إلا تحت لواء ولي الأمر .

^٢ الإمام المناوي . فيض القدير شرح الجامع الصغير المجلد الأول ص ٣٠٠ الناشر دار التراث

^٣ المجلد ٣ / ، ص ٤٨٩

^٤ المجلد السابع ، ص ١١١

^٥ فتاوى ابن تيمية 4/184

تعالى : (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)^(١) ، وقوله (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)^(٢) قال ابن كثير رحمه الله - في هذه الألفاظ : "عاقبوا. سيئة بسئة : الأولى ظلم والثانية عدل"^(٣). وقوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) ❖ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)^(٤) فمسألة دفع الصائل وجواز قتله إن لم يندفع شره إلا بالقتل مجمع عليها.

والإمام الشوكاني يرى دفع الصائل وإن أدى إلى قتله ، وأن المصول عليه يقتل شهيدا^(٥) ويستدل بأنه جاء رجل الى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : (يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ، قال : فلا تعطه مالك . قال : أرأيت إن قاتلني ؟ قال : قاتله . قال : أرأيت إن قتلتني ؟ قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلتني ؟ قال : هو في النار)^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم قال (من قتل دون ماله فهو شهيد) وفي لفظ (من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد)^(٧) وأحاديث الباب فيها دليل على أنه تجوز مقاتلة من أراد أخذ مال إنسان . من غير فرق بين القليل والكثير إذا كان الأخذ بغير حق . وهو مذهب الجمهور . كما حكاه النووي والحافظ في الفتح .

وقال بعض العلماء : إن المقاتلة واجبة . وقال بعض المالكية : لا تجوز إذا طلب الشيء الخفيف . لكن ينبغي تقديم الأخف فالأخف . فلا يعدل المدافع إلى القتل مع إمكان الدفع بدونه . ويدل على ذلك أمره صلى الله عليه وسلم بإنشاد الله قبل المقاتلة ؛ فان كثرت أفعال الصيال وأصبحت ظاهرة واتخذت شكل

^١ البقرة (١٩٤) .

^٢ النحل (١٢٦) .

^٣ ابن كثير تفسير القرآن العظيم (١٨٤/١) .

^٤ سورة الشورى الآيات (٣٩ - ٤٠) .

^٥ الإمام الشوكاني . نيل الأوطار ، كتاب الغصب والضمانات . دار الكتاب العربي .

^٦ أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد

مهتر الدم ١ / ١٢٤ ، ح ١٤٠

^٧ رواه أبو داود والنسائي وأحمد ٢ / ٢٠٦ ، ح ٦٩٢٢

التنظيم والعمل الجماعي . فان الاسلام جعل لها (حد الحرابة) لقوله تعالى (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١).

ولعلك أن تتخيل معى ماذا لو تصدى الناس لكل من أرادهم بسوء فردوا كيده ودفعوا شره؟ لا شك أنهم سينعمون عندها بالأمن . وعلى العكس لو تركنا المعتدين ولم يحل بينهم وبين إفسادهم أحد كيف ستكون حالنا؟

وقد يسأل سائل : لو صال الصائل على زيد فهل على عمرو أن يدفعه . وأن يُعين المصُولَ عليه ؟ لا مربة في ذلك ، فمن أكد واجبات شرعنا : نصره المؤمن لأخيه المؤمن ، فالكفار ينصر بعضهم بعضا ، فوجب على المؤمنين نصره بعضهم بعضا . وإلا ساد الفساد وكثرت البلطجة . وهذه النصره مطلوبة لقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) (٢). وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (المسلم أخو المسلم لا يُسلمه) (٣).

أي : لا يُسلمه لعدوه ، بل يقوم بمناصرته إن نصره المؤمن لأخيه تكون في جميع الأحوال ، قال - صلى الله وسلم : (انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا) . فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَمْ أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : (تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْتَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ) (٤).

وعن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري قالوا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله وسلم - (: مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذَلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ

¹ سورة المائدة الآية ٣٣

² الأنفال : ٧٣ .

³ متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - صحيح البخاري : باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ٢ / ٨٦٢ / ٢ رقم (٢٣١٠) . صحيح مسلم باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٦ رقم (٢٥٨٠) .

⁴ البخاري برقم ١٢٨٥ .

تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يُنْصَرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ^(١) ومن مظاهر هذه النصرة التعاون في دفع خطر البلطجة.

ومن صال عليه صائل عليه أن يثبت^(٢) . وأن يعلم انه لو قتل كان شهيداً . ويضع نصب عينيه هذا الحديث : عن أنس بن مالك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : (مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ ، لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ، يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِلَّا الشَّهِيدُ ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى)^(٣) .

فلا ترضى بمنقصةٍ وذل - وتقتنع بالقليل من الحطام فعيشك تحت ظل العز يوماً - ولا تحت المذلة ألف عام

إلى هذا الحد نعلم يقيناً أن دفع الصائل ليست مجرد فلسفة . بل واجب شرعي . وفقه يجب أن يسود ثقافة المجتمع يعلمه الصغير والكبير . ويمارسه نصرة للحق واحتساباً للأجر : هذا هو عدل الإسلام^(٤) وحفاظه على سلامة المجتمع ، وانتظام مصالحه ؛ لتعمر البلاد ، ويأمن العباد ، وتنتظم المواصلات بين الأقطار ، فيسير الناس فيها ليالي وأياماً آمينين ؛ لأنه لو لم يجرز دفع الصائل والمعتدى لتسلط الناس بعضهم علي بعض . ولا صلاح للبشرية إلا بتطبيق هذا التشريع الحكيم ، فقد عجزت أنظمة الأرض كلها وقواها المادية عن أن تحقق للناس شيئاً من الأمن المنشود بدون تطبيق هذه الشريعة .

¹ سنن ابى داود حديث رقم ٤٢٤٠ .

² محاضرة الشيخ الدكتور سفر بن عبدالرحمن الخوالي . موقع الشيخ

³ صحيح البخاري حديث رقم ٢٥٨٦ .

⁴ الدكتور / فيصل بن عبد العزيز اليوسف عضو هيئة التدريس بقسم العلوم الشرعية كلية الملك فهد

الأمنية الناشر جامعة الملك فهد ٢٠٠١

المبحث الثاني الجرائم المخلة بالثقة العامة

من الظواهر التي سادت في الآونة الأخيرة انهيار مبدأ الثقة العامة . وشيوع التحايل علي القانون. ويتمثل ذلك في جرائم تندرج تحت مؤشر الجرائم المرتكبة ضد الثقة العامة . مثل شهادة الزور وتزييف الأختام والعلامات والبيانات. وإساءة الائتمان . والرشوة والتهرب الضريبي . والاعتداء علي الاراضي الحكومية والعامة . والنصب والاحتيال . وتزوير الأوراق ... وغيرها . ويسجل الإحصاء الجنائي تزايداً في تلك الجرائم.

وهذه النوعية من الجرائم لها خطر شامل يؤدي إلي اللامعيارية . وتفشي حالة اللا قانون . والافتقار إلي الثقة العامة . ولاشك أن تعزيز تلك الثقة وتحسينها يتطلب الاحتساب والعمل الاحتسابي علي المفسدين لتلك الثقة من أجل صمود القيم الدينية والاجتماعية . وعلي جميع مؤسسات الدولة . والتنظيمات السياسية والنقابية والاجتماعية وغيرها من التنظيمات العمل علي صيانة هذه القيم ودعمها.

وقد جاء في قانون (حماية القيم من العيب)^(١) أن حماية القيم الأساسية للمجتمع واجب كل مواطن والخروج عليها عيب يرتب المسؤولية السياسية وفقاً لأحكام هذا القانون^(٢)

فحفظ الثقة العامة مطلب أساسي والعمل علي حمايته يعد حفظاً لثروات الأمم . وتكفي هنا الإشارة لخطورة التلوث الاجتماعي بتلك الجرائم التي لا سبيل إلى علاجها إلا بالاحتساب على هؤلاء المفسدين

^١ صدر في ١٥ مايو ١٩٨٠

^٢ م ١ من قانون حماية القيم من العيب

أولاً : الحسبة أهم التدابير الاحترازية للوقاية من الجريمة .

الإسلام قبل أن يعاقب يضع الضمانات التي تجعل لجوء الفرد إلى الجريمة أمراً غير مبرر . لقد عالج الإسلام الأسباب والدوافع الاجتماعية للإجرام . ونظام الإسلام في منع الجريمة يعتمد على الجمع بين الرقابة الذاتية والخوف من الله والرقابة الخارجية وفاعلية المجتمع في مواجهة الجانحين ثم وضع الحدود بعقوبات صارمة حتي تكون زواجر وردعا لمن يفكر في الإقدام علي الجريمة .

وان كانت القوانين الوضعية الحديثة قد أخذت بفكرة التدابير الاحترازية وأصبحت جزءاً من سياستها الجنائية في مواجهة حالات الخطورة الإجرامية . بعد أن ثبتت عدم كفاية العقوبات في الردع العام والخاص . ويوقع القاضي تلك التدابير علي من ثبتت خطورته الإجرامية بقصد مواجهة هذه الخطورة^(١) فان النظام الجنائي الإسلامي كان له فضل سبق بوضع مبادئ تلك التدابير الوقائية في نظام الحسبة .

فكان من مهمات المحتسب النهي عن كل فعل أو سلوك يفض إلي الفاحشة . فكان يزجر النساء المتبرجات . ويمنع الاختلاط سداً للذريعة ومحافة الوقوع في جريمة الزنا . وعاقب شاربي الخمر لأنها أم الخبائث ومؤدية لكل الجرائم . وكان لعقوبة التشهير - كأحد العقوبات المخولة للمحتسب - أبلغ الأثر للوقاية من الجريمة والاحتراز منها وكذا عقوبة التوبيخ والإحضار لباب السلطان والنفي وغيرها .

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام في قاعدة الحسبة إن العقوبات الشرعية من متمات الاحتساب . فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية فان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . فإقامة الحدود واجبة علي ولاة الأمور ومنها عقوبات مقدره وغير مقدره . وهي (التعزيز) وتلك تختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر الذنوب وصغرها وبحسب حال المذنب .

^١ د/ محمود طه . المسئولية الجنائية عن فعل الغير في ضوء مبدأ شخصية العقوبة . كلية الحقوق طنطا . ص ٣٦ . ويطلق الفقه الفرنسي على التدابير الاحترازية اسم التدابير الأمنية .

والتعزير أجناس . فمنه ما يكون بالزجر بالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالضرب . مثل الضرب على ترك الصلاة أو ترك أداء الحقوق الواجبة كترك وفاء الدين مع القدرة عليه أو على ترك رد المغصوب ، أو أداء الأمانة إلى أهلها ، فإنه يضرب مرة بعد مرة حتى يؤدي الواجب .

والتدابير الاحترازية بعقوباتها التبعية والتكميلية تقوم على أساس أن هناك ظروفاً هي التي دفعت للجاني لارتكاب الجريمة . سواء أكانت اقتصادية أم اجتماعية أم تربوية ، والحسبة تعمل على علاج هذا الواقع فالمحتسب في السوق كان يمنع الغش والتحايل ولا شك أن الإنسان عندما يشعر بالظلم قد يدفعه ذلك إلى الجريمة .

الحسبة إذن تمنع الأسباب المؤدية للجريمة . والمحتسب ينهى عن مواقف الريبة ومظانها احترازاً من الجريمة قبل وقوعها .

ثانياً : معاصر الحسبة في الواقية من الأوبئة الاجتماعية

لا يكتمل تصورنا لمفهوم (المرض الاجتماعي) إلا إذا ركزت في محيلتنا الصورة التي رسمها الإسلام للمجتمع وهي صورة الجسد الواحد . تلك هي الصورة الجميلة التي جاء بها الإسلام لإسعاد الفرد والجماعة . وتتجمع وحدات هذه الصورة في شبكة العلاقات الاجتماعية الموجودة . وتنعكس على صفحة الواقع في شكل مزيد من التعاون والتعاطف والمودة والرحمة والنصرة وغيرها من الخصال الحميدة التي تزيد الصورة وضوحاً وبريقاً . وإذا ما رأينا الواقع يقر بغير ذلك فلا بد أن جسد الأمة يشتهي مرضاً اجتماعياً . وإذا كانت الأنظمة الحديثة تضع كاميرات لمراقبة سلوك الأفراد في الشوارع والميادين لتصوير المخالفين فإن نظام الحسبة الفريد يجعل تلك الرقابة داخلية أولاً بتنمية الوازع الديني ثم بالإنكار على المخالف في لحظة ارتكابه المخالفة فاعتبرت بلغة علم الاجتماع وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي المباشر .

وما احتلت الحسبة مكائنها إلا لارتباطها بمسيرة الحياة الاجتماعية
والممارسات اليومية . وفي ذلك يقول الشيخ المراغي : (موضوع الحسبة في النظام
الإسلامي مرتبط بأهم القضايا الجوهرية المتعلقة بإصلاح العمق الاجتماعي في
عقيدته وأخلاقه وسلوكه ، وفي عموم نظم حياته)^(١) وكانت الحسبة خط الدفاع
الأول في تعزيز الخير ودفعا للشر ، وعليها تقوم كثير من الأعمال الرقابية
والإجرائية التي من شأنها المحافظة على أمن واستقرار المجتمع .

ومقاومة الفساد والبلطجة وكل الأمراض الاجتماعية ليست بالأمر
السهل بل تحتاج إلى إعداد نفسي وعقيدة صحيحة لا تخشى أحد إلا الله . ولا
تخضع لأسطورة القوة ولا السكوت علي المنكرات .

والتأخر في مواجهة حوادث البلطجة الفردية هو الذي جعلها ظاهرة .
لذلك كان سوط المحتسب من أدوات المهمة ومن أساليب عقابه الضرب . فالعقاب
الجسدي غير المبرح وسيلة من الوسائل التربوية لتأديب المخالف وكفه عن ظلم
الآخرين . أنه حزم متبصر . وإيلام مقصود هدفه منع الجريمة لا التشفى بتعذيب
البشر .

وتعود محاسن الحسبة علي المجتمع . فلا شك أن زجر المجرمين يعني أمن
المجتمع وسلامته فهي تقمع الجريمة . وتمنع الأفراد من مواقف الريبة والشبهات .
وتقوم بدور الوقاية من الجريمة قبل وقوعها . فالحسبة ترصد الخطأ في أول أمره
حين تبدو أماراته ، ولا تنتظر حتى يستفحل فتكون المقاومة أصعب والخطر
أعظم ، ومن المعلوم أن أمراض المجتمع كالأمراض البدنية إذا تركت استفحل
أمرها وعز علاجها فالسلم سواء أكان محتسبا أم متطوعا بالحسبة يراقب
المنحرفين في غدوه ورواحه ليمنع جرائمهم قبل وقوعها . أو يوقف استفحال
خطرهما .

^١ الإمام أحمد المراغي . الحسبة في الإسلام . ٦٩٣ / مقال في مجلة الأزهر ١ / ٢ / ١٣٤٦ هـ

وان كان من أوضح سمات عصرنا السرعة في معظم مفرداته بما فيها المعاصي ، فلا يتناسب مع الجريمة السريعة إلا الحسبة ؛ لأنها موضوعة أصلاً لمحاربة المعاصي والمنكرات والتدخل السريع الذي كان المحتسب يقوم به كان يؤدي الغرض ؛ لأن الإجراءات والقيود أحياناً تكون في صالح الجريمة ، وبالتدخل السريع لمنع المنكر كانت الحسبة تحفظ المجتمعات .

تلك محاسن الحسبة في هذا المجال . وهي تعود على المجتمع بالأمن والأمان ، والوقاية من الجريمة ليست مقصورة على أجهزة العدالة الجنائية ، وإنما يشترك فيها كل مؤسسات المجتمع ، والتجريم الاجتماعي والشجب للسلوكيات التي تخرج على تقاليد المجتمع قد تمنع الفرد من سلوك بعينه لا لكونه حراماً أو يعاقب عليه القانون ، بل لأن هذا الفعل يشجبه المجتمع وينكر على صاحبه تصرفه .

الباب الثالث الحماية البيئية بين الواقع والمأمول

الفصل الأول: المبادئ البيئية وتأصيلها الشرعي

- مبحث تمهيدى
- المبحث الأول : مبدأ التنمية المستدامة
- المبحث الثانى : مبدأ الملوث يدفع
- المبحث الثالث : مبدأ الحيطه
- المبحث الرابع : مبدأ العدل البيئى
- المبحث الخامس : مبادئ أخرى متفرقة
- ♦ المطلب الاول : مبدأ الحق فى المعرفة
- ♦ المطلب الثانى : مبدأ الحق فى بيئة نظيفة
- المبحث السادس : المبدأ الإسلامى العام لإصحاح البيئة (لا ضرر ولا ضرار)

الفصل الثانى : الكون المنظور والحفظ المطلوب

- المبحث الأول : الهواء والحفظ المطلوب
- المبحث الثانى : الماء والحفظ المطلوب
- المبحث الثالث : الأرض والحفظ المطلوب
- الفصل الثالث : الجمال معيارية بيئية غائبة**

- المبحث الأول : الرؤية الفلسفية للجمال
- المبحث الثانى : نظرة فقهاء المسلمين للجمال
- المبحث الثالث : التربية الجمالية فى القرآن
- المبحث الرابع : التشريعات والمنظر الجمالى

الفصل الأول

المبادئ البيئية وتأصيلها الشرعي

المبادئ قواعد سلوكية تُبنى على قيم معينة . وتمثل بذلك نماذج لما يجب أن يكون التصرف من خلاله . كما يدل لفظ المبدأ على فكرة مسلم بها . تمثل منطلقاً لتفكير استدلالي ، أو فكرة تمثل أساساً لمنظومة متكاملة من المعارف . وتشبه القواعد العامة التي تنبثق منها قواعد أخرى فرعية .

وسوف نتناول في هذا الموضوع المبادئ التي استقر عليها العمل . وأكدها اتفاقيات ومؤتمرات دولية وهي (مبدأ التنمية المستدامة - مبدأ الملوث يُدفع - مبدأ الحق في المعرفة - مبدأ الحق في بيئة نظيفة - مبدأ الحيطة - مبدأ العدل البيئي - مبادئ أخرى متفرقة) ونختتم بالمبدأ الإسلامي العام لإصحاح البيئة (لا ضرر ولا ضرار)

المبحث الأول

مبدأ التنمية المستدامة

مما لا شك فيه أن المشكلات البيئية تتفاوت . حسب مفهوم التنمية التي يتبناها المجتمع . ونموه الاقتصادي . وسياسته الإدارية تجاه البيئة^(١) . والنموذج الاقتصادي المهيمن الليبرالية الرأسمالية أو نموذج الحداثة ، الذي يعتمد على الرفاهية الاقتصادية هدفاً له . وهو في سبيل ذلك يستنزف الموارد الغير متجددة لتحقيق تلك الرفاهية . وثم أنتج ثقافة تجارية مهيمنة . وخلق نزعة استهلاكية ترى أن مزيداً من استهلاك السلع المادية هو مصدر السعادة البشرية . مما يعني الصراع الشرس وإعطاء أولوية للمصالح الفردية على المصالح العامة . وتلك

^١ عصام الخناوي . قضايا البيئة والتنمية في مصر . الأوضاع الراهنة وسيناريوهات المستقبل . الناشر دار الشروق ٢٠٠١ ، ص ٤٥ .

العمليات والممارسات اليومية للسلوك الاستهلاكي غير الرشيد هي السبب في الدمار البيئي.

وأصبح التقدم يعني تحويل الموارد الطبيعية (بوساطة التقنية) إلى سلع استهلاكية. تتحول بشكل سريع جدا إلى نفايات. وأصبح الاقتصاد الناجح هو الاقتصاد الاستخلاصي المتوسع في إنتاج سلع مادية كثيرة للاستهلاك السريع. وفي ظل هذا الاقتصاد أصبح السوق هو الموجه لنشاطات المجتمع وطفعت معايير الحياة المسرفة المترفة علي كل الاعتبارات والقيم. وأصبحت النقود مؤشراً علي مكانة الفرد في المجتمع. حتى وصل دخل رجل من الطبقة المتوسطة إلى مستوى أعلى من مستوى احد أغنياء القرن الماضي.

وهيمن الاقتصاد علي القرار السياسي والبيئي. ونظر إلى البيئة علي أنها مصدر للموارد الوفيرة. ودفعت مجموعة هذه المعتقدات الي الأفكار الاستعمارية. هذا هو النموذج الإثمائي الذي أوصل دول الشمال للثراء والغني وحذت الصين حذوه أيضا.

والخلاصة أن أزمة البيئة الحقيقية أزمة في القيم السائدة (قيم الحدائة). التي هيمنت علي الثقافة الصناعية الغربية لقرون وتمكنت من صياغة المجتمع الحديث؛ لذا يمكن القول أن المجتمع الصناعي الحديث، وبخاصة منظومة قيمه ومعتقداته وبنائه السياسي هو سبب تدمير البيئة.

وإذا ما صح هذا الاستنتاج فان علاج المشكلة البيئية. لا بد أن ينبع من تغيير جذري لمنظومة القيم. وهذا ما أدركه العالم مؤخراً وادي إلي بروز نموذج إرشادي. وفلسفة تنمية جديدة. تعرف اصطلاحاً باسم (التنمية المستدامة) وما هي إلا خطوة علي طريق الإدراك الكامل علي نحو ما نرى في الصفحات المقبلة. وقد مهدت كثير من المناسبات والتقارير والممارسات السياسية الطريق لتطوير مفهوم التنمية المستدامة. فقبل عام ١٩٧٢ لم تكن العلاقة بين النمو الاقتصادي و-حماية البيئة علاقة توافق. بل كانت مشروعات التنمية تنجز دون اعتبار للبيئة.

حتى حذرت تقارير علمية من تدهور حالة البيئة - مثل تقرير نادي روما بعنوان (حدود النمو) ومقال بعنوان (مخطط للبقاء) وفي سنة ١٩٧٠ نشر نادي روما تقريراً تحت عنوان (أوقفوا النمو). وفي نفس العام عقد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة تحت شعار (نحن لا نملك إلا كرة أرضية واحدة) ومؤتمر آخر تحت شعار (أي عالم سوف نتركه لأطفالنا وأخر بشعار (التعمير بلا تدمير)

إلا أن صدور كتاب (مستقبلنا المشترك ١٩٨٧) يعد الولادة الحقيقية للمبدأ، وكانت البداية عام ١٩٨٣ عندما طلب الأمين العام للأمم المتحدة من رئيسة وزراء النرويج آنذاك (جرو هارلم بروندتلاند) تشكيل لجنة للبحث عن أفضل السبل التي تمكّن كوكبنا، الذي يشهد نمواً سكانياً متسارعاً من أن يستمر في الوفاء بالاحتياجات الأساسية، من خلال صياغة افتراضات عملية تربط قضايا التنمية بالعناية بالبيئة والمحافظة عليها، وترفع من مستوى الوعي العام بالقضايا ذات الصلة ومع نشر الوكالة (التي أصبحت تعرف بالوكالة العالمية للبيئة والتنمية، والمعروفة اختصاراً WCED) لتقريرها "مستقبلنا المشترك في عام ١٩٨٧م، الذي جاء متزامناً مع اكتشاف ثقب الأوزون أصبح مفهوم "التنمية المستدامة أو المتواصلة مفهوماً محورياً للتفكير المستقبلي"^(١)

المطلب الأول

مضمون المبدأ والانتقادات التي وجهت له

أولاً : مضمون مبدأ التنمية المستدامة:

الحق في التنمية^(٢) حق من حقوق الإنسان. وبموجبه يحق لكل إنسان ولكل شعب الإسهام في تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية.

^١ كالفرت، بيتر وسوزان كالفرت، السياسة والمجتمع في العالم الثالث: ترجمة عبد الله جمعان الغامدي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٢م. ص ٤٢٥

^٢ إعلان الحق في التنمية. نشر بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ٤١/١٢٨ في /ديسمبر

والتمتع بهذه التنمية التي يمكن فيها تفعيل حقوق الإنسان واخرى الأساسية تفعيلاً تاماً. والإنسان هو الموضوع الرئيس للتنمية. وينبغي أن يكون المشارك النشط فيها والمستفيد منها. ومن واجب الدول أن تتخذ خطوات، فردية وجماعية، نحو وضع سياسات إنمائية دولية ملائمة. بغية تيسير أعمال الحق في التنمية إعمالاً تاماً. وتشجيع المشاركة الشعبية في جميع المجالات بوصفها عاملاً مهماً في التنمية وفي الإعمال التام لجميع حقوق الإنسان.

وتكفل الدول المحافظة علي الطبيعة كجزء لا ينفصل من تخطيط النشاطات وتنفيذها. بإعانة الدول الأخرى خصوصاً البلدان النامية. من أجل دعم حماية البيئة والتنمية المستدامة^(١). وقد عد هذا المبدأ ثورة بيئية مقارنة بالثورتين الزراعية والصناعية اللتين كان لهما تأثير تاريخي هائل على الثقافة الإنسانية الكونية.

تم تعريف التنمية المستدامة في تقرير (بروند تلاند) علي أنها (التنمية التي تلبى احتياجات الجيل الحاضر دون التضحية أو الإضرار بقدرة الأجيال القادمة علي تلبية احتياجاتها)^(٢). ومفهوم التنمية المستدامة بهذا المعنى مفهوم مستقبلي. يجعل من تنمية العنصر البشري أول أهدافه. ويعمل علي الحفاظ علي رأس المال البشري والقيم الاجتماعية. و الحد من استنزاف الموارد الطبيعية. وتمديد الأفق الزمني لتلك الموارد؛ لأن دورة الحياة الإيكولوجية أطول من دورة الحياة الإنسانية. وأكد المبدأ علي أنه يجب أن لا ينظر إلى التنمية علي أنها مجرد معدل النمو في الدخل القومي، أو تراكم رأس المال، وإنما يجب أن تشمل الجوانب النوعية الأخرى. بمعنى أنه زاد التأكيد علي التنمية البشرية؛ لأن الإنسان هو هدف التنمية ووسيلتها^(٣).

^١ الملحق رقم ١ ملخص بالمبادئ القانونية المقترحة لحماية البيئة والتنمية المستدامة التي أقرها فريق الخبراء في قانون البيئة التابع للمؤتمر العالمي للتنمية الاقتصادية (مستقبلنا المشترك سلسلة (عالم المعرفة)

^٢ مستقبلنا المشترك سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٤٣

^٣ د. عصام الحناوي، قضايا البيئة في مئة سؤال وجواب، البيئة والتنمية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٣٤-٣٥.

ويبدأ مفهوم التنمية ذاته يتعد عن تركيزه علي نمو نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي واتخذ معني شمولياً . يشمل التحسين المستمر لنوعية الحياة^(١) . وظهر أيضا منهج اقتصادي أطلق عليه الاقتصاد البيئي في مقابل الاقتصاد التقليدي

فإن كانت الجامعات تدرس علم الاقتصاد علي أنه^(٢) العلم الذي يبحث في الاستخدام الأمثل للموارد المادية والبشرية . بهدف تحقيق أكبر ربح ممكن أو إشباع الحاجات الإنسانية بأقل تكلفة ممكنة فإن هذا المفهوم بدأ يتغير ؛ لأنه مفهوم لا يأخذ في الاعتبار الخسائر البيئية والتكاليف الاجتماعية فعند إنتاج أي منتج صناعي لا يحسب ضمن تكلفته سوى تكلفة العملية الصناعية . ولا يدخل في تلك التكلفة الأضرار بالبيئة التي سببها المنتج . فمثلا عائدات البترول تحسب في الاقتصاد التقليدي علي أنها دخل قومي . وقيمة مضافة في حين أنها في الحقيقة ربح ناجم عن استنزاف رأس المال الطبيعي . ولا تشكل قيمة مضافة ناجمة عن عمل إنتاجي .

وأدى ذلك إلي خلق نوع من المحاسبة يطلق عليه اسم المحاسبة البيئية . فإن كانت نظم المحاسبة التقليدية تعد استخراجاً أكبر للمصادر الطبيعية من المدخلات الإيجابية عند حساب الناتج القومي الإجمالي . فبحسب هذا المنطق يكون صيد أسماك أكثر . وقطع غابات أكثر . يزيد الناتج القومي بغض النظر عما تركه من آثار بيئية مدمرة . لذلك تفترض التنمية المستدامة أن تعكس النظم المحاسبية قدر الإمكان للأسعار الافتراضية للموارد الطبيعية^(٣)

وهذا المعنى الاقتصادي للتنمية المستدامة يركز علي الإنصاف للأجيال القادمة وأن يترك الجيل الحالي رصيلاً من الموارد . عن طريق الاستخدام الرشيد

¹ رشيد الحمد و محمد سعيد صباريني البيئة ومشكلاتها ، مرجع سابق

² د/ محمد عبد البديع . اقتصاد حماية البيئة . دار الامين للنشر والتوزيع . القاهرة ٢٠٠٣م . ص ٥٦ .

³ د/ محمد عبد البديع . المرجع السابق ، ص ٨٠

للموارد الموجودة . وإجمالاً يمكن القول بأن التفكير في الاستدامة أدى إلى فلسفة إنمائية جديدة.

ثانياً : الانتقادات التي وجهت للمبدأ:

أصبحت التنمية المستدامة هي التي تصبغ^(١) اليوم الجزء الأكبر من السياسة البيئية المعاصرة . وقد كان للعمومية التي اتصف بها المفهوم دوراً في جعله شعاراً شائعاً ويراقتاً . مما جعل كل الحكومات تقريباً تتبنى التنمية المستدامة كأجندة سياسية . حتى لو عكست تلك الأجندات التزامات سياسية متباينة جداً تجاه الاستدامة.

إلا أن محاولات إيجاد التوافق بين التنمية والبيئة لم تكن محاولات بريئة أو ذات جانب إنساني . بل جاءت بعد أن تأكدوا من أن مراعاة الاعتبارات البيئية من متطلبات التنمية خاصة . بعد أن أثرت المشكلات البيئية في إعاقه حركة التنمية . والأضرار بالموارد التي يعتمدون عليها فيها . كما كان البعض يرى المحافظة على الموارد الطبيعية إنما هي محاولة لإبقاء الدول النامية علي مستويات دنيا من التنمية كحديقة خلفية دائمة الخضرة للبلدان المصنعة^(٢)

ونجمل هذه الانتقادات في الآتي :-

١- ورد في أدبيات التنمية المستدامة تعريفات مختلفة ومتناقضة أحياناً فمفهوم التنمية وإن كان واضحاً إلا أنه فسر وطبق وفقاً لمنظورات مختلفة . مما تسبب في درجة عالية من الغموض . فما اعتبر مستداماً علي المستوى الإقليمي قد لا يكون كذلك علي المستوى المحلي بالإضافة إلي أن الذي يحكم علي نموذج التنمية المستدامة هو الجيل القادم لا الجيل الحالي.

^١ د/ عبدالله بن جمعان الغامدي أستاذ التنمية السياسية المشارك قسم العلوم السياسية . التنمية المستدامة بين الحق في استغلال الموارد الطبيعية والمسئولية عن حماية البيئة . مطبوعات جامعة الملك سعود .

^٢ رشيد الحمد ومحمد سعيد صابريني البيئة ومشكلاتها . ص ١٦٦

- ٢- المفهوم متمركز حول الإنسان (الأوربي خاصة) ، واستدامة المجتمع الإنساني وليس استدامة الموارد الطبيعية ونكران اي قيمة للموارد.
- ٣- الصعوبة في تسعير الأنظمة البيئية وتقدير الاحتياجات الإنسانية الحالية والمستقبلية ، وكيفية الوفاء ففي الحقيقة لا يمكن لأي تقدير لتلك الاحتياجات أن يكون موضوعيا ، بل هي محاولة محاطة بعدم الدقة.
- ٤- ومن المرتكزات الإستراتيجية للتنمية المستدامة هو النمو السكاني ، ومن ثم يجب ضبطه حتى لا يشكل ضغطا علي الموارد البيئية ، وذلك بدعم برامج تنظيم الأسرة خاصة في الدول النامية^(١)
- ٥- لم يحدد المفهوم برنامجاً عملياً لتحقيق التنمية المستدامة ، وسبل التعاون بين الدول لخدمة المستقبل المشترك . على الرغم أن مؤتمر قمة الأرض عام ١٩٩٢ أصدر برنامجاً لتدارك هذا التصور عرف باسم أجندة (٢١).
- ٦- في الواقع تفترض هذه الآليات تنسيقاً دولياً لا يمكن تحقيقه ، ويتأثر بعلاقات القوة بين الدول وداخلها .
- ٧- للشركات دورٌ حيويٌّ في تنفيذ خطط ومشروعات التنمية المستدامة ؛ لذلك هناك اتجاه متنامي لدى واضعي السياسات والإستراتيجيات في قطاع الأعمال بصفة خاصة وكافة المنظمات بصفة عامة لتطوير الأساليب الإدارية ، بحيث تتواءم مع مفهوم الاستدامة ، وتساهم في ترسيخه وتم تطوير العديد من المعايير لمساعدة الشركات في تحديد السياسات والأساليب والأهداف المثلى ؛ لخلق بيئة مستدامة للشركات والتزام القطاع الخاص بالعمل لصالح التنمية المستدامة مثل حوكمة الشركات والمسئولية الاجتماعية للشركات.
- إلا أن حقيقة مفهوم التنمية المستدامة لا يقتصر على إتباع الأساليب الإدارية البيئية فقط بل يشمل التركيز على إستراتيجية إدارية اقتصادية تتضمن

^١ قضايا بيئية معاصرة ، د/زين الدين عبد المقصود ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ص ٦٧.

منظوراً بيئياً واجتماعياً ومؤسسياً قوامه التنمية البشرية.^(١٠٠) لذلك فشلت مثل هذه السياسات بالتنبؤ بسلوك القطاع الخاص.

٨ - التنمية المستدامة داخل نظام الأمم المتحدة معقد ؛ بسبب وجود عدة وكالات في منظمة الأمم المتحدة تهتم من قريب أو بعيد بقضايا البيئة والتنمية . مثل (منظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة ، المنظمة العالمية للصحة ، برنامج الأمم المتحدة للتنمية إلخ..). ويضاف إلى ذلك ، عدد من البرامج والمنظمات الدولية وأمانات الاتفاقيات الدولية عن التغير المناخي و التصحر. والمنظمة العالمية للتجارة هي الأخرى لديها جهاز يختص بموضوع البيئة باسم لجنة التجارة و البيئة ٩ - خلقت عولمة الاقتصاد تزايداً في الاستثمارات لم يسبق له مثيل . وفي غياب قواعد دولية تم منح بعض المؤسسات التجارية الدولية غير التزيهة إمكانية استغلال الموارد الطبيعية والبشرية للدول السائرة في طريق النمو وأعطت للمستثمرين كل الحقوق.

فالمستثمر أياً كان بالتأكيد سوف يبحث عن المصلحة الذاتية والمتمثلة في تحقيق أكبر عائد اقتصادي ، حتى وأن اثر ذلك على المجتمع على المدى الطويل. ويتمثل دور التخطيط الحكومي في العمل على تحقيق مبدأ التوازن بين العوامل الاقتصادية والعوامل البيئية والعوامل الاجتماعية . وبالطبع يعتبر الوصول إلى نقطة التوازن بين هذه العوامل نوعاً من المثالية التي يصعب الوصول إليها^(١٠١) وإستراتيجيات العولمة المعاصرة لا تضع بين أولوياتها نظم ومعايير الحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية ، وكل اهتمامها هو إغراق الأسواق بالمنتجات الاستهلاكية . وإزالة العراقيل التي تحول دون ذلك ، وهو الأمر الذي يتنافى مع

(١٠٠) - برنامج الأمم المتحدة الإنمائي . تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٠ . وكالة الأهرام للإعلان.

ص ١٨

^١ د/ بدرية العوضي . الإطار القانوني لإدارة البيئة . قضايا بيئية . إصدار جمعية حماية البيئة الكويتية.

شعار التنمية المستدامة الذي يتشدد به البيئيون الغريون ؛ لأنه (أي الإغراق) يشكل اعتداء لا أخلاقيا على حقوق الأجيال القادمة.

١٠- والأهم من ذلك كيفية دمج مفهوم التنمية المستدامة في السلوكيات والآداب اليومية والفردية والجماعية ؛ فإن نجاح أو فشل أول ثورة كونية يعتمد بشكل حاسم على هذا الأمر .

فالتنمية هي نتاج ثقافي وفعل حضارى وإهمال البعد الثقافي للتنمية يجعلها تعالج الأعراض دون الأسباب ؛ لذلك لا يوجد حل واحد مناسب لكل مشكلات التدهور البيئي العالمي ، ونهج الحفاظ على البيئة الموجود فى الغرب (الذي تميل أغلب المؤسسات الدولية ، مثل الصندوق الدولي للبيئة و الاتحاد الدولي للحفاظ على البيئة و الموارد البيئية إلى توصيف نفسها من خلاله هو نتاج ثقافة معينة (أمريكية غالبا) ، ولهذا لا يمكن تصديره أو فرضه على مجتمعات أخرى لديها خبرات تاريخية و معايير ثقافية مختلفة.

ثالثا : حاجة المبدأ إلى التخطيط والمنهجية طويلة الأجل:

يتضمن الفصل الثامن من جدول أعمال القرن ٢١ المتطلبات الرئيسية اللازمة لدمج الأبعاد البيئية والتنمية عند صنع القرار وضرورة وضع إستراتيجيات وطنية للتنمية المستدامة .^(١)

ولا بد لجميع دوائر صنع القرار من أن تأخذ هذه المعايير في حسابها، ولا يتأتى ذلك إلا فى وجود الاستقرار السياسي ، بمعنى وجود نظام سياسي يشجع المشاركة والفكر النقدي وحرية التعبير. وبالطبع يعتبر الوصول إلى ذلك على المستوى الدولي نوع من المثالية يصعب تحقيقه.

رابعا : تأكيد المبدأ على حاجته لتقييم الدينونة.

وبينما تأخذ التنمية المستدامة أقصى درجات الأهمية في مستقبل هذا الكوكب ، تظهر أديان العالم كأهم الدعاة إلى الأخلاق البيئية على المدى البعيد.

¹ د/ بدرية العوضي ، مرجع سابق

وفي القمة الدولية للتنمية المستدامة عام ٢٠٠٢ في جوهانسبرج بجنوب إفريقيا، قام برنامج الأمم المتحدة للبيئة بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للثقافة والتعليم بعقد مائدة مستديرة على مستوى عال بعنوان (التنوع الثقافي والتنوع الحيوي من أجل التنمية المستدامة) من أجل جذب الاهتمام الكافي على أعلى المستويات السياسية إلى الحاجة إلى إدخال القيم الأخلاقية والروحانية في سياسات التنمية المستدامة. ومنها مؤتمر حوارات الكرة الأرضية في ليون في فرنسا فبراير ٢٠٠٢ بعنوان - العولمة - هل الأخلاقيات هي الوصلة المفقودة؟. والتركيز على الحاجة لنشر أخلاقيات جديدة للحفاظ على البيئة وإدارة البيئة بناء على فهم مشترك ومسؤولية أخلاقية من جانب جميع البشر، ليصبح ذلك جزءاً من التزامنا لجعل التنمية المستدامة واقعا.

وأصبح واضحاً أن التحول نحو الاستدامة المنشودة لا يبدو ممكناً بدون حدوث تغير رئيس وجذري على مستوى النموذج المعرفي السائد بعيداً عن قيم الحداثة، والاستغلال المتمركز حول الإنسان باتجاه بلورة نموذج معرفي جديد يتصف بالشمول وينظر للعالم كوحدة كلية مترابطة بدلا من أن يكون مجموعة متناثرة من الأجزاء،

و من هذا المنحى يبرز البعد الأخلاقي لقضية البيئة ؛ إذ لا يجوز لأي جيل، أو إذا أردنا الدقة: لا يجوز لقيادته السياسية المسئولة عن رسم السياسات الاقتصادية والاجتماعية وتطبيقها، أن تطلق العنان لجشعها أو جشع القطاع الخاص للكسب المادي السريع على حساب البيئة والمجتمع. ونوعية الحياة التي يورثونها للأجيال اللاحقة.

المطلب الثاني

الرؤية الإسلامية لمبدأ التنمية المستدامة

للإسلام رؤية تنموية ، تنبعث من فلسفته في العلاقة بين الإنسان والكون ومالكهما رب العالمين وهي تنمية بعيدة عن (الترف والغفلة) فالترف يؤدي إلي الفسق والغفلة تجعل الناس شيعا وأحزابا . وكلاهما يؤدي إلي هلاك الحضارات وزوال المجتمعات ^(١)

والأنماط الاستهلاكية هي الأسباب الأساسية لتراجع الموارد البيئية . ولا علاج إلا بالرجوع إلي السنة الحسنة في الاستهلاك فتغير الثقافة الاستهلاكية إحدى مدخلات حماية البيئة.

لقد ذهبت البيئة - في أغلب الأحيان - ضحية علي مذهب احتياجات لم يستفد من ثمارها القصيرة الأجل سوى جانب ضئيل من السكان . في حين أنه أسفر عن نتائج وخيمة لا يمكن تدارك بعضها ؛ وسبب ذلك أن مفهوم علاقة الإنسان بالبيئة يندرج في إطار نفعي صرف موجه نحو الاستغلال الاقتصادي وحده ^(٢)

لقد جاء في كتاب (إنقاذ كوكبنا) للعالم الدكتور مصطفى كمال طلبه أن العالم عام ١٩٩٠ صنع من السلع سبعة أمثال ما صنعه عام ١٩٧٠ . وأنتج من المعادن ثلاثة أمثال ما كان ينتجه في نفس الفترة ^(٣) ويشهد علي القوم شاهد منهم . فيقول (برجسكي) مستشار الأمن القومي للرئيس كارتر واصفا حالة المجتمع الأمريكي بأنه مجتمع (إباحية الوفرة) . ويقول آخر إننا نستهلك الآن في سنة

^١ أ.د/سيد دسوقي . رؤى إسلامية في التنمية التقنية المستقبلية . سلسلة دراسات إسلامية . تصدر عن وزارة الأوقاف المصرية ، العدد ١٠٣ ، ص ٥

^٢ د/ عادل ابو زهرة مطبوعات جمعية أصدقاء البيئة بالإسكندرية

^٣ د/ مصطفى كمال طلبه إنقاذ كوكبنا - التحديات والآمال بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية

واحدة أكثر مما استهلكه الإنسان منذ ميلاد المسيح حتى فجر الثورة الصناعية^(١).
ويقول الأستاذ الدكتور سيد دسوقي^(٢): (ولقد تبين لنا ونحن نتدبر في
هذه الأمور أننا أمام صراع النظم التنموية في العالم ولسنا أمام صراع الحضارات
كما يردد البعض). فهي نماذج تنموية تفرض علينا فرضاً ولا يتاح لنا أن نظور
تميمتنا الذاتية - بل هم عاقرو ناقة التنمية . وأسماهم (الثموديين الجدد) ويبدل
النظام العالمي الجديد جهداً إغوائياً لإقناعنا بتبني فكره التنموي .

في حين أن أنماط الاستهلاك الرشيد من المبادئ الأساسية في الإسلام .
الذي نهى عن الإسراف والتبذير فيما أنعم الله به على الإنسان من موارد البيئة ،
قال تعالى : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ^(٣) أن الإسراف
والتبذير ضرب من ضروب الفساد في الأرض المنهي عنه شرعاً ، وقال تعالى
(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ)^(٤) .

فالترشيد للمسلم أسلوب حياة ، لا ظاهرة مؤقتة . ولا شعاراً يُرفع عند
حلول الأزمات المادية أو نقص الموارد الطبيعية كالماء والطاقة وسائر الثروات ،
كرد فعل لها ، حتى إذا ما انقشعت سحب هذه الأزمات . وتبددت عاد الناس
أدراجهم . ونكصوا على أعقابهم يحيون إسرافاً وتبذيراً وإهداراً للموارد . كما أن
الترشيد لا يعني التقثير والبخل المذمومين . وإنما هو الاعتدال في كل أمر ، وعلى
أية حال ، وعلى هذا المبدأ تتضافر النصوص وتتوافر مينة أهمية الترشيد حتى
مع وفرة الموارد ، معرضة عن التبديد والتبذير ومنفرة منها ، وصدق الله العظيم

^١ د . رجب سعد السيد . أجراس الخطر وكوارث البيئة . مركز الكتاب للنشر ١٩٩٧ ص ٧٨

^٢ أ/د سيد دسوقي - رؤى إسلامية في التنمية التقنية المستقلة سلسلة دراسات إسلامية المرجع السابق .

ص ٥٤

^٣ سورة الأعراف الآية ٣١

^٤ سورة الشعراء . الآيات من ١٥٠ إلى ١٥٢

إذ يقول في قرآنه الكريم "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً"^(١). وقال صلى الله عليه وسلم (الاقتصاد نصف العيش وحسن الخلق نصف الدين)^(٢)

والإسراف ليس مجرد إهدار للمصادر بل هو في الوقت ذاته عدم احترام للخالق سبحانه، الذي هو صاحب كل هذه النعم وخالقها. والإسراف لا يؤثر علينا وحدنا، بل على الأجيال القادمة أيضاً. ولا تقوم مسئولية المسلم علي مجرد المسئولية تجاه الأجيال كما تعبر عن ذلك التنمية المستدامة بل هي أمام الله أولاً عن حفظه للكائنات والموارد الطبيعية. ويحكم الإنسان المسلم في كل موقف ميزان الضرر والنفع في الحال والمآل. والإنسان هو أساس التنمية وصانعها والمسئول عن استغلال الموارد^(٣)

بل إن الإسلام دعا إلى تنمية الموارد الطبيعية؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده. والبخاري في (الأدب المفرد) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها".

وحض الإسلام على استنبات الأرض، واستثمار الأراضي زراعياً يسمح بمجازتها، بناء على قول، رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (من غرس شجراً أو حفراً وادياً، بدءاً لم يسبقه، إليه أحد، ومن أحيا أرضاً ميتة، فهي له قضاء من الله، ورسوله)^(٤) وروي أن رجلاً مر بأبي الدرداء رضي الله عنه، وهو يغرس شجرة جوز) فقال: أتغرس هذه وأنت شيخ كبير، وهي لا

¹ سورة الفرقان، الآية ٦٧

² أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/٢٥ رقم ٦٧٤٤). وابن عساکر (٥٧/١٧٩) والبيهقي في شعب

الإيمان (٥/٢٥٤، رقم ٦٥٦٨)

³ برنامج العمل الإسلامي للتنمية المستدامة. المؤتمر الإسلامي الأول لوزارة البيئة ١٢/١٠/٢٠٠٢

⁴ مسند الامام احمد الحديث رقم ٢٧٤٣

ثمر إلا في كذا وكذا عاما؟ فقال: أبو الدرداء: ما عليّ أن يكون لي أجرها،
ويأكل منها غيري؟

إن البشرية اليوم في حاجة ماسة لتبني الدعوة الإسلامية إلى الاعتدال
ونبذ الإسراف؛ للحد من الضغط الشديد على موارد البيئة. لتظل قادرة على
العطاء، وتتفادى مشكلات خطيرة آخذة في التفاقم. نشأت من جراء لهاث هذا
الجيل وراء مصالحه دون اعتبار للمستقبل البشري العام.

والمسلم وهو يقرأ قول الحق عز شأنه (والأرض وضعها للأنام)^(١)
والأنام هم خلق الله منذ آدم حتى قيام الساعة فيعلم أن عليه دوراً لصالح
الأجيال القادمة. ولقد تجلّى هذا الفهم في سياسة عمر ابن الخطاب - رضي الله
عنه - في أرض السواد - الأرض الزراعية الخصبة في العراق - حينما فتحها
المسلمون. وأراد الجنود أن يقتسموها بينهم شأن بقية الغنائم. فرفض قائلاً: (إني
أريد أمراً يسع الناس أولهم وآخرهم) وقرر الخراج على هذه الأرض. وأن
يتركها في أيدي عمال يعملون فيها. ويؤدون ضريبة لبيت المال^(٢)

وقد استبطن هذا المبدأ من قول الله تعالى في تحديد العلاقة بين أجيال
الأمة المسلمة: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ
سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ..)^(٣). وحتى يحمل جيل
المستقبل انطباعاً جيداً عن الجيل الحاضر. ويحفظ له مكاتته ويستغفر له. ويحمل
له في قلبه أرق المشاعر. ينبغي أن يحس جيل الحاضر بهذه العلاقة المتبادلة. ويأثّر
تصرفاته على من سيأتي بعده. فلا ينتهب الموارد. ولا يبديد طاقات الحياة.

ويصدق نقول إنه في ظل غياب فلسفة إنمائية مستمدة من القرآن والسنة.
سوف تستمر محاولات إغوائنا بنظم تنموية لا تصلح لمجتمعنا فالتنمية مرتبطة

¹ سورة الرحمن الآية ١٠

² الاموال لابي عبيد القاسم تحقيق محمد خليل هراس دار الفكر القاهرة

³ سورة الحشر الآية ٥٩

ارتباطا وثيقا بمنظومة القيم . وبالأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع.

الفرع الأول

برامج التنمية المستدامة والتمويل

تعاني برامج التنمية المستدامة من قلة التمويل . لذلك تأسس صندوق البيئة العالمية عام ١٩٩٠ وتم تيسيره من طرف البنك الدولي لتمويل سياسة التنمية المستدامة وتتخذ المساعدات التي يمنحها الصندوق شكل أعمادات موجهة لمشروعات استثمارية طبقا لشروط خضراء للمانحين كضرورة تقليص غازات الاحتباس الحراري والحفاظ علي التنوع البيولوجي ، ورغم ذلك فان الآليات التي تم تصورها من أجل تمويل التنمية المستدامة لم تف بوعودها ، بل أصبحت وسيلة للضغط على الدول النامية .

ويتهم المانحون الحكومات المستفيدة باختلاس المساعدات المالية ، وبالمقابل توجه هذه الحكومات إلى هؤلاء تهمة التدخل في شؤونها ؛ ولذا حلت المساعدة الخصوصية بديلاً للمساعدة العمومية ، وكان انتقاء مشروعات من القطاع الخاص لتقديم المساعدات لها بدلا من تقديمها للدول .

وخلال ندوة ريو ، اعتبر نقل التكنولوجيا^(١) بين بلدان الشمال و الجنوب أحد مفاتيح التنمية المستدامة في البلدان النامية ، كما استخدمت الإعانة العينية بمعنى حمل البلد المستفيد على شراء سلع وخدمات من البلد المانح (الإعانة المقيدة) واستخدمت مبادلات الدين مقابل حماية الطبيعة على إثر إلغاء نادي باريس لجزء من ديون البلدان النامية وإدراكا منه أن القروض التي منحها للبلدان الأكثر فقرا يستحيل تسديدها كاملة .

¹ انظر في نقد نقل التكنولوجيا ، تأملات في التكنولوجيا والتنمية من منظور حضاري ١- د / حامد إبراهيم الموصلي أستاذ بكلية الهندسة جامعة عين شمس . نشر مركز دراسات العالم الإسلامي ،

وقد عالج الإسلام هذه الإشكالية بنظام فريد . هو من خصائص أمة محمد - صلي الله عليه وسلم - إلا وهو نظام الوقف . وفي ذلك يقول الإمام الشافعي : (لم يجبس أهل الجاهلية داراً ولا أرضاً فيما علمت)^(١) ويقول الإمام النووي إنه مما اختص به المسلمون . ولقد شمل الوقف الإسلامي كل مناحي الحياة بما في ذلك جوانب التنمية^(٢) والمحافظة علي سلامة البيئة وبحفل التاريخ الإسلامي بأسماء الكثير من الشخصيات التي كانت لها إسهامات بارزة في مجال الأمن المائي وتأمين مصادرة للمسلمين .

واستغلت أموال الوقف الإسلامي في تحقيق التنمية المستدامة وفي المحافظة علي البيئة وإحيائها الأمر الذي يمكن اعتباره بحق مفخرة من مفاخر حضارتنا الإسلامية .

ومن محاسن الوقف انه أسهم في حفظ الأصول المحبوسة من التلاشي ، وأعطى الأولوية في الصرف للمحافظة عليها وإثرائها . قبل الصرف على الموقوف عليهم ، كما أنه أسهم في توزيع جانب من المال على طبقات اجتماعية معينة ، فأعانهم على قضاء حوائجهم ، وأوجد طلباً على السلع المشبعة لتلك الحاجات . الأمر الذي ساعد على تدوير رأس المال وإنعاش حركة التجارة ، وقد خصصت بعض الأوقاف لمساعدة أصحاب المشروعات الصغيرة وتعددت جوانب الوقف . فكانت هناك أوقاف لتوفير البذور الزراعية ، ولشق الأنهار ، وحفر الآبار وغيرها ولا يخفى أثر ذلك في زيادة معدلات الإنتاج ، وتوفير فرص عمل لكثيرين . وقد أسهمت الأوقاف الكثيرة في تخفيف العبء الملقى على كاهل الدولة والمتعلق بتنفيذ المشروعات العامة كالمدارس والمعاهد والمستشفيات ، وهي مشروعات تستنفذ معظم دخل الدولة . فضلاً عن ذلك فإن الأوقاف خففت من معدلات الإنفاق الرسمي العام على الوظائف :

¹ تحرير أفاظ التبيه المؤلف : يحيى بن شرف بن مري النووي أبو زكريا . الناشر : دار القلم -

دمشق

² مجلة الوعي الإسلامي الكويت العدد رقم ٤٩٣ بتاريخ ٢٣/١٢/٢٠٠٦

ولأن التنمية في نظر الإسلام لا تتحقق إلا مع التنمية البشرية، جنباً إلى جنب في إطار واحد متكامل. ولتحقيق هذا الهدف العام (أي التنمية البيئية والبشرية) راعى الإسلام في تشريعه ضرورة المحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وهي الكليات الخمس الضرورية للحياة الاجتماعية والبيئية في نظر الإسلام. في أي زمان وفي أي مكان من العالم. وجميع هذه الكليات متداخلة بعضها في بعض وملازمة للإنسان ملازمة روحه لجسده. وبدون المحافظة عليها لا تعمّر الأرض. ولا تتحقق الخلافة الشرعية التي أرادها الله للإنسان بقوله عز وجل للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة)^(١)؛ لأن عمارة الكون لا تتحقق بدون التنمية البشرية. وهذا أمر مجزوم به عقيدة وشرعية. مما يوجب الربط التام بين التنمية البيئية والتنمية البشرية في جميع مجالات التخطيط والتشريع والتنفيذ والتطبيق على حد سواء.

الفرع الثاني

كفاية الموارد البيئية وديمومتها.

تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية وعداً صادقاً لبني آدم إن هم عمروا الأرض بالإحسان وتعهدوها بالإصلاح وحافظوا علي عناصر بيئتها من التخريب والتدمير والإفساد أن تظل هذه البيئة تنفجر بالخيرات وتجوّد بالأقوات. وتضمن لهم رغد العيش وطيب المقام لا يخشون فيها جوعاً ولا ضنكاً إلي أن يأذن ربها بفساد العالم^(٢)

وجاءت الآيات القرآنية مؤكدة تكفل الله بالأرزاق وإرسالها الدائم حتى يتمكن الإنسان من أداء دوره الاستخلافي. وهو آمن أنها لن تلقي به إلي المجهول

¹ سورة البقرة/ الآية ٣٠

² أ.د/محمود أحمد أبو ليل، حماية البيئة في الشريعة الإسلامية، مجلة الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية، المجلد الرابع، عشريناير ٢٠٠٢، ص ١٢١.

إن هو دأب علي استثمارها وتنميتها وتفنن في استغلال مواردها والانتفاع بها قال تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا علي الله رزقها)^(١) وقال عز وجل (وقدر فيها أقواتها)^(٢)

معنى ذلك أن الغذاء الموجود على الأرض يكفي كل البشر .. منذ عهد سيدنا آدم الى أن تقوم الساعة والقضية هي سوء التوزيع لا نقص الغذاء . وهذه الدول والحدود هي التي صنعت المشكلات في العالم . وهي سبب الحروب . والظاهر للعيان أن هناك دولاً غنية قليلة العدد كثيرة الخير .. وهناك دول فقيرة كثيرة العدد قليلة الخير . وهذا سببه عدم تطبيق منهج الله كما أراده أن يطبق .. ولو أن الأمور تركت كما شرع لها الله . لعاد التوازن . ووجد كل إنسان ما يحتاجه من غذاء دون ذلك الشقاء الذي هو فيه الآن.

فالبينة العامة بطبيعتها تحقق مبدأ الاستدامة الكامل ؛ لأنها من صنع الخالق عز وجل لتخدم الأجيال بعد الأجيال إلى قيام الساعة . وبالتالي يجب أن يكون تدخل الإنسان أو الجهاز التخطيطي فيها مبنياً على مراعاة ذلك . وأي خلل في النظام البيئي يؤدي إلى مشكلات قد لا تظهر في حينها وإنما على المدى الطويل.

وقدر الله أن تتنوع مظاهر هذه الكفاية متدرجة مع نشاط الإنسان العمراني وترقيه في سلم التقدم المادي الذي يفتح له باستمرار أبواباً جديدة للرزق . وتتكشف له موارد غنية للانتفاع مما يدل علي أن بعض عناصر البيئة القابلة للاستثمار ظاهرة ميسرة للإنسان . بينما بعضها كامن لا يتمكن الإنسان من الاستفادة منه إلا إذا حان الوقت الذي قدره الله لها^(٣) وهو ما أشار إليه

¹ سورة هود الآية ٦

² سورة فصلت الآية ١٠

³ د/عبد المجيد النجار . قضايا البيئة من منظور إسلامي . الناشر مركز البحوث والدراسات . مصر

القرآن في قوله تعالى (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)^(١)

وفي قوله عز وجل (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)^(٢) أنه رزق في البيئة موفور من غير نفاذ . لكن بعضه منظور ناجز وبعضه خفي مقدر ظهوره بأوقات تقتضيها الحكمة^(٣)

وهذه التوجيهات تبين لنا أن الإسلام وضع المبادئ التي يقوم عليها التصور الإسلامي للبيئة . وأرسي القواعد العامة التي تضبط سلوك المسلم البيئي . وتوجه نشاطه الفكري الذي يعد الصورة الأصلية لنشاطه المادي والوجه الثاني له ؛ لما بينهما من الاتصال العضوي والتفاعل المستمر . مينا أن عمارة الأرض هي الرصيد الذي يحمله معه إلي أخراه باعتبار أن أعماله في اخياة الدنيا أعمال تعبدية يبتغي بها وجه الله (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)^(٤) .

المبحث الثاني

مبدأ الملوث يدفع

قامت السياسة البيئية لعدد كبير من الدول المتقدمة في السبعينيات على أساس المبدأ القائل (من يلوث يدفع) . ويراد بهذا المبدأ تحميل الصناعات الملوثة للبيئة عبء التكاليف الاجتماعية و الأضرار التي يحدثها التلوث .

¹ الحجر ١٩ - ٢٠ - ٢١

² سورة الشورى الآية ٢٧

³ د/ عبد المجيد النجار ، مرجع سابق ، ص ١٤١

⁴ سورة الملك الآية ٢

ويلقى استخدام الضريبة في مكافحة التلوث وحماية البيئة تأييداً واسعاً من قبل الاقتصاديين المعاصرين ، وهم يفضلونها على السياسات البديلة المقترحة لحماية البيئة . لا سيما تلك السياسات التي تنطوي على الرقابة الحكومية المباشرة . وفي ظل هذه الضريبة تدفع المنشآت الملوثة للبيئة مقابل الأضرار . وعندما يتحدد سعر الضريبة على أساس الضرر الذي تحدثه المنشآت في منطقة معينة فإن ذلك يكون حافزاً للصناعة على تقليل ما تقذفه إلى البيئة من وحدات التلوث .

ويقصد بمبدأ الملوث الدافع إدراج كلفة الموارد البيئية ضمن ثمن السلع أو الخدمات المعروضة في السوق ؛ ذلك أن إلقاء نفايات ملوثة في الهواء أو المياه أو التربة هو نوع من استعمال هذه الموارد ضمن عوامل الإنتاج . وينبغي أن يدخل استعمال هذه الموارد الطبيعية في كلفة المنتج أو الخدمة المعروضة .

حيث يعتبر الاقتصاديون أن سبب تدهور البيئة يعود إلي مجانية استخدام الموارد البيئية التي تدخل ضمن عوامل الإنتاج مما يؤدي إلي هدرها . لذلك أخذ بمبدأ الملوث الدافع كنظام للتحفيز المالي البيئي .

أولاً : فرضيات المبدأ .

الطبيعة الجماعية والمشاركة للملكية الموارد الطبيعية تؤدي إلي الإفراط في استخدام الموارد النادرة ، وتبديدها في حين أن اقرار وتحديد حقوق الملكية يؤدي إلي تحسين في استخدام تلك الموارد . لكن الصعوبة تكمن في أن بعض الموارد الطبيعية يصعب تحديد حقوق الملكية عليها كالهواء والماء .

والمستهلك لا يستخدم الموارد البيئية بعقلانية إلا إذا طبق السعر الحقيقي للسلعة أو الخدمة . ومن أجل تحفيز المستهلك على احترام البيئة عن طريق الضرائب البيئية و الرسوم لتغذي صناديق خاصة بحماية البيئة . ومن أجل تحقيق أهداف بيئية .

ثانيا : صعوبات مبدأ الملوث يدفع^(١)

مازال حول المدخل الضريبي في مكافحة التلوث وحماية البيئة جدل قائم . وهو ما يفسر توجه الصناعة إلي مناطق تنخفض فيها معدلات الضريبة . أو لدول ليست لديها تشريعات بيئية وقيود صارمة . وهذا ما يفسر إقبال كثير من الشركات علي مصر لإقامة مشروعاتها الصناعية . وترحب الدول بذلك تحت حجة تشجيع الاستثمار . ومن هذه الصعوبات :-

- ١- استحالة التقييم النقدي لكثير من الخسائر التي يمكن التنبؤ بها.
- ٢- صعوبة التحقق من هوية الملوثين ومراقبتهم . بل غالبا ما يكون هذا مستحيلا .
- ٣- تطبيق هذا المبدأ لا يحقق العدالة بمفهومها القانوني في كل الحالات . بل يعتمد علي المعيار الاقتصادي خاصة عندما يكون التلوث ناتجا عن فعل سابق أو عندما تكون هناك عوامل مختلفة مشتركة في إحداث التلوث.
- ٤- هل هو مبدأ الملوث الدافع أم مبدأ المستهلك الدافع؟ . إذ يترتب علي استخدام المدخل الضريبي نقل عبء الضريبة إلي المستهلك . أو تخفيض الأرباح الموزعة علي العاملين . وكلاهما تعارضه القوى الاجتماعية .
- ٥- وفي حالة التلوث العابر للحدود يصعب تحديد البلد الملوث . ويصعب إجباره علي دفع الرسوم البيئية . أو حتى أتباع سلوك بيئي معين.
- ٦- نظام الرسوم الإيكولوجية لا تقابله خدمات في مجال حماية البيئة . وقد تستخدم حصيلة تلك الرسوم لإغراض أخرى كسد عجز الميزانية مثلا.
- ٧- يستطيع الملوثون رشوة المتضررين من التلوث لقبوله . كما يستطيع المتضررون من التلوث رشوة الملوثين لتقليله . وتلك المساومة الاختيارية لا تخفض التلوث.

^١ المستشار أسامة محمد عبد العزيز . نحو سياسة جنائية لحماية البيئة . رسالة دكتوراة جامعة الإسكندرية . أشرف ا.د/ جلال ثروت ، ص ٢٨٣ .

ثالثاً : نظائر مبدأ الملوّث يدفع في الشريعة

للبيئة ومصادرها الطبيعية دور في تأمين احتياجات الإنسان بشكل مباشر. دون تدخل منه . وفي الشريعة الإسلامية نجد أن كلفه الموارد تتدخل في تحديد مقدار الزكاة الواجب على الفرد حيث ورد عنوانان يوضحان عامل البيئة ودور مصادرها ذات الصفة المباحة للاستهلاك المباشر. وهما: مصطلح السائمة في الأنعام . ومصطلح السيحة في الغلات^(١)

فأما الأنعام فهي الإبل والبقر والغنم فليس في شيء منها زكاة إلا إذا كانت سائمة . أي إذا كان اعتمادها في علفها على المراعي الطبيعية البيئية . التي لا تخضع لجهد الإنسان ومباشرته لزراعتها . ويكون قد حال علي الانعام الحول فصاعداً . أما المعلوفة فليس في شيء منها زكاة على حال من الأحوال .

وأما الغلات الخنطة والشعير والتمر والزبيب فليس في شيء من هذه الأجناس زكاة ما لم يبلغ (خمسة أوسق) وهو ستين صاعاً ، بعد إخراج مؤنته ومؤنة عياله . فإذا بلغ هذا المقدار وزاد كان فيه العشر إن سقي سيقاً وشرب بعللاً . وهوان يشرب النبات بعروقه كالنخل أو من نهر أو عين أو سماء من غير سقي . وإن سقي بالقرب والدلاء والدوالي والنواضح . وما أشبه ذلك كان فيه نصف العشر وإن كان مما سقى سيقاً وغير سيق اعتبر الأغلب . ونفهم من هذه الأحكام مدى تأثير دور البيئة في تحديد مقدر الزكاة .

ومما يؤكد هذا الفهم أن من المبادئ الأساسية للنظام الاقتصادي الإسلامي مبدأ "الغنم بالغم"^(٢) وهو مبدأ يقرر العدل في المعاملات وإن الحقوق متبادلة إذ لا يصح أن يضمن الإنسان لنفسه مغنماً ويلقى الغرم على عاتق غيره . فالمغتم والمغارم موزعة على أطراف العملية الاستثمارية .

¹ الشيخ محسن آل عصفور. الأصول الأيدلوجية البيئية في الإسلام - ورقة قدمت الى المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي . جةة . بتاريخ الموافق ٢٣ - ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٠م في المملكة العربية السعودية موقع الشيخ .

² مجلة الاحكام العدلية العثمانية ، م٨٧ .

ومبدأ الملوث يدفع ما هو إلا ترديد لقاعدة (الغنم بالغرم) . وهذو القاعدة مَعْنَاهَا أن التكاليفات والغرامات التي تترتب على الشئ . تجب على من استفاد مِنْهُ وانتفع به . مثال ذلك فى الفقه الاسلامى (نفقة رد العارية على المستعير لأنه هو الذى انتفع بها - ونفقة رد العارية على المودع لأنه هو الذى استفاد من حفظها . وكذلك أجرة كتابة عقد الملكية على المشتري ؛ لأنها توثيق لانتقال الملكية إليه وهو المستفيد من ذلك.

المبحث الثالث

مبدأ الحيطة

تدابير حماية البيئة إما أن تكون علاجية أو وقائية . ومنذ أن تفتن الإنسان لحدود معرفته . وللأخطار التي قد يلحقها بيئته . ظهر هذا المبدأ لدرجة أنه فاق فى شهرته كثيراً من المبادئ الأخرى . واتهمت له السياسات البيئية . وتبنت نظرة احتياطية . والأخذ بعين الاعتبار لهذا الاحتمال دون انتظار الدليل العلمي القاطع .

وظهر المبدأ تدريجياً ضمن قرارات بعض الأنظمة الدولية . كبرنامج الأمم المتحدة للبيئة . وفى كثير من الاتفاقيات لا نجد لفظ (الحيطة) إلا أن فكرة الاحتياط حاضرة . حتى جاء إعلان ريو المؤرخ فى ١٣/١٩٩٢ . لينص على أن الدول يجب أن تتخذ تدابير احتياطية حسب قدراتها .

وأخذ النهج الاستراتيجي للإدارة الدولية للمواد الكيميائية باعتماد مبدأ الأخذ بالأحوط والذي يندرج تحته كل الإجراءات الوقائية التي يمكن اعتمادها عند وجود سبب . وحتى فى حالة عدم وجود دليل حاسم على العلاقة ما بين نشاط معين وتأثيره الضار.^(١)

^١ النهج الاستراتيجي للإدارة الدولية للمواد الكيميائية . نيروبي ، ٤ - ٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤

وهذا المبدأ يلعب دوراً مهماً علي مستوى الصحة الإنسانية وحماية البيئة . ويوجب تحسس المسؤولين والمواطنين للخطر المحتمل . فالمبدأ يعترف بعدم اليقين العلمي . لذا يدعو إلي أخذ الحيطة في مواجهة أخطار لا تزال مجهولة أو غير معروفة بشكل جيد . فالمبدأ في تطور مستمر وفقاً للتطورات العلمية لسد النقص في المعطيات الغير مؤكدة .

والأخطار علي أوجه ثلاثة :

- ١- الأخطار المؤكدة والخاصة لمبدأ الوقاية .
- ٢- الأخطار التي يمكن احتمالها وهي التي يحددها القانون . ويضع لها الحدود العتبية^(١)
- ٣- الأخطار غير المؤكدة ، التي هي من اختصاص مبدأ الحيطة .
ومن تطبيقات هذا المبدأ التعليمات التي أصدرها مجلس الجماعة الأوروبية بخصوص استعمال الأجسام المعدلة وراثياً^(٢) .
التعليمية الأولى - تتعلق بالتجارب المخبرية التي لا يجب القيام بها إلا بعد تقييم الأضرار المحتملة لها .
التعليمية الثانية - مع افتراض إدخال الأجسام المعدلة وراثياً للسوق . لا ينبغي أن يتم هذا إلا بتصريح مسبق . وفي حالة الحصول علي معلومات جديدة تتعلق بخطورتها يجب جمعها من السوق فوراً .
ويدلل هذا علي أن هناك تغيراً حقيقياً لا علي المستوي العلمي وحسب بل علي المستوى القانوني أيضاً . وأصبح القانون يتخوف من الخطر المجهول لا من الخطر المعلوم وحده^(٣)

^١ ملحق رقم ٧ قانون البيئة المصري

^٢ رسالة ماجستير . الجزائر . جامعة بن عكنون إعداد فريدة تكارلي بعنوان . مبدأ الحيطة في القانون الدولي للبيئة .

^٣ مبدأ الحيطة . المرجع السابق

ويعد تقييم الأثر البيئي أحد آليات تطبيق مبدأ الحيطة ؛ فإثبات أن المشروع المزمع إنشاؤه ليست له أضرار محتملة علي البيئة يقع عبء إثباتها علي صاحب المشروع . وانقلاب عبء الإثبات هنا يعد ظاهرة جديدة في القانون إذ أن من يدعي واقعة ما عليه إثباتها . لكن مبرر هذا هو أن المعلومات الخاصة بالمشروع يستحوذ عليها صاحب المشروع . والنظرة الاحتياطية تقتضى إنجاز تقييم مسبق ودراسة الانعكاسات المباشرة والغير مباشرة علي البيئة . وتلك الدراسة تسهل تطبيق مبدأ الحيطة.

وهناك فارق بين الحيطة والوقاية . فمصطلح الوقاية متعلق بتدارك الأخطار المعروفة . بينما مصطلح الحيطة لا يتطلب معرفة عامة بمحدوث الخطر الذي ينوي حمايته بل الوقاية من الأخطار المستقبلية الغير معلومة لدينا . ولذلك قيل إن كل المبادئ مستوحاة من مبدأ الحيطة وأطلقت أمريكا علي العمل بالمبدأ (سياسة عدم الندم) وتطبيق هامش أمن لا بأس به .

وتحليل عبارات هذا المبدأ من النصوص يظهر شروطا لتطبيقه . ورغم وجود صيغ وعبارات متعددة إلا أن الشروط ثابتة ومنها . عدم وجوب الإثبات العلمي . فعدم اليقين حول نتائج العلوم أصبح جزءاً من طبيعة العلوم الطبيعية ؛ لذلك وجب الأخذ بعين الاعتبار لهذا الريب حول احتمال حدوث ضرر جسيم وإن عدم وجود أدلة علمية قاطعة لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للتكاسل فى الإجراءات ، حينما تكون هناك أعراض خطيرة أو غير قابلة للمراجعة .

وبعض الفقه لا يعد المسؤولية علي أساس الاحتياط مسئولية بمفهوم القانون المدني . بل هي مجرد أخلاقيات جديدة للمسئولية ؛ لأنها تختلف في أساسها عن المسئولية التقليدية التي تقوم علي علاقة السببية و لا تتناول ما ارتكب من أخطاء . وإنما ما ينبغي فعله في حدود المقدرة مع إفساح المجال للسلطة التقديرية للإدارة . لذلك أعتبر محتوى غامض أو مجرد مسئولية أخلاقية^(١)

^١ د/ أحمد عبد الكريم سلامة . المبادئ والتوجيهات البيئية في أعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية .
المجلة المصرية ١٩٩٤ العدد ٥٠ ، ص ١١٩ - ١٤٢

ومن اجل تأصيل هذا المبدأ يكفى أن انقل عبارة الأمام الشاطبي وقوله (اعتبار المآلات فى النظر إلى الأفعال والحكم عليها) . فالفعل إذا كان يؤدى إلى المفسدة على وجه الغلبة والكثرة وجب الامتناع عنه^(١) بالإضافة إلى القواعد الفقهية التى توجب سد الذريعة ووجوب اخذ الحذر (خذو حذرکم) . وقاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصلحة.

المبحث الرابع مبدأ العدل البيئي

من الحقائق التى تتجلي من خلال هذه الدراسة تدريجياً أن التدهور البيئي ليس إلا عرضاً لكارثة أكبر وأكثر إفزاعاً . هى أن المجتمعات البشرية لا تعيش طبقاً لإرادة الله ؛ فليس هناك العدل فى تعامل البشر بعضهم مع بعض ومع الله . ذلك العدل الذى هو قوام الدنيا والدين . وسبب صلاح العباد والبلاد . وأن تلك الحماية البيئية المنشودة يجب إسنادها لمبدأ العدل البيئي.

ويقصد بالعدالة البيئية : اتخاذ الإجراءات القانونية للحيلولة دون نشوء بؤر للتلوث البيئي فى المناطق التى تسكنها الطبقات الفقيرة . بحيث تكون المؤسسة البيئية مسئولة عن ضمان محاربة بؤر التلوث . والحيلولة دون نشوئها . من خلال منع تركيز النشاطات الملوثة للبيئة فى مناطق سكن الطبقات المعدمة ؛ ذلك أن تركيز النشاطات الملوثة فى أماكن عيش الطبقات الفقيرة ، بشكل يبدو معه المجتمع - ممثلاً فى المؤسسة البيئية - وكأنه يعاقب مجموعة من أبنائه على فقرهم ، او انتمائهم لشريحة معينة ، أو حتى إيمانه بثقافة معينة ، من خلال الموافقة على إقامة النشاطات الملوثة للبيئة فى هذه المناطق تحديداً بدلا من اختيار مواقع بديلة بعيداً عن المناطق السكنية مما يحقق ركن الاستهداف وهو الركن الأول من أركان انعدام العدالة البيئية . بمعنى ان المجتمع - بشكل مباشر أو غير مباشر -

^١ الشاطبي . الموافقات . مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١٩٤

يستهدف أبناء طبقة معينة أو شريحة معينة داخله ؛ لتكون النتيجة انه لا يبالي بصحة أبناء هذه الشريحة وسلامتهم^(١)

إلا أن المشاركين في ورشة عمل العدالة البيئية في ديسمبر عام ٢٠٠٣ في وسط وشرق أوروبا في بودابست^(٢) أضافوا محورين آخرين لمفهوم العدالة البيئية :

١ - التوزيع العادل للموارد الطبيعية بين أبناء المجتمع بحيث يصبح لكل مواطن وبدون تمييز الحق في الحصول على مورد مائي نقي فضلا عن العيش في منطقة هواؤها نقي وترتبتها صالحة.

٢ - إشراك المواطنين كافة وبدون تمييز في اتخاذ القرار البيئي . وإتاحة المعلومات اللازمة أمامهم لاتخاذ القرار السليم. ذلك أن كثيراً من الفقهاء يعزو مشكلات انعدام العدالة البيئية إلى عدم مشاركة هذه الطبقات في القرار السياسي . مما يسهل استهدافهم.

وبينما لا يزال المجتمع الإنساني يكافح من أجل تحقيق هذا العدل . وتجعل (الأجندة ٢١) المبدأ الأول هو العدل البيئي . وتظهر تطلعات عريضة حول الحق في الهواء النظيف والمياه النظيفة والتربة الخصبة . نجد الإسلام أقر مبدأ العدل بين الناس في الانتفاع بالموارد البيئية دون تفرقة بين جنس وجنس أو مؤمن وكافر في العطاء المادي . وانظر إن شئت قوله عز شأنه (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دُلُولًا فَامْشُوا فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)^(٣)

فمرافق البيئة في التصور الإسلامي ملك مشاع بين بني الإنسان ، ليس لأحد أن يحتكر منه شيئاً لنفسه لأي سبب ديني أو عرقي أو اجتماعي . وشرط الانتفاع أن يكون على قدر الحاجة دون إهدار للموارد.

^١ الأستاذة الدكتور . مشكاة المؤمن أستاذ زائر بمؤسسة القانون البيئي واشنطن وزير البيئة السابق بالعراق .العدالة البيئية نظرة مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية و الحضارة الغربية .موقع التاريخ الإسلامي.

^٢ الفلسفة البيئية . ج٢ سلسلة عالم المعرفة ٣٣٣ ترجمة منير شفيق رومية.

^٣ سورة الملك : الآية ١٥

وتأتي السنة لتنظم مجتمع المسلمين . فيقول الرسول الكريم : "المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكلا والنار" وتلك هي المرافق البيئية الكبرى متمثلة في الماء والغطاء النباتي ومصادر الطاقة. وتلك الشراكة حق لا يغيره تداول الأيام بل هو حق أبدي وراسخ لسبب بسيط . هو أن ضمان هذا الحق شرط لوجود المجتمع البشري . ويقع علي عاتق بني البشر تحقيقه وتطبيقه في كل عصر . لان الانحراف بمبدأ الانتفاع بموارد البيئة يؤدي إلى الغبن البيئي .

أما عن نشأة مفهوم العدالة البيئية في الحضارة الغربية فبدأ في الولايات المتحدة الأمريكية . في مطلع الثمانيات ^(١) حين بدأت الجمعيات البيئية تلاحظ أن المصافي والمعامل . وغيرها من المنشآت التي تنجم عنها عوادم خطيرة على صحة الإنسان تبني في المناطق الفقيرة التي تسكنها أغلبية ساحقة من الأفارقة الأمريكيين . بحيث تنفث هذه المعامل سمومها و تطرح فضلات التصنيع في هذه المناطق . بشكل ازدادات معه الإصابات بالتدرن الرئوي والربو وغيرها من الأمراض بين أفراد هذه الشريحة . مما دفع الجمعيات البيئية إلي التصدي لمراجعة تقييم الأثر البيئي الذي قامت هذه المشروعات علي أساسه . وأصدر الرئيس كليتون عام ١٩٩٤ مرسوماً برقم ١٢٨٩٨ . يخول هيئة حماية البيئة الأمريكية اتخاذ الإجراءات القانونية لضمان معاملة عادلة لأفراد المجتمع دون تمييز بسبب عرق أو لون أو جنس بما يكفل تمتعهم ببيئة صحية ونظيفة .

وتأخذنا الدكتورة (مشكاة المؤمن) ^(٢) إلي الجذور التاريخية التي أدت إلي انعدام العدالة البيئية في أمريكا ومقارنتها بالحضارة الإسلامية . فترجع جذور انعدام العدالة البيئية في الولايات المتحدة إلي نشأة الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها . واستيراد الأفارقة الأمريكيين من القارة الأفريقية . ليكون المجتمع طبقياً .

¹ د / مشكاة المؤمن . المرجع السابق .

² د / مشكاة . المرجع السابق .

ثم تطبيق قوانين الفصل العنصري المعروفة باسم قوانين Jim Crow في الولايات المتحدة الأمريكية. وتحديدًا الولايات الجنوبية من عام ١٨٧٦ حتى عام ١٩٦٤. وكانت هذه القوانين تمنح الأفارقة الأمريكيين من الوصول إلى الموارد الطبيعية. وتفرض عليهم العيش في مناطق محددة بعيداً عن مناطق التي يقطنها السكان البيض. وكانت مناطقهم تخلو بحكم هذه القوانين من شروط الإدارة البيئية السليمة. مما أدى إلي لتحويلها إلى بؤر تلوث لاحقاً ليدفع المجتمع كله الثمن في النهاية.

مما خلق شعوراً بينهم بعدم أهمية البيئة، التي لم يعرفوها يوماً. فكيف يمكن أن يقدرُوا أهميتها، فضلاً عن ندرة فرص التعليم المتاحة لهم. لقد كانت هذه القوانين تتعامل مع الأفارقة على أنهم عبيد أو مواطنون من درجة ثانية، وبالتالي لا يستحقون التمتع ببيئة صحية - سليمة؛ فلا يحق لهم شرب مياه صحية ولا يحق لهم استعمال مرافق صحية نظيفة.

بل لم يكن يسمح للأفارقة في الحافلات الخاصة بنقل الركاب بالجلوس. وكانوا ملزمين بترك أماكنهم للركاب البيض. واستمر ذلك حتى عام ١٩٥٥. عندما رفضت سيدة إفريقية تدعى Rosa Parks مغادرة مكانها في الحافلة لصالح مواطن من أبيض. لتشتعل ثورة المطالبة بالحقوق المدنية والسياسية للأفارقة. وقامت - علي أثرها - مجموعة من المحامين بالعمل على إلغاء قوانين Jim Crow. ولم يتحقق ذلك حتى عام ١٩٦٤

لتبدأ بعدها معاناة من نوع آخر. إذ بنيت كافة المشروعات الصناعية الملوثة للبيئة في مناطق السود. وساد شعور عام لدى المستثمرين أن الأفارقة اعتادوا العيش في هذه المناطق. بعبارة أخرى؛ معتادون على التلوث. بمعنى إن المستثمرين يؤمنون بقوانين Jim Crow ويسعون لتطبيقها رغم إلغاءها.

مما يعنى أن جذور المشكلة، ترجع إلى تأصل فكرة التمييز بين أفراد المجتمع، وضرورة إن يعيش أفراد معينون من أبناء المجتمع في أماكن خاصة بهم.

فكل طبقة أو شريحة عرقية تستقر في مدينة معينة لتعكس الأحوال المعيشية و الثقافية و الاقتصادية على إدارة موارد المدينة بيئياً. ليصدر بعد ذلك مرسوم العدالة البيئية المذكور أعلاه. ليبدأ المجتمع بمعالجة هذه الأزمة.

وتعقد مقارنة⁽¹⁾ مع المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام لكونه كان مجتمعاً طبقياً يقوم على التمييز بين السادة و العبيد، و كان العبيد يعاملون معاملة سيئة. ويعيشون في ظروف مزرية. فالعبيد الذين يرعون الغنم يعيشون في أماكن خاصة بهم. مما يعني احتمال تحولها إلى بؤر تلوث، أما عبيد الخدمة المنزلية فيعيشون مع السادة إلا أنهم لا يصلون إلى الموارد الطبيعية و لا يتمتعون بها. فلا يأكلون مما يأكل السادة. و لا يشربون مما يشرب السادة. و هم يعملون حتى يأذن لهم السادة بالراحة. فإذا أخذنا في الحسبان قسوة البيئة الصحراوية فإن المجتمع العربي قبل الإسلام كان سيواجه كوارث بيئية ناجمة عن ظهور بؤر التلوث داخله. و حاول المجتمع العربي عند ظهور الإسلام قطع الموارد عن المسلمين بهدف القضاء عليهم مما يعدّ تطبيقاً قاسياً لحالة من حالات انعدام العدالة البيئية ذلك عندما حوصر الرسول - صلي الله عليه وسلم - في الشعب. و حرم المسلمون من الوصول إلى الموارد الطبيعية من ماء و غذاء. و كان استهدافهم بناءً على إيمانهم بعقيدة معينة. و بالتالي مورست أعمال التمييز ضد كل من انتمى لهذه العقيدة، مما يدل على استعداد المجتمع لممارسة التمييز و الاضطهاد البيئي الذي وصل إلى حد الحرمان من الوصول إلى الموارد الطبيعية.

أما توجه الحضارة العربية الإسلامية فكان على النقيض تماماً. بحيث ارتكزت على المساواة في الحقوق و الواجبات بين السادة و العبيد. مما أتاح أمام العبيد فرصة الوصول إلى الموارد الطبيعية. و بالتالي الحيلولة دون نشوء بؤر التلوث في بيئة صحراوية قاسية.

¹ د/ مشكاة. المرجع السابق.

ولهذا كان الرسول الكريم (صلي الله عليه وسلم) يقول عن العبيد (أنزلوهم حيث نزلتم. وأطعموهم مما أكلتم)^(١) لقد كان ذلك حجر الزاوية لإنقاذ المجتمع العربي من بؤر التلوث داخله. إذ وصول الناس جميعاً إلى الموارد الطبيعية بشكل متساوٍ. ودون تمييز هو الأساس في عدم نشوء بؤر التلوث. وهكذا تطورت فكرة العدالة البيئية مع الحضارة الإسلامية ليشهد المجتمع العربي الإسلامي انتشار مفهوم الصحة و البيئية العامة. وإتاحتها أمام الجميع، بما في ذلك إنشاء المرافق الصحية العامة و الطرق وقنوات تصريف المياه في المدن العربية بينما كان المجتمع العربي الجاهلي إلى زوال لأنه كان قائماً على حرمان فئة من المجتمع من الموارد الطبيعية. وفي الفتوحات الإسلامية لم يعامل المسلمون سكان البلاد الأصلية على أنهم عبيد بل سعوا إلى تعليمهم و تثقيفهم و تسهيل وصولهم إلى الموارد الطبيعية. و جعلوا هذه البلاد حواضر إسلامية لا تقل شأنًا عن مركز الخلافة.

في حين أن دول نظام الانتداب أو الاستعمار في أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية، لم تفعل ذلك لأنها تؤمن بفكرة طبقية المجتمع. لقد تركت الحضارة العربية الإسلامية آلاف المفكرين و المبدعين ممن هم قادرين على إدارة الموارد البيئية إدارة بيئية سليمة. في حين تركت فرنسا الكونغو مثلاً وليس فيه غير خمسة فقط ممن يحملون شهادة عليا!

وكانت الدولة الإسلامية تعني بالمرافق الخدمية والعامة بشكل ملحوظ؛ فكانت تقيم المساجد وتلحق بها المكتبات العامة المزودة بأحدث الإصدارات في عصرها. بمعنى أن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فقط بل مكاناً للعلم و الثقافة المجانية. و زيادة الوعي لدى المواطنين. بحيث يسهل على الفقراء وذوي الدخل المحدود تحصيل العلم اللازم لمعالجة مشكلاتهم، و الارتقاء بحالهم إلى حال أفضل. والكثير من علماء المسلمين في مجال الطب، الفلك، الرياضيات،

^١ صحيح الالباني، ج ٦، ص ٨٢٣

الكيمياء، الفيزياء وغيرها كانوا فقراء او من أعراف أخرى غير عربية. ولم يحل ذلك دون وصولهم الى الموارد الطبيعية، و من ثم مراكز صنع القرار. في حين ان غياب الوعي لدى كثير من الأفارقة الأمريكيين حال دون وصولهم إلى الموارد الطبيعية، و دون تقديرهم لحجم المخاطر البيئية. كما حال دون حصولهم على فرص عمل أفضل، تمكنهم من تحسين دخلهم، وبالتالي إمكانية انتقالهم للعيش في مناطق تتمتع بإدراه بيئية سليمة.

كما اهتمت الحضارة الإسلامية بتوفير المرافق الصحية العامة، والتي كانت متاحة أمام الجميع وبدون تمييز. فضلا عن مطاعم الفقراء، و لم يكن المجتمع يمارس أعمال التمييز ضدهم لان دخلهم محدود، بل كان يساعدهم في تحسين وضعهم، و الاستفادة منهم كموارد بشرية قادرة على إثراء الحضارة العربية الإسلامية. كما أقيمت الأسبلة لتوفر مياه الشرب بالشوارع، أي أن المياه الصحية الصالحة للشرب كانت متاحة أمام الجميع ودون تمييز. وكان إنشاء المستشفيات الإسلامية سنة متبعة في كل مكان بالدولة الإسلامية. يقدم بها الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضى المحتاجين. و كان الهدف من إنشاء هذه المستشفيات طيبا وعلاجيا بمعنى أن المجتمع لم يكن يميز ضد أبنائه، بل كان يدعمهم ويسهل أمامهم فرص الوصول للموارد الطبيعية، والعيش في بيئة سليمة تسهل أمامهم سبل الارتقاء. وكان الهواء يبرد في المستشفيات بتوفير المياه أو بالملاقف الهوائية، بمعنى؛ ان الحضارة الإسلامية كانت تعي أهمية نوعية الهواء، وبالذات للمرضى؛ لأنهم في اضعف، وبالتالي لا بد أن يحصلوا على عناية أكبر⁽¹⁾.

إن عدم تمييز الحضارة الإسلامية بين الأعراق والجنسيات التي انضوت تحتها أدى إلى عدم خلق بؤر للتلوث تنخرها من الداخل، و تضعف بنية أبنائها.

¹ كانت أوربا تنظر إلى الجذام مثلا ليس على انه مرض ناجم من عدم توافر الشروط الصحية البيئية بل على أنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب. د/ مشكاة، مرجع سابق.

وتؤدي بالتالي إلى نضوب مواردها كما حرصت هذه الحضارة على الاستفادة من كل الموارد البشرية المتاحة لها . من مفكرين وعلماء وأدباء لإغناء هذه الحضارة.

وأخيراً رغم أن الخطاب الديني البيئي يخلو من أية نظرة تمييزية تجاه أفراد المجتمع إلا أن التحدي الأكبر يكمن في تطبيق المؤسسات البيئية لهذا الخطاب الشرعي . فما زالت شرائح من المجتمع تعيش تحت خط الفقر . وهي لا تملك المعرفة والثقافة التي تساعد علي مواجهة المشكلات البيئية . فلا بد من برامج للنهوض بهذه المدن والحيلولة دون تحولها إلي بؤر للتلوث . ومازلت العشوائيات تفرز أعداء للمجتمع ، وعلينا أن نتعلم من التاريخ فقد كان نشؤ بؤر التلوث في روما علي عظمتها سببا في انهيارها وسببا لقيام ثورة العبيد فيها.

المبحث الخامس مبادئ أخرى متفرقة

المطلب الأول مبدأ الحق في المعرفة .

اعتمد من عده اتفاقيات دولية علي أنه لكل إنسان الحق في بيئة سليمة . وعليه أن يلتزم بالمبادئ العامة المرتبطة بحماية البيئة . لذلك يجب تزويده بالمعلومات والنشاطات التي تلحق ضرراً ليسهل عليه المشاركة وضمنان حق الولوج إلي المعلومة بسهولة.

ومبدأ التعاون والتنسيق بين كافة الجهات المعنية أمر لا بد منه لتنفيذ سياسة الحماية علي الصعيدين المحلي والعالمي . وإعلان (ريو) شدد علي ذلك . واشترط أن تحدد الدول معايير وافية لحماية البيئة وترصد التغيرات التي تحدث في

فيها . واستخدام الموارد . وتنتشر البيانات المناسبة عنها^(١) وعلى أن تقوم الدول في الوقت المناسب بإشعار جميع الأشخاص الذين من المحتمل أن يتأثروا تأثراً بالغاً بنشاط مزعم ومنحهم إمكانية المشاركة علي قدم المساواة في الإجراءات الإدارية والقضائية^(٢)

وأوجب تعاون الدول بنية حسنة مع غيرها علي تنفيذ الالتزامات المذكورة . وأن توفر بلدان المنشأ في الوقت المناسب المعلومات اللازمة للدول المعنية الأخرى حول دخول الموارد الطبيعية أو البيئية عبر الحدود.

واعتمد مبدأ الحق في المعرفة والذي يتضمن المعلومات عن كل الكيماويات بما في ذلك الكيماويات الموجودة في المنتجات المختلفة. وخصائصها بالإضافة إلى تأثيراتها على صحة الإنسان والبيئة والبدائل لها.^(٣)

ويدل الواقع كذلك على أن المعرفة البيئية المحلية على مستوى منطقتنا محدودة ؛ لنقص المعلومات الدقيقة والتقييم الشامل لها. وان توفرت بعض المعلومات فان السلطات المعنية تعاملها وكأنها معلومات سرية . لا يسمح - في كثير من الأحيان - بتبادلها مع الجهات المختلفة. وهذا يحرم القدرة على التخطيط السليم على المستوى الإقليمي ، خاصة في مجال المياه والطاقة وإدارة الأراضي.

ويعتبر ذلك إحدى الأسباب الرئيسية لانتهاك حقوق المواطنين البيئية . واستبعادهم من المشاركة في إدارة مواردهم البيئية وهو الأمر الذي يترتب علي حجب المعلومات الخاصة بالموارد البيئية عنهم . وبالتالي فإنه من الضروري علي المنظمات الأهلية المعنية أن تهتم أساساً بتمكين المواطنين من الحصول علي

^١ ملحق رقم ١ ملخص بالمبادئ القانونية المقترحة لحماية البيئة والتنمية المستدامة التي أقرها فريق الخبراء في قانون البيئة التابع للمؤتمر العالمي للتنمية الاقتصادية (مستقبلنا المشترك سلسلة (عالم المعرفة)

^٢ ملحق ١ ، المرجع السابق.

^٣ النهج الاستراتيجي للإدارة الدولية للمواد الكيميائية نيروبي، ٤-٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤

المعلومات الخاصة بالموارد البيئية وبالتالي تمكينهم من المشاركة الفعالة في إدارة الموارد البيئية واتخاذ القرارات الخاصة بالبيئة .
هذا مع السعي إلي تفعيل التشريعات الخاصة بالبيئة والعمل علي تطويرها .

المطلب الثاني

مبدأ الحق في بيئة نظيفة .

هناك علاقة وثيقة بين الإنسان وبيئته ؛ فهو يتأثر بها ويؤثر عليها . وعليه يبدو جلياً أن مصلحة الفرد أو المجموعة تكمن في تواجده ضمن بيئة سليمة .

وحق العيش في ظروف بيئية سليمة حق من حقوق المواطن الدستورية^(١) وقد أنيطت بسلطات الدولة مسئولية كفالاته للبشر^(٢) وأكد علي هذا المبدأ خبراء قانون البيئة^(٣) وجعلوا مسئولية الدول أن تحافظ علي الأنظمة البيئية والعمل علي الحد من مصادر الأضرار البيئية التي تقلل من الانتفاع بهذا الحق . وتناولت الفقرة (د) من ملحق المبادئ التوجيهية ضرورة فتح المجال أمام انتقادات الجمهور . وكشف جميع الحقائق أمامه .

^١ المادة ٥٩ من الدستور المصري - للمواطن المصري الحق في الحياة في بيئة نظيفة ونقية ، وحماية الموارد الطبيعية والحفاظ عليها للأجيال القادمة مع الاستفادة من ناتج هذه الموارد في التنمية البيئية ، وهذا الحق تكفله الدولة للمواطن في إطار قانون بيئة موحد . يشارك في صياغته ومتابعة تنفيذه منظمات المجتمع المدنية .

^٢ الملحق رقم ١ ، ملخص بالمبادئ القانونية المقترحة لحماية البيئة والتنمية المستدامة التي أقرها فريق الخبراء في قانون البيئة التابع للمؤتمر العالمي للتنمية الاقتصادية (مستقبلنا المشترك سلسلة (عالم المعرفة) ، مرجع سابق .

^٣ الهامش (٩أ)

وكان لعلماء المسلمين إعلان عن حقوق الإنسان في الإسلام^(١) جاء فيه أن الحياة هبة الله وهي مكفولة لكل إنسان . وعلي الأفراد والمجتمعات والدول حماية هذا الحق من كل اعتداء^(٢) ولكل إنسان الحق في أن يعيش في بيئة نظيفة من المفاسد والأوثىة^(٣) وشمل الإعلان البيئة الاجتماعية فنص علي أن لكل إنسان الحق في أن يعيش آمناً علي نفسه ودينه وأهله وعرضه وماله . كما أكد علي أن لكل إنسان الحق في الدعوة إلي الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقاً لضوابط الشريعة الإسلامية.

وأوجبت معظم هذه الدساتير في مقابل هذا الحق على المواطن أن يحمي البيئة . ويحافظ عليها إعمالاً لمبدأ أن كل حق يقابله واجب ، وسنت القوانين ذات الأبعاد البيئية . كقانون النظافة العامة ، وقانون مراقبة الأغذية ، وقانون تنظيم العمل بالإشعاع ، وقانون حماية نهر النيل ، وقانون إنشاء المحميات الطبيعية . كما يمنح هذا المبدأ الأفراد ومنظمات المجتمع المدني رخصة قانونية للدفاع عن البيئة . وإلزام السلطات المختلفة بالتدخل ومراعاة الاعتبارات البيئية . علاوة على منح القضاء المصري العادي والإداري عند الفصل في القضايا المختلفة حق الاستناد إلى الاعتبار البيئي ، كما يضع قيوداً على الجهات الدستورية المعنية بالتصديق على المعاهدات الدولية بمراعاة البعد البيئي عند التصديق على هذه المعاهدات .

بالإضافة إلى المبادئ التسبق عرضها توفر مبادئ القانون الدولي التي تطبق على النزاعات المسلحة . كمبدأ التمييز ومبدأ التناسب - كمبادئ لحماية للبيئة . فنجد في اتفاقية جنيف لا يجوز الهجوم إلا على الأهداف العسكرية .

¹ إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام أصدره مجلس وزراء خارجية منظمة مؤتمر العالم

الإسلامي ، القاهرة ، ٥ أغسطس ١٩٩٠

² المادة ٢ من الاعلان السابق

³ مادة ١٧ من الاعلان السابق

ويمنع استخدام الأساليب أو الوسائل الحربية التي تسبب أضراراً جسيمة. وتتخذ الاحتياطات في العمليات العسكرية على النحو المطلوب في القانون الدولي.^(١) كما أن هناك قواعد محددة بشأن حماية البيئة في الاتفاقية و تعد تدمير البيئة الذي لا تبرره الضرورة العسكرية انتهاكاً للقانون الدولي. وفي ظل ظروف معينة، يعاقب على هذا التدمير بوصفه انتهاكاً خطيراً للقانون الدولي^(٢) وهناك الحظر العام لتدمير الأهداف المدنية، ما لم يكن هذا التدمير مبرراً بالضرورة العسكرية، وهذا الحظر يحمي البيئة أيضاً^(٣)

وينبغي أن تتخذ الدول التدابير المطلوبة بموجب القانون الدولي لتجنب

ما يأتي:

١- أن تصبح الغابات - أو الأنواع الأخرى من الغطاء النباتي - هدفاً للهجوم بالأسلحة الحارقة، إلا عندما تستعمل هذه العناصر الطبيعية وسيلة إخفاء - أو تمويه - المقاتلين أو الأهداف العسكرية الأخرى، أو عندما تكون هي في حد ذاتها أهدافاً عسكرية.

٢- الهجمات على الأهداف التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين، كالمواد الغذائية، أو المناطق الزراعية، أو منشآت مياه الشرب، إذا نفذت هذه الهجمات بغرض حرمان السكان المدنيين من هذه الأشياء^(٤)

٣- الهجمات على مناطق الأشغال أو المنشآت التي تحتوي على قوى خطيرة .

¹ المواد ٣٥ و ٤٨ و ٥٢ و ٧٥ من البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف.

² المادة ٢٣ (ز) من لائحة اتفاقية لاهاي الرابعة، المادتان ٥٣ و ١٤٧ من اتفاقية جنيف الرابعة.

والمادتان ٣٥ (٣) و ٥٥ من البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف

³ المادة ٢٣ (ز) من لائحة اتفاقية لاهاي الرابعة، والمادة ٥٣ من اتفاقية جنيف الرابعة، والمادة ٥٢ من

البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف، والمادة ١٤ من البروتوكول الثاني لاتفاقيات جنيف

⁴ المادة ٥٤ من البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف، والمادة ١٤ من البروتوكول الثاني لاتفاقيات

جنيف

خصوصاً السدود وحواجز المياه والمحطات النووية لتوليد الطاقة الكهربائية. حتى لو كانت أهدافاً عسكرية. إذا كان من المحتمل أن يؤدي مثل هذا الهجوم إلى إطلاق قوى خطيرة تترتب عليه خسائر شديدة بين السكان المدنيين. وطالما أنه يحق لمثل هذه المنشآت أن تحظى بحماية خاصة بموجب البروتوكول الإضافي الأول لاتفاقيات جنيف^(١)

٤- حظر شن الهجمات على المعالم التاريخية. أو الأعمال الفنية. أو أماكن العبادة التي تشكل تراثاً ثقافياً أو روحياً للشعوب^(٢). ويحظر زرع الألغام الأرضية على نحو عشوائي. ويجب تسجيل موقع حقول الألغام المخطط لها. وتحظر الألغام الأرضية التي تفجر من بعد ولا يبطل مفعولها ذاتياً وغير مسجلة. وتوجد قواعد خاصة للحد من زرع الألغام البحرية واستعمالها. على أن توجه العناية في أثناء الحرب لحماية البيئة الطبيعية. وعدم إلحاق أضرار بصحة السكان.

٥- يحظر استخدام تقنيات التغيير في البيئة لأغراض عسكرية أو أية أغراض عدائية أخرى تكون لها آثار واسعة الانتشار أو طويلة الأجل. أو شديدة. ويشير مصطلح "تقنيات التغيير في البيئة" إلى أي أسلوب لإدخال التغيير - عن طريق التحكم عن قصد - على ديناميات الأرض أو تركيبها أو بنيتها. بما في ذلك نباتاتها وحيواناتها. وجزء اليابسة منها. وغلافها المائي وغلافها الجوي. أو على الفضاء الخارجي. وتحظر الهجمات على البيئة الطبيعية من قبيل الانتقام. على الدول الأطراف في البروتوكول الإضافي الأول لاتفاقيات جنيف.

٦- في حالة حدوث انتهاكات لقواعد القانون الدولي المتعلقة بحماية البيئة. تتخذ التدابير لوقف أي انتهاك من هذا النوع ومنع حدوث مزيد من الانتهاكات.

^١ المادة ٥٦ من البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف. والمادة ١٥ من البروتوكول الثاني لاتفاقيات جنيف

^٢ اتفاقية لاهاي لحماية الملكية الثقافية. والمادة ٥٣ من البروتوكول الأول لاتفاقيات جنيف. والمادة ١٦ من البروتوكول الثاني لاتفاقيات جنيف

ويطلب من الضباط العسكريين أن يحولوا دون انتهاك هذه القواعد .
وأن يقوموا - عند الاقتضاء - بقمعها، وإبلاغ السلطات المختصة بها، وفي
الحالات الخطيرة، يقدم مرتكبو هذه الانتهاكات إلى العدالة^(١)

وأقر المؤتمر الدولي السادس والعشرون للصليب الأحمر والهلال
الأحمر (جنيف، ١٩٩٥) في قراره رقم ١ التوصيات التي وضعها فريق خبراء
حكومي دولي، لترجمة الإعلان الختامي للمؤتمر الدولي لحماية ضحايا الحرب
إلى مقترحات باتخاذ "تدابير ملموسة وفعالة" وقد وجهت هذه التوصيات بالدرجة
الأولى إلى الدول الأطراف في اتفاقيات جنيف، لتحديد مبادئ توجيهية لوضع
كتيبات وتعليمات عسكرية عن حماية البيئة في أوقات النزاع المسلح^(٢)

وبرغم إقرار تلك المبادئ، يعاني العالم من تدنٍ في أحواله البيئية، وينفق
مليارات الدولارات كل عام على الحروب والأنشطة العسكرية التي تدمر البيئة.

لقد انحرفت تلك المبادئ الغربية عن غايتها عند التطبيق، وأصبحت
مجرد ديكور، يختار منه السياسيون وفق ما يشتهون مفهوم التنمية المستدامة في
مجال الصناعة ويدل الاهتمام بتقليل التلوث عن طريق التحول إلي أساليب
الإنتاج الأنظف نجده يركز علي كيفية التخلص من النفايات بأرخص الأسعار .
وليست (التنمية المستدامة) هي المفهوم الوحيد الذي انحرف عن غايته، بل إن
مفهوم المسؤولية الاجتماعية للشركات انحصر في تبرعات رجال الأعمال الخيرية
مع إهمال الشأن البيئي، وكأنه أصبح من المسموح به أن نستمر في التلوث
وإهدار الموارد، المضاعفة الأرباح، ثم نحاول الحصول علي مغفرة للخطايا عن
طريق دفع بعض المال للأعمال الخيرية^(٣)

^١ المادتان ١٤٦ و ١٤٧ من اتفاقية جنيف الرابعة، و المادتان ٨٦ و ٨٧ من البروتوكول الأول لاتفاقيات

جنيف .

^٢ حماية البيئة أثناء النزاعات المسلحة . مقال المجلة الدولية للصليب الأحمر، ١٩٩٥

^٣ - مجلة البيئة والتنمية . كلمة رئيس التحرير . العدد ٧٧

وبدلاً من إعادة تدوير النفايات المنزلية كاد العمل ينحصر في تخصيص أماكن لتجميع النفايات وحرقتها بطرق بدائية - إنها في الحقيقة مجرد شعارات براءة أكثر منها مفاهيم يلتزم البشر بتطبيقها.

المبحث السادس

المبدأ الإسلامي العام لإصباح البيئة

(لا ضرر ولا ضرار)

أرسى الإسلام مجموعة من القواعد والمبادئ التي تكفل ضبط سلوكيات الإنسان في تعامله مع بيئته . بما يصونها لينعم هو بخيري الدنيا والآخرة . ويعد مقابلة المبادئ السابقة بما هو موجود في شريعة الإسلام نعرض هنا للمبدأ الإسلامي العام (لا ضرر ولا ضرار)^(١) . وهو عمدة الحديث عن رعاية البيئة في الإسلام . فهي أبرز قاعدة تشريعية . وركيزة يعتمد عليها في دفع الضرر والإفساد . وقد قال أبو داود عنه إنه أحد خمسة أحاديث يدور عليها الفقه.

والضرر (لغة) خلاف النفع . وهو مصدر للفعل (ضر - يضر - ضراً) . ويقال في اللغة : أضرَّ به . إذا ألحق به أذى أو مكروه . واصطلاحاً : هو إلحاق المفسدة بالغير مطلقاً . والمعنى الإجمالي للقاعدة : أنه يحرم على المسلم أن يضر أخاه ابتداءً أو جزاءً . فالضرر بأنواعه محرم بالنص .

^١ أدلة اعتبار المبدأ : من الكتاب قوله تعالى : (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) من بعد وصية يوصي بها أودين غير مضار). ففي الضرار في الوصية بحيث لا يكون فيها شيء يضار الورثة . من السنة : قوله (ص) (لا ضرر ولا ضرار ، ومن شاقَّ شقَّ الله عليه . ومن الإجماع : فقد أجمعت الأمة على أن الضرر والضرار منهي عنه في الشريعة . ولا يخالف ذلك أحد . . . ويدل على ذلك المسائل الكثيرة التي حكم فيها الصحابة في عصرهم والتي تدل على منع الضرر . وقد قضى التابعون بمنع الضرر والضرار . . . وتتابع على ذلك الفقهاء في العصور المختلفة .

وهناك اختلاف بين الفقهاء في تحديد المعنى الدقيق لكل من الضرر والضرار. والفرق بينهما. ففي نيل الأوطار^(١) أن الضر فعل الواحد ، والضرار فعل الاثنین فصاعداً. وقيل الضرار أن تضره بغير أن تنتفع ، والضر أن تضره وتنتفع أنت. والمقصود أن الضرر ما قصد الإنسان به منفعة نفسه ، فكان فيه ضرر على غيره ، كبناء مرحاض في ملك نفسه عند جدار جاره ، مما قد يؤثر على حائط الجار. وقيل الضرار الجزاء على الضرر. والضرار ما قصد به الإضرار بالغير كفتح نافذة لا يستفيد منها ويطل منها على عورة جاره .

وفسر الضرر والضرار بأنه نفي الضرر في الشريعة ؛ لأنها مبنية على مصالح العباد ونفي الإضرار بالنهي عن إضرار العباد بعضهم لبعض . وقيل إن الضرر والضرار بمعنى واحد . لكن التكرار للتأكيد ، ورد علي هؤلاء بأن الأصل في الكلام التأسيس لا التأكيد .

وللعلماء كلامٌ مطولٌ في تفسيرهما لكن الإتفاق حرمة الضرر والضرار من المجمع عليه ، وليس المقام هنا لتحقيق المسألة ، لكن من المؤكد أن الضرر المنفي يحتمل وجوهاً كثيرة لذلك تتعدد صور تطبيق القاعدة في حياتنا العصرية ولها العديد من الفوائد التي تعود على الفرد والمجتمع بالفائدة.

ومما لا شك فيه أن كل صور إلحاق الضرر والإضرار بالبيئة ومكوناتها وكائناتها إنساناً أو غير الإنسان نباتاً أو هواء أو ماء أو أرضاً مما يندرج تحت المنهي عنه بمقتضى هذا الحديث ، الذي تدخل فيه على قصره كثير من الأحكام الشرعية وهو قاعدة تمنع المفسد من إفساده . وتحمله نتيجة ما يفسد . وتعني أن يتصرف كما أراد اذا لم يضر بالآخرين . وقد استخدم الفقهاء هذا الأصل للحكم علي تصرفات الأفراد التي تضر بالبيئة وكانت قاعدة في كل قضية بيئية . وهذا أصل عظيم من أصول الدين ؛ فإذا التزم كل فرد بصيانة حقوق غيره ، فإن من شأن ذلك أن يقلل المنازعات بين الناس ، فينشأ المجتمع على أساس من

^١ نيل الاوطار للشوكاني . مرجع سابق ، ص ٢٧٥

الاحترام المتبادل بين أفرادهم. أما إذا تخلى الناس عن العمل بهذا المبدأ ، وصار كل إنسان ينظر إلى مصلحته دون أي اعتبار للآخرين ، فهنا تحصل الكارثة ، وتشيع الأنانية المدمرة ، وهذا ما جاء الإسلام بإزالته والقضاء عليه^(١). كما أن عمومية المبدأ تجعل منه سندا لرفع الضرر عند غياب النص التشريعي الحاكم للمسألة. أو عند الانحراف بالتأويل وشهرة الحديث تعزز الاعتماد عليه والتأسيس لأيديولوجية شاملة لرعاية البيئة .

ولقد استنبط الفقهاء عدة قواعد من حديث الضرر. منها: الضرر يزال ، الضرر لا يزال بمثله ، ويتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام ، والضرر الأشد يزال بالضرر الأخف ، إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما ، يختار أهون الشرين أو أخف الضررين ، درء المفسد أولى من جلب المصالح ، الضرر يدفع بقدر الإمكان .

ولتأخذ مثلاً قاعدة (الضرر يدفع بقدر الإمكان) التي تدل علي وجوب دفع الضرر (بقدر الإمكان ويقدر الاستطاعة) قبل وقوعه . وفقاً لأصل المصالح المرسله والسياسة الشرعية . مما يجعلنا نقول مطمئنين بأن مبدأ الحيطة ما هو إلا ترديد لهذه القاعدة الشرعية.

والقاعدة الثانية (الضرر يزال) والتي تعني إزالة الضرر بعد وقوعه . كما يجب دفعة قبل وقوعه والمستقر فقهاً وقضاءً أن نفقات إزالة الضرر تكون علي التسبب في وقوعه ؛ لثبوت قاعدة (الغرم بالغنم) التي حولها مبدأ (الملوث يدفع) إلي تطبيق مشوه . حيث أقتصر علي مجرد تغريم الملوث دون ان تعمل معها قاعدة (الضرر يزال) فالقواعد الشرعية الإسلامية في مجملها سياق محكم لضمان مصالح العباد فلا يجوز أن تعمل إحداها أو تقتطع من سياقها العام

¹ عثمان ، محمد عبدالستار (١٩٨٨م) - المدينة الإسلامية . سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

فليس كل ملوث يدفع دون تفريق بين ضرر يمتثل وأضرار لا تحتمل .
والتي فرقت بينهم كثير من المباحث الفقهية بتقسيم الضرر الي ضرر معتاد
والمصلحة فيه ظاهرة أو لا يكون معتاداً والمصلحة فيه غير ظاهرة . وآخر الي
ضرر قائم وضرر مستجد إلي غير هذا من الفروق التي لا يحسمها قولاً واحداً
(الملوث يدفع) بل كان الذي يقوم بدراسة وبيان كل واقعة مستقلة عن غيرها هو
المحتسب فإن تعذرت المسألة واحتاجت الي بيّنة وسماع شهود رفعت إلي القضاء
فكانت تعالج كل قضية بيئية معالجة مستقلة.

وبالنسبة للمسائل الفقهية فالأمر واضح لدى الفقهاء في استخدام هذا
المبدأ ، وعلى المتضرر أن يطلب من الذي تسبب له في الضرر إزالة الضرر بالطرق
السلمية . فإن عجز رجع الأمر لولي الأمر أو القاضي . .ويجب عليهما الحكم بإزالة
الضرر . وعلى المسلمين الذين يشاهدون الضرر أن يتعاونوا مع المتضرر على
إزالته عملاً بقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى)

ونضرب المثال التالي لتوضيح كيف أثرت قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)
على أحكام البنیان ، فقد كتب والي مصر إلى عمر بن الخطاب في رجل فتح كوة
على جاره ، فكتب إليه عمر : أن يوضع وراء تلك الكوة سرار يقوم عليه
رجل ، فإن كان ينظر إلى ما في الدار منع من ذلك وإن كان لا ينظر لم
يمنع^(١) وسئل ابن القاسم (المتوفى عام ١٩١ / ٧٠٨م) عن أحقية جيران أحد
الأفراد أراد أن يبني حماماً وفرنّاً وطاحوناً فوق أرض فضاء في أن يمنعه من
إقامتها ، فأفاد القاضي بحقهم في ذلك ، طالما أنه يسبب لهم ضرراً بليغاً طبقاً
لأحكام الإمام مالك الذي أوصى بمنع الأذى عن الجيران ، كما سئل أيضاً عن
حداد أراد أن يبني كوراً وفرنّاً لصهر الذهب والفضة أو يبني طاحوناً أو يحفر بئراً
أو مرحاضاً قرب حائط الجيران ، فأفتى أن من حق جيرانه منعه ، لما يسببه لهم
من ضرر.

^١ عناية الفقه والقضاء الإسلامي بأحكام العمران والبنیان . مجلة الوعي الاسلامي . العدد ١١٢

والبحث في هذا الحديث يطول وهو يستحق أكثر من ذلك من الأمثلة ؛ لأنه داخل في كثير من أبواب الفقه . فقد كان مبدأ عام رغم قصر عباراته إلا أن تطبيقاته الفقهية مبثوثة في بطون الكتب الفقهية. ويا حبذا لو جمعت في رسالة (المبدأ الإسلامي العام في أصحاب البيئة وتطبيقاته الفقهية) .

وأخيراً فإن تخطيط الضوء علي مبادئ الإسلام المتعلقة بالبيئة مع بيان إن المشكلات البيئية ناتجة عن تجاهل هذه المبادئ يعتبر مطلباً ملحاً وواجباً علي كل مسلم . ومن واجبنا كمسلمين أن نضطلع بدورنا في الدعوة لحماية البيئة . واستتصال شأفة المخاطر البيئية ، وأن ننقل إلى العالم ضرورة اعتناق المبادئ الإسلامية المتعلقة بالمحافظة على البيئة وتطبيق العدالة البيئية ، والتخلي عن هذه المفاهيم الغربية التي لا تغير سلوكا.

الفصل الثاني الكون المنظور والحفظ المطلوب

تمهيد:

لا حياة إلا بتواجد ثلاث عناصر ، أو لا حياة إلا في حدود ثلاث شروط ، وهى الغلاف الجوي ، والغلاف المائى و التربة (القشرة الجيولوجية) فهى ثلاثة أشياء متساوية فى أهميتها (الهواء والماء والأرض) ويدونها لا يكون الإنسان. والثلاثة يكونوا المحيط الحيوى ذى الكمية الثابتة وتسمى الموارد البيئية الدائمة (هواؤنا - ماؤنا - أرضنا)

وهى أساس بقاء أى كائن حي ، ووفرتها فى ميزان مطرد مع حاجة الكائن الحي لها ، فالهواء يحتاج إليه الجميع فى كل لحظة من اللحظات ، ولذلك جاء مشتركاً مشاعاً ميسراً فى كل مكان ، لا يحتاج إلى أدنى كلفة ، ثم بعده من حيث الحاجة الماء ، وهو أقل من الهواء حاجة ، وبالتالي أقل تيسيراً ، وسلطة البشر بعضهم على بعض فيه أكثر من سلطة بعضهم على بعض فى الهواء ، ثم بعد ذلك التربة كأساس الغذاء ، ومعلوم أن الكائن الحي ربما يصبر أياماً على الغذاء ، وبالتالي زادت سلطة الناس بعضهم على بعض فى الغذاء أكثر من سلطة بعضهم على بعض فى الماء ، فكلما زادت حاجة الكائن الحي إلى شيء من هذه البيئة قلت سلطة الناس عليه ، وهذا لإبعاد الناس عن التدخل فى مكونات هذه البيئة المدبّرة بصنم وتوازن إلهى حكيم.

ولم يقتصر التلوث على مجالى الهواء والماء ، بل تعداه إلى التربة . وأن ما يلوث التربة يلوث الماء والهواء لارتباطهما الوثيق ، وأي اضطراب فى أحد النظم يؤدي إلى اضطراب فى بقية الأنظمة الأخرى

والكلمات الثلاثة تحمل الكثير من المعاني . وهما يشكلان عاملاً حاسماً فى التسبب بالأمراض حتى حالات الانتحار والعنف بين الأفراد مرده إلى تلك المشكلات البيئية . وربط تقرير لمنظمة الصحة العالمية بين أضرار البيئة وأمراض

قاتلة انتشرت في السنوات الماضية مثل التهاب الجهاز التنفسي الحاد (sars) وانفلونزا الطيور . فالتدهور البيئي بدأت تظهر عواقبه علي صحة البشر وأن الصحة مرتبطة ارتباطا وثيقا بصحة النظم الأيكولوجية التي تلبى احتياجات الإنسان الاساسية

وكثير من الدراسات تشير الى أنه يمكن تفادي الأمراض من خلال الحرص علي بيئة صحية بل يمكن سنويا اتقاذ حياة أربعة ملايين شخص إذا ما تم تفادي المشكلات الصحية المرتبطة بالمكونات البيئية كالهواء والماء والتربة والاشعاعات والضوضاء والمجالات الكهرومغناطيسية وعوادم السيارات واتباع عادات سلوكية في الصحة والنظافة.

فهل من سبيل لكي يحافظ الإنسان علي هذه المكونات الثلاثة ويشعر بها ويتوقف عن فعل ما من شأنه أذيها . ونأمل من خلال هذه الصفحات أن يتبين لنا سبيل الحل . فالعلاج ليس مستحيلا (ففي مؤتمر باريس ٢ الذي عقد في مطلع العام ٢٠٠٧ واجتمع فيه أكثر من ٥٠٠ عالم من مختلف أنحاء العالم ، أكدوا أن هناك إمكانية للرجوع إلى النسب الطبيعية لغاز الكربون في الغلاف الجوي.

المبحث الاول

الهواء والحفظ المطلوب

إذا أراد الإنسان أن يحافظ على صحته فلا بد من أكسير الحياة الذي يتنفسه : الهواء . أثنى الموارد الطبيعية ، ولهذا يعد تلوث الهواء من أخطر المشكلات التي تواجهها البشرية ، لأسباب عدة منها :

١ - انتقال الهواء الملوث بحسب اتجاه الرياح وسرعتها من منطقة إلى أخرى . وأحيانا لمسافات تقدر بمئات الكيلومترات ، وبالتالي فإن تفادي الهواء الملوث أو حصره غير ممكن عمليا .

٢ - الكمية الكبيرة من الهواء التي تدخل جسم الإنسان يوميا والتي

تبلغ نحو ١٥ كجم

المطلب الاول

نعمة توازن نسب الغازات في الغلاف الجوي

من نعم الله - سبحانه وتعالى - على خلقه ، أن خلق البيئة متوازنة ، وهياً لنا الجو المناسب لتعيش فيه على الأرض ، فوهبنا غلغافاً جويأ راعاً صدق فيه قول الحق : (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)^(١)

فالهواء يتكون من غاز الأوكسجين بنسبة ٢٠,٩٥% وغاز النيتروجين بنسبة ٧٨,٠٩% بالإضافة الى غازات أخرى تمثل نسبة ١% مثل الغازات الحاملة بصفة عامة ، وثاني اكسيد الكربون والهيدروجين . وأول أكسيد الكربون . والاكسجين لا غنى عنه لحياة الإنسان والكائنات الحية ، حتى الأحياء المائية التي تعتمد علي الأوكسجين المذاب في الماء ، كما يدخل في تكوين الخلايا الحية بنسبة تعادل ربع مجموع الذرات الداخلة في تركيبها .

ونسبة الأوكسجين هذه هي المناسبة لاستمرار الحياة ؛ إذ لو كانت النسبة أقل من ١٥ بالمئة فإن النار لن تشتعل ، لأن كمية الأوكسجين لن تكون كافية لإتمام التفاعل. ولو كانت كمية الأوكسجين أكبر من ٢٥ بالمئة سوف يحترق كل شيء على الأرض من دون شرارة فقط بسبب حرارة الشمس!

ولكى تظل هذه النسبة في توازن شاءت حكمة الله عز شأنه أن تقوم النباتات بتعويض الفاقد من خلال البناء الضوئي فلولا النباتات ما استطعنا أن نعيش بعد أن ينفذ الأوكسجين.

ونسبة غاز النيتروجين أيضاً مقدرة تقديراً دقيقاً من العليم الخبير بنسبة ٧٨ / ٠ . وتلك النسبة تعمل كمخفف للأوكسجين الذي نستنشقه ؛ لأن الأوكسجين النقي يعتبر ضار بالجسم لانه يعتبر حارقاً للجهاز التنفسي لذلك نجد أن الأوكسجين الذي يعطى للمريض في المستشفيات لا بد من خلطه بغاز حامل

^١ سورة لقمان ايه ١١

قبل إعطائه للمريض ؛ إذ لو كانت نسبته أقل من هذه النسبة المقدرة وحدث أن سقطت شراره كهربائية من الفضاء الخارجي نحو الأرض (يحدث أحياناً) لاحترق كل شيء على سطح الأرض . إذ أن هذه النسبة هي التي تضبط وتقنن طبيعة الأكسجين حتى يظل مؤدياً لوظيفته في إعالة الحياة . (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)^(١)

كما يعتبر النيتروجين مصدر تغذية للنباتات . وهو يتواجد في التربة عن طريق البرق الذي يولد طاقة هائلة يتحد بسببها نيتروجين الهواء مع الأكسجين ليكون أكاسيد النيتروجين التي تذوب في ماء المطر . وتمتصها التربة . وبمخصوص غاز الكربون فهو نعمة أيضاً . لكن حولها الإنسان إلي نقمة فتلك النسبة الضئيلة لغاز الكربون في الغلاف الجوي (٣٪) أي نسبة مئوية تقدر بثلاثة بالعشرة آلاف وتلك النسبة تعمل علي تنظيم درجة الحرارة علي سطح الأرض . إذ يعتبر هذا الغاز بمثابة صوبه الأرض حيث أودع الله فيه خاصية امتصاص الموجات الحرارية الأرضية (الأشعة تحت الحمراء) فإذا تغيرت هذه النسبة سببت الكوارث . ويكفي أن تعرف أن سبب فساد جو الكواكب الأخرى يرجع إلي زيادة نسبة الكربون فالمریخ يحتوي علي ٩٦ / ٠ / ٠ والزهرة يحتوي علي ٩٨ / ٠ / ٠ من غاز الكربون .

وأكد لنا القرآن أن الأرض كانت ذات يوم غير صالحة للحياة مثل الكواكب الأخرى . لكن الله أصلحها . وأمرنا ألا نفسد فيها وأن ندعو الله أن يجنبنا شر الكوارث . فقال تعالى : (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٢) . وتلك النعم لم يحفظها الإنسان بل عمد إلي صناعات تلوث الغلاف الجوي وحرق الغابات وقطع أشجارها لزيادة الرقعة الزراعية والاستفادة من خشبها فأدى ذلك إلي اختلال

^١ سورة الحجر الآية : ٨٥

^٢ سورة الأعراف الآية : ٥٦

نسب الغازات وزادت نسبة غاز الكربون عاما بعد آخر . وحذر العلماء من كوارث بيئية بسبب تلك الزيادة.

والأوزون نعمة ؛ إذ هو الدرع الواقي . الذي يضبط ويقنن وصول الأشعة إلي الأرض بكميات محددة . والكائنات الدقيقة إذا تعرضت لأشعة الشمس مباشرة تموت علي الفور . وقد اقتضت حكمة الله أن تجعل طبقة الأوزون لامتناهية فوق البنفسجية القادمة من الشمس والخلاصة أننا لا نستطيع أن نتصور تركيبا للغلاف الجوي بغير النسب المقدره من عليم خبير ؛ إذ أن أي خلل في تلك النسب يحدث كثيرا من الأخطار . فسبحانه القائل : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين)^(١)

الفرع الاول

تلوث الهواء

هو الحالة التي يكون فيها الهواء محتويا على مواد غريبة ، أو عندما يحدث تغيير في نسب مكوناته . يترتب عليها حدوث نتائج ضارة^(٢) ويبين التحليل الدوري للهواء أن أهم أربعة ملوثات له هي :-

١- أول أكسيد الكربون . وهو من أشد الغازات الملوثة للهواء سمية . وينتج غاز أول أكسيد الكربون بشكل خاص في المدن الكبيرة المزدهمة بوسائل النقل . و من مصافي تكرير البترول ومصانع الورق والحديد والصلب . وغيرها و من عمليات الاحتراق غير الكامل .

^١ سورة الأنبياء الآية ١٦

^٢ عرفت المادة (١) فقرة (١٠) من قانون البيئة المصري رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ تلوث الهواء بأنه (لكل تغير في خصائص ومواصفات الهواء الطبيعي يترتب عليه خطر علي صحة الإنسان والبيئة سواء كان هذا التلوث ناتجا عن عوامل طبيعية أو نشاط انساني بما في ذلك الضوضاء

وعندما يتنفس الإنسان الهواء الملوث بغاز أول أكسيد الكربون فإنه يتحد مع هيموجلوبين الدم و يحل محل الأوكسجين مكوناً مركب الكربوكسي هيموجلوبين . و يسبب ذلك تقليل نسبة الهيموجلوبين الموجودة في الدم اللازم لنقل الأوكسجين.

٢- أكاسيد الكبريت (SOX) , وتنشأ عن حرق الوقود الأحفوري (الفحم والبتروول والغاز الطبيعي) " لاحتوائه على كميات ملحوظة من الكبريت . ويتحول ثاني أكسيد الكبريت فى الهواء إلى حمض الكبريتيك نتيجة لتأكسده إلى ثالث أكسيد الكبريت . وتفاعله مع بخار الماء . ويشارك ثاني أكسيد الكبريت مع ملوثات أخرى فى إحداث مشكلات بيئية , منها الأمطار الحمضية.

٣- أكاسيد النتروجين (NOX) التى تتكون عند درجات حرارة عالية , عندما يكون التبريد سريعاً بحيث يمنع تفكك هذه الغازات , ومصدر كل من غازى النتروجين والأوكسجين اللذين يكونان هذه الأكاسيد هو الهواء الجوى ذاته . ومن ثم تكون المركبات والأجهزة المولدة للطاقة فى محطات القوى الكهربائية من المصادر الأساسية لأكاسيد النتروجين . إذ تعمل عند درجات حرارة مرتفعة

٤- التلوث بالجسيمات العالقة : ويشمل مصطلح الجسيمات العالقة بالهواء عدداً من الملوثات. منها علي سبيل المثال الدخان والضباب والغبار (سواء طبعى او صناعى) . ويحتوي الغبار الصناعى على مركبات الرصاص والبريليوم والزرنيخ والنحاس وذلك يتوقف على طبيعة المنشآت الصناعية المسببة له . ولا تبقى الجسيمات عالقة فى الهواء دون حدود زمنية ، كما إنها لا تترسب تلقائياً ، وتعتمد سرعة سقوطها علي حجم الجسيمات ، وعلي عوامل أخرى . منها اتجاهات الرياح بحيث يمكنها تحريك تلك الجسيمات ونشرها علي مساحات شاسعة.

ومصادر تلك الجسيمات متعددة مثل محارق النفايات وخاصة النفايات الطبية ، ومحطات معالجة مياه الصرف الصحي ، والكسارات والمحاجر ، وأعمال الهدم والبناء والأترية الناعمة والتي تأتي من المناطق الصحراوية وغيرها:

الفرع الثاني

مصادر تلوث الهواء المتعلقة بالسلوك البشري^(١)

١. احتراق الوقود كالبترول والفحم ومنتجاتهما:

المتهم الرئيس في هذا هو قطاع النقل والمواصلات . والمصانع علي اختلاف أنواعها حيث استهلاكها الكبير للطاقة . فعند تحويل الطاقة من حال الي حال تبعث غازات تضر بالبيئة . وقطاع النقل مصدر نحو ٧٠٪ من الغازات الملوثة للهواء . وهذه النسبة المرتفعة سببها التزايد الهائل في إنتاج واستعمال السيارات والآليات الذي بدأ بعد الحرب العالمية الثانية . وبالتالي فإن تزايد عدد السيارات يعني زيادة في كمية الغازات المنبعثة من عوادم هذه السيارات . وأهم الملوثات الهوائية الصادرة من قطاع النقل فهي غاز أول أكسيد الكربون (CO) الناتج من عمليات الحرق غير الكاملة ، وأكسيدات النيتروجين (NOx) والغازات الهيدروكربونية (HC). هذا إضافة إلى مادة الرصاص الناتجة عن احتراق بعض أنواع الوقود التي تحتوي على هذه المادة .

ويؤدى ذلك الى ظاهرة الإحتباس الحرارى ، وهى من الظواهر البيئية المهمة التى لقيت اهتماماً كبيراً على المستوى العالمى فى السنوات الأخيرة ؛ لما يترتب عليها من تغيرات مناخية طويلة الأمد عالمية فى حجمها ، وغالباً لا يمكن التحكم فى آثارها ، وهى من صنع إنسان عالم اليوم بالكامل ، ويخشى بعض العلماء من أنها يمكن أن تقود كوكب الأرض إلى كارثة . ويطلق على هذه الظاهرة اسم "تأثيرات البيت الزجاجى" ؛ إذ تعمل الزيادة فى غازات معينة ومنها غاز ثاني أكسيد الكربون فى طبقات الجو العليا التى تغلف الأرض عمل الصوبة الزجاجية

٢. تصاعد مركبات الكلور وفلوروكربون^(٢)

^١ دكتور/ يسرى دعبس . تلوث البيئة وتحديات البقاء . ص ١٢٤ البيطاش سنتر للنشر والتوزيع .

^٢ د/ دعبس المرجع السابق ، ص ٤٩

والمثال الواضح لها في استخدام أجهزة التكييف إلا أنه تم اكتشاف استعمالات متعددة لها في حياتنا اليومية . كمزيلات الروائح ورشاشات الشعر وورنيشات الأثاث حتي البطاطين وفرش السيارات ومذيبات الغراء والشحم ومتخلفات اللحام وتنظيف الأقمشة علي الجاف والمواد العازلة والثلاجات المنزلية وكعامل دفع في عبوات المبيدات ٠٠٠ وغيرها

وتعد مركبات الكلور وفلوروكربونات من العجائب الكيماوية ؛ فهي ليست سامة ، ولا قابلة للاشتعال وبدء إنتاجها أولاً عندما احتاجت صناعة التبريد الي وسيط تبريد رخيص فقامت إحدى الشركات بهذا وتم تسويقه تحت اسم تجاري (CFC) وتعددت تلك المركبات الآن لكن جميعها يحتوي علي ذرات الكلور والفلور . وعندما تنتشر هذه المركبات في الهواء تحملها التيارات الصاعدة إلي طبقات الجو العليا وتحلل جزئياتها وتفوم بمهاجمة جزئيات الأوزون وتحويلها إلي أكسجين وبذلك تساعد تلك المركبات علي تدمير طبقة الأوزون .

وبخصوص فوائدها فإنها أحدثت تطورات اجتماعية وتكنولوجية حيث مكنت أجهزة التكييف الضخمة من بناء قاعات العرض المبردة والصالات الرياضية والمباني والمكاتب الشاهقة . ومكنت لثورة الكمبيوتر من الانطلاق حيث استعملت تلك المركبات لجعل سطح المعدن نظيفاً وجافاً .

ومن الأمور المدمرة لطبقة الأوزون أيضاً إطلاق الصواريخ إلي الفضاء . والطيران النفاث الذي يخترق الغلاف الجوي (التروبوسفير) ويدمر قدر كبير من الأوزون^(١) . مما أدى إلي تآكل هذه الطبقة وسمحت بنفاذ الأشعة البنفسجية القاتلة إلي الأرض التي تؤدي للإصابة بالكثير من الامراض أخطرها سرطان الجلد والتأثير علي جهاز المناعة ولها تأثير علي المحاصيل الزراعية.

¹ سعد شعبان ، ثقب في الفضاء ، ص ٦٦ . دار المعارف ١٩٩٢

٣- حرق المخلفات

يعد جمع المخلفات الصلبة أهم مشكلة من مشكلات المحليات في مصر. وفي أغلب الأحوال يتم حرق تلك المخلفات^(١) بمجرد أن تتراكم كميات ضخمة منها في الشوارع أو في الساحات الفضاء رغم حظر ذلك^(٢) وتكمن الخطورة في التعامل مع المخلفات الطبية الخطرة بوصفها مخلفات صلبة منزلية رغم احتياجها إلى طريقة مختلفة للتخلص منها. فنجد المؤسسات الطبية ما زالت تتعامل معها بطريقة الحرق المكشوف وفي نفس أماكن بعض هذه المؤسسات. هذا بالإضافة إلى الكثير من العيادات الطبية والصيدليات التي تتخلص من هذه المخلفات في نفس مكان تخلصها من المخلفات الصلبة العادية. رغم احتياج المخلفات الطبية الخطرة إلى إدارة خاصة منفصلة عن إدارة المخلفات المنزلية.

النشاط الإشعاعي

من أشد منتجات التقنية الحديثة إفساداً للبيئة. وفتكاً بالإنسان والحيوان والنبات. وينتج عن تحليل العناصر المشعة التي أخذت دوائر استخدامها في الإتساع في النشاط الصناعي والحربي والطبي.

ومن المصادر الرئيسية المسببة للتلوث الإشعاعي ما يحدث في دول النادي النووي من إجراء التجارب وخاصة بعد الحرب العالمية الأخيرة بهدف تطوير الأسلحة الذرية لزيادة القوة التدميرية لها وقد أدت التجارب إلى انتشار كميات كبيرة من الغبار الذري المشع في مناطق إجراء التجارب ثم تحمل الرياح

^١ ويقول أستاذنا الدكتور ماجد الحلو - ومن الغريب أن يتحدث قانون حماية البيئة المصري وهو الصادر عام ١٩٩٤ - عن حرق القمامة كوسيلة للتخلص منها دون إشارة إلى تأقيت هذه الوسيلة أو الزام المحليات أو غيرها بإقامة مصانع لمعالجة القمامة أو إعادة تدويرها أو إعادة استخدامها كخطوة

علي الطريق الصحيح ، ص ١٩٠

^٢ م ٣٣ ق ٤ لسنة ١٩٩٤

هذا الغبار المشع الى طبقات الجو العليا والذي يحتوى على بعض النظائر المشعة والتي يستمر نشاطها الاشعاعى فترة طويلة من الزمن ليتساقط فوق كثير من المناطق البعيدة عن موقع التجارب حيث تلوث الهواء و الماء والغذاء وتتخلل دورة السلسلة الغذائية . ليصل أخيراً إلى الإنسان ^(١)

وبالإضافة إلى أن المفاعلات النووية المستخدمة في الأغراض السلمية قد تقع لها حوادث تؤدي إلي كوارث بيئية مثل حادثة مفاعل (تشرنوبل) في روسيا عام ١٩٨٦ حيث انفجر قلب المفاعل نتيجة أخطاء في التصميم وعدم توافر ضوابط الأمان فخرجت سحابة من الغاز والغبار المشع انتشرت إلي معظم أنحاء الكرة الأرضية وأصبحت كارثة عالمية . إلا أن انفجار تشرنوبل لم يكن الأول أو الأخير بل حدث انفجار عام ١٩٥٧ في بريطانيا لمفاعل (ويند سكيل) وفي عام ١٩٩٢ حادث مماثل لمفاعل (ثري مايل أيلند) وحادث فى (بنسلفانيا) بالولايات المتحدة الامريكة .

^١ دكتورة نبيلة عبد الحليم كامل . نحو قانون موحد لحماية البيئة ، ص ١١٢ ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٣ .

المطلب الثاني

حماية البيئة الهوائية من خلال التشريعات

هناك عدد من الإجراءات والتدابير تضمنتها اتفاقيات دولية ومعاهدات ؛
للقاية من تلوث الهواء منها - على سبيل المثال - التخطيط العلمي السليم
عند إنشاء أية صناعة ، بحيث يراعي المناخ والتضاريس . وتحديد المقاييس الخاصة
بالتراكيزات القصوى للمواد الملوثة التي يسمح بوجودها في الهواء ، وكذلك
إنشاء نقاط رصد ومراجعة لقياس جودة الهواء في مناطق مختلفة من كل مدينة .
وفي مصر تنتشر الشبكة القومية لرصد ملوثات الهواء حالياً في ١٨ محافظة
وتتكون الشبكة من ٥٤ محطة رصد موزعة في تلك المحافظات ويتم الرصد وفقاً
لاستراتيجيات البرنامج العالمي لرصد نوعية هواء المدن " GEMS " التابع لمنظمة
الصحة العالمية ويستخدم طرق التحليل والأجهزة المعتمدة في هذا البرنامج
. ويتم قياس الملوثات الأتية :- ثاني أكسيد الكبريت - الدخان - الأتربة
الكلية العالقة - الجسيمات المستنشقة أقل من ١٠ ميكرون - الرصاص وتقرن
وفقاً للمعايير المحددة بقانون البيئة المصري رقم (٤) لسنة ١٩٩٤^(١)

وطالب بعض الباحثين بنشر معايير جودة الهواء ونتائج رصد قياس
تلك الجودة في وسائل الإعلام المختلفة كنشرة إخبارية يومية^(٢) ، تماماً مثل
النشرة اليومية عن حالة الطقس المتوقعة نظراً لتأثير الهواء ونوعيته على الطريقة
التي يعيش بها الإنسان . ومصطلح نوعية الهواء يقصد به مواصفات الهواء من
حيث تركيزات الملوثات في منطقة جغرافية محددة خلال فترة زمنية محددة ، ونشر
تقرير يومي عنها في وسائل الإعلام المختلفة من صحف وتلفاز وانترنت . سيعطي
الفرصة للجهات المختصة بأن تتخذ الاحتياطات اللازمة لتقليل التلوث أو أن

^١ التقرير السنوي لنتائج الشبكة القومية لرصد ملوثات الهواء عام ٢٠٠٦

^٢ عالم مصري يطالب بنشرة إخبارية عن نوعية الهواء وحالة الطقس . الجمعة ١٢ شوال ١٤٢٤ هـ
٥ .ديسمبر ٢٠٠٣ العدد ٩١٣٨ جريدة الشرق الاوسط .

ترفع درجة الاستعداد، ويقول المصدر أن عدم وجود قائمة بمصادر التلوث في مصر يجعل عملية التنبؤ بالتركيزات في منتهى الصعوبة. وهو الأمر الذي يتطلب تكاتف مراكز البحوث العلمية مع وزارة البيئة في مصر لعمل مقياس معياري لنوعية الهواء خاص بمصر. وبعد ذلك يمكن ان يأتي اليوم الذي نقرأ فيه في الصحف أو نسمع في نشرات الأخبار عن نوعية الهواء للمدن المصرية المختلفة. ويذكر ان الدول المتقدمة أمكنها عمل المقياس المعياري للهواء الخاص بها، وهو الأداة التي بواسطتها تستطيع نشر تقارير يومية عن نوعية الهواء والمشكلات الصحية المرتبطة بها بطريقة سهلة وبسيطة يمكن أن يفهمها الإنسان العادي، وهي ما تسمى بمؤشر نوعية الهواء، وتساعد هذه النشرة الأفراد الذين يعانون من أمراض الجهاز التنفسي والقلب، بتحذيرهم، ليتجنبوا المناطق الخطرة.

وبشأن إيجاد بدائل للمواد المستفزة لطبقة الأوزون، ألزم بروتوكول مونتريال الدول المتقدمة بتطوير منتجات وعمليات بديلة، وأنشئ صندوق مونتريال لتوفير الدعم. والتيسير على الدول النامية لاستبدال تلك المواد. وتم عقد اتفاقية دولية في فيينا عام ١٩٨٧ تدعو الى تقليل أستهلاك المواد المؤثرة على طبقة الأوزون. ودعا إعلان لاهاي الذي وقعته ٢٤ دولة منها أربع دول عربية وافريقية هي (مصر- الأردن- زائير- نيجيريا) الى تخفيض استخدام مركبات الكلور والفلوروكربون ومركبات البروم إلى أن تستبدل تماماً ودعا مؤتمر هلسنكي في بداية مايو ١٩٨٩ للتوقف من اختراق الغلاف الجوي وما يسببه من إضرار بطبقة الأوزون. وفي أمريكا اصدر القانون الفيدرالي المعروف باسم "قانون الهواء النظيف"

الفرع الأول

حماية البيئة الهوائية من التلوث فى القانون المصرى

خصص الباب الثانى من القانون المصرى^(١) لحماية البيئة الهوائية من التلوث . واشترط أن يكون الموقع الذى يقام عليه المشروع مناسباً لنشاط المنشأة . بما يضمن عدم تجاوز الحدود المسموح بها للملوثات الهوائية . ويشترط أن يؤخذ فى الاعتبار عند تقرير مناسبة الموقع مدى بعده عن العمران . سواء من حيث منطقة المشروع أو المناطق المحيطة أو اتجاه الريح السائد .

وألزم القانون المنشآت الخاضعة لأحكامه فى ممارستها لأنشطتها بعدم انبعاث أو تسرب ملوثات للهواء بما يجاوز الحدود القصوى المسموح بها فى القوانين والقرارات السارية

وأوجب القانون على جميع الجهات والأفراد عند القيام بأعمال التنقيب أو الحفر أو البناء أو الهدم أو نقل ما ينتج عنها من مخلفات أو أتربة أن تتخذ الاحتياطات اللازمة للتخزين أو النقل الآمن لها لمنع تطايرها كذلك حظر القانون إلقاء - أو معالجة أو حرق القمامة - والمخلفات الصلبة إلا فى الأماكن المخصصة لذلك بعيداً عن المناطق السكنية والصناعية والزراعية والمجاري المائية .

ومن أجل الحماية من التلوث الإشعاعى حظر القانون أن يزيد مستوى النشاط الإشعاعى أو تركيزات المواد المشعة بالهواء عن الحدود المسموح بها والتي يصدر بها قرار من وزير الكهرباء والطاقة المسئول عن الأمان النووى بعد الرجوع لوزارة الصحة وجهاز شئون البيئة . ويعاقب على هذه الجريمة بالسجن مدة لا تقل عن خمس سنوات وغرامة لا تقل عن عشرين ألف جنيه ولا تزيد على أربعين ألف جنيه . ويرغم كل ذلك نجد من المؤسف أن تلوث الجو قد أصبح سمة مميزة

^١ قانون ٤ لسنة ١٩٩٤

ليئة مدن الشرق الأوسط.^(١) برغم صدور قرار جمهوري رقم ٨٦٤ لسنة ١٩٩٦ في مصر بإنشاء لجنة عليا لحماية الهواء من التلوث.

الفرع الثاني

السياسة البيئية في تحسين نوعية الهواء

تبنت وزارة البيئة المصرية سياسة^(٢) في تحسين نوعية وإدارة الهواء كالآتي:

- (١) القياس والرصد والتحليل لنوعية الهواء من خلال أجهزة الرصد والمعامل.
- (٢) الاستمرار في خطة توفيق أوضاع المصانع الكبيرة الملوثة للهواء.
- (٣) نقل المسابك والفواخير والمكامير خارج الكتلة السكنية.
- (٤) التوسع في استخدام الغاز الطبيعي بجميع وسائل النقل المختلفة.
- (٥) خفض التلوث الناتج عن الأنشطة الصناعية داخل المجتمعات العمرانية.
- (٦) الحد من الحرق المكشوف.
- (٧) التوسع في مجال تدوير المخلفات الزراعية والقمامة.
- (٨) استكمال تنفيذ برامج فحص عوادم السيارات بالمحافظات.
- (٩) دعم المشروعات التي تهدف للحد من انبعاثات المصادر المختلفة.
- (١٠) تفعيل برامج التفتيش والمرور الدوري علي المنشآت.

ولاشك ان إجراءات الحماية السابق عرضها تعبر عن المأمول . لكن الواقع يقر بغير ذلك . فما زالت المصانع تبعث للهواء بملوثات أكثر من الحدود المسموح بها . وما زالت التجارب النووية واطلاق صواريخ للفضاء تؤثر علي طبقة الأوزون وأصبح تلوث الهواء سمة مميزة لبيئة المدن الكبرى لانطلاق عوادم السيارات . وتلك الحقائق لا تختفى عندما نتجاهلها أو حتى عندما نتعهد بان

^١ المستشار / محمد عبد العزيز الجندى . مطبوعات جمعية اصداقاء البيئة بالاسكندرية

^٢ الموقع الرسمي للوزارة

نغيرها ونصنع ذلك في قوانين وتشريعات بل تحتفى (أو تصل الى الحدود الدنيا من التلوث) عندما تتبع السلوك الرشيد على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعى والمهنى وتتسم سلوكياتنا بالرشاد.

المطلب الثالث

السلوك الرشيد في حفظ الهواء

سبق أن أوضحنا أن الفاعلية المطلوبة للحفاظ علي البيئة لا تتحقق إلا بالسلوك الرشيد . والإنكار علي المخالف . فقضية الحفاظ علي البيئة قضية إيمان يجتهد الحفاظ علي البيئة والعمل علي تحسينها . والقانون مهما شدد من عقوبات فإنه لا يستطيع أن يراقب الإنسان في كل خطواته .

ولا يمكن إلقاء المسؤولية كلها علي كاهل الدولة وحدها ؛ لأن القضية عبارة عن سلوك فردي منه ما يتم داخل المنزل ولا يمكن أن توفر الدولة رقيباً علي سلوك الفرد في داخل منزله أو في أي مكان لا يوجد فيه رقيب سوى ضمير الفرد وهذه الرقابة الداخلية هي ما تعارف عليها شرعاً (بالاحتساب) واتباع السلوك الرشيد . فمن اتبع السلوك الرشيد في الحفاظ علي البيئة كان محتسباً سواء كان ذلك فى منزلة أو عملة أو فى الطريق والأماكن العامة

فتمه علاقة بين السلوك الإنساني وتلوث البيئة فالإنسان هو الذي يخترع . وهو الذي يصنع . وهو الذي يستخدم . وهو المكون الأساسي للسكان . وهو أهم عامل في أحداث التغير في البيئة سلباً وإيجاباً

فعلى الرغم من اختلاف المجتمعات في الحكم على سلوك ما بأنه سوي أو غير سوي ، إلا أن هناك عدة معايير يمكن على أساسها الحكم على هذه الأنماط السلوكية بأنها سوية أو غير سوية ، ومنها مدى اتساق السلوك مع القيم والتقاليد السائدة في المجتمع ، ومدى تعارضه مع مصالح الجماعة التي يجيأ بينها ، ومدى إضراره بالبيئة وبالآخرين .

ويرى علماء النفس البيئي أن الاعتداء على البيئة يعد سلوك غير سوي^(١). ويحتاج إلي تقويم وهذا السلوك هو السبب الأساسي لحدوث التلوث البيئي ينطلق من نفسية الفرد ومدى وعيه بأهمية الحفاظ على البيئة والنعم التي منحه الله إياها ومنها نعمة الهواء.

فالشخصية المضادة للبيئة والمجتمع تتسم بالأناية والتجرد من الضمير، وكفران للنعم، وهناك ارتباط بين عدم الاتزان الإنفعالي والاعتداء الموجه ضد البيئة، وفي ضوء ذلك يفسر العنف الموجه نحو البيئة بشقيها الطبيعي والمشيّد^(٢) ولا يقتصر الأمر هنا على العنف ضد البيئة الطبيعية بل يشمل التعدي على البيئة الاجتماعية أيضاً.

فضعف الضمير وعدم الشعور بالذنب والسلوك المضطرب، يعبر عنها جميعاً بالاعتداء على البيئة ويتراوح هذا الاعتداء بين العنف أو عدم المبالاه والاستهتار

فالمكون النفسي يفرز أنماط من السلوك الإنساني ليس لها قوة رادعة إلا صحوة ضمير ويقظة حس وبعبارة أدق (الاحتساب) فما أحوج البشرية إلى أخلاق الاحتساب، والمسلم ترجمان الوحي الإلهي المتمثل بالقرآن الكريم والسنة المشرفة، والمسلم المحتسب يطبق الصورة العملية لمبادئ الإسلام وأخلاقه، إنه يضع بين عينيه خوف الله، وأنه مؤتمن على البيئة ويعلم أنه إن أحسن للبيئة بارك الله له في رزقه وصحته وعمره وأهله وذريته، وإن أساء عمله يافساد أو تلوث مادي ومعنوي حوسب حساباً دقيقاً في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون. وهو أيضاً المعلم لغيره هذه الأخلاق.

وأن الحقوق في البيئة تقابلها دائماً واجبات نحوها، فليست هناك حقوق دون واجبات؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتمتع إلى أقصى حد بكل ما

¹ د/ عبد الرحمن عيسوي، علم النفس البيئي، ص ٣٨، منشأة المعارف ٢٠٠٣

² د/ عبد الرحمن عيسوي، ص ٦٨، المرجع السابق

يقدمه له النظام البيئي الذي يعيش في إطاره، غير أنه في تمتعه بهذه الحقوق البيئية، ينسى أو يتناسى أن عليه دائماً واجبات بيئية، فالحق في تنفس الهواء الذي يحوى النسب العادية من الأوكسجين، والخالي من المواد السامة يقابله واجب الحفاظ على هذا الهواء نقياً.

الفرع الاول

سلوكيات ايجابية فى حفظ الهواء

- قد يتسأل البعض عن ماهو دورى فى الحفاظ على البيئة، قائلًا . كيف أحافظ على الهواء نقياً وكيف أشكر تلك النعمة؟ . وهذه بعض الممارسات الإيجابية والعملية للحفاظ علي البيئة بإمكان أي شخص القيام بها
- كن محتسبا ولا تلقي المخلفات عشوائيا بل قم بفرزها لسهولة إعادة تدويرها وإن كنت مسئولاً فساعد علي تنظيم وتيسير ذلك . فبعض الدول جعلت يوماً لجمع أوراق الجرائد وآخر لنوع آخر من المخلفات.
 - كن محتسبا وازرع أو ساعد علي زراعة شجرة . فإن ذلك يقلل من الاحتباس الحراري
 - كن محتسبا وحافظ علي طبقة الاوزون عن طريق شراء عبوات الرذاذ وأجهزة التكييف التي لا تحتوي علي المواد الكلور وفلورية المستنفذة لطبقة الأوزون .
 - تطوع بوقتك وعلمك لخدمة البيئة شارك في الجمعيات الأهلية وساهم فى الجهود التطوعية لحماية البيئة.
 - تابع وسائل الإعلام البيئي وما تكتبه وتبشه عن قضايا البيئة، وعبر عن رأيك بالمشاركة معها فى تعديل السلوكيات البيئية الخاطئة. وساهم فى تكوين الضمير البيئي.
 - احتسب فى تغيير العادات الاستهلاكية للمحيطين بك . بما يجعلها عادات فى خدمة البيئة

وكن قدوة صالحة في سلوكك الصديق للبيئة في عملك والحى الذي تسكنه فلست محتسبا إذا أحدثت ضجيجا بصوت مذياعك أو سيارتك فهناك من يحتاج إلي الراحة.

- مارس احتسابك في الأماكن العامة التي يقصدها عامة الناس . بالسلوك الحسن والكلمة الطيبة والمعلومة المفيدة تطوع بوقتك لصيانة الحدائق العامة.

- حين تتسوق تجنب شراء المنتجات التي تحتوى على مواد اصطناعية . واختر المنتجات القابلة لإعادة التدوير واختر المنتج المغلف بالمواد القابلة لإعادة التدوير مثل الورق والزجاج والكرتون . لذا علينا توديع مجتمع الفناجين البلاستيكية والصحون التي ترمى بعد الاستعمال⁽¹⁾

- اقتصد في الأكياس البلاستيكية حين تتسوق او اجلب كيس تسوق خاصا بك فالبيئة الأفضل تبدأ بنفايات أقل حتى ولو كان كيس

- تذكر أن السلع التي تدوم طويلاً هي فى النهاية أرخص لأنها تدوم أكثر، ويمكن تكرار إصلاحها، أما تصنيع منتجات قصيرة الأمد يهدر المواد الخام ويزيد من كمية النفايات. وحاول إصلاح الأشياء المعطلة قبل اللجوء إلى شراء أخرى

- رشد من استخدام مصادر الطاقة حيث أن الإسراف فى الطاقة غير المتجددة، يساهم فى تلوث الهواء، وفى ظاهرة الاحتباس الحرارى.واعلم أن البيئة الأفضل تبدأ باستخدام طاقة أقل ففي كل مرة نشعل ضوءاً . يتوجب على محطة توليد الطاقة مدنا بالتيار . فينبعث غاز ثاني أكسيد الكربون . وهذه مبررات كافية لتوفير الطاقة . فكن محتسبا فى ترشيد الطاقة .

❖ أضئ الأنوار حين تدعو الحاجة فقط . وبدل المصابيح الكهربائية العادية بأخرى توفر الطاقة

❖ تحقق من جودة الأدوات الكهربائية قبل شرائها.

❖ لا تشغيل نظام التدفئة والتكييف والإضاءة فى الغرفة التي لا تدخلها

¹ الدليل المرجعي للشباب . مرجع سابق.

ومن أجل أن يستنشق ابني وابنتك هواءً نظيفاً كن محتسباً في حفظ الهواء فإن كنت صاحب مصنع . أو ورشه فلا تجعل الطمع يعمي بصيرتك فتضرب عرض الحائط بمسؤولياتك . وتطرح الملوثات هكذا دون معالجة إلى الهواء أو الماء أو التربة.

الفرع الثاني

العكم الرشيد للمحافظة على سلامة الهواء

إن وضع البيئة خطير جداً . بحيث بات يتطلب مناشدة كل مواطن للمشاركة في حمايتها ، لكن نميل جميعنا إلى لوم الآخرين عندما نتحدث عن التلوث . والأصح أن نفهم أن البيئة الأفضل تبدأ بتعاون الجميع . وهناك مجموعة من السلوكيات الراشدة يجب على الدولة القيام بها للمحافظة على سلامة الهواء ونقاؤه وخلوه من الملوثات الضارة بصحة الإنسان والبيئة . والتي يجب على الجهات المعنية اتخاذها لأن عملية النهوض بالبيئة لا تقتصر على مؤسسة أو جهاز بعينه مخصص لذلك وإنما هي مسئولية جميع قطاعات الدولة لأن المشكلات البيئية تشابك وتتداخل في جميع القطاعات.

وتشمل هذه الإجراءات ما يلي :-

- ١ - التخطيط العمراني والبيئي السليم للمدن والقرى ، بما في ذلك إنشاء شبكات للصرف الصحي . وشق الطرق الواسعة لتفادي الاختناقات المرورية ، وتخصيص مناطق صناعية بعيدة عن المناطق السكنية ومراعاة النسب الصحيحة بينهم^(١)
- ٢ - ضرورة الحد من الانبعاثات الصادرة من المصادر الصناعية والمركبات . فخير وسيلة لحماية الهواء من التلوث هي ضبط مصادر الملوثات . والوصول إلى الحد الآمن باستعمال أجهزة تجميع الغازات والجسيمات التي تخرج من مداخن المصانع . ومعالجتها . وإعادة استخدامها .

^١ د. حمدي هاشم . خبير جغرافيا بيئية . الامرام المصرية ١١ / ٦ / ٢٠٠٧

وقد ألزم قانون البيئة المصري^(١) صاحب المنشأة باتخاذ الاحتياطات والتدابير اللازمة لعدم تسرب أو انبعاث ملوثات الهواء داخل مكان العمل . إلا في الحدود المسموح بها ، التي تحددها اللائحة التنفيذية حسب طبيعة نشاط المؤسسة

وحدد الملحق رقم (٨) من القانون الحدود القصوى للملوثات الهواء . وعليه فان سياسة المنشأة في خفض الانبعاثات الغازية ، وإختيارها للتنقية المناسبة للتحكم في هذه الانبعاثات يخضع لرقابة وزارة البيئة .

الأمر الذي يحتم علي الوزارة ممثلة - في اللجنة التفتيشية - التأكد من سجلات تلك القياسات و من أن القائمين علي أخذ العينات يدوياً أو أتوماتيكياً مدربون تدريباً جيداً لاستخراج معلومات مؤكدة تضمن دعم برنامج الحد من تلوث الهواء . فأخذ العينات وجمع البيانات لمراقبة تلوث الهواء تحتاج إلي ضمير مهني إذ أن مصادر الانبعاثات داخل المنشأة متعددة .

كما يتطلب الأمر الاستعانة بالمعلومات الواردة في السجل البيئي وسجلات الصيانة ، وكذا شكاوي والتماسات الأهالي القريبين من المنشأة . وضرورة الحزم في تطبيق هذه القوانين والتشريعات البيئية . ومساعدته المنشآت الصناعية على اللجوء إلى الأساليب العلمية الأكثر أمناً وأقل تلويثاً للبيئة (الإنتاج الأنظف) .

٣- زيادة المسطحات الخضراء لما لها من تأثير في تثبيت التربة وتنقية الهواء ، وإقامة أحزمة من الأشجار حول المصانع من أجل التقليل من حدة التلوث بالغازات السامة و الجزيئات المنبثقة منها .

٤ - توفير الاعتمادات المالية لتنفيذ أية خطط تتعلق بمجال البيئة .

٥ - توفير الموارد البشرية المدربة في مجال الحفاظ علي البيئة .

^١ مادة ٤٣ ، ق ٤ ، لسنة ١٩٩٤

وأخيراً ، لما كانت معظم المراجع البيئية تتحدث عن السيارات علي أنها من ملوثات البيئة كان لابد لنا من التوقف قليلاً عند الحديث عن هذا المصدر لتلوث الهواء.

تحتوي عوادم السيارات على أربعة مركبات في غاية الخطورة على الإنسان^(١) وهي :-

أ- أول أكسيد الكربون ، وهو غاز سام يسبب الصرع والغثيان وصعوبة التنفس إذا وصلت نسبته إلى ٠.٠١٪ ويؤدي إلى الوفاة إذا وصلت نسبته إلى ٠.٠٣٪ .

ب- أكاسيد النيتروجين وتسبب تهيجاً شديداً للجهاز التنفسي ، وتلف الرئتين كما تؤدي إلى الوفاة إذا وصل تركيزها إلى ٥٠ جزء من المليون .

ج - مركبات الهيدور كربونات ، وهي تسبب حساسية للعين والأنف والحلق ولبعض أنواعها تأثيرات سرطانية .

د - مركبات الرصاص ، مثل رابع ميثيل الرصاص ، ولها تأثيراتها السلبية على نمو الأطفال ونضجهم العقلي ، وتراكم الرصاص في أغشية الأجنة قد يؤدي إلى التشوه الخلقي لدى المواليد الجدد. كما أنه قد يتسبب في إجهاض الحوامل ، ويؤثر على جهاز المناعة ، ويسبب السرطان . والرصاص يؤدي إلى خلل في افراز حامض البوليك ، وإلى تراكمه في المفاصل والكلبي ، و يتسبب الرصاص على الخضروات والفواكة المزروعة بالقرب من الطرق التي تمر بها السيارات^(٢) .

وعلي الرغم من ذلك ما زالت معظم العواصم العالمية والمدن الكبرى تعاني شوارعها - خصوصاً وسطها التجاري - من ازدحام كبير في السيارات الخاصة.

والأدهى من ذلك كون معظم هذه السيارات - حتى الفارهة منها ، لا تنقل عادة سوى قائدها تاركة بقية المقاعد فارغة ، فيما كان يمكن أن يحتلها

^١ د . يسرى دعيس . ص ٣٧ . مرجع سابق

^٢ دكتور / يسرى دعيس . تلوث البيئة وتحديات البقاء . مرجع سابق.

ركاب آخرون يقصدون المكان نفسه. ونسي قوله - صلي الله عليه وسلم -
(.. من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له) ^(١) و كان وصية رسول
الله قد نسخت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هذه الاعتبارات دفعت كثيراً من الشركات المصنعة الى إنتاج سيارات
ذات عادم نظيف، وهي سيارات صغيرة جداً تسير بالبطاريات، ولا يسمع لها
صوت ولا ضجيج، وهي مغطاة من رسوم الازدحام والسير على الطرقات، كما
يمكن لأصحابها ركنها في المكان الذي يشاءون، أو في مواقف السيارات مجاناً، أو
بأسعار منخفضة جداً، لتشجيع القيادة الخضراء الصديقة للبيئة. وقد تبنت دولة
قطر مشروعاً طموحاً لتصنيع حافلات وسيارات أجرة تعمل بالطاقة الكهربائية،
من أجل مكافحة التلوث. وهناك أفكار مدهشة لاستغلال الهواء المضغوط لتسير
الحافلات والسيارات ويقال أن فكرة نقل وتخزينها لطاقة - باستخدام الهواء
المضغوط فكرة قديمة ^(٢) لكنها أهملت لأسباب .

وهناك بعض التدابير علي مستوى الدولة والأفراد للحد من أضرار عوادم
السيارات. منها :

- أ - تخفيف استعمال السيارات . وبالتالي تنخفض كمية الغازات المنبعثة إلى
الهواء. ويمكن تحقيق ذلك عن طريق تخفيف الازدحام الذي تعانيه مناطق كثيرة .
إما بإنشاء شبكة حديثة من الطرق أو بالاعتماد على وسائل النقل العام.
ب - التشجيع على استعمال البنزين الخالي من الرصاص. وتوفيره بسعر
رخيص .

ج - تجهيز عوادم السيارات بالمحول الحفازي (كتاليزاتور). أو الحفاز

¹ رواه مسلم وأبو داود في الزكاة، وأحمد في المسند: (٣٤/٢)

² تعود الي عام ١٦٨٧. واقترح الباحث دنس باين في بحث قدمه الي الجمعية الملكية في لندن.
وتطورت علي يدي المهندس أندرو - والمهندس تسيبة دوموتيه عام ١٨٣٨. وبالفعل صنعوا عربة
تعمل بالهواء وتم تشغيلها في مدينة باريس. جريدة الشرق الاوسط ديسمبر ٢٠٠٥

Catalyzer، الذي يحول بعض الغازات الضارة الناجمة عن الاحتراق مثل أول أكسيد الكربون وأكسيدات النيتروجين والغازات الهيدروكربونية إلى مواد أخرى أقل ضرراً، مثل بخار الماء وثنائي أكسيد الكربون، ومعظم السيارات الحديثة مجهزة بهذه الحفازات، لكن استعمال البنزين الحاوي مادة الرصاص لتحريك هذه السيارات فهو أمر يؤدي إلى تلف الحفاز وبالتالي تنبعث أنواع الغازات والسموم من العوادم مرة أخرى.

د- تشجيع حركة التنقلات بين الموظفين كلا حسب مكان الإقامة، فالسكن القريب من العمل يقلل ساعات السفر للعمل ومنه، وبالتالي يقلل عوادم السيارات وتلوث الهواء هدر الوقت في الاختناقات المرورية والضجيج وفي مدينة (سياتل الأمريكية) قام ناشط بيئي بتطبيق ذلك علي أحد البنوك حيث تبادل الأفراد في فروع البنك مواقع قريبة من مسكنهم^(١) أن وضع هذه التدابير موقع التنفيذ، وإعطائها الاهتمام الرسمي اللازم، وتأمين الميزانية اللازمة لها، يحد كثيرا من تلوث الهواء.

تلك كانت الجهود علي مستوى الدولة لكن علي المستوى الفردي تستطيع أن تساعد في خفض الملوثات المنبعثة من عوادم السيارات بالخطوات الآتية:

- ١- القيادة السليمة، إذ ثبت أن القيادة السليمة تساعد في الحد من انبعاثات الغازات الضارة بالبيئة
- ٢- إقتصاد في استخدام سيارتك فالبيئة الأفضل تبدأ بالاقتصاد في استعمال السيارات، وألا تستخدمها في المسافات القصيرة.
- ٣- استعمل وسائل النقل العام، وإذا كنت مقبلاً على شراء سيارة، فاختر النوع الموفر في الوقود، واتفق مع زملائك وأصدقائك على التناوب في ركوب سيارة واحدة عند الذهاب للعمل.

^١ - مجلة أصدقاء البيئة الكويتية، العدد ١٥٢

- ٤- مارس مع زملائك رياضة المشى، فالمشى تمتع وصحى، ويعرفك على محيطك الحيوى، ويُعرفك على الناس، ولا يستهلك من الطاقة إلا قوتك الجسدية، فالرياضة صديقة للبيئة، أو اركب الدراجة فقد تكون السيارة أهم وسيلة للنقل، لكن الدراجة وسيلة نقل آمنة، وتساعد على تحسين صحتك، ولا تلوث البيئة، كما أنها رياضة تستهوى عدداً كبيراً من الشباب^(١).
- ٥- قم بعمل صيانة دورية لسيارتك لتخفيف انبعاثات الغازات الملوثة للهواء، وتحقق من ضغط الهواء فى إطار سيارتك ؛ لأن الضغط الصحيح يوفر ٥% من استهلاك الوقود. وابدأ القيادة متمهلاً حين تكون السيارة باردة. واطفئ المحرك حين يتوجب عليك الانتظار فى الزحام. وقد سيارتك بهدوء إذا لم تستدعي الحاجة للسرعة^(٢).

المطلب الرابع الهواء الداخلى

تعد نوعية الهواء الداخلى مهمة لأن الناس يقضون على الأقل (٤٠ _ ٥٠ %) من أعمارهم داخل المباني ، ويقضي الأطفال وريبات البيوت ما يزيد على (٨٠ %) منها داخل المنزل ، وتشير الأبحاث إلى أن (٤٠ إلى ٩٠ %) من تركيزات الملوثات الخارجية فى مصر توجد فى الهواء الداخلى .
والهواء الداخلى هو محتوى الهواء الذى يشغل حيزاً مغلقاً فى المنازل، المطاعم أو أماكن العمل بعيداً عن هواء الأماكن المفتوحة .
وهناك الكثير من الأمراض التى تنتقل عن طريق الهواء . فنفخ الرذاذ يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المعدية كالإنفلونزا وغيرها من الأمراض ، خاصة الفيروسية ؛ ولذلك ينصح بعدم التنفس فى آنية الأكل والشرب، كما

^١ الدليل المرجعى للشباب ، مرجع سابق

^٢ الدليل المرجعى ، المرجع السابق

يستحسن تغطية الوجه في أثناء العطاس والتأثب. ولقد وجه الإسلام أتباعه إلى هذه الوسائل الوقائية، وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - (كان إذا عطس غطى وجهه بيديه أو بثوبه وغض بها صوته) ^(١). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (إذا تشاءب أحدكم فليضع يده على فيه.) ^(٢)

وليس أدل على هذا النوع من الحفاظ على نقاء الهواء في الأماكن المغلقة، من النهي عن ارتياد المساجد وقد أكل الواحد منا ثوماً أو بصلاً؛ ففي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: من أكل من هذه الشجرة (يعني الثوم) فلا يقرين مسجداً وعن جابر مرفوعاً: ومن أكل ثوماً أو بصلاً، فليعتزلنا أو قال: فليعتزل مسجداً وليقعد في بيته ^(٣)

أولاً: ملوثات الهواء الداخلي:

١- التدخين من أهم الملوثات للهواء الداخلي ^(٤)، لذلك حظر القانون التدخين في الأماكن العامة المغلقة ووسائل النقل ويعاقب المخالف بالحبس مدة لا تزيد عن أسبوع، ويفرامة لا تقل عن خمسة جنيهات ولا تزيد عن عشرين جنيهاً أو بإحدى العقوبتين.

والمادة (٤٦) من قانون البيئة المصري تلزم المدير المسئول عن المنشأة باتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع التدخين، وتخصيص أماكن للتدخين.

٢- الروائح الكريهة:

من مظاهر تلوث الهواء، سواء أكان مصدرها إلقاء القاذورات أو تحلل المواد العضوية؛ لأن الإنسان يتأذى منها فضلاً عما تؤدي إليه من أضرار

¹ سنن الترمذي، كتاب الادب، الحديث رقم ٢٧٣٦ وحسنه الأرئووط في تحقيق جامع الأصول

² صحيح البخارى كتاب الادب حديث ١٢٨

³ د. يوسف القرضاوي المرجع السابق

⁴ د/ ماجد الحلو، ص ١٦٣

صحية^(١). لذلك تحظر القوانين ولوائح الضبط اقتناء ، أو عمل ما من شأنه إثارة الروائح الكريهة ، كتربية الطيور والحيوانات في اماكن السكن أو القاء المخلفات الصحية في الشارع او عدم العناية بالصرف الصحي للمنازل.

وإذا كانت هذه هي الحال مع الروائح الكريهة فإن التحذيرات تتناول العطور الصناعية ، إذ تعتمد على أكثر من خمسة آلاف مركب كيميائي ، منها ٩٥ ٪ مشتقات بترولية ، وتشتمل على مركبات مسرطنة ، وأخرى مثبطة للجهاز العصبي المركزي ، ومؤثرة على الجهاز التنفسي ، ومسببة لأنواع من تفاعلات الحساسية^(٢).

وفي ولاية كاليفورنيا الأمريكية رفع أحد المطاعم شعار (ممنوع دخول المتعطين) ؛ لأن إحصائيات رسمية تقول : إن ثلث سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعانون من بعض المشكلات الصحية ، مثل الصداع وحساسية الجلد ، نتيجة لاستخدام العطور.

وفي مدينة (هاليفاكس) ترفض معظم الدواوين العامة التعامل مع ذوي العطور الفوآحة ، ويحظر على الموظفين التعطر قبل الخروج إلى العمل ! كما يحرص بعض أصحاب الأعمال الخاصة على تعليق لافتات تعلن أن مكاتبهم خالية من العطور^(٣)

٣- الرادون ، وهو غاز ذرى إشعاعى غير مرئى ، ينبعث من الانشطارات الإشعاعية لبعض أشكال الراديوم المتواجد فى تكوينات الصخور تحت المبانى ، أو فى بعض مواد البناء نفسها.

وهو من أخطر ملوثات الهواء الداخلى ، فهو المسئول عن إصابة عشرات الآلاف من الأشخاص بسرطان الرئة^(٤).

١ / د/ ماجد الحلو . مرجع سابق ، ص ١٥٨

٢ رجب سعد السيد مجلة العربي ، العدد ٥١١ يونيو ٢٠٠١م ، ممنوع دخول المتعطين

٣ مجلة العربي . العدد ٥١١ ، المرجع السابق

٤ ترافس واجنر ، البيثة من حولنا دليل لفهم التلوث وأثاره . ترجمة الدكتور محمد صابر . =

٤- الرطوبة التي تساعد على نمو العفن والفطريات، التي تتطاير فى الهواء، والمواد الطبيعية التي تنبعث فى الهواء مثل لقاحات النباتات، واستخدام الوقود ، خاصةً المطابخ وسخانات الحمامات فى المنازل التي لا تتمتع بتهوية جيدة ، والاستخدام المفرط للمبيدات المنزلية ، ولعل التصميم الجيد للمباني يضمن نقاء الهواء ، بينما الأبراج السكنية تقف كعوائق أمام حركة الريح السطحية.

٥- ألياف الإسبستوس ، قبل عام ١٩٧٥ ، كانت مادة الإسبستوس مستخدمة فى مواد البناء، مثل بلاط الأرضيات أو الأسقف أو فى المواسير ومعجون الحوائط ، وغيرها من المواد الأخرى القابلة للذوبان، وهي تنتشر فى الهواء فى حالة التعامل مع مواد البناء بشكل مباشر بالحفر، أو إعادة البناء ، أو الهدم واستنشاق الإسبستوس على المدى الطويل يزيد من احتمالية الإصابة بسرطان الرئة، والآن أصبحت هناك معايير للمعدلات المقبولة استخدامها من الإسبستوس وانبعاثها فى الهواء.

ثانياً : التلوث الضوضائى

ويعتبر صورة من صور التلوث الهوائى ؛ لأن الضوضاء تغير سريع فى ضغط جزئيات الهواء علي طبلة الأذن ، وهي موجات صوتية تنتقل عبر الهواء ، وتعد مصدراً لإفساد طبيعة الهواء وتحويله من هواء مفيد إلى هواء مزعج وضار ؛ لما تسببه هذه الموجات الصوتية من أخطار صحية ونفسية وجسمانية^(١) ولهذا ألحقه قانون البيئة بتعريفه لتلوث الهواء^(٢)

وتقاس الضوضاء بوحدة قياس (ديسبل) ، وتكون شدة الضوضاء مقبولة عندما تكون أقل من ٧٥ ديسبل أما إذا كانت لفترة طويلة داخل عنابر العمل فى المصانع فإن النسبة يجب أن تكون ٣٠- ٥٥ ديسبل ، والأصوات

== ص ٣٤٦- الناشر الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية . القاهرة ١٩٩٧

^١ د/ زين عبد المقصود ، قضايا بيئية معاصرة ، منشأة المعارف ٢٠٠٠ ، ص ١٩١

^٢ انظر م (١) فقرة (١٠) قانون البيئة المصرى

العالية (أقل من ١٥٠ ديسبل) يمكن أن تحدث تمزقاً في طبلة الأذن . والأفراد الذين يعيشون بالقرب من شوارع أو مناطق ذات حركة مرور ثقيلة و مزدحمة يتعرضون بلا شك لمستويات ضوضائية تملو كثيراً عن المستويات السابق ذكرها . وعدم التوقع يؤدي إلى زيادة التوتر لأن عدم توقع الضوضاء يجعلنا نحس بتهديدها لنا أكثر مما لو كانت متوقعة .

ويشير علماء النفس البيئي^(١) إلى أن الضوضاء تؤثر علي السلوك الاجتماعي . فتقلل من التجاذب والود بين البشر وتؤثر علي درجة الإيثار ؛ فالإنسان الذي يتعرض للضوضاء يكون أقل استعداداً لتقديم العون للآخرين ومساعدتهم . وقد أجريت تجارب ميدانية فوجد أن الضوضاء تسبب عدم تركيز الانتباه خاصة للمشيريات الأقل أهمية . ومن ثم فإن العلاقات أو التلميحات الاجتماعية التي تستدعي تقديم المساعدة لشخص ما تصبح عديمة الأهمية . ولعل أخطر مؤثرات الضوضاء علي السلوك هي القابلية للعوانية ولو اجتمع الزحام والضوضاء كان الشخص أكثر قابلية للاستثارة والطواعية للعدوان الجماعي .

وفي حياتنا اليومية تعود الناس على الضوضاء المفرطة . ورفع الصوت عند الحديث . وإساءة استخدام مكبرات الصوت . ورفع أصوات التلفاز والمذياع . وأصوات الباعة الجائلين^(٢) ومحلات الحدادة وضجيج السيارات^(٣) وللحد من الضوضاء أزم القانون جميع الجهات والأفراد عند مباشرة الأنشطة الإنتاجية أو الخدمية أو غيرها وخاصة عند تشغيل الآلات والمعدات . واستخدام آلات للتنبية ومكبرات الصوت . بعدم تجاوز الحدود المسموح بها لشدة

^١ د/ عبد الرحمن العيسوي . علم النفس البيئي . ص ٩٤ ، مرجع سابق

^٢ قانون الباعة الجائلين المصري رقم ٣٣ لسنة ١٩٥٧ يحظر استخدام المكبرات أو ملاحقة الجمهور أو المرور عليهم في مساكنهم لعرض سلهم

^٣ قانون المرور يحظر استخدام أجهزة التنبيه إلا للضرورة وتحظر قيادة مركبة تصدر أصوات مزعجة

الصوت وأوجب على الجهات مانحة الترخيص مراعاة أن يكون مجموع الأصوات المنبعثة من المصادر الثابتة في منطقة واحدة في نطاق الحدود المسموح بها والتأكد من التزام المنشأة باختيار الآلات والمعدات المناسبة لضمان ذلك - وقد بينت اللائحة التنفيذية الحدود المسموح بها لشدة الصوت داخل أماكن العمل ودخل الأماكن المغلقة والحد الأقصى المسموح به لشدة الضوضاء في المناطق المختلفة - وذلك بالملاحق رقم (٧) لللائحة التنفيذية. وأوجب القانون ٤٥ لسنة ١٩٤٩ الترخيص لتركيب مكبرات الصوت في المحلات العامة^(١)

وقد ذم الله تعالى المشركين في القرآن الكريم بقوله (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَلِيَةً)^(٢). أي صغيراً وتصفيقاً وضجيجاً.

وحرص الإسلام على نفسية الإنسان وصحته وعدم تعريضه للأصوات المزعجة . فجاء في الحديث الشريف وصف للصوت المرتفع أنه رعونة وإيذاء . وشبه القرآن الصوت المرتفع بصوت الحمير، ولذلك كانت وصية لقمان لابنه (...وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)^(٣) والنهي السابق علته الإزعاج ، ومصادر الضوضاء الحديثة تشترك معه في نفس العلة، وتزيد عنه لقوة تردد الصوت فيها.

وقد تناول فقهاء الإسلام الضرر الناتج عن الأصوات . ونعرض من هذا مجرد مثال بسيط يظهر كيف أنهم - رحمهم الله - اهتموا بالأمر وأمكنهم تقسيم الأصوات والذبذبات^(٤) إلى قسمين منها ما تؤثر على سلامة المباني وتعتبر خطراً يجب درؤه، فيروي (ابن الرامي) في كتابه (الإعلان بأحكام البنيان) أن مجموعة من الناس أقاموا بوابة لحارتهم يفتح بابها على حائط جار لهم،

^١ القانون ٤٥ لسنة ١٩٤٩ المادة ١ والمعدل بالقانون ٢٠٩ لسنة ١٩٨٠

^٢ سورة الأنفال: الآية ٣٥

^٣ سورة لقمان الآية: ١٩

^٤ مجلة الوعي الاسلامي عدد ٥٢٦

فقاضاهم هذا الرجل بدعوى أن فتح الباب وغلقه المستمرين أضربه وأقلق راحته ، فتحرى (ابن الرامي) الأمر ووجد الحائط يتذبذب جراء فتح الباب وغلقه ، فأمر القاضي بهدم البوابة وإزالة بابها.

أما النوع الآخر من الضرر فينتج من الأصوات التي تسبب الضيق و الضرر للإنسان . وقد وضعت قواعد صارمة لمنع وجودها ؛ فكان المحتسب يمنع عمل الحدادين (والكمدادين) في قلب المدينة لما يسببونه من ضرر وضيق للجيران بما يصدر عنهم من أصوات ومنع بناء الإسطبلات والحظائر المتاخمة للمباني لما تسببه حركة الحيوانات الدائمة في أثناء الليل والنهار من إزعاج قد يمنع الجيران من النوم . كما نجد الفقه يفرق بين ضرر الأصوات بالليل او بالنهار . فان أباحة نهارا لحاجة الناس . فقد منعه ليلا حفاظا على الهدوء والاستقرار⁽¹⁾

المبحث الثاني

الماء والحفظ المطلوب

أيها الماء ، لا طعم لك ولا لون ولا رائحة . ولا سبيل لنا لتعريفك . إنك لست ضرورياً للحياة ، بل أنت الحياة . أنت أعظم ثروة في العالم ، وأصعبها أيضاً ، أنت أيها الطاهر يكفيك قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)⁽²⁾ . وهناك آيات تنسب الله سبحانه وتعالى فيها إنزال الماء إلى نفسه : (وينزل من السماء ماء ...)⁽³⁾ (وأنزل من السماء ماء ...)⁽⁴⁾ (فأنزلنا من السماء

¹ د . زكي زكي زيدان . الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان وكيف عالجها الاسلام . دار الفكر

الجامعي ٢٠٠٤

² سورة الأنبياء الآية ٣٠

³ سورة الروم الآية : ٢٤

⁴ سورة إبراهيم الآية ٣٢

السماء ماء...) الحجر: ٢٢ (ونزلنا من السماء ماء)^(١) فهذه الآيات ومثيلاتها تدل على أهمية الماء وارتباطه بمشيئة الله جل وعلا .

وكلمة الماء ترادف كلمة الحياة ؛ لأن الماء يعنى الزراعة والغذاء والشراب والطاقة ، ويصل الأمر إلى أن حجم الأراضي الزراعية يتحدد في كثير من دول العالم ليس فقط بحجم الأراضي القابلة للزراعة ، لكن بكميات المياه العذبة المتوافرة . ويمتد وجود الماء إلى الغلاف الجوى على صورة بخار ماء .

والماء أغلى الثروات التي يجب أن تفخر الأمم بامتلاكها ، لكننا للأسف لا ندرك هذا. وقد يأتي اليوم الذي نندم فيه على هذه الغفلة ، عندما نجد أن المصادر الطبيعية للماء احتلت واحتكرها حفنة من المستثمرين الباحثين عن الثراء وقد دفعت ندرة المياه العذبة في العالم كثير من الباحثين إلى تسمية المياه "الذهب الأزرق" ، على غرار النفط "الذهب الأسود". ونشرت مجلة "كريستيان ساينس مونيتور" The Christian Science Monitor مقالاً بعنوان (انسوا منظمة النفط العالمية (الأوبك) ، ها هم تجار المياه العذبة ، سيصبح (الذهب الأزرق) في القرن الحادي والعشرين ما كان عليه "الذهب الأسود" (النفط) في القرن الماضي^(٢) بعد حوالي عقد من الزمن سيصبح الماء أهم من النفط^(٣)

نشرت وكالة رويترز دراسة تقول أنه إذا تحققت توقعات العلماء بأن الماء سيصبح سلعة نادرة ونفيسة مثل النفط خلال القرن الحالي، فإن ثروة النمسا المائية قد تعادل حينها ثروة السعودية النفطية^(٤) ، مما اغرى شركات المياه العالمية

¹ سورة ق الآية : ٩

² نشرت صحيفة كورييه إنترناسيونال Courrier international, 742, 20 janvier 2005 هذا المقال بكامله ، وفي عنوانه الفرعي: "أنايب عملاقة ، حاويات هائلة ، أكياس بالغة

الضخامة كل شيء صالح لنقل المياه

³ صحيفة الكفاح العربي ، بيروت ، ١٩ تموز ١٩٩٩ .

⁴ وكالة رويترز في ١٣ - ٢ - ٢٠٠٢

بالتسلسل تدريجياً إلى قطاع المياه في الوطن العربي من خلال ما يسمى تقديم "عقود المساعدة الفنية". وما تلك العقود غير دراسات تجريها الشركات العملاقة للقطاعات المجدية مالياً في بلدان العالم الثالث.

ولذلك لا غرابة في أن يكون حجم الدراسات التي تناولت تلوث المياه أكثر من تلك التي تناولت باقي فروع التلوث.

ولعل السري في ذلك مرده إلى سببين :

الأول : أهمية الماء وضروريته ؛ فهو يدخل في كل العمليات البيولوجية والصناعية ، (وقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية ، وهو وحدة البناء في كل كائن حي نباتاً كان أم حيواناً ، وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحويلات التي تتم داخل أجسام الأحياء فهو إما وسط أو عامل مساعد أو داخل في التفاعل أو ناتج عنه ، وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظائفه التي بدونها لا تتوفر له مظاهر الحياة ومقوماتها .

الثاني : أن الماء يشغل أكبر حيز في الغلاف الحيوي ، وهو أكثر مادة منفردة موجودة به ؛ إذ تبلغ مساحة المسطح المائي حوالي ٧٠,٨ ٪ من مساحة الكرة الأرضية ، مما دفع بعض العلماء إلى أن يطلقوا اسم (الكرة المائية) على الأرض بدلاً من من الكرة الأرضية . كما أن الماء يكون حوالي (٦٠ - ٧٠ ٪ من أجسام الأحياء الراقية بما فيها الإنسان ، كما يكون حوالي ٩٠ ٪ من أجسام الأحياء الدنيا) . وبالتالي فإن تلوث الماء يؤدي إلى أضرار بالغة وأخطار جسيمة بالكائنات الحية ، خاصة وأن هذه المسطحات المائية متصل بعضها ببعض مما يوسع دائرة التلوث

المطلب الاول المقصود بتلوث الماء

عرفه قانون البيئة المصري بأنه (إدخال أية مواد أو طاقة في البيئة المائية ، بطريقة إرادية أو غير إرادية، مباشرة أو غير مباشرة ، ينتج عنه ضرر بالموارد الحية أو غير الحية ، أو يهدد صحة الإنسان، أو يعوق الأنشطة المائية ، بما في ذلك صيد الأسماك والأنشطة السياحية، أو يفسد صلاحية مياه البحر للاستعمال أو ينقص من التمتع بها ، أو يغير من خواصها) ^(١)

الفرع الاول مصادر تلوث المياه

كثير من أنشطة الإنسان يعتمد على المياه ، لذا هناك مصادر عدة لتلوث المياه ، نذكر منها:

أولاً: التلوث بمخلفات الصرف الصناع:

تعتبر مخلفات المصانع من أكبر مصادر تلوث مياه الأنهار والبحار والمحيطات، وتحتوى هذه المخلفات على كثير من المواد الكيميائية السامة - حسب نوع الصناعة - التي تُصرف إلى المسطحات المائية دون معالجة أو بمعالجة جزئية ^(٢).

لكن أغلب المصانع تشترك فى إلقاءها مواد مثل الأحماض والقواعد والمنظفات الصناعية والأصبغ وبعض مركبات الفوسفور ، والمعادن الثقيلة السامة مثل الرصاص والزرنيق فى الماء ، مما يسبب تلوثاً شديداً للمياه التى تلقى فيها.

¹ - المادة الأولى من قانون البيئة المصري ، الباب التمهيدي ، الحكام العامة .

² Jwla Riviere, Threats to the World Water, Scientific American, Vol. 261, 1989

ويتسبب الصرف الصناعي أيضاً في التلوث الحراري للمياه . إذ يتم التخلص من مياه التبريد للعمليات الصناعية بتصريفها في البحيرات مما يؤدي الي رفع درجة حرارتها^(١) وتؤثر بهذا الكائنات المائية والأسماك.

ثانياً: التلوث بمخلفات مياه الصرف الصحي

يتم التخلص من مياه الصرف الصحي الصادرة من المجتمعات السكنية بصرفها في البحيرات الداخلية والأنهار دون تنقية . وتكون هذه المخلفات السائلة محملة بتركيزات عالية من الملوثات المختلفة العضوية وغير العضوية أو الميكروبيولوجية.

وهناك معايير ومواصفات خاصة بصرف المخلفات السائلة في مجاري المياه المختلفة^(٢) ويذكر أن محافظة الإسكندرية احتفلت بإغلاق مصب قايتباي للصرف الصحي . وهو آخر مصب كان يصب في مياه البحر الأبيض المتوسط.

ثالثاً: التلوث بالمبيدات الكيماوية

المبيدات مصطلح يطلق على كل مادة كيميائية تستعمل لمقاومة الآفات الحشرية^(٣) أو الفطرية أو العشبية . وقد أدى التوسع في استخدام المبيدات بصورة مكثفة في الأغراض الزراعية والصحية إلى تلوث المسطحات المائية بالمبيدات إما مباشرة عن طريق إلقاءها في المياه أو بطريق غير مباشر مع مياه الصرف الزراعي والصحي والصناعي التي تصب في هذه المسطحات كما . ويتسرب جزء منها إلى المياه الجوفية^(٤).

^١ د/ ماجد الحلو . مرجع سابق . ص ٢٤٩

^٢ قرار وزير الري رقم ٨ لسنة ١٩٨٣ واللائحة التنفيذية للقانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٨٢ في شأن حماية نهر النيل والمجاري المائية

^٣ Jwla Riviere, Threats to the World Water, Scientific American, Vol.261, 1989

^٤ دكتورة/ نبيلة عبد الحلليم كامل . نحو قانون موحد لحماية البيئة ، ص ٢٤٣ ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٣ .

ومن المعروف أن كل المبيدات لا تبقى في المكان الذي ترش به ، حتى إن مبيد الـدي دي تي الشهير ، الذي حرم استخدامه دولياً منذ عام ١٩٧٢ مازال في الأسماك البحرية

رابعاً: التلوث بالأسمدة الكيماوية الزراعية:

أسرف الإنسان في استخدام الأسمدة والمخصبات الزراعية ، خاصة الأسمدة النتروجينية والفوسفاتية بهدف زيادة الإنتاج الزراعي ، دون الالتزام بمعدلات هذه الأسمدة التي لا يستفيد النبات بالكميات الزائدة منها ، وهي تذوب في مياه الري و الصرف الزراعي ، ويذهب جزء كبير منها إلى المياه السطحية والجوفية .

ومما يزيد المشكلة تعقيداً إعادة استخدام مياه الصرف الزراعي في الري^(١) التي هي السبيل الرئيسي لزيادة الرقعة الزراعية والتوسع الزراعي

خامساً: التلوث بالنفط ومشتقاته

وهو إما نتيجة لحوادث غرق الناقلات التي تتكرر سنوياً ، أو لقيام هذه الناقلات بعمليات التنظيف وغسل خزاناتها وإلقاء مياه الغسل الملوثة في عرض البحر ، أو في أثناء البحث والتنقيب عن البترول في عمق البحار ، وقد يتبخر النفط من صهاريج البترول والغاز الطبيعي والمنتجات البترولية وينقل إلى الجو ثم يسقط في البحر أو في النهر أو في البحيرة مع مياه الأمطار .
والنفط من أخطر أنواع التلوث للبحري ؛ إذ يشكل طبقة عازلة تمنع التبادل الغازي بين الماء والهواء ، فتمنع وصول الأوكسجين إلى الكائنات البحرية ، ومثل هذه الأضرار تبقى أحياناً لعقود من الزمان .

^١ د. محمد حسين حجازي ، التسميد في طرق الري الحديثة ، ص ٩٥ . الدار العربية للنشر والتوزيع

وسائل الحماية القانونية من تلوث السفن^(١)

- ١- إلزام السفن المصرية بعدم تلوث البحار^(٢)
- ٢- حظر تلوث السفن للبحر الإقليمي أو المنطقة الاقتصادية لجمهورية مصر العربية وعقوبة المخالفة هي الغرامة التي لا تقل عن مائة وخمسين ألف جنيه ، ولا تزيد عن نصف مليون جنيه^(٣)
- ٣- تجهيز الموانئ لاستقبال المخلفات الزيتية.
- ٤- تجهيز السفن بأجهزة خفض التلوث طبقا لما ورد باتفاقية منع التلوث البحري لعام ١٩٧٨/ ٧٣ وملحقاتها^(٤)
- ٥- وجوب الإبلاغ عن حوادث تسرب الزيت فور حدوثها ، وقد حددت المادة ٥٥ من القانون الملتمزمين بالإبلاغ وهم مالك السفينة أو ربانها أو أي شخص مسئول عنها وكذلك شركات استخراج الزيت ونري أن ذلك حق لكل من علم بالواقعة .
- ٦- اتخاذ الإجراءات لمواجهة الكوارث وفقا لأحكام القانون ٧٩ لسنة ١٩٦١ في شأن الكوارث البحرية
- ٧- الاحتفاظ بسجل زيت السفينة مدونا فيه جميع العمليات المتعلقة بالزيت.
- ٨- وجوب الحصول علي الشهادة الدولية لمنع التلوث من مصلحة المواني والمناير ومدة صلاحية الشهادة ٥ سنوات^(٥)
- ٩- تقديم شهادة الضمان المالي لتغطية الأضرار والتعويضات

١ د/ ماجد الحلو ، ص ٢١٢

٢ المادة ٥٠ من قانون البيئة المصري

٣ راجع المادة ٤٩ من قانون البيئة المصري والمادة ٩٠ من نفس القانون

٤ المادة ٥٣ من القانون المصري

٥ المادة ٧٦ من القانون

- ١٠- حظر تصريف الملوثات النفطية من وسائل استخراج ونقل الزيت ويجب عليها استخدام الوسائل الآمنة بالبيئة البحرية^(١)
- ١١- حظر تصريف مخلفات الصرف الصحي والقمامة . بل تسلم في التجهيزات المخصصة لاستقبالها^(٢)
- ١٢- حظر إلقاء المواد الضارة الأخرى . سواء السائلة أو الصلبة أو الحيوانات النافقة.

ولإزالة البقع الزيتية استخدام الشركات مواد كيميائية لكن هذه المحاولة لم تكن ناجحة^(٣) ، المواد المستعملة فيها لا تقل في خطورتها عن بقع الزيت نفسها.

كما لجأت إلى شطف أوقشط تلك الطبقة والتخلص منها . وتم التوصل الى بكتيريا لتحليل المواد النفطية . واكتشف أخيراً نبات يقاوم تلوث البيئة المائية عموماً^(٤) وهو نوع من "السراخس" واسمه العلمي "بتيريس فيتاتا" ، لديه قدرة عالية على الحياة في البيئات الملوثة ، كما يمتص ويجمع معدن الزرنيخ السام بكميات هائلة . ومن الممكن زراعته على المجاري المائية ليقوم بالعمل كمرشح طبيعي للتخلص من الزرنيخ ، كما يتميز هذا النبات بقدرة هائلة على التغلغل في التربة الملوثة . ويعد معدن الزرنيخ من أشد السموم فتكاً بالأحياء ، غير أنه يستعمل بكثرة في الكيماويات الزراعية . كمبيد للآفات الزراعية غالباً ، ولقتل الحشائش والنباتات غير المرغوب فيها ، وكواق للأخشاب من التحلل ، وفي المنتجات الصناعية الأخرى .

١ المادة ٥١

٢ المادة ٦٨

٣ مجلة البيئة . وزارة البلديات الإقليمية والبيئة سلطنة عمان العدد ١١ لعام ٢٠٠٠م

٤ د/ طارق قابيل - إسلام أون لاين / ٣- ٢- ٢٠٠١

سادسا : الأمطار الحمضية

وسبب هذه الظاهرة من انبعاثات المصانع من ثاني أكسيد الكربون وأكاسيد النتروجين ، وهذه الغازات تتفاعل مع الأوكسجين في وجود الأشعة فوق البنفسجية الصادرة عن الشمس ، وتتحول إلى ثالث أكسيد الكبريت ، الذي يتحد مع بخار الماء في الجو ليعطي حمض الكبريتك ، الذي يبقى معلقاً في الهواء على هيئة رزاذ دقيق ، تنقله الرياح من مكان لآخر ، وعندما تصبح الظروف مناسبة لسقوط الأمطار يذوب في ماء المطر ، ويسقط على شكل أمطار حمضية ، تضر بالماء والتربة والإنسان .

وهناك ملوثات أخرى كثيرة من صنع الإنسان ، مثل : إلقاء المواد البلاستيكية في الماء ، مما يسبب أضراراً فادحة للشديدات البحرية ، والأسماك والطيور ؛ إذ تبتلعها هذه الكائنات فتؤدي إلى انسداد أمعائها ، ومن ثم تقتلها ، ثم تبين أن السفن والقوارب التي تجوب بحار العالم تدهن بدهانات فيها مادة (TBT) . ووجد أن هذه المادة ملوثة^(١)

الفرع الثاني

حجم مشكلة المياه والصراع حولها .

أولاً : حجم مشكلة المياه .

لقد غدا النقص الحاد في الموارد المائية وتدهور نوعيتها في الوطن العربي مشكلة واضحة ، ومن الحقائق الثابتة أن الموارد المائية المتاحة لمصر مثلاً محدودة وقليلة مقارنة بتعداد سكانها الحالي ومعدل نموه المستقبلي ، وهي تعتمد على مياه النيل اعتماداً كلياً^(٢)

¹ مجلة اصداقاء البيئة ، دولة قطر ، العدد الخامس لسنة ٢٠٠٠م

² د/ دعيس ، مرجع سابق ، ص ٧٧

وتبلغ حصة مصر من إيراد نهر النيل ٥٥,٥ مليار متر مكعب سنوياً .
وذلك بموجب اتفاقية وقعت عام ١٩٥٩ ، ورغم تزايد عدد سكان مصر إلا أن
حصة مصر لم تزايد وهو ما يعنى أن نصيب الفرد من مياه النهر قد انخفض
كثيراً. كما انخفضت جودة مياه نهر النيل شريان الحياة نتيجة الصرف الصناعى
والسلوكيات الرديئة لبعض المواطنين وإلقائهم المخلفات والحيوانات النافقة فى
النهر .

ومن مشكلات نوعية المياه فى العالم العربى . ارتفاع نسبة المواد الصلبة
العالقة فى مياه الأنهار . مما يؤدى إلى ملء خزانات المياه بالغرين والطمى
والملوثات . مما أدى الى تحويل الأنهار إلى حاويات قمامة كبيرة كما تساهم
السدود فى مزيد من ملوحة المياه الجوفية وتطبيل التربة.

ومن المتوقع أن تؤدى مشروعات استغلال مياه الأنهار فى منابعها
خارج الوطن العربى ، إلى تناقص الموارد المائية الواردة ، كما يمكن أن تتدهور
نوعية هذه المياه نتيجة لمصادر التلوث المختلفة ، التى تتعرض لها المياه فى مسارها
فى الدول الأخرى المشاركة فى نفس حوض النهر.

كما تعتمد دول المغرب العربى وشمال المشرق العربى على مياه
الأمطار ، إلا أن الإفادة من هذا المصدر محدودة تذبذب معدلات سقوط
الأمطار ، والقدر الأكبر من الوطن العربى يقع فى مناطق قاحلة أو جافة ، الأمر
الذى يؤدى إلى فقدان قدر كبير من مياه الأمطار القليلة التى تسقط فى بعض
المناطق القاحلة بفعل التبخر ، بالإضافة إلى أن ماء المطر يكون فى غاية النقاء
والصفاء والطهارة عند بدء تكوينه ، ويظل كذلك إلى أن يصل إلى سطح
الأرض . ويلتقى بالملوثات وتحديث ظاهرة المطر الحمضى .

وتعتبر المياه الجوفية من أهم المصادر المائية التى توليها الدول أبلغ اهتمام
للمحافظة وتحاول حمايتها من التلوث لكن الإسراف فى استخدامها . وتلوثها
بالمواد الضارة يشكلان تهديداً مستمراً لهذا المصدر المهم للماء العذب.ومن

المشكلات التي تهدد المياه الجوفية أيضا انهيار الأراضي وتسرب المياه المالحة إلى الآبار الساحلية ؛ نتيجة السحب المستمر وغير المتوازن مع معدل التغذية السنوية لهذه المياه.

المصدر الآخر للمياه في الوطن العربي هو تحلية مياه البحر، ويتم القدر الأكبر منها في دول الخليج العربي، وما زالت وحدات التحلية تستخدم تقنيات تستهلك كميات كبيرة من الطاقة، ويتبع ذلك آثار بيئية ضارة، كما أن هناك آثاراً بيئية أخرى غير حميدة بدأت في الظهور نتيجة التخلص من الأملاح المستخلصة من مياه البحر بإلقائها فيه مرة أخرى.

ويعد اعتراض مياه الصرف وإعادة استخدامها قبل أن تذهب إلى البحر مصدر آخر للماء، وتقوم مصر بالفعل بإعادة استخدام حوالي ٢ مليار متر مكعب من هذه المياه، من إجمالي ١٢ مليار متر مكعب تذهب إلى البحر المتوسط، ويمكن استعادة المزيد من المياه بتبطين قنوات الري بالبلاستيك^(١)

وتؤكد الدراسات العلمية أن البلدان العربية والإسلامية مقبلة على موجة من الفقر المائي الذي يهدد مظاهر الحياة وخطوات التنمية، وأن أكثر من بليون من سكان العالم لا يعرفون الماء النقي، ومليار شخص في الدول النامية يعانون من نقص مياه الشرب، وأحدث تقارير للبنك الدولي تؤكد أن ٨٠٪ من أمراض مواطني العالم الثالث منشؤها المياه الملوثة^(٢). ويشير مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية إلى أن هناك ١٣ بلداً عربياً تقع ضمن فئة البلدان ذات الندرة المائية.

¹ حسين فتحي، إعادة استخدام مياه الصرف الصحي والصناعي والزراعي مجلة التنمية والبيئة

العدد ٢٥ - ١٩٨٨، ص ٦٤

² أ.د. جمال إبراهيم محمد علي أستاذ الهندسة الكيميائية كلية الهندسة، جامعة المنوفية مجلة اخبار

البيئة

أن سوء إدارة الموارد المائية ، وعدم وجود استراتيجية واضحة . مشتركة بين الدول العربية، وتبني سياسات زراعية لا تراعي النقص في مواردنا المائية . كزراعة الأرز للتصدير دون الاكتفاء بالزراعة للاستهلاك المحلي يزيد من كمية المياه المستهلكة في الزراعة . فتزيد الضغوط علي مواردنا المائية . وان كانت الزراعة تعد المستهلك الأكبر للمياه العذبة فان الصناعة تحتاج كميات أقل لكن يتم تلويثها للماء بشكل أكبر من الزراعة .

والحاجة ماسة لضرورة التنبيه إلي نشر (الوعي المائي) ليسلك الفرد سلوكاً رشيداً نحو الموارد المائية فلقد اعتمد المصريين علي نهر النيل لأجيال طويلة، و عليهم أن يتعودوا علي استخدام النيل بشكل أفضل وانتهاج سلوك ينم عن الإحساس بالمسئولية.

ثانياً : الصراعات حول الماء .

نشأت الحياة وستبقي مرتبطة بالماء . وعلي طول التاريخ الإنساني كان لارتباط الإنسان بالماء تأثير حاسم علي الاستيطان وتكوين الحضارات . بل ارتبطت معظم الحضارات بمواقع مائية سميت بها . مثل حضارة (بين النهرين) وحضارة (وادي النيل)

والسيطرة علي الموارد المائية كانت سبباً لكثير من النزاعات بين الشعوب . كما أن توزيع الموارد المائية المشتركة محل إشكاليات حتى الآن . وفي المستقبل لدرجة أنه قيل أكثر من مرة إن الحرب القادمة سوف تكون حرب علي المصادر المائية.

وأمثلة تلك النزاعات في منطقتنا العربية كثيرة فمثلا هناك . قلق في سوريا والعراق من استمرار تركيا في إقامة سدود ومشروعات مياه علي نهري دجلة والفرات . فمازالت تركيا تتوسع في مشروع الأناضول بإقامة ٢٢ سدا و ١٩ محطة توليد كهرباء علي نهر دجلة . وبناء سد أتاتورك العملاق في أواخر الثمانيات الذي يحد سريان نهر الفرات ^(١)

^١ مجدي شندي . المياه الصراع القادم في الشرق الأوسط . كتاب أكتوبر . دار المعارف . القاهرة

كما ربطت تركيا بين حصولها علي البترول العربي بسعر رخيص والمياه التركية لتحقيق السيطرة علي نهري دجلة والفرات.

وبخصوص نهر النيل فمعلوم أنه يجري في ثماني دول قبل أن يصل إلينا . ولاشك في أن كل دولة من هؤلاء لها أطماع للسيطرة علي النهر والحصول علي أكبر حصة من مياهه . ويمثل التهديد الأكبر من إسرائيل حيث تعتبر ان السيطرة علي المياه هي أهم دوافعها في العديد من حروبها مع العرب ويشكل الماء إحدى محاور الصراع العربي الإسرائيلي^(١) حيث يخطط الصهاينة لعدم إفساح الباب لمصر للتفرد بإدارة ممر مائي دولي مهم كقناة السويس . لأن قناة السويس مكّلت ورقة ضغط^(٢) قوية لمصر . وطالبت منظمات المجتمع المدني والقوى السياسية مصر بإغلاقها . ، في الحرب على العراق فسعى الصهاينة إلى إحياء مشروع قديم هو (مشروع قناة البحرين)^(٣) والتي يخطط لها لتكون بديلة عن قناة السويس للضغط على مصر وتهميش دورها الإقليمي . ويعتبر هذا المشروع من أهم الأخطار الإستراتيجية التي تواجه الأمة العربية في صراعها مع العدو . ورغم بعض الحوافز الاقتصادية التي تروّج لها (الميديا) الصهيونية من حل أزمة الأردن وفلسطين المائية والاقتصادية .

وتلك النزاعات وضع لها الإسلام نظاما لتوزيع المياه تشريع واضح في الإسلام ، وبصيغة عامة فإن قواعده مبنية على منفعة كل من يشترك في مجرى المياه ، وقد وضع الإسلام أرضية ممكنة قوية لفض المنازعات ، يمكن أن ينطلق

¹ صبحي كحالة . المشكّلة المائية في إسرائيل وانعكاساتها علي الصراع العربي الإسرائيلي . مجلة العربي . نفس العدد ٣١٨ ، ص ٤٥ - ٤٦

² سليمان الشيخ . المياه العربية وصراع الوجود . مجلة العربي . العدد ٣١٨ لسنة ١٩٨٥ ، ص ٣٨ - ٤٢

³ د/ سفيان التل . محاضرة القيت في مركز اتحاد المهندسين العرب في البحرين ٢٠٠٥ ومشورة بموقع الدكتور/ سفيان التل

منها القانون الدولي والتحكيم عندما تحدث الخلافات. وتتوعد هذه الحقوق بين حق الشفة إلى حق الشرب وحق المجرى وهي حقوق معترف بها في الإسلام . ومن هذه الأسس أن جعل الماء حقاً شائعاً بين البشر جميعاً ؛ فحق الانتفاع بالماء مكفول للجميع دون إسراف ولا إفساد ولا احتكار ولا تعطيل ، وهذا يعنى أن مصادر الماء لا يجوز لأحد أن يحتكرها أو يمنع عنها الآخرين ، والمياه جزء من المشاركة الإنسانية ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم : (الناس شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار)^(١). ويقول الحق - سبحانه وتعالى - (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم)^(٢)

فمن حق الجماعات والأفراد الانتفاع بالمياه وفق طرق ومقادير يحددها العرف والقانون. وحقوق الانتفاع هذه تعتبر حقوق مكتسبة وجدت عبر الزمن واستمرت وكرستها القوانين والأعراف. ولا يجوز المساس بها ، وهي ملكية عامة يحرص الدستور والقانون على تحديد طبيعتها وكيفية التصرف فيها وفق مقتضيات السيادة الوطنية والمنفعة العامة.

ويمكننا القياس على واقعنا وبناءً عليه فإن خصخصة المياه لا تجوز شرعاً. والقانون الذي يغفل هذه الحقوق المكتسبة علي المياه يعد مخالفة شرعية ودستورية ؛ لأنه انتزع حق بغير مسوغ قانوني

فكيف يكون حق الانتفاع هذا مرهوناً بإرادة الشركات الأجنبية التي تفوز بمقود الخصخصة لمواردنا المائية ونكون كالعيس في اليلءاء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

والصراع الدائر لن يتوقف . ولا يكفى فيه مجرد المعرفة . بل يتطلب جهوداً من المجتمع المدني لتظل تلك الحقوق ملكية عامة.

¹ ابن ماجة حديث رقم ٢٤٧٧

² سورة القمر الآية ٢٨

ثالثاً : الإطار القانوني والمؤسسى والسياسات الإدارية لحماية الموارد المائية.

والتشريعات الضابطة للموارد المائية هى قانون نهر النيل ٤٨ لسنة ١٩٨٢، وقانون الري والصرف رقم ١٢ لسنة ١٩٨٤، وقانون مياه الشرب رقم ٢٧ لسنة ١٩٧٨ - قانون مياه الصرف لشبكة المجارى.

وقد حدد القانون الجهة الإدارية المختصة بحماية البيئة المائية بأنها إحدى الجهات التالية - كل فيما يخصها: جهاز شئون البيئة - مصلحة الموائى - هيئة قناة السويس - هيئات الموائى بجمهورية مصر العربية - الهيئة المصرية العامة لحماية الشواطئ - الهيئة المصرية العامة للبتترول - الإدارة العامة لشرطة المسطحات المائية - الهيئة العامة للتنمية السياحية - الجهات الأخرى التي يصدر بتحديدتها قرار من رئيس مجلس الوزراء .

١- الحماية التشريعية

خصص القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ الباب الثالث منه لحماية البيئة المائية من التلوث . فحظر على جميع المنشآت بما في ذلك المحال العامة والمنشآت التجارية والصناعية والسياحية والخدمية تصريف أو إلقاء أية مواد أو نفايات أو سوائل غير معالجة من شأنها إحداث تلوث في الشواطئ المصرية أو المياه المتاخمة لها سواء تم ذلك بطريقة إرادية أو غير إرادية ، مباشرة أو غير مباشرة . مع عدّ كل يوم من استمرار التصريف المحظور مخالفة منفصلة .

ولحماية البيئة المائية من التلوث الصناعي ألزم القانون وزارة الصحة بأن تجرى تحليلاً دورياً لعينات من المخلفات السائلة من المنشآت التي رخص لها بالصرف فى مجارى المياه ،على أن تُخطر وزارة الري وصاحب الشأن بنتيجة التحليل ، وتؤخذ العينات بناء على طلب وزارة الري فى غير المواعيد الدورية^(١) كما ألزم القانون طالب الترخيص بصرف مخلفات فى الصرف الصحي أن يقدم لوزارة الري ما يدل على قيامه بتدبير وحدة معالجة وشهادة من مرفق الصرف

^١ المادة ٣ من القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٨٢

الصحي بالمعانة لوحدة المعالجة ومدى صلاحياتها^(١) بالإضافة إلى مسئولية شرطة المسطحات المائية عن عمل دوريات تفتيش مستمرة على طول مجارى المياه . وتساعد الأجهزة المختصة فى ضبط المخلفات . وإزالة أسباب التلوث . والإبلاغ عن أية مخالفات لأحكام القانون^(٢)

وأعطى لمهندسي الري الذين يصدر بتحديدهم قرار من وزارة العدل باتفاق مع وزير الري صفة مأموري الضبط بالنسبة للجرائم المنصوص عليها فى القانون ٤٨ لسنة ١٩٨٢ والتي تقع فى دائرة اختصاصهم^(٣)

وقد أوجب القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٨٢ - بشأن حماية نهر النيل والمجاري المائية من التلوث - عدم الترخيص بصرف أية مخلفات سائلة إلى نهر النيل وفروعه . والترع والمصارف وخزانات المياه الجوفية قبل مطابقة خصائص هذه المخلفات للمعايير الواردة باللائحة التنفيذية للقانون والصادرة بقرار وزير الري رقم ٥٨ لسنة ١٩٨٣

وألزم القانون المحلات بضرورة الترخيص لصرف المخلفات السائلة . وأن يكون مطابقاً للمعايير والمواصفات^(٤) . وتناول جداول اللائحة التنفيذية المعايير والمواصفات التي ينبغي أن تكون عليها المخلفات الصناعية السائلة.

٢- السياسة البيئية للوزارة فى إدارة المياه على النحو الآتى :

- (١) تفعيل الإدارة السليمة لنوعية المياه . وتنسيق أنشطة الرصد البيئي لنوعية المياه مع كل من وزارة الموارد المائية والري ووزارة الصحة والسكان.
- (٢) تطوير الإستراتيجية القومية لإعادة تأهيل وصيانة البحيرات.
- (٣) العمل على إدارة مياه الصرف . من خلال مشروعات التشجير التي يستخدم

^١ المادة ٩ قانون ٤٨ لسنة ١٩٨٢

^٢ المادة ١٣ قانون ٤٨ لسنة ١٩٨٢

^٣ مادة ١٩ قانون ٤٨ لسنة ١٩٨٢

^٤ م٧ - ٨ قانون ٩٣ لسنة ١٩٦٢

فيها مياه صرف معالجة بالتنسيق مع وزارة الزراعة واستصلاح الأراضي ووزارة الإسكان.

- (٤) تفعيل أحكام القانون رقم ٤ لسنة ١٩٩٤ للحد من تلوث نهر النيل والبحيرات من خلال شرطة البيئة والمسطحات المائية.
- (٥) الرصد الدائم لمياه نهر النيل.

المطلب الثاني

المنهج الإسلامي الرشيد في حفظ الماء

تعتمد الرؤية الإسلامية للماء على كونه أصل الحياة، وهبة من الله، كما أن له - إضافة إلى هذا - معنى تطهيرياً، لأنه يطهر المسلم خارجياً (جسده) وداخلياً (روحه)، وإمداد الآخرين بالماء نوع من الزكاة، والمثال الشهير في ذلك قصة بئر رومة التي كانت ملكاً لليهودي وكان يمنح المسلمين من مائه، فقال - صلى الله عليه وسلم - (من يشتري بئر رومة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين؟)، فاشتراها عثمان بن عفان - رضي الله عنه ^(١).

الفرع الأول

المنهج الرشيد في حفظ المياه.

والمنهج الرشيد في حفظ المياه يعتمد على منع الإسراف والنهي عن

الإفساد

- ١- منع الإسراف:- أقر الإسلام ترشيد الاستهلاك لكل ما في يد الإنسان من نعم وثروات، باعتبار أن الإسراف والتبذير من أهم عوامل الخلل في النظام البيئي، وقال الله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) ^(٢) وكان ذلك هديه صلوات

¹ سنن النسائي، الحديث رقم ٣٥٥١

² شعب الإيمان، للبيهقي، حديث رقم ٦٥٤٤.

الله وسلامه عليه . إذ كان يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع . والصاع أربعة أمداد (حفنات) . فالإسراف سبب من أسباب تدهور البيثة واستنزاف مواردها ، وقد ورد النهى عن الإسراف في الماء حتى ولو كان من أجل الوضوء ، فقد روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال ما هذا الإسراف؟ ، فقال : أفي الوضوء إسراف؟ ، قال نعم وإن كنت على نهر جار. ^(١)

والإسراف يتحقق باستعمال الماء لغير فائدة شرعية ، كأن يزيد في الغسل على الثلاث ، وقد اتفق العلماء على أن الزيادة في غسل الأعضاء للوضوء على الثلاث مكروه ، وأنه إسراف في استعمال الماء . والإمام الغزالي يقول في الإحياء (وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة) وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (يكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور).

ويتبين لك عظمة هذا النهى عندما تعلم أن صنبور الماء المفتوح لمدة دقيقة واحدة يصب سبعة وعشرين لتراً ويستغرق الفرد ثلاث دقائق ليغسل يديه ووجهه ، فهل تحتاج هذه المهمة كلها هذه الكمية من الماء . وقد التزم المسلمون منذ فجر الإسلام بهذه التعاليم حسبة لله وطلباً للأجر فحرصوا على الماء حرصاً شديداً ، كما حرصوا على بقاءه نقياً طاهراً .

٢- النهى عن الإفساد : تلويث الماء بشتى طرق التلوث إفساد في الأرض . ومن أشد أنواع الضرر . لما يترتب عليه من إضرار بكل من يستعمل هذا الماء الملوث ، والقاعدة (أن كل ما أدى الى حرام فهو حرام) . وتلويث الماء يقتل أحياء ، وينشر أمراضاً وأوبئة . إذ تؤكد التقارير أن خمسة ملايين نسمة يموتون سنوياً من جراء المياه الملوثة . من بينهم ٤ ملايين طفل ^(٢).

¹ أخرجه ابن ماجة في سننه ٤٢٥ .

² مجلة العربي العدد ٣١٤ ، ص ١٧٦

من هنا ليس بغريب أن يكون أحد أهم أبواب الفقه هو الطهارة . و معظم مصادر تلوث المياه . ونشر الجراثيم والطفيليات . محكوم عليها في الشرع بالنجاسة وقد اتفق الفقهاء علي نجاسة ميتة الحيوان ولحم الخنزير ودم الحيوان ويول الأدمي . وهو ما يتفق مع المقاصد الصحية في العلم الحديث . وكذا سور^(١) الكلب والخنزير.

وقد أقر الإسلام مجموعة من الآداب الشرعية للمحافظة على المياه صالحة للاستعمال . ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم وصايا في منهاج الحياة اليومية تحفظ المياه من التلوث . ولسوف أسرد الأحاديث هنا دون دندنة مني أو من غيري . فكلامه - صلى الله عليه وسلم - جامع بليغ ظاهر طاهر - كما أراد الله لهذا الكون من نقاء وصفاء . ويبقى العمل بهذه الأحاديث اتباعاً لسنة الحبيب.

١- النهي عن إدخال المستيقظ يده في الإناء قبل أن يغسلها: (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يده) (٢)

٢- تنظيم استعمال اليدين بإبعاد اليد اليمنى عن مجالات الأقدام والتلوث، فعن عائشة - رضي الله عنها قالت: "كانت يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليمنى لظهوّه وطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذى" (٣)

٣- النهي عن الشرب من - في السقاء: روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما أنه قال: "نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يشرب من - في السقاء".

¹ السور هو فضلة الماء القليل الذي شرب منه

² رواه مسلم وهناك روايات قريبة منها لأحمد والبخاري والترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه

كما في جامع الأصول

³ رواه أبو داود بإسناد حسن كما في التعليق على جامع الأصول

- ٤ - سالنهي عن التنفس في إناء الشرب ، وعن النفخ فيه (إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء ، فإذا أراد أن يعود فلينح الإناء إن كان يريد)^(١)
- ٥ - الأمر بتغطية الإناء ، وربط السقاء حتى لا يصل إليه الغبار والحشرات المؤذية والحاملة للجراثيم . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (أطفئوا المصاييح إذا رقدتم ، وغلّقوا الأبواب ، وأوكوا الأسقية ، وخمروا الطعام والشراب ولو بعود - يعرض عليه)^(٢)
- ٦ - النهي عن الاغتسال في الماء الساكن الذي لا يجري ، فمن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم وهو جنب) . قالوا كيف يفعل يا أبا هريرة ، قال : يتناوله تناولاً^(٣)
- ٧ - النهي عن التبول في الماء الدائم ، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه . ويقاس على ذلك اختلاط الصرف الصحي بمياه الشرب لاشتراكهما في علة النهي .
- ٨ - النهي عن التبرز قرب الماء ، لأن اختلاط الماء بالبراز ينقل كثيراً من الأمراض . فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الملاعن الثلاثة : البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل)^(٤) ويقاس على البول والبراز كل ما يتلوث به الماء ، ويصيب الإنسان في صحته ، كالقاء فضلات المصانع ، والحيوانات النافقة^(٥)

^١ رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ورمز السيوطي لحسنه في الجامع الصغير كما روى النهي في الإناء (الجملة الأولى) البخاري ومسلم .

^٢ رواه البخاري في الأشربة والنسائي والترمذي في كتاب الأشربة باب تغطية الإناء ومعنى خمروا : غطّوا

^٣ أخرجه مسلم وأخرجه النسائي

^٤ رواه أبو داود عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وفي سننه جهالة وانقطاع ولكن له شواهد بتقوى بها ، منها ما أخرجه الإمام مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه

^٥ الوسيلة الأفضل للتخلص من الحيوانات النافقة هو وضعها في الجير الحي وهذا تعليمات لوزير ==

والقمامة، في الأنهار والترع والمصارف، وكل ما يؤدي إلى إفساد الماء. يعتبر مخالفات شرعية قبل أن تكون مسألة قانونية.

الفرع الثاني

التعامل الحكيم والاستغلال الرشيد للموارد المائية.

النيل شريان الحياة بالنسبة لمصر والمحافظة علي هذا المورد المائي كما ونوعاً من الواجبات الشرعية . وقد عرف الفراعنة قدر هذا النيل . وضرورة المحافظة عليه. فوجد علي جدران المعابد هذا النقش (أنا لم ألوث ماء النيل أنا لم أتسبب في بكاء أحد)

لكن إنسان القرن العشرين تسبب في مخاطر وأضرار متعددة لهذا الشريان المائي . عن طريق الصرف الصناعي والزراعي والصرف الصحي تصب في النيل رغم التحذيرات والقوانين التي تحظر ذلك ، كما تقطع أجزاء منه للبناء عليها أو البناء علي ضفافه . الأمر الذي يمثل خطورة علي المجرى المائي وعلي عمليات النحر والترسيب^(١) . بينما المحافظة علي نهر النيل مسألة أمن قومي تستحق كل الاهتمام علي كافة المستويات.

ويتطلب السلوك الرشيد للحفاظ علي الموارد المائية علي مستوى الدولة الآتي :

١- ترشيد استخدام المياه في المناطق الصناعية . خاصة أن القوانين البيئية المصرية لا تطالب المنشآت بإجراءات لترشيد الطاقة والمياه.

٢- التأكيد على أهمية فصل شبكة الصرف الصناعي عن مياه الصرف الصحي بالمناطق الصناعية.

٣- النظر في فصل مياه الوضوء عن مياه الصرف الصحي في المساجد للاستفادة منها في ري المساحات التجميلية حول المساجد.

== البيئة (ماجد جورج) لدفن الحوت الذي جرفته الامواج في بطيم المصدر جريدة المساء الخميس

٦ مارس ٢٠٠٨ ، ص ٤

^١ - المؤشرات العامة لحالة البيئة في مصر ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٤ اعداد مركز حابي

- ٤- سرعة معالجة مياه الصرف الصحي قبل وصولها للتربة أو للمسطحات المائية الأخرى، بحيث يمكن إعادة استخدامها فى رى الأراضى الزراعية بعد معالجتها .
- ٥- التخلص من تسرب البترول أو النفط فى مياه البحار بطرق صديقة للبيئة.
- ٦- محاولة إعادة تدوير بعض نفايات المصانع بدلاً من إلقائها فى المياه الجوفية
- ٧- التحليل الدورى الكيمايى والحيوى للماء بواسطة مختبرات متخصصة، لضمان توافر المعايير التى تتحقق بها جودة المياه وعدم تلوثها.
- ٨- الحد من تلوث الهواء الذى يساهم فى تلويث مياه الأمطار، وتحويلها إلى ماء حمضى يثير كثيراً من المشكلات المتداخلة.
- ٩- الحد من الفواقد المائية، واستغلال ما يتم توفيره فى المساحة المروية للمساهمة فى سد الفجوة المائية والغذائية المتزايدة .
- ١٠- استخدام طرق الرى الحديث . مثل الرى بالرش، والرى بالتقيط، والعمل على تطويرها .
- ١١- التوسع فى زراعة ما لا يحتاج إلى فترات طويلة فى النضج وما يحتاج كميات أقل من المياه^(١)
- ١٢- تجميع مياه الأمطار والسيول.
- ١٣- تحلية مياه البحر لا بالطرق التقليدية المكلفة، وإنما باستخدام الطاقة الشمسية لإنتاج مياه عذبة يكون استخدامها اقتصادياً خاصة فى الزراعة.
- ١٤- فصل مياه التبريد عن النفايات السائلة الناشئة عن العمليات الصناعية وذلك لإعادة استغلالها فى التبريد فى دورات متتالية.
- ١٥- رفع كفاءة وصيانة وتطوير شبكات نقل وتوزيع المياه.

^١ إستنبط معهد البحوث الزراعية فى مصر التابع لوزارة الزراعة نوعاً من الأرز يحتاج إلى ٦ آلاف متر مكعب من المياه مقارنة بالأنواع القديمة . التى تحتاج ٩ آلاف متر مكعب من المياه . مجلة البحوث الزراعية .

١٦ - ضرورة الانتباه إلى الأطماع الإسرائيلية.

٣- ضرورة العمل على خلق الوعي وتوظيف الاستثمارات العربية فى تقنيات استخدامات المياه وإدارتها بشكل علمى. وتبادل الخبرات فى مجال المياه بين الدول العربية.

وعلى مستوى الأفراد يتطلب اتباع السلوك الرشيد الآتى:

يتعامل أكثر الأفراد مع المياه العذبة مباشرة ، ويستخدمها فى طعامه وشرايه . وكل خطوة صغيرة يخطوها للمحافظة على هذه المياه هى خطوة كبيرة فى سبيل حماية البيئة ؛ فكل قطرة ماء يتم توفيرها توفر معها الطاقة المطلوبة لتتقيتها فى محطات المياه . والطاقة المطلوبة لضخها فى شبكة المياه ، وكل طاقة لم تحرق هى حماية للماء والهواء والتربة . وتلك القطرات من الماء التى لم تهدر هي ثروتنا الحقيقية وبرغم أهمية هذه الثروات لنا مازال الفاقد من مياه الشرب من الشبكات الرئيسة يتزايد ^(١) فيؤثر على إمكان مدها إلى المناطق المحرومة منها . ومن الإيمان تقليل هذا الفاقد بالاهتمام بالتركيبات الصحية فى المنزل ومكان العمل.

وتعاني مياه الشرب أيضاً من سوء نوعيتها ؛ فخزانات المياه العلوية فوق المباني لا تُنظف فيسبب هذا كثيراً من الأمراض كما تسود ممارسات خاطئة داخل المنازل.

وتلك الممارسات المنزلية فى استخدام المياه تحتاج إلى توعية ، تصل إلى جميع المستويات لتغيير تلك العادات التى تهدر ثروتنا المائية.

¹ مصطفى ميتو. لماذا وكيف الارتقاء بالتركيبات الصحية بالمباني . ص جريدة الاهرام بتاريخ

١٤ ص ١٦/٨/١٩٩٤،

الفرع الثالث الاحتساب بالمشاركة في حماية مصادر المياه في أثناء النزاعات المسلحة

تمثل النزاعات المسلحة تهديداً للموارد المائية ، ويتعرض السكان المدنيون لقلّة هذا المورد أو عدم صلاحيتها للاستعمال ، وقد يكون ذلك أشد فتكاً من السلاح ، وقد نصت المادة ٢٣ أ من لائحة (لاهاي) علي حظر استعمال السم أو الأسلحة المسمومة ، وأن الضرورة العسكرية لا تجيز - بأي حال من الأحوال - استعمال السم ، وكذا تحظر تدمير ممتلكات العدو ومنها قطعاً الموارد المائية واعتبر ذلك جريمة حرب لأنها من الممتلكات التي لا غني عنها ، وتأكيداً علي ذلك حظر مهاجمة السدود والجسور والمحطات النووية لتوليد الكهرباء وعبر عنها في المادة (٥٦) من البرتوكول بالمنشآت التي تحوي قوى خطيرة.

لكن التجربة المكتسبة من النزاعات المسلحة في العصر الحديث ، لا تراعي تلك الاعتبارات بل تكون هذه المنشآت أهدافها المفضلة ، مما يوجب الاحتساب في ذلك مراعاة للمنكوبين ، وإن كان القانون الدولي الإنساني أناط بتلك المهمة لمنظمات الدفاع المدني وجمعيتي الهلال والصليب الأحمر فإن تلك الهيئات تقبل المتطوعين بل إن غالب أفرادها من المتطوعين.

وللتعرف علي المهام المنوطة للدفاع المدني أثناء النزاع المسلح حدد البرتوكول الأول لسنة ١٩٧٧^(١) بالآتي :

الإصلاحات العاجلة للمرافق العامة التي لاغني عنها لمصلحة السكان المدنيين بالإضافة إلي خدمات مكافحة الحريق وتوفير المون وتأمين شبكة الإمداد بالمياه والحلول الفورية لأية أعطال ؛ لأن التأخير في علاج الأضرار يسبب عواقب مأساوية للسكان.

^١ المادة ٦١ (أ) ٧- ١٠ - ١٢ - ١٤ من لائحة لاهاي

ويكمن الدور الأهم للهلال والصليب الأحمر فيما يتعلق بالماء . في إعادة توزيع المياه الصالحة للشرب على المتكويين . والسعي لذي أطراف النزاع لوقف الانتهاكات على مصادر المياه أو تجنب تكرارها . والعمل على تعبئة الرأي العام واستقطاعه به ومعرفة المتخصصين في إصلاح شبكات المجاري المائية . وتجميع البيانات والمعلومات للقادرين على المساعدة . ولاشك أن الحرب تشن على المياه أو بواسطة المياه . وأن العمل في زمن السلم على الإعداد للإمكانات لتفادي الخسائر أمر شرعي وإعداد الخطط لذلك .

كما أن العواقب الوخيمة التي تحدثها النزاعات المسلحة على البيئة تحتاج لتضافر الجهود الأهلية والرسمية والتدريب على ذلك في وقت السلم . فليس بوسع منظمة واحدة تحقيق كل هذا بمفردها . بل ينبغي السهر على أوسع نطاق ممكن لتوحيد الجهود .

المبحث الثالث

الأرض والحفظ المطلوب

الأرض هي كوكب الحياة الأوحده . فلم يتوصل الإنسان حتى الآن إلى كشف وجود أي شكل من أشكال الحياة في أي مكان آخر غيرها (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ♦ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين)^(١)

والتربة أو المحيط اليابس ، مكون رئيسي من مكونات الغلاف الحيوي . تشمل الأجزاء الصلبة من الكرة الأرضية إلى عمق يزيد قليلاً عن ثلاثة أمتار ، على أساس أن الظروف بعد ذلك لا تصبح ملائمة للحياة ، إذ ترتفع درجة الحرارة ، وينعدم الهواء ، ولا يتوافر الغذاء..^(٢)

¹ سورة الحجر الآية ١٩

² رشيد الحمد ومحمد صباريني ، البيئة ومشكلاتها ، عالم المعرفة ، مرجع سابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

وتتكون التربة من مكونات أربعة رئيسية . وهي : الرمل ، و الطين ، والغرين والدبال ^(١) . وتحدد هذه المكونات خواص التربة . وعادة ما تتكون التربة من نسب مختلفة من هذه ، كما تحتوي على الأملاح المعدنية أو مغذيات أولية عملها مشابه للفيتامينات ، أو تعمل كمنشطات معدنية مثل النتروجين والكالسيوم البوتاسيوم والمغنسيوم .

والتربة مصدراً للخير والثمار . ورغم ذلك من أكثر العناصر التي يسيئ الإنسان استخدامها فهو قاسٍ عليها لا يدرك مدى أهميتها . علي الرغم من محدوديتها كمورد بيئي ، فندرة الأراضي القابلة للزراعة وإهدار كثير منها أصبح حقيقة .

والمنطقة العربية تعاني من ندرة الأراضي الزراعية ، إذ ٥٤,٨٪ من مساحة الوطن العربي هي أراضى خالية ، وتمثل المراعى ٢٦,٨٪ ، والأراضى القابلة للزراعة ١٤,٥٪ والغابات حوالى ٣,٩٪ ، وتمثل الأراضى المزروعة ٢٩٪ من مساحة الأراضى القابلة للزراعة ، أي حوالى ٤,٢٪ من إجمالى مساحة المنطقة العربية .

إن تلوث التربة ضرر يحيق بالبيئة الزراعية ، وينتقل أثره الى الكائنات الحية التي تعتمد في غذائها على النباتات . بما في ذلك الإنسان نفسه ، وتدهور الأراضى الزراعية يهدد الاقتصاد القومى ويقطع من قوت الفقراء . وتعاني الأراضى الزراعية في مصر من مشكلات تشمل ضعف وسائل الصرف الصحي

^١ ويتكون الغرين من أنواع مختلفة من طبقات الصخور التحتية التى ترسب بالتربة بواسطة الرياح والمياه ، ويعتبر حجم حبيباتها وسيطاً بين الرمل والطين ، إذ يتراوح ما بين ٢ - ٥٠ ميكرون ، ويشابه الغرين الطين في خواصه ، لكنه أقل تماسكاً وصلابة . والدبال عبارة عن المادة العضوية في التربة ، ويتكون من بقايا النباتات وفضلات الحيوانات المحللة جزئياً ، ويعتبر الدبال ضروري للتربة ، إذ يحافظ على الفراغات الهوائية في التربة الطينية ، مما يقلل من صلابتها ، كما يجعل التربة الرملية تحفظ كمية أكبر من الماء

مليؤدي إلي تراكم الأملاح بها^(١) . وتدهور خصوبتها . وهجوم الصحراء علي أطراف الوادي والدلتا وتحويل الأراضي الزراعية المنتجة للغذاء إلي استعمالات غير زراعية يعتبر أشد صور الإضرار بالأراضي الزراعية .
وتصبح التربة ملوثة حين تحتوي علي مادة أو مواد بكميات أو تركيزات خطيرة علي صحة الإنسان أو الحيوان أو علي النبات ، أو تجعل المياه السطحية أو الجوفية غير صالحة .

ويتج هذا التلوث من نفايات المصانع ، واستعمال المواد الكيميائية ، مثل مبيدات الآفات والأسمدة الصناعية في الزراعة ، كما ينتج عن مخلفات المنازل والمباني والمنشآت الأخرى^(٢) و المعادن الثقيلة ، مثل الزئبق والرصاص والزرنيخ والكادميوم والسيلينيوم من أخطر المواد التي تلوث التربة والماء ، ومن أهم مصادر هذا التلوث مخلفات المصانع . وصهر المعادن . و-حراق الفحم وعوادم السيارات . ومبيدات الآفات التي تحتوي علي عنصر الزرنيخ . ويترتب علي تلوث التربة بهذه المواد الكيميائية حدوث مشكلات تتعلق بصحة الإنسان وغذائه وكسائه .

وهناك ملوثات أخرى للتربة والأرض كسقوط الأمطار الحمضية أو القبار الذري الناتج عن التفجيرات النووية فتلوث التربة أو تذوب في مياه الري أو المياه الجوفية محدثة التسمم في التربة والمحاصيل الزراعية .

¹ - مجلة البيئة والتنمية، العدد ٥ لسنة ١٩٨٧، ص ٥٣.

² International Soil Reference and Informational Center (ISRC)
World Status of Human Induced Soil Degradation, Wageningen,
Netherland, ISRC , 1990

المطلب الأول

السلوكيات الخاطئة التي تهدد التربة

أولاً- عشوائية استخدام الأسمدة الكيميائية :

ما يلوث الماء عادة يلوث التربة ؛ لكونها الحاضنة للماء . والأسمدة الكيماوية دليل علي ذلك حيث الإفراط في استخدامها يؤدي إلي استقرار الزائد منها في طبقات الأرض ليشكل مصدرا لتلوث التربة ومن المعروف أن الأسمدة المستخدمة في الزراعة تنقسم إلى نوعين :

١- الأسمدة العضوية : وهي تلك الناتجة من مخلفات الحيوانات والطيور والإنسان ، وما هو معروف علمياً أن هذه الأسمدة تزيد من قدرة التربة على الاحتفاظ بالماء .

٢- الأسمدة غير العضوية (الأسمدة الكيماوية) وهي التي يصنعها الإنسان من مركبات كيميائية مثل النترات والفوسفات والفلورايد.

وإهمال الأسمدة العضوية والارتكاز فقط علي الأسمدة الكيماوية يؤدي إلي زيادة قاعدية التربة^(١) ناهيك عن استخدام تلك الأسمدة في مواعيد غير مناسبة ؛ إذ الإرشاد الزراعي للفلاح غير متوفر والمصانع المنتجة والمستوردة لتلك الأسمدة لا تضع ملصقات بيئية علي عبوات الأسمدة . تبين فيها مواعيد الرش والكميات المطلوبة لكل محصول زراعي . وهذا ما ننصح به تلك الشركات.

ثانياً : تهديد التنوع الحيوي

الكون وحدة متماسكة متكاملة العناصر ، بحيث أن زوال عنصر ما لا بد أن يؤثر على المجموع . وقد خلق الله - سبحانه وتعالى - عدداً من مخلوقات حية لا يمكن لإنسان حصرها ولا يعلمها إلا هو - سبحانه - القائل في محكم كتابه : (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^(٢) .

¹ خالد عبد العزيز . الارض الزراعية وكيف نحميها . مجلة البيئة والتنمية . العدد رقم ١٩٨٧٥ ،

ص ٥٣ - ٥٥

² سورة النحل . الآية ٨

ولكل نوع دوره ووظيفته المتخصصة فى النظام البيئى ، وإن كنا نجهد هذه الوظيفة بالنسبة لبعض الأحياء ، ومن الثابت يقيناً أن الخالق البارئ المصور سبحانه وتعالى - لم يخلق شيئاً عبثاً ، وإنما خلق كل نوع من الأنواع الحية لحكمة يعلمها هو ، ووظيفة لا غنى عنها ، يؤديها فى سلسلة وظائف الحياة ولا يقوم بها غيره .

وهذا التعدد لأصناف النبات لاختلاف المنافع والأذواق معناه أن لكل نبات خصائص معينة . بل إن كل حيوان يمثل أمة من الأمم . تؤدي مهمتها فى الحياة . وتجب المحافظة عليه والإحسان إليه .

إن فهمنا للأنظمة البيئية غير كاف ليسمح لنا بالتأكيد على دور أى عنصر من عناصرها ، أو تحديد الأثر الذى يترتب على إزالته ، ولا يستطيع بشر أن يدعي أن له الحق فى إبادة نوع خلقه الله وأعطاه حق الحياة .

وهذا التنوع والاختلاف ليس مصدراً للمواد الأولية التى يُنتفع بها فقط ، بل إنه ينظم عمل المحيط الحيوى . ويعتمد الطب الحديث على هذه الموارد فى اكتشاف أدوية لعلاج الأمراض . وفقدان التنوع الحيوى خطر ؛ إذ ربما يحتوى نوع مهدد بالانقراض على مادة هى دواء من مرض خطير كالسرطان ، ومن المعروف أن الطبيعة هى الصيدلية الحقيقية التى نستمد منها دواءنا . وأن ما يقرب من ٣٠٪ من الأدوية الموجودة فى مخازن الأدوية ، مستمدة من نباتات وحيوانات برية .

كما أن كثيراً من الحشرات تقوم بعملية التلقيح للنباتات حتى تتمكن من إنتاج الثمار والبذور . فمن قصر النظر التضحية بأى من هذه الأنواع لتحقيق أغراض مالية واقتصادية قصيرة الأجل . ولناخذ الصين معجزة القرن الجديد لنرى ماذا قدمت فى موضوع توازن البيئة . لقد كانت لديها مشكلة . هي أن العصفير تأكل من محصول الأرز ٣٪ فأرادوا منع ذلك فقاموا بقتل هذه العصفير فظهرت لهم مشكلة أكبر منها . هي دودة الأرض التى تأكل ٥٠٪ من المحصول وهذه الدودة كانت العصفير تأكلها وترجمهم منها^(١) .

^١ د. لى بيومى . تلوث البيئة بين العلم والقانون . موقع مفكرة الاسلام الإسلام أرسى قواعد حماية البيئة بينما فشلت المؤتمرات العالمية الخميس ٣ من ذو القعدة ١٤٢٧هـ ٢٣ - ١١ - ٢٠٠٦م

والمشكلة الأهم فى هذا الموضوع هو الإتجار بالتنوع الحيوى . وتحول الأمر إلى نوع من القرصنة بيولوجية والاحتكار فى صناعة الدواء والمتاجرة بالحياة. وأن الأشكال الجديدة من حقوق الملكية و اتفاقية ال (تريس) تتناقض مع اتفاقية التنوع البيولوجى ؛ فهي تسمح ببراءة الاختراع علي أشكال الحياة وبراءات الاختراع علي البذور والمعرفة التقليدية لاستعمالات النباتات الطبيعية فى التداوي فصارت تلك المعرفة عرضة للنهب والقرصنة والسطو عليه من خلال براءات الاختراعات واستغلالها تجارياً . ومثال بسيط علي ذلك ان الفلاح لا يستطيع الاحتفاظ ببذور نباتاته لتكون تقاوي كما كان يفعل ؛ إذ أصبح الآن من حق شركة (مونسانتو).

الحفاظ على التنوع الحيوى من وجهة النظر الإسلامية :-

ولعل أول درس للحفاظ على التنوع الحيوى هو ما أمر الله به نبيه نوحاً عليه السلام ، وهو أن يأخذ فى فلكه من كل نوع زوجين اثنين ، حتى لا يكون الطوفان سبباً فى انقراض هذه الكائنات ، وهو درس للإنسانية بضرورة الحفاظ على الكائنات ، حتى إن علماء هذه الأيام يسمون الحفاظ على التنوع الحيوى مبدأ نوح ، وقد يكون اتباع مبدأ سفينة نوح ، بالحفاظ على البذور ، أو تخزينها فى بنك وراثى ، أو الحفاظ على الكائن فى موائله الطبيعية أو حديقة حيوان . أو حوض مائى أو حديقة ، و المحميات الطبيعية احدى الطرق للحفاظ على التنوع الحيوى . وسبق أن أوضحنا كيف أن الإسلام أعتنى بهذه المحميات .

كما تحمل التعاليم الإسلامية بالنسبة للتعامل مع الأرض وعوداً كبيرة بحماية الأنظمة البيئية الضعيفة ، وبالتحديد فكرة (الحرم) أو تقدير الأراضي المقدسة . أو (الحمى) وهي ترك الأرض من أجل المنفعة العامة .

وفكرة قوانين الحمى التي كانت موجودة قبل الإسلام وجاء الإسلام ليؤكدھا . تنص علي أن لكل قبيلة حق الرعي فى منطقة معينة تعد حراماً علي القبائل الأخرى . كما هو الحال فى الصحراء الغربية . فالأرض موزعة بدقة بين القبائل وفقاً لقواعد الحمى المعمول بها منذ أجيال . حيث لا تعد الأرض ملكية

خاصة علي الإطلاق . لا للفرد ولا حتى للقبيلة بل هي أقرب إلي أن تكون وظيفة اجتماعية حضارية وكذلك تقسيمات عيون المياه .

ولقد وجد أن لهذه القواعد التي تحكم تقسيم الارض أهمية بالغة في الحفاظ علي البيئة^(١)

ويقول الدكتور عمر دراز إن الأرض التي لم يزل قانون الحمي متبعا فيها في المملكة العربية السعودية والعراق تتمتع بحياة نباتية وحيوانية غنية جدا مقارنة بالأرض التي لا يطبق فيها هذا القانون^(٢)

والإسلام أولى النباتات والحيوان عناية استثنائية:

فجاءت آيات تحمل أسماء بعض المخلوقات والدواب^(٣) . ونظمت الشريعة القراء الصيد تنظيماً دقيقاً ، ونهت عن جعله وسيلة للهو . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قتل عصفوراً عبثاً عجز إلى الله يوم القيامة ، يقول : يا ربي ، إن فلانا قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة^(٤) . ومنع صيد صفار الطيور مطلقاً ، بقوله : (لا تأتوا الفزاح في أعشاشها ولا تأتوا الفرخ في عشه حتى يبريش ويطير) . كما أنه منع القبض على الطير في منامه ليلاً . هذا ، ولم يمنع الإسلام قتل الحيوان فقط ، بل منع إيذائه ، حتى حرمانه من قوته ، فقد جعل من مهمات المحتسب ان يمنع استعمال المواشي (في ما لا تطيق الدوام عليه) . وكذلك روي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : (دخلت امرأة النار ، من جراء هرة لها ربطتها ، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تجمّع من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً)^(٥)

^١ ا.د / حامد إبراهيم الموصلي أستاذ بكلية الهندسة جامعة عين شمس - تأملات في التكنولوجيا والتنمية من منظور حضاري مركز دراسات العالم الإسلامي

^٢ مشار إليها في المرجع السابق

^٣ سورة (النحل / ٤٩) (الرحمن / ٢) (هود / ٦) .

^٤ مسند أحمد برقم ٦٧٠٨

^٥ صحيح البخاري حديث رقم ٣٤٨٢ عن عبد الله بن عمر

أما في جانب الأصناف النباتية والحفاظ عليها، فيمكننا استنتاج ذلك من نهي الرسول (صلى الله عليه وسلم) سراياه عن قطع الأشجار إلا في حالات الضرورة، وهو قطع محدود بالغايات الحربية. إذ قال (صلى الله عليه وسلم)، (لا تثلوا، ولا تقطعوا شجراً إلا إذا اضطررتم)، على أن اهتمام الإسلام لم ينصب فقط على منع القطع، بل أمر بالزرع والتشجير على ما سبق توضيحه.

واستقر في حس المسلم أن فالق الحب والنوي هو الله وأن الزكاة مفروضة على الزرع لقوله تعالى (وأتوا حقه) ^(١)، وقد يرحم الله الإنسان بسبب الحيوان. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا) ^(٢)

ثالثاً: عشوائية استخدام المبيدات الحشرية :

استخدم الإنسان منذ القدم أنواعاً من المبيدات الحشرية لزيادة الإنتاج الزراعي. فقد استخدم الصينيون مبيدات للحشرات تتألف من الكلس والرماد وخلاصات نباتية، سنة ١٢٠٠ ق.م، كما استخدم التبغ لمقاومة بق الكمثرى، وفى عام ١٨٧٤م تمكن العالم الألماني زيدلر من تحضير مركب الـ د.د.ت. بالإضافة إلى مجموعة مركبات أخرى ذات فاعلية كبيرة.

واعتبر إنتاج المبيدات الحشرية آنذاك المنتقد الفعال من مختلف الآفات الحشرية التي تضر بالإنسان وحيواناته بل ونباتاته، لكن كثيراً ما كان لها نتائج خطيرة خاصة وأن تحملها بطئ، وبالتالي يزداد تركيزها عاماً بعد عام، سواء في التربة أو الماء أو أجسام الكائنات الحية. بالإضافة إلى إبادة الحشرات النافعة. وتستعمل هذه المبيدات عادة بالرش حيث تختلط بالهواء ثم تتساقط على التربة والماء وتستخدم عادة دون أية رقابة، أو دراسات بحثية علمية جادة، والأخطر أن الحشرات تكتسب مناعة ضدها وتصبح أقوى مما كانت ^(٣)

¹ سورة الأنعام الآية ١٤١

² رواه ابن ماجه حديث رقم ٤٠٠٩

³ د/ دعبس، مرجع سابق

وسقوط هذه المبيدات في التربة وامتصاص النبات لها ، ودخولها في بناء خلايا النبات تعسه . هو ما يفسر تغير طعم ورائحة وحتى لون الفواكة والخضروات فأصبح لون بعضها مبالغ فيه والأخر لون مختلف وذلك نتيجة المبيدات والصبغيات عند زراعتها وجنيها . ويزيد الأمر خطورة عندما لا تراعي فترة الأمان التي يجب اتباعها بعد الرش ثم يتم بعدها جني المحصول . هذه الكيماويات تبقى في الجسم البشري بأعراض وأمراض مؤجلة ؛ لأن نتائجها السيئة لا تظهر إلا بعد زمن طويل مثل الأعراض السرطانية التي تظهر فجأة أشبه بالقنابل الموقوتة .

ومن الأمور المقلقة في مشكلة المبيدات عدم وجود قيود علي استخدامها في كثير من الدول ؛ ففي مصر علي سبيل المثال تدعم الدولة المبيدات ، وتتركها لحرية التداول في السوق فكانت النتيجة . استخدامها في غير أغراضها ؛ إذ يشتري مزارعو الفاكهة المبيدات الخاصة بأفات القطن لرش زراعات العنب والبرقوق والبطيخ ، غير عابئين بتأثيرها علي صحة المستهلكين . وبعض المزارعين يجتهدون في تجريب وخلط أنواع متعددة من المبيدات .

ولعل ذلك يفسر حالات التسمم الناتجة عن تناول الفواكة والخضروات المرشوشة بالمبيدات خلال العشرين سنة الماضية . وقد أجريت عملية مسح في إحدى عشرة محافظة مصرية بحثاً عن آثار من مبيدات ال د د ت والليندين والديلدرين والأندرين ، وغيرها في الأطعمة وجاءت النتائج إيجابية ؛ إذ عثر الباحثون علي هذه المبيدات في أكثر من نصف العينات التي حصلوا عليها . ويتركيزات أعلي من المعدلات المسموح بها .

أضف الي ذلك بطء التشخيص لحالات التسمم ؛ إذ وجد أن الأطباء يتلقون في دراستهم ساعة واحدة عن السموم . وفي عام ١٩٨٨ أجرت جامعة طنطا دراسة علي ١١٥٤ حالة تسمم فأتضح أن ثلث ذلك العدد سببه المبيدات الحشرية^(١)

^١ د رجب سعد السيد . أجراس الخطر وكوارث البيئة . مركز الكتاب للنشر ١٩٩٧ ص ٧٧

ومن المؤسف أيضا ان ترتبط القروض والمنح التي تقدمها الدول الغنية لدول العالم الثالث بشرط أن تنفق في شراء ودعم الكيماويات الزراعية^(١) ويتطلب السلوك الرشيد للحد من أضرار المبيدات:

١- عدم استخدام تلك المبيدات إلا في الضرورة القصوى، وأن يختار منها ما كان سريع التحليل وتستخدم بأقل كمية تحقق الغرض.

٢- التوعية والتدريب المستمران لمستخدمي المبيدات؛ للتعريف بالأساليب المثلى لمكافحة الآفات.

٣- وضع قوانين تجبر المزارعين وأصحاب المشروعات الزراعية بأخذ وصفة علاجية يعدها مختص مرخص له من الدولة قبل أية معاملة بالمبيدات، مثل الروشتة العلاجية تماما؛ لأن التعامل مع المبيد أخطر من وصف العلاج. فضرر العلاج يعود على متعاطيه فقط بينما ضرر استخدام المبيدات عام، قد يشمل بائعه وناقله ومن يقوم بعمليات الرش والمحيطين بمناطق رش المبيد، سواء الحشرات أو الحيوانات أو الناس أو أي كائنات حية أخرى. وقد يصل ضرر المبيد إلى مناطق بعيدة عن منطقة الرش إما عن طريق شرب المياه الملوثة سواء السطحية أو الجوفية أو عن طريق أكل مواد غذائية ملوثة. وتساعد تلك الروشتة في الاختيار الأمثل لنوع المبيد بحسب نوع الآفة^(٢)

٤- دعم الأبحاث العلمية الرامية إلى إيجاد الوسائل البديلة لمقاومة الآفات الزراعية، وتشجيع تطبيقاتها العلمية.

٥- وضع إرشادات لاستخدام المبيد باللغة العربية علي كل عبوة تجزئة تخرج من محلات البيع وضرورة تلقين البائع للمشتري تلك التعليمات شفويا نظرا لزيادة نسبة الأمية.

¹ أجراس الخطر. مرجع سابق.

² د. / محمد عبدالعزيز الدغيري، حمى المبيدات خطر يتزايد فهل تقيّد بوصفة دكتور؟ جريدة الجزيرة

السعودية يناير ٢٠٠٨

رابط السلوكيات الغائبة المؤدية للتصحّر:

يعد التصحر واحدة من أهم المشكلات التي تدل علي تدهور البيئة .وهو كارثة طبيعية تمتد آثارها ليصبح كارثة اجتماعية تهدد المجتمعات البشرية . والخطورة تكمن في سرعة انتشارها ويهدد التصحر ٣٥ بليون هكتار من أرض المحاصيل المروية في العالم^(١)

حيث تزحف الصحراء سنوياً بفعل العوامل المناخية والبشرية على مساحات كبيرة من الأراضي الخضراء المجاورة لتلك الصحارى ، الأمر الذي يدفع بأعداد كبيرة من السكان للهجرة هرباً من القحط ، وبحثاً عن مصادر جديدة للمياه والأراضي الخصبة.^(٢)

ما المقصود بالتصحّر؟

يُعرف التصحر بأنه "تردى الأراضي فى المناطق الجافة وشبه الجافة . الناتج عن عوامل متعددة تتضمن الاختلافات المناخية والأنشطة البشرية. ومصطلح تردى الأراضي يعنى : انخفاض أو فقدان للإنتاجية والتنوع الحيوى لأراضي المحاصيل أو المراعى والغابات ، نتيجة للظروف المناخية أو للعمليات الناجمة عن الأنشطة البشرية ومن أهم مظاهره (تعرية التربة بفعل الرياح أو المياه. وتدهور الخواص الفيزيائية والكيميائية أو الاقتصادية للتربة. وفقدان الغطاء النباتى الطبيعى).

وقد عرّف مؤتمر الأمم المتحدة عام ١٩٧٧ التصحر بأنه (تدهور قدرة الإنتاج البيولوجي للأرض مما يؤدي في النهاية إلى خلق أوضاع صحراوية) ، أي تحوّل المنطقة إلى صحراء أو اكتسابها صفات صحراوية. ولا يمكن أن نكر أن من أسباب التصحر حدوث نوبات جفاف . لكن لا يمكن نكران أن للإنسان دوراً أيضاً فيه وهو في الوقت نفسه أحد ضحايا التصحر .

¹⁻ دكتور/ يسرى دعيبس ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧

² من الدليل العربى للشباب والتنمية. مرجع سابق

وتمثل هذا الدور الانساني في الآتى:

١- الاستغلال المكثف للأرض الزراعية

فالرعي الجائر والمبكر واقتلاع الشجيرات، واستخدام الآلات الزراعية

غير المناسبة لطبيعة الأرض

وقد تبين من دراسة معهد المناطق الجافة في تونس أن التربة يسهل انجرافها بالرياح بعد الحرث بمحراث متعدد الأقراص مما يؤدي إلى تفكيك التربة وسهولة تعريتها بالرياح^(١) ويلاحظ أن عدم تطبيق تقنيات ملائمة للصرف وطرق الزراعة يؤدي إلى تدنى الإنتاجية كما ونوعاً^(٢) فالتملح والتعرية والغدق شبيهة لها ويعد نوعاً من التصحر. ومن الإستغلال الجائر وغير الرشيد قطع الأشجار لتوفير الوقود ومواد البناء والكلأ. وتوسيع الرقعة الزراعية. والزحف العمرانى الأفقى غير المحسوب على حساب البيئات الطبيعية التى تشكل المراعى والغابات جزءاً كبيراً منها.

٢- تجريف الأراضي الزراعية :

ويكفى أن تعلم أنه في حالة فقد بوصة واحدة من التربة السطحية^(٣) فإن قطاع التربة وتحت ظروف غطاء نباتى طبيعى يحتاج إلي أكثر من ٣٠٠ عام لتعويضها. مما يعنى تراجع الأراضي الزراعية بسبب هذا التجريف. وتعريض التربة السطحية للجفاف السريع والتعرية بالرياح. كما أن سوء إدارة الموارد المائية يؤدي إلى حرمان أراضى من الماء وبالتالي تصحرها.

وقد تبنت وزارة البيئة المصرية سياسة فى إدارة التربة والأراضى ومكافحة التصحر وذلك حسب المعلن بموقع الوزارة الرسمى. تلك السياسة

تتلخص فى الآتى :-

^١ محمد الخشن، التصحر وتأثيره على الأمن الغذائى. عالم الفكر ١٩٨٦، ص ٦١

^٢ دكتور/ يسرى دعبس، ص ٢٦٦

^٣ د/ دعبس، ص ٢٦٩، مرجع سابق

أ - تفعيل التعاون مع الوزارات والجهات المعنية لدعم مشروعات تجميل وتشجير الطرق الصحراوية . ومداخل محطات السكك الحديدية . وجوانب المصارف المائية . والعمل علي الوصول بنسبة المساحات المخصصة للمشاتل بالمدن والقرى علي مستوي الجمهورية إلي ١٠٪.

ج - التوسع في الاستخدام الآمن لمياه الصرف الصحي المعالجة . واستخدامها في ري الغابات الشجرية.

د - الاستمرار في توفير الأشجار اللازمة لتشجير المدارس والمستشفيات وكافة الجهات الأخرى.

هـ - التوسع في إنشاء المشاتل علي مستوى المحافظات.

ب - الدعم المؤسسي لإدارة المحميات والدعم بالكوادر الفنية وتأهيلها بالتدريب.

ج - إقرار أنشطة السياحة البيئية . التي تشكل المحميات الطبيعية حجر الزاوية لها..

د - تحقيق التنمية المستدامة داخل المحميات . من خلال تنفيذ المشروعات التنموية . وتوفير الرعاية الطبية والاجتماعية للمواطنين قاطني هذه المحميات.

و - الرقابة علي عمليات الصيد الجائر ؛ من أجل الحفاظ علي الكائنات الحية بالمحميات الطبيعية من الانقراض .

ز - منع البناء في المحميات الطبيعية.

ح - توفير البنية الأساسية اللازمة للمحميات.

وقد دعا الإسلام إلى المحافظة على الثروة النباتية وعدم إهدارها . كما أن القرآن حين يصور فظاظة ، إنسان ما ووحشيته يصفه احياناً بأنه ممن يتلفون النبات والحيوان (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ)^(١) والحِثُّ هو موضع الزرع والنبات والإثمار .

^١ سورة البقرة الآية رقم ٢٠٥

ولعل إدراك الآثار البيئية الناجمة عن التصحر بأنواعه السابقة ، وتأثيره السلبي علي ملايين البشر نتيجة نقص إنتاجية الأراضي الزراعية ، وهجرة العاملين بها تلك الهجرة التي أطلق علي أصحابها لقب (لاجئين بيئيين)^(١) توضح العلاقة المباشرة بين الفقر وظاهرة التصحر.

ويتطلب مكافحة التصحر تضافر الجهود بدءاً من انتهاج سياسة زراعية رشيدة وموجهة نحو المناطق المعرضة للتصحر ودمجها في برامج التنمية ، واستخدام تقنيات معالجة التصحر بزراعة نباتات لتثبيت الرمال وحواجز الغابات في التيارات الهوائية ، ووقف القطع الجائر للغابات والاستغلال المنظم والرشيد للغابة يتضمن خطة لقطع الأشجار ، وزراعة أشجار بدلاً من التي قُطعت.

خامساً :- الإدارة غير الرشيدة للنفايات الصلبة

ازدادت ملوثات التربة والأرض بزيادة حجم النفايات والفضلات في حياتنا المعاصرة عاماً بعد عام نتيجة لزيادة عدد السكان من جانب ، وزيادة استهلاك الإنسان من السلع والمواد ، إضافة إلى التقدم الصناعي والعمراني ، وما يصاحبه من قدر كبير من النفايات الناجمة عن الأنشطة البشرية المختلفة في مجالات التصنيع والزراعة والتصدير والخدمات والسياحة .

ويؤدي طمر النفايات في الأرض إلى إفساد التربة ويكفي أن تعرف أن الزمن المطلوب لتحليل بعض هذه المخلفات كالاتي (المنديل الورقي يحتاج إلى ١٢ شهراً للتحلل - الصحيفة ٣ سنوات - كيس بلاستيك ٥ سنوات آثار إطارات سيارة ٩ سنوات - كوب من الورق ١٢ سنة - كوب من الفلين الصناعي ٧٥ سنة وعلمة ألومنيوم ٣٢٥ سنة - إطار سيارة ٤٥٠ سنة)

وتعدّ النفايات الصلبة مشكلة في جمعها و التخلص منها بشكل سليم بيئياً ، وتزيد المشكلة مع السلوكيات الخاطئة التي يقوم بها بعض الناس في رمي

¹ تعتبر الهجرة غير الرسمية عبر الحدود بما فيها من تضحية بالأرواح نوعاً من اللجوء البيئي وهروباً من قلة الموارد.

المخلفات في الشوارع والحدائق . وعدم وضعها في الأماكن المخصصة لذلك على الرغم من وجود الحاويات وانتشارها . وهذه سلوكيات غير رشيدة يجب أن نرفضها وهي ثقافة سلبية . خاصة أن ديننا يحث على الاهتمام بالنظافة وأنها من الإيمان فكيف تستمر هذه التصرفات الخاطئة وتدنّي النظافة .

ولا شك أن تنفيذ أي برنامج لإدارة النفايات الصلبة يتطلب زيادة وعي المواطن للإقلال من النفايات وفرز المواد بعضها عن بعض . خاصة الخطرة منها . واستخدام الحاويات المخصصة و التقيد بمواعيد جمع النفايات وبقواعد النظافة عموماً .

وهناك مسؤولية تقع علي الأجهزة الحكومية والبلديات . فعليها المساعدة في فرز النفايات من المنبع بتخصيص حاويات لكل نوع وتكون في متناول الجميع . وكذلك إقامة مشروعات لتدويرها والاستفادة منها ؛ فتلك النفايات ثروة لمن يعملون بها . وهناك أبحاث وأفكار جيدة في تدوير تلك النفايات وتلك الأبحاث منشورة وتحتاج لإرادة سياسية تتبناها^(١)

ويقع علي عاتق الحكومة أيضاً الحد من الترخيص لمصانع الأكياس البلاستيكية وإعطاء فرصة لمصانع الأكياس الورقية . أو تلك التي تصنع أكياس بلاستيك يمكن إعادة تدويرها . أو تحتوي علي مواد يمكن تحللها بسرعة .

أما مسألة النفايات السامة والخطرة للمنشآت الصناعية فهي تشكل تهديداً خطيراً علي التربة ومن فضائح صفقات النفايات الصناعية . أن تنتهز بعض شركات غربية فقير بعض الدول في العالم الثالث ، فتعقد معها صفقات مشبوهة ، تستقبل الدول الفقيرة بمقتضاها النفايات مقابل ترضية مادية متواضعة^(٢) وأين ذلك من سنة الرسول التي تحرم إلقاء السم في بلاد العدو؟! .

¹ مجلة البيئة والتنمية العدد ١٣٧

² د. سمير رضوان . انظر مجلة العربي ، العدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ م ، النفايات السامة والصفقات المشبوهة . .

المطلب الثاني

المنهج الإسلامي في حفظ التربة

المسلم يجد نفسه مع الأرض صديقاً خلقه الذي خلقها، بل إن بينه وبينها لحمه قرابة ونسباً عربيقاً فهو من الأرض نشأ، وإليها يعود (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) ^(١)

وعن حذيفة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفْوَتُنَا كَصَفْوَةِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً ، وَجُعِلَتْ تَرَبُّتُهَا لَنَا طَهوراً إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ) ^(٢) ومن ثمَّ ينبغي علينا أن نعاملها بالاحترام الذي تستحقه المساجد ، وأن نحافظ على نقائها وبقائها طاهرة مقدسة.

ومنهج الإسلام في حفظ التربة يتضمن الدعوة إلى زراعتها وسبق تناوله - وثانياً إِمَاطة الأذى عن التربة . وإِمَاطة الأذى ليست من السنن أو الأمور المباحة التي يُحِبُّهَا الإسلام ، بل هو من أساسيات الإيمان بالله . وهكذا الحديث (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إِمَاطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان) ^(٣) ؛ فإِمَاطة الأذى عن الطريق ما هي إلا تنظيف لعائق مادي أو نفايات صلبة ، فقد ورد في التعليق على هذا الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي: والمراد بالأذى كل ما يؤذي . من حجر أو مدر أو شوك أو غيره.

وخص الإسلام الطريق لأنه حقاً شائعاً وملكية عامة ، فما دونه من ملكية خاصة أحق بالرعاية . كما عبر الإسلام بالعلاج وهو إِمَاطة الأذى في حين أقصى ما تطالب به التشريعات المواطن هو عدم إلقاء المخلفات في الطريق .

¹ سورة طة الآية ٥٥

² رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم ٨١١ وأحمد برقم ٢٢١٦٧ /

³ صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم (٥٧)

فالنظافة اقتناع وليست عقوبات ، واجب وليست قانون يدركها من كانت الطهارة والنزاهة عن الأقدار جزءاً من عقيدته ؛ لذلك شاعت مقولة (النظافة من الإيمان) . فالفرد عندما يميظ الأذى عن الطريق تنفيذاً للسنه النبوية فهو يحافظ علي البيئة ويؤدى الأمانة.

وقد نتجح فى صياغة قوانين للنظافة ونلحقها بقرارات مفسرة . بل قد تبذل البلديات جهوداً كبيرة فى تنظيف الشوارع والحدائق لكن لا يبالى الأفراد بإلقاء الفضلات فى الشوارع . فما الحل إذن؟ الحل هو أن توجه إلى ذلك الإنسان مخاطبين وعيه وقيمه وعقيدته.

والحفاظ على نظافة الأرض ليس من شأن الأفراد فقط ، بل من مسئولية الدولة أيضاً ؛ ففي رواية عن أبي موسى ، أنه قال حين قدم البصرة قال : (بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ريكم وستكم وأنظف طرقكم)^(١) وإمارة الأذى والحماية من عبث المفسدين واجب الجميع ماديا ومعنويا .

والقانون رقم ١٠ لسنة ٢٠٠٥ بتعديل بعض أحكام القانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٦٧ بشأن النظافة العامة ، يلزم شاغلى العقارات والأراضى الفضاء المستغلة فى المحافظات بأداء رسم شهري ، ولا يجوز استخدام حصيلة هذا الحساب فى غير الغرض الذى خصصت من أجله . وأن تنشئ الوحدات المحلية المختصة مكاتب لتلقى شكاوى المواطنين فى حالة تضررهم من عدم الالتزام بأحكام هذا القانون ، وإحالتها إلى جهات الاختصاص لاتخاذ اللازم بشأنها .

والذى يخالف متطلبات قانون النظافة - سواء أكان مسئولاً أو غيره يعتبر مرتكباً لمخالفة قانونية وشرعية وعملة نوع من الأذى.

فالنظافة ليست معادلة عصية علي الحل ، إذا فهمت فى هذا الإطار الإيماني . واليك جملة من هذه الأحاديث التي تخص هذا الموضوع والتي لا يظن

^١ أخرجه الدرهمى فى سننه ضمن كتاب الفرائض باب تعلم الفرائض ٤٤١٢ ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم

عاقل أنها وضعت للبركة بل للعمل بها :

❖ يروى أَنَّ شَجْرَةَ كَانَتْ عَلَى طَرِيقِ النَّاسِ كَانَتْ تُؤْذِيهِمْ فَأَتَاهَا رَجُلٌ فَعَزَلَهَا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَتَقَلَّبُ فِي ظِلِّهَا فِي الْجَنَّةِ^(١) وقال - صلى الله عليه وسلم - كَانَ عَلَى الطَّرِيقِ غُصْنُ شَجْرَةٍ يُؤْذِي النَّاسَ فَأَمَاطَهَا رَجُلٌ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ^(٢) وقال - صلى الله عليه وسلم - نَزَعَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ غُصْنًا شَوْكًا عَنِ الطَّرِيقِ إِمَّا كَانَ فِي شَجْرَةٍ فَقَطَعَهُ وَأَلْقَاهُ وَإِمَّا كَانَ مَوْضُوعًا فَأَمَاطَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ بِهَا فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ^(٣) ومن أذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم^(٤) ومن أماط أذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة^(٥) وكلها تؤكد على أن المؤمن ليؤجر في إمطة الأذى عن الطريق.

والغريب أن غيرها من الأحاديث توسع في تأويلها أحيانا بأكثر من مقصودها ، من أجل خدمة أيديولوجية ومذهبية معينة ، أما أحاديث النظافة فلا نجد من يتناولها بالتأويل (فغص الشوك) قد لا يوجد في بيتنا الحضري لكن قد نجد ما هو أكثر منه ضرر وأذى ويجب إمطته عن طريق المسلمين ، كما أن أحاديث الباب يمكن تأويلها ماديا ومعنويا ، فعدم الالتزام بقواعد المرور أذى للطريق وواجب على الجميع دفعه وإلا كانوا أئمين.

والسيرة النبوية تؤكد على هذا المعنى ، وقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما إن وصل هو وأصحابه - رضوان الله عليهم - إلى المدينة حتى أصابهم بلاؤها ، واجتوتهم الحمى ، وعن عائشة - رضي الله عنها -

¹ مسند احمد حديث رقم ١٢٧٥٧

² سنن ابن ماجه حديث رقم ٣٨١٣

³ سنن ابى داود حديث رقم ٥٢٧٤

⁴ رواه الطبراني باسناد حسن

⁵ رواه البخاري والطبراني

قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، وكان وادها يجري نجلا - يعني ماء أجنا - فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه، قالت: فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد. فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عيادتهم فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوبك. فدنوت من أبي بكر فقلت: يا أبت كيف تجددك؟

فقال: كل امرئ مصبِّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله.

وجعل الصحابة يتساقطون واحداً بعد الآخر من الحمى، وكانت اليهود قد اعتادت أن تلقي الآخام في وادي بطحان وهو يقع في مهب رياح الصبا، وهكذا فقد كانت الأريئة تقع مباشرة في مهب أنوفهم. ولم يتمكن المهاجرون من التأقلم مع هذا الواقع الجديد فأصابتهم الحمى. وحفظت لنا الذاكرة آهات حسرى على السنة الصحابة تشرح ما كابدوه من حمى المدينة.

هذا الواقع البيئي الفاسد الذي تسبب فيه يهود المدينة عن عمد في إفساد هوائها وتلويث أجوائها وازداد ذلك مع كيدهم للمهاجرين ورغبتهم بإخراجهم من المدينة. وقد اشتدت تلك المحاولات - كما ذكر المؤرخون - مما يدل أنها كانت حرب بالنفائيات.

ومع أن رسالة النبي الكريم كانت دعوة الناس لعبادة الخالق وتطهير الأرض من الجبت والطاغوت، ولكنه أيضاً كان يحمل على كتفيه هم إصلاح البيئة التي كان يعيش فيها مع قومه.

وقد استجاب الله دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطناً ممتازاً للواقدين والمهاجرين إليها من المسلمين على تنوع بيئاتهم ومواطنهم^(١). والشاهد أن النبي - صلى الله عليه

^١ الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٧٢٢/٥) رقم ٣٩٢٥

وسلم - لم يكتف هنا بأن رفع يديه إلى السماء ليقول اللهم حجب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة وانقل وباءها إلى الجحفة!! بل أطلق مشروعاً شعبياً للإصلاح البيئي، وبدأ يقوم بنفسه وأصحابه بتطوير مجرى بطحان والعقيق، وانطلق أصحابه في وعي بيئي فريد لتطهير الأرض من ذلك الوباء، وحرق ما كان فيه من سبب الوباء، وتحویل مكب النفايات في المدينة باتجاه الجحفة حيث رياح الدبور التي لم تكن لتهب على المدينة، وأعاد بذلك العافية إلى ريح الصبا التي كانت تهب على المدينة من صوب بطحان والعقيق.

وعموازة ذلك أطلق النبي الكريم مشروعاً زراعياً طموحاً عهد به إلى عدد من أصحابه الخبراء وأمر عليهم طلحة بن عبيد الله، وأنجز طلحة حفر أربعة وخمسين بئراً جديدة في المدينة، وتمكن بدراسة بيئية دقيقة من إنشاء عدد من المصانع والجواري لتخزين الماء، ثم نظم مسيله في قنوات مدروسة، ورويت أرض المدينة لأول مرة بالقنوات بعد أن كانت تروى بالناضح من قبل، وأنجز على أرض المدينة خلال أعوام قليلة تضاعفت الرقعة الخضراء وزاد محصول النخيل، وكان النبي الكريم يباشر بنفسه تطور الحركة الزراعية، وربما كانت القصة المشهورة حول تأبير النخل إحدى مظاهر مشاركته الدؤوية لتطوير النشاط الزراعي والبيئي في المدينة.⁽¹⁾

¹ د/ محمد الحبش، مجلة الثورة، تصدر عن الوحدة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق، الجمعة

الفصل الثالث الجمال معيارية بيئية غائبة

إن حاجتنا للبيئة ليست فقط من أجل إطعام وإيواء أجسامنا، ولكن أيضا بشكل أسمى أن تهذب أرواحنا. وكأمر مكمل لوحى القرآن، فإن الطبيعة تستجيب لحاجتنا الروحية. وتشتع رغباتنا

هذا وإذا اتسع الأفق الفكري لحماية البيئة لجعل الأخذ بالمحافظة على جمال البيئة أهم المعايير. فحماية البيئة وفق المعايير الحالية أهداف غير كافية من وجه نظر الإسلام بل لا بد أن يكون عنصر الجمال مقديما.

ولما كانت الحماية المطلقة عسيرة^(١) لذلك اتفق على حدود دنيا وقصى لا تتجاوزها الأنشطة البشرية فى تأثيراتها على البيئة وعرفها القانون بالحدود العتبية، وألزم باستخدام أجهزة لقياسها ورصد حالة البيئة وفق معايير. **أهمها:**

١- معيار الوسط المستقبل: ويقوم على أساس وضع حد للتلوث المسموح به فى وسط بيئى معين كالماء أو الهواء، وتؤخذ عينات من الوسط المستقبل للملوثات ويتم تحليلها وقياس مقدار ما تحويه من مواد ملوثة لمعرفة ما إذا كانت فى الحدود المسموح بها أو تجاوزته ويتم اتخاذ اللازم فى ضوء نتيجة التحليل والقياس.

٢- معيار الملوثات المنبعثة من مصدر معين خلال وحدة زمنية معينة. أو دورة تشغيل محددة.

٣- معيار اشتراطات التشغيل: ويعتمد على تحديد شروط معينه يجب توافرها فى بعض المشروعات أو المنشآت ضمنا لحماية البيئة من ذلك الشروط الواجب توافرها قانونا فى المحال العامة كالفنادق والمطاعم والملاهي سواء تعلقت بالنظافة العامة أم بالتهوية أو بالإضاءة. أو بالأمر الصحية ومن ذلك اشتراط احتواء المصانع على وحدات خاصة لمعالجة ما ينشأ عنها من ملوثات.

^١ د. ماجد راغب الحلو، مرجع سابق، ص ٦٢

٤- معيار السلع المنتجة . ويقوم هذا المعيار علي أساس الخصائص الكيماوية أو الفيزيائية للسلع المنتجة وما قد تحتويه من ملوثات . كالألوان الصناعية والمواد الحافظة . وما قد يصدر عنها من ملوثات خطيرة كالإشعاعات الذرية.

وليبيان أهمية المعيار الجمالي في قياس جودة البيئة نتناوله في النقاط الآتية :-

- الرؤية الفلسفية للجمال.
- نظرة فقهاء المسلمين للجمال.
- التربية الجمالية في القرآن.
- التشريعات والمنظر الجمالي.

١- الرؤية الفلسفية للجمال:

للجمال فعل السحر في ترقيق المشاعر وتسكين النفوس . بل قد يساهم في تهذيب السلوك وتحسين الأخلاق ؛ فالللمسات الجمالية في الأماكن والأشياء تؤثر بشدة في الأحاسيس الإنسانية . ولاغني عنها لتحفيز الابتكار والنمو.

ويرى الفيلسوف الألماني (شيلر) أن العنصر الجمالي هو الذي يوحد بين ما هو حسي وما هو عقلي ويقول إن تأمل الجميل يحقق شيئاً مهماً هو أنه يشعرون بالحرية ويقدرتنا . ونستطيع أن نشعر بجوانبنا الإنسانية بحيث يصح أن نقول إن من لم يمر بهذه التجربة (تذوق الجمال) لن يستطيع إدراك ما هو الإنسان . فالمرحلة الجمالية تمثل الإنسان أفضل تمثيل.

وعندما يأسرنا الجمال لا نرضى الخضوع لأي عالم آخر ؛ لأن هناك أمران لا يجتمعان القبح والجمال فإذا ظهر الجمال اختفي القبح والعكس . فهما نقيضان لا يجتمعان ولا يلتقيان.

ولم يري شيلر^(١) الجمال وسيلة لتحقيق التوافق النفسي في الإنسان فحسب . بل رآه كذلك الوسيلة الوحيدة لتخليص المجتمع من شروره . ورأى أن مساوئ عصره السياسية لن تحل إلا بوساطة العناية بالجمال.

^١ في التربية الجمالية للإنسان . رفرديش شيلر . مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥ . ترجمة د/أحمد حمدى محمود

فإدراك الجمال وحده هو الذي يجعلنا نرى الأشياء في صورة كلية . وهو الذي يربط بين أفراد المجتمع ؛ لأنه يعبر عن شيء يشترك فيه الجميع فالمشاركة في تذوق الجمال هي وحدها التي توحد المجتمع ولا يشترط الجمال لمن يقرؤه معرفة أى لغة أو لسان ؛ إذ هو بذاته لغة سهلة يفهما الأمي والمتعلم والكون بما فيه من جمال مدرسة نتعلم منها الذوق والسلوك الحسن^(١)

٢- نظرة فقهاء المسلمين للجمال:

وقد أكدت بحوث الفلاسفة الإسلاميين القيم الإنسانية والمثل العليا فى (الحق والخير والجمال) وتحت مظلة هذه القيم الثلاثة تندرج القيم الإنسانية جميعا . وتعتبر فروعا لها . فالحق ذروة الجمال . والجمال سبيل لارتقاء الروح . وجعلوا تلك القيم هدفاً أسمى في هذا الوجود ، يسعى المرء لبلوغها ، وبناء الحياة على أساسها .

كما تناول علماء الكلام - وعلماء العقيدة الإسلامية - وعلماء أصول الفقه والمنطق مسألة الحسن والقبح في الأفعال والأشياء . بالبحث والتدقيق العلمى تفصيلاً ، فنفوا عن الله عز وجل القبح وفعل القبيح ، وأثبتوا له الحسن والفعل الحسن . وأقاموا على هذه المبادئ قيماً وأساساً ومفاهيم تشريعية لتنظيم السلوك الفردي والعلاقات الاجتماعية والروابط الإنسانية ، فجعلوا الحسن والجمال والإبداع واللطف أساساً لبناء الحياة . وكانت هذه كلماتهم (الكون يرتل آيات الجمال لمن ينتبه^(٢) عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاجِدْ وَكُلِّ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالَ يُشِيرُ^(٣)

^١ المرجع السابق . فى التربية الجمالية . ٢٣

^٢ الشاعر إيليا أبو ماضي

^٣ سعيد النورسى . اللغات . دار الأفاق الجديدة ١٩٨٥ ص ٤٥ .

ويتساءل المفكر الإسلامي محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي^(١)) : هل هناك جهاز داخل النفس يحسب المقاييس والأبعاد . والأضواء والظلال . والخطوط والألوان . ثم يخرج من حسبه بأن هذا جميل وذاك خاو من الجمال . ويرى أن إدراك ذلك لا يكون إلا عن طريق الروح لا عن طريق الذهن . ويتم بمجرد لمحة . فتطبع الجمال في الحس . وتتحرك النفس لاستقباله في فرح وسرور وكان روح الإنسان وروح الكون شقيقان متعاونان حيثما تلاقيا هس كل منهما للآخر والتقيا في عناق طويل (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)^(٢)

لذلك يقول ابن القيم في كتابه (الفوائد)^(٣) . إن أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال . وهي معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاته . وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ليس كمثل شيء في سائر صفاته . ويكفي من جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرق سبحانه ما انتهى إليه بصره من خلقه . وكل جمال ظاهر وباطن في الدنيا لمن آثار نعمته .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - في دعاء الطائف (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) ^(٤) ومن أسمائه الجميل وورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله جميل يحب الجمال^(٥)

¹ منهج الفن الاسلامي . دار الشروق . ص ١٢٣ .

² سورة المؤمنون . الآية ١٤

³ ابن القيم . بدائع الفوائد جزء ٢ ، ص ٧٨

⁴ ابن هشام . السيرة النبوية . ص ٤٢١

⁵ أخرجه مسلم في صحيحه رقم ١٣١ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبِيرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُجِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَتَعَلُّهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكَبِيرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ .

وجماله سبحانه وتعالى أربع مراتب مرتبة جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال وجمال الأسماء فأسماءه كلها حسنة وصفاته كلها صفات كمال وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة وأما جمال الذات فأمر لا يدركه سواء وليس عند المخلوقين منة إلا تعريفات وهو جمال محجوب عن الأغيار بستر السرداء والأزار كما قال - صلى الله عليه وسلم - (أن الكبرياء رداء الله والعظمة إزاره)^(١)

والعبد ينتقل من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به علي جمال الصفات ، ثم استدل بجمال الصفات علي جمال الذات ، ومن هنا يتبين أنه سبحانه يستحق أن يُعبد لذاته ويُحَبَّ لذاته.

إن الله جميل يحب الجمال وطيب لا يقبل إلا طيباً ، وهو مع ذلك يحب أن يرى اثر نعمته علي عبده وأن يرى علي عبده الجمال الظاهر بالنعمة ، والجمال الباطن بالشكر ، وكما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة يبغيض القبيح في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة فيبغض القبح وأهله ويحب الجمال وأهله.

فالجمال والتربية الجمالية والذوق الجميل والحسن الرقيق يعتبر طريقاً إلى معرفة الخالق جلّت قدرته ؛ لأنّ ذلك دليل على عظمته سبحانه ، وعلى الارتباط العقلي والوجداني به تعالى .

وللجمال في حياة الإنسان قيمة كبرى دعا الإسلام بتعاليمه إليها ، ورغب فيها ، لكن نظرة الإسلام متميزة عن نظرة سائر الحضارات ؛ فالقيم في ديننا مرتبطة بالعقيدة والإيمان . فلا قيم بغير عقيدة ولا أخلاق بغير إيمان .

فالجمال عندنا آية من آيات الله في الكون الجمال ، وأدعها في خلقه ، وطلب من الإنسان أن ينظر في الكون ، ويستجلي أسراره ، ويستقبل تأثيراته ؛

^١ صحيح مسلم حديث رقم ٦٨٤٦

لأن المنفعة المادية ليست وحدها الغاية من خلق هذه المخلوقات ، على هذا الوجه ، لكن للجمال كذلك منفعة معنوية ووجود الجمال فيما لا نبصر كوجوده فيما نبصر.

والجمال سمة بارزة في الصنعة الإلهية . ووجوده فيها مقصود لا عرض . فتشوع ألوان الزهور وروائحها وتباين الجبال والسهول . واختلاف الألوان والأشكال ما كان عرضاً بل لحكمة تدل علي بديع الصفة . فالكون كتاب منظور به مقاييس الجمال المثالية والقرآن الكتاب المقروء به منهج بديع يحقق الجمال والتناسق في الحياة . والمسلم مدعو إلي تطبيق المنهج لكي يحقق هذا التناسق الجمالي في الكون بدءاً من كيانه النفسي وسلوكه إلى إنتاجه .

إلى هذا الحد نظمثن إلى أن إدخال التحسينات علي البيئة المحيطة مقصد من مقاصد الشريعة جعله الإمام الشاطبي⁽¹⁾ مرتبة تلي مرتبة الحاجيات لأن التحسينات هي التي تساعد علي التمتع بالحياة الدنيا . وهي الأمور التي تزيد من روعة الأمة المسلمة وبهاء منظرها أمام غيرها من الأمم .

وقد ضرب العلماء مثلاً للأمور التحسينية بطهارة البدن والثوب والمكان . والاحتراز من النجاسات وأخذ الزينة . وحرمة الغش والتدليس والإسراف . وبيع الإنسان علي بيع أخيه . حتى الجهاد يكون نظيفاً شريفاً فيحرم قتل الصبيان والنساء وحرق الأشجار وتخريب العمران وعدم التنكيل بالموتى أو الغدر مع الأحياء . وإنك تلاحظ هذه الأمثلة تشمل كل من البيئة الطبيعية والاجتماعية حسب التقسيمات الحديثة .

ولا يكاد يخلو أثر إسلامي - بدءاً بالخاتم ومروراً بالأواني ، وانتهاء بالأبنية الضخمة - من لمسة جمالية و كان للإسلام تأثيره على الفن المعماري للبيوت ؛ فتميز البيت المسلم عن غيره لمراعاته شروطاً . منها الحجاب وفصل الرجال عن النساء . ووجود مكان للانتظار والاستئذان خارج البيت قبل

¹ المواقفات للشاطبي . مرجع سابق .

الدخول . فعندما نشاهد الأحياء القديمة ومبانيها العتيقة نشعر بالبساطة الرائعة ونلتهمس التكوينات الجمالية كالوحدة والانسجام .
وكذلك العمارة الأندلسية يقصدها الزائرون من كل فج عميق ليشهدوا ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من تقدم وازدهار. إنها قصور مشيدة منذ قرون لكنها لا تزال تنبض بالحياة . وكأنها بُنيت بالأمس القريب ؛ فالمعماري فرد من المجتمع منغمس فيه متشبع بمعتقداته وفكرة ؛ لذا فرؤيته الفنية وحسه الجمالي يمران عبر هذا المنظور البدي تكون لديه . فهل اختلف هذا المنظور فافتقرت مدننا إلى لمسة الجمال مع كل ما أنفقناه علي مدننا من مال وجهد؟ . فإذا انتقلنا من المجال المعماري إلي المجال الصناعي فنجد القبح يكتنف الصناعة . حتى لقد رسخ في اللاشعور الجماعي فكرة مشثومة . مؤداها أن المصنع لا يمكن إلا أن يكون قبيحا . فسرعان ما يتضح لمن يتجول في أماكن التجمعات الصناعية أن الاعتبارات المعمارية والتنظيم الحضري لم تكن أول ما يشغل بال متعهدي إنشائها^(١)

ونعود للكتاب المقروء لتعلم الإجابة . ونجدها في قول الحق: (بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)^(٢) أي غفور لكم إن داوتم علي التوحيد . فالعقيدة الصحيحة تطبع الذوق في صاحبها . ونجد قول الحق (لَقَدْ كَانَ لِسِيَّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ)^(٣) ويقول العلماء أن بلدتهم لم يكن بها شئ من الذباب والبعوض ولا شئ من الهوام لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه.

¹ عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة . ص. ١٠٢ تأليف جات ماري بيلتس . عالم المعرفة رقم

١٨٩ ترجمة السيد محمد عثمان

² سورة سبأ . الآية ١٥

³ سورة سبأ . الآية ١٥

وقد يسأل سائل: ما هي مقومات الجمال^(١) ولكي يكون الشيء

جميلاً ، لا بد أن يتضمن ما يأتي :

أ- السلامة من العيوب: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) ^(٢) نفيًا للعيوب عنها . وتأكيذاً على جمالها .

ب- التناسق والتنظيم : وهو سمة أخرى للجمال . تقوم أساساً على التقدير والضبط والإحكام وتحديد نسب الأشياء بعضها إلى بعض ، في الحجم والشكل . واللون والحركة والصوت ، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه السمة (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) ^(٣)

ج- النص والتعيين : ليس كل جمال في هذا الكون الفسيح ، مما يدركه الإنسان ، دون أن يساعده في هذا وحي من السماء ، فالكون أوسع من أن يحيط به الإنسان بعقله المحدود ، وقد يخفي عليه وجه الجمال في شيء من الأشياء لا لخلل يرجع إلى الشيء نفسه ، أو كونه فاقداً للتناسق والتنظيم ، بل لكون الإنسان عاجزاً عن إدراكه ، ولعل مجال الجمال المعنوي أكبر دليل على ذلك ؛ إذ لو لم يتم النص عليه والتعيين له بالوحي لما أدركه الإنسان ، ولظل جاهلاً دهرًا طويلًا بمجال رحب للجمال الذي لا غنى له عنه .

وكل شيء جماله وحسنه كامن في كماله اللائق به ، الممكن له ؛ فالفرس الجميل هو الذي جمع ما يليق بالفرس الكامل ، من هيئة وشكل ولون وحسن عدو ، وتيسر كره وفر عليه . والخط الجميل هو الذي جمع ما يليق بالخط ، من تناسب الحروف وتوازنها ، واستقامة ترتيبها ، وحسن انتظامها وجمال القاصي بعدله وإنصافه ، وجمال الحاكم باهتمامه بشئون رعيته ، وسهره على أمنهم وراحتهم ، وجمال الغني بصدقته وإنفاقه ، وجمال الفقير بكده وعمله .

¹ القيم الإسلامية . موقع الإسلام <http://www.al-islam.com>

² سورة الحج الآية ٢٢

³ سورة الفرقان الآية ٢٥

ومن هنا يأتي دور منظومة القيم الإسلامية البيئية . التي يجب أن يفرسها الداعية الإسلامي في المجتمع ؛ (فهي مجموعة من الأحكام المعيارية المنبثقة من الأصول الإسلامية ، التي تكون بمثابة موجبات لسلوك الإنسان تجاه البيئة ، تمكنه من تحقيق وظيفة الخلافة في الأرض)^(١) وإن احتلت قيم المحافظة علي مكونات البيئة وقيم الاستغلال الرشيد وعدم الإسراف والتبذير . مكانة في حماية البيئة . فإن للقيم الجمالية التي تختص بتوجيه السلوك نحو التذوق الجمالي لمكونات البيئة لها تأثير علي تلك الحماية أيضا ؛ فالاستهانة بالمظاهر الجمالية التي أودعها الله في الطبيعة إجمالاً وتفصيلاً ، يؤدي إلى الانزلاق شيئاً فشيئاً نحو الإفساد في الأرض ، والإضرار بالمخلوقات القاطنة فيها ، والتغيير في خلق الله بتحويل الجمال الفطري إلى قبح مصطنع.

والتربية الجمالية التي ينبغي أن تغرس في النفوس . هي الآداب والتوجيهات التي تجعل الإنسان يتبته إلى الجوانب الجمالية في الحياة وفي الكائنات . ويحس بها ويقدرها ويتذوقها ويستمتع بها ويعمل على حفظها وتنميتها . وقد اعتنى الإسلام - قرأناً وسنة - بهذا المستوى الرفيع من مستويات التربية ، وعمل على تنميته في كافة جوانب الكيان البشري . في روح الإنسان وقلبه ، وفكره وعاطفته ، وسمعه وبصره ، ومذاقه^(٢)

فإن كانت الأجسام في حاجة إلي تدريبات بدنية مختلفة . فلا جدال في أن الملكات الإنسانية بالمثل في حاجة هي الأخرى إلي تدريبات للارتقاء بالحس الجمالي ؛ ولذلك دعانا المولي - عز وجل - للتأمل الجمالي في الكون . والشيخ الغزالي يقول إن النظر البليد للكون يعتبر معصية ؛ لأن الجمال

¹ دكتور/ صلاح عبد السميع عبد الرازق . كلية التربية . جامعة حلوان . الناشر كلية التربية ٢٠٠١
² د. أحمد الرسوني . أستاذ بشعبة الدراسات الإسلامية كلية الآداب . جامعة محمد الخامس - الرباط . التربية الجمالية وأثرها في حفظ البيئة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . دراسات بيئية . تحليل لبعض المشكلات من وجهة نظر إسلامية.

الإسلامي يهدف إلي تدريب الذات الإنسانية علي الانتقال من المحسوس الي
المجرد ومن التعدد الي الوحدة ومن الجميل إلى الجليل^(١)

٣- التربية الجمالية في القرآن:

ينبه القرآن إلى مظاهر الجمال في الكون والمخلوقات ، وأول مظهر
جمالي ينبغي للإنسان أن يلتفت إليه ويقدره ويحفظه ، هو جمال الخلقة البشرية
ذاتها. وفي هذا يقول الله سبحانه : (يا أيها الإنسان ما غرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)^(٢) (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوْرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)^(٣) (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)^(٤) (الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)^(٥)

فالجمال سمة بارزه في الإنسان ، مثلما هو في الأعيان الأخرى ، وهو
في الحقيقة آية عظيمة ، تدل على قدرة الخالق - سبحانه وتعالى - وإبداعه ؛
إذ إنه لم يخلق الخلق فحسب ، ولكنه خلق فأحكم ، ويرا فأبدع ، وصيغ
فأحسن ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول (اللهم كما حسنت
خُلُقِي فحسن خُلُقِي)^(٦)

ويلفت القرآن الكريم النظر إلي تلك النعم (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ)^(٧) إذن ليست
فقط حدائق ذات ثمار ، ولكن أيضا ذات بهجة يجب الالتفات إليها ، وعلينا ألا

^١ د/ وفاء إبراهيم ، فلسفة التصوير الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ ، ص ٤٦ .

^٢ سورة الانفطار (الآيات ٨ - ٦) .

^٣ سورة غافر ٤٠ الآية

^٤ سورة التين ٤ الآية

^٥ سورة الانفطار ٨ الآية

^٦ رواه البخاري في الأدب المفرد برقم "٢٧٠" ، وأخرجه أبو داود ، والترمذي وأحمد وابن
حبان. والترمذي كتاب البرقم "٢٠٠٤"

^٧ سورة النمل الآية ٧

نغفلها ، وألا ننظر إلى هذه الحقائق على أنها مصدر رزق و طعام فقط ، ولكنها أيضا مصدر بهجة ، (أفلم ينظروا الي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ^(١)) وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ^(٢)) والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرُهُ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ^(٣) وكلها أوصاف جمالية

مرة أخرى الحديث عن البهجة التي مصدرها الجمال في هذه الطبيعة في قوله تعالى ، (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت ورتت وأنبتت من كل زوج بهيج) ^(٤) ، حتى في الخيل والبغال هناك زينة (والأنعام خلقها لكم فيها دَفءٌ ومَنافع ومنها تاكلون ولكم فيها جمالٌ حين تريحون وحين تَسْرَحُونَ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفسِ إن ربيكم لرؤوفٌ رحيمٌ والخيلَ والبغالَ والحَمِيرَ لتركبوها وزينةً) ^(٥) والبحر أيضا كشأن كافة مخلوقات الله فيه الجانب الجمالي وفيه جانب التزيين والتجميل يلفت الله النظر إليه بقوله تعالى (وهو الذي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ^(٦))

وتدريتنا السنة النبوية على ممارسة الجمال وبناء الحياة الجميلة. فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم ، قال : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالَ ذرَّةٍ من كِبْرٍ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال : إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال الكبر بطر الحق

1 سورة ق- ٨

2 سورة النمل ٦

3 سورة ق الآية ٩

4 سورة الحج

5 سورة المؤمنین ٢١

6 سورة النحل الآية ١٤

وغمط الناس). فهذه قاعدة عامة وعظمية (إن الله تعالى طيبٌ يحبُّ الطيبَ،
تنظيف يحبُّ النظافة، كريمٌ يحبُّ الكرمَ، جوادٌ يحبُّ الجود، فنظفوا أنفسكم
ولا تشبهوا باليهود) (١).

وقد وردت أحاديث كثيرة في تحسين الصوت وتزيينه عند قراءة القرآن
الكريم، وهذا تشجيع وتنمية للتزيين في الأصوات ودليل على أن لجمال
الأصوات قيمة وفائدة. وفي التنفير من الأصوات القبيحة نجد قوله تعالى:
(واغضضْ من صوتك إن أنكرَ الأصواتُ لصوتَ الحمير) (٢).

هذه المظاهر والآداب حثَّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية، من
صميم حفظ البيئة؛ فليس هناك شك في أن من يحفظ هذه التحسينات سيكون
حافظاً لما فوقها من باب أولى. هذه التحسينات التي تنصبُّ غالباً على الجانب
الجمالي وعلى الجانب الذوقي، يقول الإمام الشاطبي في تعريفه لها: (وأما
التحسينات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال
المدنسات، التي تأنفها العقول الراجحات) (٣). وأن التحسينات هي سياج لما
فوقها من المصلح فهذا هو وجه اعتبار أن التربية الجمالية في الإسلام إنما هي
حفظ للبيئة في أقصى الدرجات لأنه قد نهى الناس عن أن يفسدوا الشيء
ويتلفوه لكن حين نخشعهم ونحملهم على أن يصونوا جماله لا وجوده فقط،
فهذه أقصى درجات الحفظ.

والعلامة بن عاشور يلفت النظر لهذا الجمال في مقصود الشارع بقوله:
(والمصالح التحسينية هي عندي ما كان بها كمال حال الأمة في نظامها حتى
تعيش آمنة مطمئنة ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقية الأمم. وحتى تكون
الأمة الإسلامية مرغوباً في الاندماج فيها أو التقرب منها) (٤)

١ رواء مسلم في كتاب الإيمان، والإمام مالك في كتاب اللباس.

٢ سورة لقمان الآية ١٩

٣ الشوكاني. نيل الأوطار ١/١٨٨. دار ابن القيم.

٤ العلامة الطاهر بن عاشور. مقاصد الشريعة الإسلامية. طبعة دار السلام. ص ٨١

٤٥١ البعد الجمالي في التشريعات:

البيئة المشيدة هي البيئة الطبيعية بالإضافة إلى فعل الإنسان عليها .
والإضافة الإنسانية والحضارية إلى البيئة هي التي تعطي البيئة المشيدة حسها
الجمالي او العكس.

وإذا أردنا أن ننمي الإحساس بالجمال عند ذوي المهن فلا بد أولاً من
أن تتم تربيتهم علي التذوق الجمالي ، وعلى جماليات السلوك المهني ، فهناك
مئات عيادات الأطباء لا تفتقر إلى جماليات الصحة وحسب ، بل إلى ما يشير إلى
وظيفةها الصحية ؛ ومئات المدارس التي لا تفتقر إلى جماليات التربية وحسب ،
بل إلى ما يلبي الحاجات الأساسية للمتعلمين ؛ وعشرات الآلاف البيوت التي
يتساوى ظاهرها وباطنها في غياب ما يسر النظر ؛ وآلاف من واجهات المحال
تفتقر إلى ابسط الجماليات التي يمكن أن تجذب الزبون.

ولقد تبه المشرع أخيراً لمثل هذا التلوث البصري وجاء قانون البناء

المصري^(١)

وخصّص باب للتنسيق الحضاري وجعل لوزارة الثقافة دوراً في
الإشراف علي واجهات المباني الأثرية وفي لبنان هناك قانون حماية المناظر
والمواقع الطبيعية ، وتم إنشاء الجهاز القومي للتنسيق الحضاري^(٢) مقره الرئيسي
القاهرة على ان ينشئ فروع في باقي المحافظات ، ويتولى الجهاز رسم السياسة
ووضع الأسس والمعايير للتنسيق الحضاري

ويوجب قانون البيئة المصري^(٣) أن تخصص في كل حي وفي كل قرية ،
مساحة لا تقل عن ألف متر مربع من أراضي الدولة لإقامة مشتل لإنتاج
الأشجار . علي أن تتاح منتجات هذه المشاتل للأفراد والهيئات بسعر التكلفة .

¹ قانون ١١٩ لسنة ٢٠٠٨ للبناء الموحد

² المادة ٢٨ من القانون ١١٩ لسنة ٢٠٠٨ الخاص بالبناء الموحد

³ المادة ٢٧ من القانون ٤ لسنة ١٩٩٤

وتتولي الجهات الإدارية المختصة التي تتبعها هذه المشاتل إعداد الإرشادات الخاصة بزراعة هذه الأشجار ورعايتها ، على أن يسهم جهاز شئون البيئة في تمويل هذه المشاتل.

والمفروض أن لا نحتاج إلى إطالة القول في دخول المعيار الجمالي ضمن معايير جودة الحياة.

فالإحساس بالجمال التزام شرعيّ، ونحن مسلمون . ومراعاة الذوق الجماليّ الرفيع من صلب أدينا وثقافتنا..وأن إسلامي يدعوني إلى احترام البيئة . وعدم الإضرار بها . حتى ولو لم أجد لافتة مكتوب عليها (ممنوع)

وقد يكون للتعليمات والقوانين الرسمية نفع في دفع من لا يلتزمون إلاّ بالإنذار على أن يراعوها مخافة الغرامات المالية أو العقوبات المترتبة على مخالفتها ، لكنّ هؤلاء سرعان ما يديرون ظهورهم للقانون إذا كان القانون نائماً أو مشغولاً عنهم . أما عين الرقابة المفتوحة وتساعد في التطبيقات الحازمة . لكتها . لا تجلب الالتزام دائماً ، لذلك عدد الجرائم المرتكبة في حق البيئة يفوق بكثير عدد الجرائم المكتشفة.

والخلاصة أن الفراغ الذي تركه غياب مؤسسة الحسبة لم تشغله المؤسسات الحديثة . فمؤسسات الرقابة الجزئية أضحت عاجزة عن الإلمام بالسلوكيات الخفية السلبية المرتبطة بفساد البيئة.

ولن يكون لمفهوم الحسبة دور إلاّ بإحساس المجتمع عامة (حكام ومحكومين) بالحاجة إليه . وبأن الحسبة كقيلة بإيجاد حلول للمشكلات اليومية كما كانت في الماضي ؛ بما فرضته من التزام على عاتق كل فرد . ومن أجل هذه الغاية كان هذا البحث.

الخاتمة والتوصيات

هذه عناوين مختصرة قدمت في هذه الدراسة لتبين عظمة وملائمة الشريعة الإسلامية فى حماية البيئة . وما هي إلا خطوة في الطريق الطويل لمعرفة سمو الشريعة في صياغة بيئة بشقيها المادي والاجتماعى صالحه لتحقيق السعادة للبشرية وأمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة معينة على ترسيخ السلوك البيئى. على هدى من الشريعة الإسلامية . لخلق أجيال تتعامل مع بيئتها بأسلوب رشيد. وأتمنى أن تكون بداية لدراسات أخرى تسهم فى ترسيخ وتعميق المفاهيم البيئية الإسلامية لدى الأجيال القادمة .

وحدود الدور الذى رسمناه هنا ما هو إلا استخلاص واستنتاج حسب منهجنا المتبع وخلفيتنا العلمية المحدودة وربما وهذا ما نأمل إن يضيف آخرون إلى هذا الجهد .

وفي نهاية المطاف يمكن استخلاص عدة توصيات من خلال البحث

المقدم ، لعل فيها الفائدة لمن أراد الاحتساب فى الشأن البيئى وهي كما يلي :

١- لابد من نشر ثقافة الحسبة والاحتساب . والتوعية بأهميتها وأن تعطيلها سبب للعذاب الدنيوي.

٢- توسيع نطاق دعوى الحسبة حتى تشمل المنكر البيئى.

٣- عدم التراخي في ملاحقة ملوثي البيئة . وتوقيع العقوبات عليهم ، ووضع العقوبات الصارمة على من يستخدم المبيدات الزراعية الكيميائية وغيرها . وملء الفراغ التشريعي في بعض جوانبه الخاصة بذلك.

٤- تدريس العلوم البيئية بتأصيلها الإسلامى للعاملين المعنيين بالرقابة المجتمعية من صحة وتموين وبلديات ليصبح لديهم الضمير البيئى وتنمية خلق الاحتساب.

٥- إنشاء معهد للعلوم البيئية بجامعة الإسكندرية أسوة بمعهد جامعة عين شمس ليخدم الوجه البحرى.

٦- ترسيخ قاعدة اتخاذ القرار والسماح للجمهور بالمشاركة.

- ٧- عقد الدورات التدريبية لأعضاء الجهاز القضائي المختص بالقضايا البيئية ؛
لأعداد كوادر قانونية قادرة علي تطبيق التشريعات البيئية
- ٨- ترويج الوعي البيئي عبر وسائل الإعلام السمعية والمرئية والمقروءة لتكوين الاتجاهات الاحتسابية التي تجعل المواطن ايجابياً في تعامله وتصرفاته مع البيئة .
- ٩- دعوة الباحثين إلى الاجتهاد في إعادة صياغة الأفكار البيئية المعاصرة وفق مبادئ الشريعة الإسلامية ؛ فمازالت بعض المسائل تحتاج إلى جهود بحثية مثل المسؤولية القانونية الدولية و مسؤولية الشخص المعنوي عن الأضرار البيئية وكيفية ملاحقة ملوثي البيئة أثناء النزاعات المسلحة وكذلك الاقتصاد البيئي.
- ١٠- نطالب بنشر الدراسات البيئية المكدسة في الوزارة على الإنترنت للاطلاع عليها من قبل الجمعيات المدنية ، التي تعاني من نقص المعلومات البيئية.
- ١١- ومن اجل وضع أحكام التشريعات البيئية موضع التنفيذ لابد من مراجعة هيكلية للمؤسسات الرقابية وتنسيق العمل بينها.
- ١٢- بحث إمكانية تشغيل أتوبيسات النقل العام بالغاز الطبيعي.
- ١٣- تطبيق نظام تصنيف القمامة، وتخصيص أيام خاصة لجمع النفايات المنزلية الخطيرة.
- ١٤- التشجيع علي ركوب الدراجات وإقامة مسارات آمنة لها في الشوارع الرئيسة.
- ١٥- التوجه إلي إنتاج الكهرباء من الطاقة الشمسية.
- ١٦- المؤتمرات الدولية والإقليمية الكثيرة حول البيئة كثيراً ما تُعقد بمعزل عن المتخصصين في الشأن الاسلامي لحماية البيئة ، ولابد من البحث عن وسائل لإبراز الرؤية الإسلامية في هذه المؤتمرات.
- وأقول أخيراً: إننا نتطلع إلى أن يعي أبناء المجتمع قاطبة دورهم في الاحتساب من أجل حماية البيئة ، وأن يولوا الأمر عنايتهم ، ويجعلوه من أولوياتهم ومن أوجب واجباتهم ، وأن يدفعهم إلى ذلك ويزيد من عزمهم ما نراه من منكرٍ انتشر ، وما ساد من بلاءٍ وشر.

المراجع

تم تخرّيج الأحاديث بذكر رقم الحديث في الكتب التسعة، مع بيان درجة صحته، كما تم ذكر معاني وشرح بعض الكلمات والمفردات بالعودة إلى معاجم اللغة العربية المعروفة، وتم الإشارة إلى بعض القوانين المتعلقة بحماية البيئة في الوطن العربي في متن النص والخواشي. وهذه بعض الكتب التي تم الرجوع إليها:

الرسائل العلمية

- عيد محمد مناحي المنوخ العازمي الحماية الإدارية للبيئة في النظام الكويتي والمقارن، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية
- المستشار / أسامة محمد عبد العزيز، نحو سياسة جنائية لحماية البيئة، رسالة دكتوراه جامعة الإسكندرية.
- فريدة تكارلي، مبدأ الحيطة في القانون الدولي للبيئة، رسالة ماجستير الجزائر جامعة بن عكنون.
- د. شبل إسماعيل عطية، تطور الحسبة في الشريعة الإسلامية وتطبيقها المعاصرة رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة.
- الدكتور / سميح عبد الوهاب الجندي، أهمية المقاصد في الشريعة الإسلامية وأثارها في فهم النص واستنباط الحكم رسالة ماجستير نشر دار الإيمان بالإسكندرية.
- د/ أحمد محمد حشيش، المفهوم القانوني للبيئة في ضوء أسلحة القانون المعاصر، دار الفكر الجامعي ٢٠٠١.

كتب قانونية فى موضوع البيئة:

- د/جمال محمود الكردي . دراسات فى التشريعات البيئية . كلية الحقوق . جامعة طنطا.
 - دكتور/ محمود طه . أستاذ القانون الجنائي جامعة طنطا . الحماية الجنائية للبيئة من التلوث . توزيع منشأة المعارف الإسكندرية ٢٠٠٣ .
 - د . زكى زكى حسين زيدان . الاضرار البيئية وأثرها على الانسان وكيف عالجها الاسلام . دار الفكر الجامعى ٢٠٠٤
 - د . زين الدين عبد المقصود . قضايا بيئية معاصرة . منشأة المعارف الإسكندرية ٢٠٠٤
 - د/ نور الدين هنداوي . الحماية الجنائية للبيئة دراسة مقارنة . عين شمس . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٥ .
 - دكتورة/ نبيلة عبد الحليم كامل . نحو قانون موحد لحماية البيئة . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٩٣ .
 - د/ بدرية العوضى . الإطار القانوني لإدارة البيئة . إصدار جمعية حماية البيئة الكويتية ١٩٩٩
 - المستشار معوض عبد التواب . التشريعات الجنائية الخاصة بحماية البيئة والأمن الصناعي منشأة المعارف طبعة ثانية ١٩٩٠
 - مستشار / محمد عبد العزيز الجندي . فهم البيئة والدفاع عنها . جزئين . مطبوعات جمعية أصدقاء البيئة بالإسكندرية ٢٠٠١ .
- ## كتب عامة فى موضوع البيئة:
- رشيد الحمد ومحمد صباريني ، البيئة ومشكلاتها ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ط٢ ، ١٩٨٤
 - محمد السيد أرناؤوط ، الإنسان وتلوث البيئة ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٣ .

- أحمد حلمى سيف النصر. الإسلام أسبق التشريعات في حماية البيئة . دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر. ٢٠٠١
- د. عصام الخناوي , قضايا البيئة في مئة سؤال وجواب , البيئة والتنمية , بيروت , ٢٠٠٤
- د. فريد الانصارى. أجدديات البحث في العلوم الشرعية , دار الحامد , عمان ٢٠٠٧
- د/أحمد فؤاد باشا , أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامى , دار الهداية القاهرة ١٩٩٧
- د. خالد حريى , صناعة الطب عند الرازى كلية الآداب , جامعة الإسكندرية ٢٠٠٥ م
- د. محمد رشاد الحملاوى , إدارة الأزمات تجارب محلية وعالمية , دار أبوالمجد القاهرة ٢٠٠١ م
- دليل الرصد الذاتي EPAP 1999 مطبوعات جهاز شئون البيئة المشروع المصرى
- أمين عز الدين , تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى ١٩١٩ دار الكاتب العربى للطباعة
- ا د/ أماني قنديل الدور السياسي لجماعات المصالح فى مصر - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام
- د/ أماني قنديل - النقابات المهنية , المكتب العربى للمعارف ١٩٩٥ م
- مهندس سعد شعبان , التلوث لعنة العصر . مكتبة الأسرة ١٩٩٩
- إحسان علي محاسنه , البيئة والصحة العامة , عمان , دار الشروق للنشر والتوزيع ٢٠٠٢ .
- الدكتور/ السيد الجميل , الإسلام والبيئة دراسة علمية إسلامية طيبة , مدينة نصر للنشر ٢٠٠٣

- د/ محمود طه . المسئولية الجنائية عن فعل الغير فى ضوء مبدأ شخصية العقوبة . كلية الحقوق جامعة طنطا ٢٠٠٥م
- د . حسن احمد شحاته . البيئة والمشكلة السكانية . عربية للطباعة والنشر . ٢٠٠١م .
- عميد دكتور / محمد إبراهيم الأصيلي . الشرطة في النظم الإسلامية والقوانين الوضعية دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون . الناشر المكتب العربي الحديث . الإسكندرية . ٢٠٠٠
- مقومات الأمن المجتمعى فى الإسلام سلسلة قضايا إسلامية . تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وزارة الأوقاف المصرية العدد ١٥٨
- أ/سيد دسوقي . رؤى إسلامية فى التنمية التقنية المستقبلية سلسلة دراسات إسلامية تصدر عن وزارة الأوقاف المصرية العدد ١٠٣
- د/ مصطفى كمال طلبة . إنقاذ كوكبنا التحديات والآمال . بيروت . مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٢
- د/ سلوى شعراوى جمعة . صنع السياسات البيئية فى مصر . الجامعة الأمريكية بالقاهرة . مركز البحوث الاجتماعية ١٩٩٧
- د/ عبد المجيد النجار . قضايا البيئة من منظور إسلامي . مركز البحوث والدراسات القاهرة ٢٠٠٠م
- الدكتور/ يوسف القرضاوى . البيئة منظور إسلامي . نشر دار السلام ٢٠٠٥م
- محمد عبدالستار عثمان ، المدينة الإسلامية .. سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٨م
- م/ سعد شعبان ، ثقب فى الفضاء . دار المعارف ١٩٩٢ م
- د/ عبد الرحمن عيسوي . علم النفس البيئي . منشأة المعارف ٢٠٠٢م

- د. محمد حسين حجازى ، التسميد فى طرق الري الحديثة.الدار العربية للنشر والتوزيع ١٩٩٩م
- مجدى شندي ، المياه الصراع القادم فى الشرق الأوسط ، كتاب أكتوبر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٢م.
- ا.د / حامد إبراهيم الموصلي ، أستاذ بكلية الهندسة جامعة عين شمس ، تأملات فى التكنولوجيا والتنمية من منظور حضاري، نشر مركز دراسات العالم الإسلامى
- د/ رجب سعد السيد ، أجراس الخطر وكوارث البيئة ، مركز الكتاب للنشر ١٩٩٧
- محمد الخشن ، التصحر وتأثيره على الأمن الغذائى، عالم الفكر ١٩٨٦ م
- د. أحمد الريسونى ، التربية الجمالية وأثرها فى حفظ البيئة ، دراسات بيئية تحليل لبعض المشكلات من وجهة نظر إسلامية ، الناشر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
- د/وفاء إبراهيم ، فلسفة التصوير الإسلامى ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- سعيد محمد الحفار ، نحو بيئة أفضل دار الثقافة ، الدوحة ، قطر ، ١٩٩٢ .
- د/ عادل أبو زهرة ، الإدارة البيئية للمنشآت الصناعية ، الطبعة الاولى مطبوعات جمعية أصدقاء البيئة بالإسكندرية.
- مشكلات و احتياجات المنظمات الأهلية العاملة فى التنمية والصحة والبيئة بالإسكندرية(مطبوعات الجمعية)
- د. حسن احمد شحاتة ، تلوث البيئة السلوكيات الخاطئة وكيفية مواجهتها ، الطبعة الأولى.القاهرة.الدار العربية للكتاب.٢٠٠٠م.
- جمال الغيطاني: الزينى بركات ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، بيروت ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٩

- د/ حسين عبد الله . مستقبل النفط العربي . النفط فى ظل كيوو مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٦ م
- خالد حجازى . أزمة المياه فى المنطقة العربية ، : سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٢٠٩ ، الكويت ١٩٩٦
- محمد عبد الفتاح القصاص . التصحر ، سلسلة عالم المعرفة ، الكتاب رقم ٢٤٢ ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٩ .
- ا.د.منى قاسم . التلوث البيئى والتنمية الاقتصادية.. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. ١٩٩٧ .
- المستشار الجندي . التطور التشريعي فى العمل التطوعي . جمعية أصدقاء البيئة الإسكندرية ٢٠٠٠ م
- أ.د. عادل أبو زهرة ، أستاذ العلوم السلوكية وأمين عام جمعية أصدقاء البيئة بالإسكندرية . مهارات الاتصال والتفاوض . مساندة الحقوق فى مجال البيئة
- د/ علي علي السكري . البيئة من منظور إسلامي . منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٥
- دكتور ومهندس / حيدر محمد أمين طرايشي . المرشد الى طريق الايزو وتطبيقاته ومؤشرات علي طريق المعيار . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
- مأمون السلطى وسهيلا الياس . دليل عملى لتطبيق أنظمة إدارة الجودة الايزو. دار الفكر سوريا ١٩٩٩
- د/ أحمد عبد الوهاب عبد الجواد . المنهج الاسلامى لعلاج تلوث البيئة. الدار العربية للنشر والتوزيع . القاهرة
- دكتور/ يسرى دعبس . تلوث البيئة وتحديات البقاء . البيطاش سنتر للنشر والتوزيع ١٩٩٩ م.
- الشيخ حسين الخشن . خطوات نحو فقه بيئي . دار الهادى بيروت ٢٠٠٤
- باتر على وردم . العولة ومستقبل الأرض . الأهلية للنشر عمان ٢٠٠٣

- أمين عز الدين ، تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى ١٩١٩ دار
الكاتب العربي للطباعة والنشر
- د/ أحمد حسن حسين ❖ د/ محمد حسن رمضان - أستاذان صحة بيئة
العمل - بالمعهد العالي للصحة العامة ، برنامج التدريب التخصصي تقييم الأثر
البيئي (كومببصل) المركز الدولي لدراسات التفتيش والمراجعة .
- محمد عبد الفتاح القصاص ، الإنسان والبيئة والتنمية . سلسلة أقرأ ، العدد
٦٥٦ ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢٠٠٠
- د. أسامة الخولي ، البيئة وقضايا التنمية والتصنيع ، سلسلة عالم المعرفة ،
العدد ٢٨٥
- كتب مترجمة من لغات أخرى:-**
- الكاتب سيليكو كارل ، ترجمة د/ علاء عبد المنعم ، الوساطة في حل النزاع.
القاهرة الدار الدولية للنشر والتوزيع . ١٩٩٩
- جات ماري بيلتس ، ترجمة السيد محمد عثمان ، عودة الوفاق بين الإنسان
والطبيعة . سلسلة عالم المعرفة رقم ١٨٩
- ترافس واجنر ، البيئة من حولنا دليل لفهم التلوث واثارة ، ترجمة الدكتور
محمد صابر ، ص ٣٤٦ ، الناشر الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية .
القاهرة ١٩٩٧
- مستقبلنا المشترك ، إعداد اللجنة العليا للبيئة والتنمية ، ترجمة محمد كامل
عارف ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٤٢
- فى التربية الجمالية للإنسان لرفردريش شيلر ترجمة د/أحمد حمدى محمود ،
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥ .
- زيمران ، مايكل ، ترجمة معين شفيق رومية ، الفلسفة البيئية : من حقوق
الحيوان إلى الإيكولوجية الجذرية ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد ٣٣٢ ، والعدد
عدد ٣٣٣ الكويت ، ٢٠٠٦ .

- د/ جون ب ديكنسون ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو . العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث . سلسلة عالم المعرفة . يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت
- المعيشة فى البيئة . كتاب للتربية البيئية . ترجمة مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ١٩٩٠ تاليف مجموعة علمية من جمهورية اوكرانيا السوفيتية بالتعاون مع خبراء اليونسكو.
- كتب فى موضوع الحسبة**
- الشيخ موسى راضى نصار . نظام الحسبة فى الإسلام بين التنظير والتطبيق . دار الهادى بيروت
- ا.د هاشم يحيى الملاح . الحسبة فى الحضارة الإسلامية دراسة تاريخية فقهية فى الرقابة علي الجودة الشاملة ٢٠٠٧ نشر المنظمة العربية للتنمية الإدارية
- ابن تيمية . قاعدة الحسبة . المجلد ٢٨ مجموع الفتاوى . طبعة دار التراث ١٩٨٥ م
- العلامة الطاهر بن عاشور . مقاصد الشريعة الإسلامية . طبعة دار السلام ٢٠٠٠ م
- سهام مصطفى أبو زيد الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى الى نهاية العصر المملوكي الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب . ٢٠٠٠ م
- د/ خالد خليل الظاهر د/ حسن مصطفى طيرة . نظام الحسبة - دراسة من الإدارة الاقتصادية للمجتمع العربى الإسلامى - دار الميسرة الأردن ١٩٩٧ م
- د. فوزي خليل . دور أهل الحل والعقد فى المنهج الإسلامى . الناشر المعهد العالمى للفكر الإسلامى ٢٠٠١ .
- الشيرازى تحقيق السيد الباز العرنى . نهاية الرتبة فى طلب الحسبة دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨١

- د/ رمضان الشرنباوى . النظريات العامة فى الفقه الاسلامى . جامعة الإسكندرية ، ٢٠٠٤ .
- د/ محمود السيد التحيوي ، دعوى الحسبة كلية الحقوق جامعة المنوفية ، دار الفكر الجامعي ٢٠٠٢
- الموافقات للإمام الشاطبى دار الفكر العربى ١٩٩٩
- د. محمد نصر مهنا ، مدخل إلى الأمن القومي العربي في عالم متغير، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ م.
- جمال البنا ، تعميق حاسة العمل فى الفكر الاسلامى . الناشر الاتحاد الدولى للعمل ، ١٩٩٦
- جمال البنا ، النقابات المهنية المصرية ، الناشر حركة البقاء ١٩٩٩
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار أحياء التراث العربى ، ١٩٩٩ م
- حاجي خليفة ، كشف الظنون في معرفة أسامي الكتب والفنون . تحقيق محمد شرف الدين دار إحياء التراث العربي
- عبد الرازق نوفل ، بين يدي الله . دار الكتاب العربي للطباعة ١٩٨٠
- سعيد النوراسى ، اللغات ، دار الأفاق الجديدة ١٩٨٥
- الغزالي ، إحياء علوم الدين ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٥
- الماوردى ، الأحكام السلطانية دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧
- المستشار طارق البشرى ، منهج النظر فى النظم السياسية المعاصرة لبلدان الاسلامى الناشر مركز دراسات العالم الاسلامى سلسلة الدراسات السياسية والإستراتيجية ١٩٩٣
- الدكتور/ محمد أبو الفتح البيانونى . القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الإسلامى ..سلسلة كتاب الأمة، العدد ١٩٥، ٢٠٠١ م
- الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية لابن القيم ، مطبعة السنة المحمدية ١٩٩٤

- الأستاذ الدكتور محمد عثمان شبير . إحياء وتطوير مؤسسة الحسبة لحماية حقوق الإنسان سلسلة كتاب الأمة العدد ٨٧ - محرم ١٤٢٣ هـ - السنة الثانية والعشرون
- د/ علي بن حسن القرني . الحسبة في الماضي والحاضر ، طبعة دار الرشد بالرياض
- عبد الله بن علي الغامدي . كن محسبا مسابقة احتسابيه وملحقاتها السعودية . دار الفرقان مكة المكرمة ٢٠٠١
- د/ محمود صالح العادلي . الجواهر المضيئة في الإسلام وحماية البيئة . العدد السادس ١٩٩٥ مجلة الشريعة والقانون بطنطا
- الدكتور/ وهبة الزحيلي . وسائل الإثبات . دار المكتبي للنشر ١٩٨٠
- محمد المبارك . الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية . دار الفكر . دمشق ١٩٩٥ م.
- دكتور /عبد الرؤف هاشم بسيوني . نظرية الضبط الإداري في النظم الوظيفية المعاصرة والشريعة الإسلامية . الناشر المكتب الجامعي الإسكندرية ٢٠٠٤
- عبد الحسيب رضوان ، دراسات في الحسبة من الناحيتين التاريخية والفقهية . القاهرة . المطبعة الإسلامية الحديثة ١٩٩٧ .
- برغوث عبد العزيز بن مبارك . المنهج النبوي والتغير الحضاري . سلسلة كتاب الأمة ٤٣ مطابع دار أخبار اليوم .
- عميد دكتور / محمد إبراهيم الأصيبي . الشرطة في النظم الإسلامية والقوانين الوضعية . دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون . الناشر المكتب العربي الحديث الإسكندرية
- إحياء وتطوير مؤسسة الحسبة : د. محمد عثمان شبير ١٣٥ / مقال منشور في سلسلة كتاب الأمة / منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / قطر / ٨٧ / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

- الحسبة على الحاكم ووسائلها في الشريعة الإسلامية بقلم : حامد بن عبد الله العلي ندوة عن الحسبة ودورها في وقاية وحماية المجتمع جمعية الإصلاح الاجتماعي الكويت
- الدكتور/ صالح صالح عميد كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير جامعة سطيف، الجزائر، مكانة مؤسسة الحسبة في الاقتصاد الإسلامي ودورها في القضاء على الفساد الاقتصادي، الناشر مركز أبحاث فقه المعاملات .

الدوريات والمجلات العلمية

- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت التصور الاسلامى للبيئة دلالاته وأبعاده د/ محمد زرمان العدد ٥٥ لسنة ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣
- مجلة أصدقاء البيئة دولة قطر العدد الخامس لسنة ٢٠٠٠م
- مجلة البيئة . وزارة البلديات الإقليمية والبيئة سلطنة عمان العدد ١١ لعام ٢٠٠٠م
- مجلة التراث العربي - مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق
- مجلة الوعي الإسلامي الكويت العدد رقم ٤٩٣ بتاريخ ٢٣/١٢/٢٠٠٦
- مجلة الثورة تصدر عن الوحدة للصحافة والطباعة والنشر(دمشق) د محمد الحبش الجمعة ٦/٦/٢٠٠٨
- مجلة المسلم المعاصر ، نظرية المقاصد محاولة للتشغيل ، عصام أنس الزفتاوى عدد ١٠٣
- مجلة المدينة العربية تصدرها منظمة المدن العربية لماذا اجتمعوا فى كويتو؟ العدد ٨٣
- مجلة إسلامية المعرفة العدد ٤٨ نشر المعهد العالى للفكر الاسلامى بتاريخ ٢٠٠٧/١/١١
- مجلة الفيصل حسن حسين المهنا "الاقتصاد الاخضر" عدد ٢٣٤ أبريل ١٩٩٦
- مجلة العلوم الإدارية القاهرة ١٤ لسنة ١٩٧٥ . نظام الامبودسمان السويدي مقارنا بتاظر المظالم والمحتسب في الإسلام د. محمد انس قاسم جعفر
- مجلة فصول ، مصر ، عندما يكتب الروائي التاريخ، د. سامية أحمد ، المجلد ٢ ، العدد ٢ ، سنة ١٩٨٢
- مجلة عالم الفكر ، (بيئة العصر بين البقاء والبقاء) محمد عبد الرحم الشرنوبى. المجلد التاسع ، العدد الرابع ، الكويت ، وزارة الأعلام ، ١٩٧٧

- جريدة القبس - مقال خوف رجال القانون والحقوق من الحداثة د/ بدرية العوضي العدد ١٠٥٠ سنة ٣١ بتاريخ ١١/٤/٢٠٠٢
- أخبار الخليج - بيتنا أهمية التعلّم البيئي وطرائق تدعيمه د.نظمي خليل أبو العطا العدد(٨٤١) الثلاثاء ٩ محرم ١٤٢٢ هـ
- مجلة لواء الشريعة، الجمعيات الأهلية والدور الاجتماعي، د. نانسي أبو الفتوح ٢٠٠٨
- مجلة البيئة والتنمية . أحزاب البيئة العربية بين التسلية والاحتراف، نجيب صعب ٢٠٠٨
- جريدة الوطن السعودية ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧ . هل يجب إحراق كپوتو
- مجلة الأزهر . مقال الحسبة في الإسلام لأحمد المراغي ٦٩٣ عدد
- المجلة الدولية للصليب الأحمر . حماية البيئة أثناء النزاعات المسلحة . ١٩٩٥
- إعلان الحق في التنمية اعتمد ونشر علي الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٢٨/٤١ المؤرخ في /ديسمبر ١٩٨٦
- برنامج الأمم المتحدة الإنمائية - تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٠ . وكالة الأهرام للإعلان.
- اتفاقية لاهاي لحماية الملكية الثقافية والبرتوكول الأول لاتفاقيات جنيف واتفاقية كيوتو واتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد لعام ٢٠٠٣
- قانون المرور وقانون الباعة الجائلين المصري رقم ٣٣ لسنة ١٩٥٧
- قانون التخطيط العمراني رقم ٣ لسنة ١٩٨٢ وقرار وزير التعمير رقم ٦٠٠ لسنة ١٩٨٢ باصدار اللائحة التنفيذية للقانون.
- الاتفاقية العربية رقم (١٩) لعام ١٩٩٨ بشأن تفتيش العمل (المنبثقة عن مؤتمر العمل العربي المنعقد في دورته ٢٥ بمدينة الأقصر ٩ مارس ١٩٩٨
- المدونة الدولية لقواعد سلوك الموظفين العموميين الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٩٦

- المؤتمر السادس للجمعية المصرية للقانون الجنائي القاهرة ٢٥٠ - ٢٨ أكتوبر ١٩٩٣ مشكلات المسؤولية الجنائية في مجال الأضرار بالبيئة. دار النهضة العربية.

- مرجع فى التعليم البيئى لمراحل التعليم العام، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: القاهرة، ١٩٧٦.

- دور الجمعيات الأهلية فى عملية تقييم الأثر البيئى فى مصر وتفعيل مشاركة الجمهور بها. أعد التقرير آمال إبراهيم صبرى مدير برنامج البيئة والتنمية ٢٨ يونيو ٢٠٠٢ - من واقع ورشة عمل عقدت فى الفترة من ٢٧ جمعية التنمية الصحية والبيئة منشورات الجمعية .

المراجع الإلكترونية:

- موقع البيئة الآن. www.eos.org.eg/public/ar-eg

- المجلة الإلكترونية للكلية الإلكترونية للجودة بدبي

http://www.etqm.net/digest/six_segma_dec2003/arabic.htm

- الموقع الإلكتروني للأيزو

<http://www.iso.ch/iso/en/ISOOnline.openpage>

- البيئة المصرية العامة للمواصفات والجودة

<http://www.iso.org/iso/home.htm>

- موقع اربيسك للترجمة، الفطرة: نموذج إسلامي للبشر والبيئة سعدية خور خان شيشتي

<http://www.arabesque-trans.com/ara/contactus.htm>

- الدليل المرجعي للشباب العربي في مجال الحفاظ على البيئة طبعة جامعة الدول العربية سبتمبر ٢٠٠٦ ونشر على الموقع: WWW.unep.org.bh. أعد الدليل: الدكتور محمد السيد جميل، خبير التربية البيئية لدى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

- الأمم المتحدة : المنتدى البيئي الوزاري العالمي ، فيفري ٢٠٠٣ ، على الموقع :
<http://www.unep.org/GC/GC22/Document/k0263639.a.doc>

- شبكة المعلومات العربية القانونية إحدى إشكاليات قانون البيئة الأستاذ /علي الشناوي

- الأصول الأيدلوجية البيئية في الإسلام موقع الشيخ محسن ال غصفور
- سلسلة كتب حابي مركز حابي للحقوق البيئية www.hcer.org
- شبكة المشكاة الاسلامية البيئة من منظور إسلامي د. الحبر يوسف نور الدائم
- شبكة المشكاة الإسلامية . فئات المجتمع ودورها في الحسبة د. إسماعيل محمد حنفي ❖ مقدمة إلى المؤتمر العلمي : الحسبة مسئولية الجميع مجمع الفقه الإسلامي
- شبكة نور الاسلام . صفحة من تاريخ الحسبة لفضيلة الشيخ / محمد بن عبد الله الدويش

- موقع مفكرة الإسلام - تلوث البيئة بين العلم والقانون د. ليلي بيومي (الإسلام أرسى قواعد حماية البيئة بينما فشلت المؤتمرات العالمية)
- موقع السفير - بوادر هجمة جديدة لسماسرة «تجارة الكريون» على دول المنطقة الانبعاثات المتقدمة من الدول المتقدمة . زينب مرعي.
- موقع التاريخ الاسلامي العدالة البيئية نظرة مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية . الأستاذة الدكتورة مشكاة المؤمن أستاذ زائر مؤسسة القانون البيئي واشنطن ووزير البيئة السابق - العراق .

المراجع الاجنبية

- The World Bank (1992) World Development Report 1992 : Development and the Environment , P.66 (OUP)
- International Soil Reference and Informational Center (ISRC) World Status of Human Induced Soil Degradation, Wageningen, Netherland, ISRC, 1990
- Jwla Riviere, Threats to the World Water, Scientific American, Vol.261, 1989
- GEMES and World Health Organization (WHO), Global Fresh Water Quality, A First Assessment, Oxford, Blackwell 1989

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الصفحة	الموضوع
٧	الباب الأول
	المقاصد الشرعية والأدوات القانونية في حماية البيئة
٩	المقدمة
	الفصل الأول
١٥	التعريف بمصطلحات عنوان البحث
١٥	المبحث الأول : مفهوم الدور
١٧	المبحث الثاني : مفهوم البيئة في اللغة والاصطلاح
٢٥	المبحث الثالث : مفهوم الحسبة
٢٦	المطلب الأول : الدلالة اللغوية لمفهوم الحسبة
٢٨	المطلب الثاني : التحليل الاصطلاحي للحسبة
٣٠	١- الحسبة علما
٣١	٢- الحسبة وظيفة وولاية
٣٤	٣- الحسبة خطة
٣٥	٤- الحسبة قاعدة شرعية
٣٧	٥- الحسبة مؤسسة
٣٩	المبحث الرابع : صلاحيات المحتسب والهيئات الحكومية التي تقابل ديوان الحسبة
٣٩	المطلب الاول : صلاحيات المحتسب في المجتمع الاسلامى
٤١	المطلب الثاني : الهيئات الحكومية التي تقابل ديوان الحسبة (البدائل العصرية وكيف غاب عنها الاحتساب)

الصفحة	الموضوع
٤٣	المبحث الخامس : صيانة الحسبة والمفاهيم المرتبطة بها
٤٣	المطلب الاول: صيانة الحسبة ودرء الشبهات عنها
٤٥	١- الحسبة والديمقراطية
٤٦	٢- الحسبة والضبط الادارى
٤٨	٣- الحسبة ونظام النيابة العامة
٤٩	٤- القضاء الإداري والحسبة
٤٩	٥- الحسبة ونظام لامبودسمان Omboudsman أو المفوض البرلماني
٥٢	٦- الحسبة ونظام المدعى العام الاشتراكى
٥٣	المطلب الثانى : مفاهيم أساسية فى موضوع الحسبة
٥٣	١- بدأت الحسبة تطوعية
٥٦	٢- التنظيم لا يدفع أصل التكاليف ولا يلغيه
٥٧	٣- الحسبة مثل اى نظام مر عليها الضعف والقوة
٥٨	٤- قاعدتها مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
٦٠	٥- تعنى العمل الضالح والإنكار التعريف المختار للحسبة
	الفصل الثانى
٦٣	مقصد حفظ الكون وأثره فى الحفظ المطلوب
٦٣	المبحث الاول : أدلة المقصد أهمية معرفة الرجل العادي بمقصد حفظ الكون
٧٧	المبحث الثانى : تحقيق معنى حفظ المقصد
٨٥	المبحث الثالث : القواعد المستخلصة من مقصد حفظ الكون

الصفحة	الموضوع
٩١	الفصل الثالث
	جدوى الأدوات القانونية الدولية لحماية البيئة
٩٢	المبحث الاول : بورصة الكربون
١٠١	المبحث الثانى : الجودة والايزو ١٤٠٠١ للإدارة البيئية
١١١	المبحث الثالث : تحليل وتفكيك نظام الجودة ومواصفات الايزو
١١٧	المبحث الرابع : التأصيل الشرعى لمفهوم الجودة
١٢٧	الباب الثانى
	مجالات الاحتساب
١٢٩	الفصل الاول : الاحتساب في نشر الوعي البيئى
١٤٥	الفصل الثانى : الاحتساب في تفعيل القوانين البيئية
٢٠٣	الفصل الثالث : الاحتساب في طلب العلوم البيئية
٢١٩	الفصل الرابع : الاحتساب في بيئة العمل
٢١٨	الفصل الخامس : الاحتساب في مواجهة الكوارث البيئية
٢٩٣	الفصل السادس : الاحتساب في البيئة الاجتماعية
٣١٩	الباب الثالث
	الحماية البيئية بين الواقع والمأمول
٣٢١	الفصل الأول : المبادئ البيئية وتأصيلها الشرعى
٣٢١	مبحث تمهيدى
٣٢١	المبحث الاول : مبدأ التنمية المستدامة
٣٣٩	المبحث الثانى : مبدأ الملوث يدفع

٣٤٣	المبحث الثالث : مبدأ الحيطة
٣٤٦	المبحث الرابع : مبدأ العدل البيئي
٣٥٣	المبحث الخامس : مبادئ أخرى متفرقة المطلب الاول : مبدأ الحق فى بيئة نظيفة المطلب الثانى : مبدأ الحق فى المعرفة
٣٦٠	المبحث السادس : المبدأ الاسلامى العام لإصحاح البيئة (لا ضرر ولا ضرار)
٣٦٥	الفصل الثانى الكون المنظور والحفظ المطلوب
٣٦٦	المبحث الاول : الهواء والحفظ المطلوب
٣٩٤	المبحث الثانى : الماء والحفظ المطلوب
٤١٨	المبحث الثالث : الأرض والحفظ المطلوب
٤٣٩	الفصل الثالث الجمال معيارية بيئية غائبة
٤٤٠	المبحث الاول : الرؤية الفلسفية للجمال
٤٤١	المبحث الثانى : نظرة فقهاء المسلمين للجمال
٤٤٨	المبحث الثالث : التربية الجمالية فى القرآن
٤٥١	المبحث الرابع : التشريعات والمنظر الجمالى
٤٥٣	الخاتمة والتوصيات
٤٤٥	المراجع
٤٧١	فهرس الموضوعات

